أبحـــاث

مجلة علمية محكمة نصف سنوية

تصدر عن كلية التربية بالحديدة – جامعة الحديدة

العدد السادس - شوال ١٤٣٧هـ - يونيو ٢٠١٦م

أبحـــــاث

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدر عن كلية التربية بالحديدة – جامعة الحديدة .

الأهداف :

نشر الأبحاث الإنسانية والعلمية المحكمة للباحثين من اليمن والوطن العربي باللغتين العربية والإنجليزية وملخصات رسائل الماجستير والدكتوراه المجازة من الجامعة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر بعد مراجعتها.

ما ينشر في المجلة يعبر عن الباحثين ولا يعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة التحرير .

حقوق الطبع محفوظة لكلية التربية بالحديدة – جامعة الحديدة.
ولا يجوز نسخ المجلة لأغراض تجارية .

رقم الإيداع بدار الكتب في صنعاء ٢٠١ / ٢٠١٤م

توجه المراسلات باسم رئيس التحرير

العنوان : مجلة أبحـــــــاث
الجمهورية اليمنية – جامعة الحديدة – كلية التربية .
هاتف (٧٧٧٢٠٥٧١٠ – ٧٣٤٤٢٤٩٣٦) **ص.ب (٣١١٤)**

Email: edu.h.jour@gmail.com

تمت الطباعة والإخراج بواسطة / الحكيمي للطباعة والنشر :
الحديدة شارع زايد تلفون: ٧٧٧٤٧٩٥٩٦ ٩٦٧+

أبحـــــــاث

مجلة علمية محكمة نصف سنوية

تصدر عن كلية التربية بالحديدة – جامعة الحديدة

رئيس التحرير

أ.د. حسن عمر المطري

نائب رئيس التحرير

أ.د. بدر اسماعيل عبدالرزاق

مدير التحرير

د. فيصل صيفان علي

نائب عميد الكلية للدراسات العليا

نائب مدير التحرير

د. محضار أحمد حسن الشهاري

نائب عميد الكلية لشؤون خدمة المجتمع

هيئة التحرير

د. محمد بلغيث

د. يوسف العجيلي

د. خالد الأغبري

استشارية التحرير

أ.د. عبدالعزيز المقالح	أ.د. إبراهيـــم القريـــبي
أ.د.أحمد عبدالله حمادي	أ. د. عبده يحيـى هديش
أ.د. إبراهيم عمر حجري	أ.د. رضوان الشيباني

سكرتارية التحرير

د. أحمد مذكور	الدراسات الإنسانية
د. مفيد عبـادي	الدراسات العلمية
د. سالم الوصابي	النشر الإلكتروني

التصميم والإخراج

د. محضار أحمد حسن الشهاري

الطباعة والتنسيق

أ.فاطمة القبيصي

أبحـــــاث

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدر عن كلية التربية بالحديدة .

- **تهدف المجلة إلى نشر المواد العلمية والإنسانية في المجالات الأتية :**

١- البحوث الإنسانية والعلمية باللغتين العربية والإنجليزية .
٢- عرض ومراجعة الكتب باللغتين العربية الإنجليزية .
٣- ملخصات الرسائل الجامعية التي تم إجازتها من الجامعة أو خارجها باللغتين العربية والإنجليزية .
٤- التقارير العلمية عن المؤتمرات المحلية والعربية والأجنبية .

قواعد النشر في المجلة :

- أن يكون البحث جديداً ولم يسبق نشره في أي وسيلة أخرى أو لم يقبل للنشر .
- أن يمثل إضافة علمية سواء كانت نظرية أو تطبيقية .
- الجودة في الفكرة والأسلوب والنهج والتوثيق العلمي و الخلو من الأخطاء العلمية واللغوية والنحوية .
- الإسهام في تنمية الفكر العلمي والتربوي وتطبيقاته محلياً وعربياً وعالمياً.
- يقدم الباحث ثلاث نسخ ورقية وقرص CD في برنامج (Word) مدون عليه عنوان البحث والملخص بالعربي والانجليزي واسم الباحث (أو الباحثين) كاملاً ودرجته العلمية ووظيفته الحالية وعنوانه وتلفونه وبريده الإلكتروني .
- أن يتبع الباحث آليات وأساليب البحث العلمي المتعارف عليها (مقدمة – مشكلة – منهج البحث – نتائج البحث والمناقشة - المراجع – الملاحق- ترقيم الجداول والاشكال والصور .
- أن يكتب البحث بخط النسخ على ورق B5 (١٧.٥ x ٢٥ سم) مع ترك هامش ١.٥ سم من جميع الجهات، ومسافة ١.١٥ بين الأسطر وتكون العناوين الجانبية بخط بارز .
- أن تكون الرسومات والجداول والأشكال والصور والحواشي (إن وجدت) معده بطريقة جيدة.
- أن لا يتجاوز البحث عن (٣٠) صفحة ورقة ، وما زاد عن ذلك تدفع رسوم إضافية(٥٠٠) ريال عن كل صفحة .
- يقدم ملخص لا يزيد عن (١٥٠) كلمة في صفحة واحدة.
- يقدم الباحث تعهد بعدم نشر البحث في مجلة أخرى .
- يقدم الباحث سيرته الذاتية .
- يحصل الباحث على نسخة من المجلة التي نشر فيها بحثه .
- الباحث مسؤول عن صحة ودقة النتائج والبيانات والاستنتاجات الواردة في البحث .
- تخضع البحوث المقدمة للنشر للتحكيم العلمي بطريقة سرية .
- الأبحاث لا تعاد لأصحابها سواءً قبلت للنشر أو لم تقبل .
- رسوم النشر لا تعاد سواء تم قبول البحث للنشر أو لم يقبل .

التبادل والإهداءات : توجه الطلبات باسم رئيس التحرير .

محتويات العدد

عنوان البحث	الباحث	الصفحة
منهج الشريعة الإسلامية في الحد من جرائم البيئة	د. علي بهلول علي أحمد بهلول	١
الأحاديث الواردة في اعتبار الكفاءة في الدِّين والخُلق في النكاح جمعا ودراسة حديثية	د. ساعد سعيد الصاعدي	٣٥
من صور الإعجاز العلمي للسواك في السنة النبوية	د. عبد الله بن محمد بن منصور آل الشيخ	٦٣
الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الأسرة	د. أحمد إبراهيم يحيى يابس	٩٩
الوحدة الموضوعية في سورة العلق	نبيلة بنت حسن بن محمد تركي	١٢١
تقييد الجواز في البيوع دراسة إجرائية على مسألة البيع من الوالد لولده	د. عبد الولي بن عبد الواحد لطف الشلفي	١٥٧
حديث المُحْرِم الذي وقصته ناقته فمات دراسة حديثية فقهية	د. مشعل بن حميد اللهيبي	١٨٩
آليات نَحْوِ النص في شروح الشواهد النحوية	د. يوسف حسن حسن العجيلي	٢٢٩
نشأة القهوة العربية وانتشار زراعة البن في اليمن ما بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلادي	د. عبدالودود قاسم حسن مقشر	٢٤٥
مدى اكتساب الطالب المعلم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه	د. عبده علي محمد الهتاري	٢٩١
براعة الاستهلال في القرآن الكريم	د. علي مناور ردة الجهني	٣٢١
Non-destructive Micro-charatrazition of Gamma Irradiation Effects on Borosilicate Glass BaO-2B2O3-3SiO2 by Acoustic Signature	Dr. Ibrahim Hamid Qassem AL-Suraihy	1
The Portrayal of Female Characters in Dickens' Novels Oliver Twist and Great Expectations	Dr. Iman Ahmed Ali Aldukhina	33

منهج الشريعة الإسلامية في الحد من جرائم البيئة

د.علي بهلول علي أحمد بهلول
أستاذ الفكر الإسلامي وعلوم القرآن المشارك
كلية التربية - جامعة الحديدة

المقدمـــة

الحمد لله القائل جلّ جلاله في محكم كتابه الخاتم:(.. وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)(القصص/٧٧)، وأزكى الصلاة وأتم السلام على سيدنا محمد الذي قرر علاقة الحب والود بين الإنسان والبيئة في أضخم و أخشن عناصرها، بقوله r : (..هذا أُحُد جبل.. يحبنا ونحبه)[1]. ..ثم أما بعد..

فقد أفرز عصر التقانة، والتقدم العلمي، والتطور التكنولوجي الذي نعيشه عدداً من الجرائم المستحدثة التي لم تكن معروفة من قبل، أهمها على الإطلاق بل أعظمها، وأعمقها، وأبلغها ، وأشدها (قل ما شئت) تأثيراً ، الجريمة البيئية، (طاعون العصر) الذي لا ينذر أثره بفناء الجنس البشري فقط ، بل ينذر بفناء كل الكائنات وانتهاء الحياة على الأرض ؛ فالجريمة البيئية عالمية التأثير ، والفساد الذي تحدثه لا يعرف الحدود .

من أجل ذلك (وخلال العقود الثلاثة الماضية فقط) تعالت الأصوات المطالبة بحماية البيئة ووقف جميع أشكال الاعتداء عليها ، وعقدت العديد من المؤتمرات والندوات ، وسنت الكثير من القوانين والتشريعات ، وتكونت الهيئات والمنظمات والجمعيات الرسمية والشعبية ، بل وأنشئت واستحدثت حتى الوزارات.

وانطلاقاً من نجاح الشريعة الإسلامية في الحد من الجرائم المعروفة بمختلف أنواعها (كالقتل ، والسرقة ، و...الخ) ، والذي يشهد له انخفاض معدلات الجريمة في مختلف الدول العربية والإسلامية مقارنة بغيرها من الدول.

وإيماناً بما تتمتع به الشريعة الإسلامية الخاتمة(التي جاءت مصدقة لما بين يديها من شرائع الله المنزلة ، ومهيمنة عليها) من المزايا المتكاملة ، والمبادئ السامية ، والقواعد الرصينة ، ولما يتوفر لمضامينها السمحاء من الإمكانات ، وما تتميز به من الكمال والشمول، وصلاحيتها لكل زمان ومكان ، وقدرتها على مواكبة حركة الحياة المتغيرة ، والمتجددة.

راح البحث الراهن يستجلي مضامين هذه الشريعة الغراء ، وينعم النظر في تعاليمها بهدف استخلاص منهج عملي في التطبيق ، فعال في الأثر ، يخلص العالم من الجرائم البيئية المستحدثة ، وينفي آثرها الذي أضحى هماً يؤرق البشرية في كافة أرجاء المعمورة.

---

(1) متفق عليه: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري - صحيح البخاري ط/دار الغد الجديد-المنصورة: (د.ت) - كتاب/ استتابة المرتدين- باب/٤- رقم/٦٩٢٧- ص:١٢٩٢.، والإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري - صحيح مسلم- ط/ مؤسسة المختار - القاهرة- مصر٢٠٠٥م - كتاب/البر والصلة- باب/٢٣- رقم/٢٥٩٣- ص:١٠٨٨.

لاسيما وأن الشريعة الإسلامية كما يقرر الفقهاء والأصوليون من خلال استقرائهم لتكاليفها، وأوامرها ونواهيها ، في العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق ، في الأصول والفروع ، آخذين بعين الاعتبار مراتب الحكم الشرعي في الفعل والكف ،أوفي الأمر والنهي (يقررون) أن الشريعة الإسلامية إنما جاءت لإقامة وتحقيق مصالح الناس في دنياهم وآخرتهم وما يفضي إليها، أي: أنها تتمحور حول جلب المصالح ودرء المفاسد.

ولا جرم في أن هذه المصالح لا تتحقق ، والمفاسد لا تدرأ إلا بأمرين:

أحدهما: حفظ البيئة (الأرض) صالحة كما خلقها الله ؛ ذلك أن من بين المقاصد الكلية الضرورية التي دل الشرع الإسلامي على حفظها واعتبارها ، الحفاظ على سلامة البيئة من كل ما يلوثها فيفسدها[1]؛و(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا)(الأعراف/٥٦،٨٥)؛ حتى يتحقق الاستخلاف الذي وجد الإنسان من أجله(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة/٣٠).

الآخر: حفظ الضروريات الخمس ؛ ذلك أن مقصود الشريعة الإسلامية من الخلق ، أن تحفظ عليهم: دينهم ، وأنفسهم ، وعقولهم ، وأنسابهم ، وأعراضهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة، ودفعها مصلحة[2]، ولا ريب في أن إفساد البيئة وتلويثها واستنزاف مواردها والإخلال بتوازنها من أهم ما يفوت هذه الأصول الخمسة ، ويضيع هذه المقاصد ، ويجني على هذه الضروريات كلها.

جاء في تفسير صاحب البحر المحيط لقول الله تعالى:(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) (الأعراف/٥٦،٨٥)، ما نصه:«هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض ، وإدخال ماهيته الوجود، فيتعلق بإفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان(وهي الضروريات الخمس).

ومعنى بعد إصلاحها:بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين. وما روي عن المفسرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل ؛ إذ ادّعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه » [3].

وعلى وجه عام فإن البحث يهدف إلى الكشف عن منهج الشريعة الإسلامية في الحد من جرائم البيئة ، باستخدام المنهج الوصفي التحليلي ، معتمداً على أمهات المصادر في التفسير، والحديث بشروحه ، والفقه وأصوله ، والكتب والمراجع ذات العلاقة.

و قد اقتضت طبيعة الموضوع والمنهج المتبع في بحثه تقسيم البحث إلى مقدمة ، ومبحثين ، وخاتمة:

- احتوت المقدمة على فكرة الموضوع ، وأهميته ، ومنهج بحثه .

---

(1) ينظر: الدكتور بركات محمد مراد- الإسلام والبيئة رؤية حضارية- ط/١ - دار القاهرة - القاهرة - مصر ٢٠٠٣م:٣،٤.

(2) الإمام الغزالي-المستصفى-تحقيق/عبد السلام عبد الشافي-ط/١-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان ١٤١٣ه :١٧٤.

(3) الإمام أبو حيان الأندلسي-البحر المحيط-تحقيق/عادل أحمد عبد الجواد ، وغيره-ط/دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان ٢٠٠١م: ٣١٣/٤.

ـ واشتمل المبحث الأول على مصطلحات البحث ، وجاء في أربعة مطالب: المطلب الأول: المنهج ، المطلب الثاني: الشريعة الإسلامية ، المطلب الثالث:الجريمة ، المطلب الرابع: البيئة .

ـ أما المبحث الثاني فتضمن منهج الشريعة الإسلامية في الحد من جرائم البيئة ، وتوزع على أربعة مطالب هي:

المطلب الأول: تحديد رؤية واضحة لطبيعة البيئة والسلوك البيئي السوي إزاءها .

المطلب الثاني: تأطير علاقة الإنسان بالبيئة ، وتحقيق التوحد والتناغم والوفاق بينهما.

المطلب الثالث: بناء الفرد الصالح المحصن ضد الجريمة البيئية.

المطلب الرابع: إرساء مبدأ المسؤولية ، وتفعيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الخامس: إرساء قاعدة (لا ضرر ولا ضرار) ، وتجريم الإفساد البيئي.

المطلب السادس :ضبط قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) ، وتشريع عقوبة الإفساد البيئي .

ـ فيما تضمنت الخاتمة خلاصة البحث وأهم نتائجه وتوصياته.

وقد وضع الباحث في آخر البحث قائمة ضمنها المصادر والمرجع التي اعتمد عليها في البحث.

نسأل الله التوفيق والسداد وأن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم وذخراً لنا ولوالدينا في الدارين آمين اللهم آمين

المبحث الأول
مصطلحـات البحث
المطلب الأول
المنهج

المنهج في اللغة: أصله من الجذر(نهج)، وهو الطريق البين الواضح ، ويطلق على الطريق المستقيم ، تقول : نهج ينهج نهجاً، وأنهج الطريق: وضح واستبان ، وصار نهجاً واضحاً بيناً ، واستنهج الطريق: صار نهجاً ، والمنهج :النظام والخطة المرسومة للشيء[١].

وكيفما تصرفت اللفظة فإنها تدل على الطريق الواضح البين الذي يوصل إلى الغاية المقصودة بسهولة ويسر ، كما يتضمن معنى الإسراع في الطريق لوضوحها ، أو في إنجاز العمل لوضوح طريقته[٢].

والمنهج والمنهاج بمعنى واحد ، ومنه قوله تعالى: **(**لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**)** (المائدة/٤٨) ، أي:طريقاً واضحاً سهلاً ، قال ابن كثير في تفسيره:«أما المنهاج ، فهو الطريق الواضح السهل» [٣].

أما في الاصطلاح: فجميع التعريفات الاصطلاحية للمنهج لا تخرج في معناها العام عن كونه وسيلة لتحقيق هدف معين بطريقة محددة.

فالمنهج اصطلاحاً : هو الطريق الواضح الذي يؤدي إلى التعرف على الحقيقة بواسطة عدد من القواعد العامة التي تهيمن على سير عمل العقل ؛ فتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة [٤]. والمنهج بالمعنى العلمي:«مجموعة من الإجراءات التي ينبغي اتخاذها بترتيب معين لبلوغ هدف معين»[٥].

المطلب الثاني
الشريعة الإسلامية

الشريعة في اللغة من الثلاثي (شرع)، وتعني البيان والإظهار ، ومنه قوله تعالى:(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ) (الشورى/١٣)أي:أظهر وبين ، وشرع الدين يشرعه شرعاً: سنه ، والشريعة والشرعة:ما سن الله من الدين وأمر به ، ومنه قوله تعالى:(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) (المائدة/٤٨)، قيل:الشرعة:الدين ، والمنهاج: الطريق، وقيل الشرعة والمنهاج جميعاً: الطريق ويقال: شرع الله كذا:أي جعله طريقاً ومذهباً[٦].

---

[١] ينظر: محمد بن مرتضى الزبيدي- تاج العروس من جواهر القاموس- تحقيق/ علي شيري- ط/دارالفكر- بيروت - لبنان ١٩٩٤م – باب/الجيم – فصل/ النون مع الجيم : ٥٠٤/٣.

[٢] ينظر: الدكتور فتحي حسن ملكاوي- التفكير المنهجي وضروراته- مجلة إسلامية المعرفة-العدد/٢٨-المعهد العالمي للفكر الإسلامي- هيرندن - فرجينيا- أمريكا- السنة/٧- ربيع٢٠٠٢م:١٦.

[٣] الحافظ ابن كثير- تفسير القرآن العظيم- ط/١- دار الغد الجديد المنصورة- مصر٢٠٠٥م:٦٣/٢.

[٤] ينظر: عبد الرحمن بدوي- مناهج البحث العلمي- ط/دار النهضة- القاهرة – مصر(د.ت):٥.

[٥] المرجع نفسه:٢٤.

[٦] ينظر: ابن منظور- لسان العرب- ط/١-دارصادر-بيروت– لبنان:١٩٩٥م-مادة(شرع):١٧٦،١٧٥/٨.

وفي الاصطلاح ، يعرفها الجرجاني بقوله:«الشريعة هي الائتمار بالتزام العبودية ، وقيل:هي الطريق في الدين»[١].أما الدين الذي نحن بصدده هنا وهو الإسلام ، فيعني: الاستسلام والخضوع لله تعالى ، ومظهره الانقياد لشرعه[٢].

ويعرف بأنه:« النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة ومناهج السلوك للإنسان ، التي جاء بها محمد r من ربه ، وأمر بتبليغها للناس، وما يترتب على إتباعها أو مخالفتها من ثواب أو عقاب»[٣].

المطلب الثالث

الجريمة

جاء في لسان العرب ما نصه:« الجُرْمُ: التعدي ، والجرم: الذنب ، والجمع :أجرام وجُروم ، وهو الجريمة ، والجارم: الجاني ، والمجرم : المذنب»[٤].« والجريمة انحراف في عرف الشريعة الإسلامية، وكذلك في القانون الوصفي»[٥].

وقد عرف (الماوردي) الجرائم بأنها:« محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد أو تعزير»[٦] ، وإن كان مجرد تعدي حدود الله تعالى، واقتراف الذنب يعد جريمة في عرف الشريعة الإسلامية ؛ لأنه انحراف عن النظام العام والقانون الشامل ومناهج السلوك للإنسان ، والتي جاء بها محمد r من ربه عزّ وجل ، وأمر بتبليغها للناس.

المطلب الرابع

البيئة

البيئة لغة:عبارة عن المكان والمنزل، تقول:أباءه منزلاً،وبوأه إياه، وبوأه فيه بمعنى:هيأه له وأنزله ومكن له فيه، واستباءه أي: اتخذه مباءة ، والبيئة والباءة والمباءة: المنزل[٧].

أما في الاصطلاح ، فقد عرفت البيئة بتعريفات كثيرة ، أشهرها[٨]:

- البيئة: هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ، ويؤثر فيه ويتأثر به.
- البيئة: هي الوسط أو المحيط الذي تعيش فيه الكائنات الحية ، وتحصل منه على مقومات حياتها ، وتمارس فيه علاقاتها ، وتؤدي فيه نشاطها.
- البيئة: هي مجموعة من النظم الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الأخرى، والتي يستمدون منها زادهم ، ويؤدون فيها نشاطهم.

---

(١) علي بن محمد الجرجاني- التعريفات- تحقيق إبراهيم الإبياري- ط/١- دار الكتاب العربي- بيروت - لبنان ١٤٠٥هـ:١٦٧/١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه:٣٩/١.، والمصدر السابق:٢٩٣/١٢،٢٩٤.

(٣) الدكتور عبد الكريم زيدان – أصول الدعوة- ط/٩ – مؤسسة الرسالة – بيروت- لبنان٢٠٠٢م:١٠.

(٤) ابن منظور - لسان العرب:٩١/١٢.

(٥) الدكتور صالح بن إبراهيم الصنيع- التدين علاج الجريمة- ط/١- مكتبة الرشيد- الرياض السعودية ١٩٩٨م:١٤٩.

(٦) الأحكام السلطانية والولايات الدينية- لعلي بن محمد الماوردي- ط/١- دار الفكر-القاهرة١٤٠٤هـ:١٨٩.

(٧) ينظر:ابن منظور- لسان العرب – مادة(باء) :٣٨،٣٩/١.

(٨) ينظر على سبيل المثال: الدكتور غازي محمد- المدخل إلى علم البيئة- ط/٣- جمعية عمال المطابع التعاونية -عمان- الأردن١٩٩٠م:١٧.،والدكتور إبراهيم سليمان - تلوث البيئة أهم قضايا العصر. المشكلة والحل- ط/دار الكتاب الحديث- القاهرة - مصر٢٠٠٢م:١٨.

« فالبيئة كمفهوم عام هي الإطار أو الظروف المحيطة التي تؤثر في حياة الكائنات الحية ونموها ، وتحصل منها على المقـومات الأساسية لحياتها ، ويأتي الإنسان على رأس هذه الكائنات الحية ، كما تشمل أيضا علاقة الإنسان بالإنسان ، والتي تنظمها المؤسسات الاجتماعية ، والعادات ، والأخلاق ، والقيم ، والأديان»[١].

ويذكر الفقي:أن علماء المسلمين قد استخدموا كلمة«البيئة»استخداماً اصطلاحياً منذ القرن الثالث الهجري ، وأن « ابن عبد ربه»- صاحب العقد الفريد- ربما يكون هو أقدم من نجد عنده المعنى الاصطلاحي للكلمة في كتابه «الجمانة» ، أي: للإشارة إلى الوسط الطبيعي(الجغرافي، والمكاني، والأحيائي) الذي يعيش فيه الكائن الحي ، بما في ذلك الإنسان، بالإضافة إلى المناخ الاجتماعي(السياسي ، والأخلاقي ، والفكري)المحيط بالإنسان[٢].

والذي يمعن النظر في القرآن الكريم ، يجد أن إحدى آياته قد أعطتنا(هذا)المفهوم الشامل للبيئة ، قال تعالى:(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)(طه/٦)؛ فمن ضمن ما تعني هذه الآية: شمولية المعنى والحصر لمكونات أي بيئة ؛ حيث:السماوات وما فيها من أشياء وموجودات لا يحيط بعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ، ثم الأرض وما فيها من عناصر(طبيعة سطح الأرض التي تكون مع العامل المناخي البيئة الطبيعية ، الإنسان وسائر الكائنات الحية ، والمكونات العمرانية)البيئة العمرانية التي هي من صنع الإنسان ، أما قوله تعالى:(وَمَا بَيْنَهُمَا)،أي:السماوات والأرض ، فنستدل منها على المؤثرات الطبيعية والجغرافية والمناخية ، التي تشمل:الشمس ، الرياح ..إلخ ، ونستدل من قوله تعالى:(وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) على المكونات الموجودة في باطن الأرض سواء كانت (مكونات جيولوجية ، أو خامات معدنية وثروات طبيعية ، أو مياهاً جوفية)[٣].

(١) الدكتور يحي وزيري- العمارة الإسلامية والبيئة.الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي- سلسلة عالم المعرفة- العدد/٣٠٤- الكويت- يونيو ٢٠٠٤م:٧.

(٢) ينظر: محمد عبد القادر الفقي-البيئة. مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث-ط/الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- مصر ١٩٩م:١٣.-نقلاً عن المرجع نفسه: ٢٧،٢٨.

(٣) ينظر: جازم إبراهيم- الخواطر القرآنية وشمولية الحصر- مجلة عالم البناء- عدد/ يوليو- القاهرة- مصر ١٩٨٥م :٢٧،٢٦- نقلاً عن المرجع السابق:٢٨.

المبحث الثاني
منهج الشريعة الإسلامية في الحد من جرائم البيئة

المطلب الأول
تحديد رؤية واضحة لطبيعة البيئة
و
السلوك البيئي السوي

الجريمة البيئية في شريعة الإسلام سلوك منحرف أساسه تصور معرفي منحرف و غير سليم ؛ قال تعالى في حق المنافقين: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) (البقرة/١١،١٢).

ذكر الإمام القرطبي[١]في تفسير قوله تعالى: (لا تُفْسِدُوا)لا: ناهية ، والفساد ضد الصلاح ، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها ، وقوله تعالى: (قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) وإنما قالوا ذلك على ظنهم ؛ لأن إفسادهم عندهم صلاح ، وقوله تعالى: (وَلَكِنْ لا يَشْعُرُون) أن يكون فسادهم في ظنهم صلاحاً وهم لايشعرون أن ذلك فساد.

« لذا فإن السلوك الإجرامي والمنحرف ينشأ من الخطأ في التصور والوهم في التفكير ، وهذا من شأنه قلب الحقائق ـ أي رؤية الأمور على خلاف صورتها ـ ..الذي ينجم عنه اضطراب في النفس وانحراف في التفكير يفضي إلى اقتراف الجرائم دون شعور أو إحساس من مقترفيها بالذنب أو الندم؛ لظنهم أن ما قاموا به من سلوك لا يتنافى مع المنطق والأخلاق وأنه طبعي ومشروع»[٢].

من هنا حرصت شريعة الإسلام في سبيل الحد من جرائم البيئة على أن توصف رؤية واضحة لطبيعة البيئة ، والسلوك البيئي السوي الذي يلائم تلك الطبيعة ، وأهم معالم تلك الروية وذلك التوصيف:

أولاً ، وثانياً: إن البيئة قائمة على التوازن والتكامل والتعاون؛ ذلك أن الله تعالى(خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)(الفرقان/٢)، « وتصريح القرآن بتعميم التقدير على كل آحاد الكون يغني عن التفصيل ، فلا شيء يشذ عن هذا التقدير حتى الورقة التي تسقط من شجرتها»[٣]. فالبيئة الطبيعية بجميع عناصرها ومواردها قائمة على التوازن ينطبق عليها القانون الرباني العام المنضبط بسنة الحدود والمقادير المتزنة[٤]،(إِنَّاكُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)(القمر/٤٩)،(وَالأَرْضَ

(١) ينظر:الجامع لأحكام القرآن-ط/دار الشعب- القاهرة –مصر١٣٧٢ه:٢٠٢-٢٠٤.

(٢) الدكتور محمد شلال العاني-عولمة الجريمة رؤية إسلامية في الوقاية-كتاب الأمة-العدد/١٠٧-ط/١-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –قطر-يوليو٢٠٠٥م:٤٣.

(٣) محمد عبد القادر الفقي- التوازن البيئي والنواميس- مجلة منار الإسلام- العدد/- - - ذوالقعدة١٤٢٥ه:٨٠.

(٤) الدكتور محمد الفرفور- الوسطية في الإسلام- ط/١- دار النفائس- بيروت- لبنان١٩٩٣م:٣٥،٣٦.

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) (الحجر/١٩)،«بميزان الحكمة ذاتاً، وصفة، ومقداراً»[١]، « لايصلح فيه زيادة أو نقصان»[٢].

وهذا يقتضي بالضرورة أن يكون التعامل مع البيئة في إطار التوازن ؛ لئلا يحدث الخلل والاضطراب ، ولكون البيئة قائمة على التوازن ؛ فإن هذا يعني أن الله تعالى قد خلقها بجوانبها المختلفة بطريقة تفرض عليها أن تتكامل ، وتتعاون ، وتتفاعل مع بعضها البعض وفق سنن الله تعالى في الخلق.

الأمر الذي يفرض على الإنسان العمل على أن يؤدي كل مكون من مكونات البيئة دوره المنوط به بما يحقق التوازن الطبيعي ، فيتيح لكل شيء في البيئة أن يبلغ كماله المقدر لنوعه، وأن يجنبه الآفات التي تعوق مسيرته أو تفسد عليه وظيفته؛(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)(الطلاق/٣).

ولذلك توجهت شريعة الإسلام صوب الإنسان:

١- تنهاه إجمالاً عن الانحراف عن الميزان الكوني الذي أقام الله تعالى البيئة عليه ، وتأمره بالتزامه في التعامل مع دون إفراط أو تفريط ؛ بقوله تعالى(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)(الرحمن/٥-٩) .

يقول الدكتور يوسف القرضاوي:«هذه الآيات من أجلى الآيات وأظهرها دلالة على أن كل شيء في هذا الكون الكبير مخلوق بمقدار وميزان..، فأشارت هذه الآيات إلى الميزان الكوني الذي قرنه الله برفع السماء ، ولا يظن ظان أن هذا الميزان هو الذي توزن به الأشياء المشتراه من السوق ؛ فهذا يقرن بالكيل ، ولا يقرن برفع السماء . وأمرت الآية بإقامة الوزن بالقسط ، أي: العدل ، ونهت عن (الطغيان) في الميزان ، وهو الإسراف والإفراط ، كما نهت عن(الإخسار) في الميزان ، وهو التقصير والتفريط . وموجب ذلك الوقوف عند حد الوسط والاعتدال. وهو ما تميزت به هذه الأمة(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)(البقرة/١٤٣). وإن الفساد إنما يحدث في الأرض بتجاوز العدل أو القسط ، والانحراف إلى الطغيان أو الإخسار. وأن الخير كل الخير في إقامة الوزن بالقسط في كل شيء...، وكذا يطلب القسط في تعامل الإنسان مع البيئة بعناصرها المختلفة بلا طغيان ولا إخسار في الميزان، أي: بلا إفراط ولا تفريط. وهذا هو العدل والاعتدال ؛ فإذا خرج الإنسان عن هذا الحد ، فطغى في الميزان أو أخسر فيه ، فقد أساء وتعدى ، فإذا استمر في ذلك ، ولم يراجع نفسه، ويثب إلى رشده ، ويتب إلى ربه ؛ فقد استحق عقوبة الله تعالى ، وكان تجاوزه ذلك سبباً في ظهور الفساد في البر والبحر»[٣].

---

(١) الإمام أبو السعود-إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم-ط/دار الفكر-بيروت- لبنان:(د.ت):٣/٢٢٠.

(٢)الإمام الزمخشري-الكشاف عن حقائق التنزيل في التأويل- ط/مكتبة مص- القاهرة- مصر:(د.ت): ٢/٥٥٥.، وينظر: الإمام أبو البركات النسفي-مدارك التنزيل وحقائق التأويل- تحقيق/سيد زكريا- ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة- السعودية٢٠٠٠م: ٢/٥٦٦.

(٣) الدكتور يوسف القرضاوي- رعاية البيئة في شريعة الإسلام- ط/١-دار الشروق- القاهرة- مصر ٢٠٠١م : ٣٠.- بتصرف يسير:٢٢٨-٢٣٠.

٢- توصف للإنسان(فيما لا حصر له من الآيات والأحاديث) أنماط السلوك البيئي السوي الذي يحقق التوازن البيئي أو يكفل المحافظة على التوازن البيئي؛ كـ :

أ- الاقتصاد وعدم الإسراف والتبذير في استهلاك الموارد[١]، حتى وإن كان لغرض شرعي كالوضوء ، وكان الاغتراف من نهر جار[٢].

ب- عدم العبث بموارد وعناصر البيئة وإتلافها[٣]حتى في حال القتال والحرب[٤].

ج- ناهيك عن تنمية المساحات الخضراء بالزرع والغرس ، ومنح الأرض لمن يزرعها ولو دون مقابل[٥].

د- إحياء الأرض الموات وتثمير مواردها وثرواتها... [٦] .

إن التوازن والتكامل والتعاون في شريعة الإسلام هو جوهر كينونة البيئة وصيرورتها على الدوام قادرة على التجدد والنمو باستمرار ، وهو إنما يختل بتدخل الإنسان غير المسؤول، وعمله غير المحسوب ، وغير المشروع ، وتغييره لفطرة الله تعالى في نفسه وفي الكون من حوله ، ومجاوزته لحده في التعامل مع المخلوقات الأخرى[٧]؛(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم/٤١).

ثالثاً: إن البيئة مفطورة على الصلاح

وفقاً لما قررته آية سورة الروم السابقة من أن كل فساد يحيق بالبيئة أو يطرأ عليها إنما هو من عمل الإنسان وصنع يده ؛ فالبيئة قد خلقت في منتهى الصلاح.

وهذا يقتضي بالضرورة أن يكون تعامل الإنسان مع البيئة في إطار:

---

(١) كما في قوله تعالى:(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)(الأعراف/٣١،وقوله r :(كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة).-الإمام محمد بن إسماعيل البخاري-صحيح البخاري-:- كتاب/ اللباس- باب/١- ص:١١٠٩.

(٢) يراجع- الإمام محمد بن يزيد القزويني-سنن ابن ماجه- تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي- ط/دار الفكر- بيروت- لبنان(د.ت):- كتاب/ الطهارة- باب/ ما جاء في القصد في الوضوء- رقم/٤٢٥-ص:١٤٧/١.

(٣) يراجع على سبيل المثال لا الحصر: الأحاديث التي تنهى عن: وسم الحيوان بالنار وضربه على وجه أوقتله وذبحه لغيرمأكله،والتحريش بين البهائم،وصبرها بحبسها وهي حية حتى تقتل،أواتخاذهاهدفايصوب إليه وصيدها بالحصى ونحوه، أو عقر البعير أو الشاة بضرب قوائمه بالسيف وهو قائم، وعقر النخل بقطع رؤوسها فتيبس ... إلخ تلك الأحاديث الصحيحة التي يرويها: الإمام البخاري في صحيحه: كتاب/ الذبائح -باب/٢٥، وكتاب/الأدب- باب/١٢٢.، والإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري في صحيحه - - كتاب الصيد-باب /١٢،.وكتاب/اللباس- باب/٢٩.، وابن حبان البستي في صحيحه - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط - ط/٢-مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان١٩٩٣م:-/٥٨٩٤- ص:٢١٤/١٣.، والحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين رقم - تحقيق/مصطفى عبد القادر- ط/١- دار المكتبة العلمية- بيروت- لبنان١٩٩٠م: رقم/٧٥٧٤- ص:٢٦١/٤.

(٤) يراجع: الإمام مالك بن أنس- مؤطا مالك - تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي- ط / دار إحياء التراث العربي- القاهرة - مصر (د.ت):- كتاب/ النهي عن قتل..- رقم/٩٦٥- ص:٣٣٧/٢.

(٥) يراجع الإمام البخاري - كتاب/ الحرث والمزارعة - بابي/١،١٨.، والإمام مسلم- صحيح مسلم- كتابي/ المساقاة والبيوع - بابي/ ١٨،٧١.

(٦) يراجع: الإمام محمد بن عيسى الترمذي- سنن الترمذي- تحقيق/أحمد محمد شاكر- ط/دار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان:(د.ت) -كتاب/الأحكام - باب/ ما ذكر في إحياء الأرض- رقم/١٣٧٨- وقال: حديث حسن :٦٦٢/٣.،والإمام ابن حبان البستي-صحيح ابن حبان - كتاب/ إحياء المـوات-رقم/٥٢٠٢-ص:١١ /٦١٣.

(٧) ينظر:الدكتور القرضاوي- رعاية البيئة.. :١٥٥.

١-الصلاح ، إن لم يكن العمل على زيادة الصلاح الخالي من كافة صور وأشكال الفساد والضرر ، ولذلك نجد شريعة الإسلام :

أ. تنهى الإنسان إجمالاً عن الفساد في الأرض بوجه من الوجوه ؛ قال تعالى(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) (الأعراف/٥٦،٨٥) ، قال الإمام الشوكاني:«نهى ..الله عن الفساد في الأرض(الصالحة)[١] بوجه من الوجوه.. ، ويدخل فيه قليل الفساد وكثيره ، ودقيقه وجليله»[٢]، ولذلك قيل: أقل ما يطلب منك في الدنيا: أن تدع الصالح لصلاحه، ولا تتدخل فيه فتفسده؛ فإذا شئت أن ترتقي إيمانياً: تأتي للصالح وتزيد من صلاحه؛ فإذا جئت للصالح فأفسدته ، فقد أفسدت فسادين ؛ لأن الله أصلح لك مقومات حياتك في الكون فلم تتركها على الصلاح الذي خلقت به ، وكان تركها بحد ذاته بعداً عن الفساد ، فأنت جئت إليها وهي صالحة بخلق الله تؤدي مهمتها في الحياة فلم تزد في مهمتها صلاحاً ، ولكنك جئت إلى هذه المهمة فأفسدتها[٣].

ب. توصف للإنسان (في آيات كثيرة ، وأحاديث جمة) سمات السلوك البيئي السوي الذي يكفل المحافظة على البيئة صالحة كما خلقها الله سبحانه وتعالى،كـ: النظافة والتطهير بشكل دائم على صعيد البدن ، والثوب ، والمكان ، وفناء البيت ، والشارع..[٤] ، وعدم تلويث موارد وعناصر البيئة[٥]، حتى بهواء الزفير(التنفس في الإناء أثناء الشرب)، وعدم إهدار الموارد والاستفادة من المخلفات(تدويرها)[٦]، ناهيك عن الإصحاح البيئي والحد من انتشار الأوبئة

---

(١) يراجع: لجنة الكتاب والسنة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- المنتخب في تفسير القرآن الكريم - ط/دار الأرقم- بيروت- لبنان:(د.ت): ٢٠٥.

(٢) الإمام الشوكاني - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير- ط/١ - دار ابن كثير- بيروت -لبنان١٩٩٤م: ٢/٢٥٥،٢٤٣.

(٣) ينظر: الإمام الشعراوي- تفسير الشعراوي - :١/١٥١. - نقلاً عن عبد العظيم أحمد - الإسلام والبيئة ط/ مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية - مصر١٩٩٩م:٢٥.

(٤) تراجع: كتاب/ الطهارة ، واللباس ، والغسل، والبر- في الصحاح ، والسنن... من كتب الحديث الشريف.

(٥) كـالأحاديث التي تنهى عن البول في الماء الجاري أو الدائم الراكد و في طريق الناس وظلهم ، وتلويث الهواء بفضلات الإنسان ، وتنهى عن إشعال النار زيادة عن الحاجة ، كما ترشد إلى تغطية الوجه عند العطس ...إلخ ، والتي يرويها الإمام البخاري في صحيحه - كتابي/ الوضوء والاستئذان.، وعن الإمـــام مسلم في صحيحه- كتابي /الطهارة ، والأشربة.، والإمام الترمذي في سننه- كتاب/الأدب.- والإمام الطبراني-في معجمه الأوسط -تحقيق/طارق بن عوض وغيره- ط/دار الحرمين-القاهرة-مصر١٤١٥هـ- برقم/١٧٤٩- ص:٢/٢٠٨.

(٦) كحديث: مرَّ النبي **r** بشاة ميتة، فقال لأصحابها:(«هلا أخذتم إهابها، فدبغتموه فانتفعتم به ؟» فقالوا: إنها ميتة فقال:«إنما حرم أكلها»)الذي يرويه الأمام مسلم في صحيح-كتاب/الحيض-باب/٢٧-رقم/٣٦٣- ص:١٥٢.

والأمراض[١]، وعن غض الصوت وعدم الصياح المؤدي إلى التلوث الضوضائي السمعي[٢]، وإماطة الأذى عن الطريق[٣]..إلخ.

٢-الإصلاح

كواجب تعاملي يستلزمه الصلاح الذي فطرت عليه البيئة ،(..وَأَصلِح وَلا تَتبع سَبِيلَ المُفسِدِين)(الأعراف/١٤٢)

يتسع مفهومه في شريعة الإسلام ليتضمن إعادة كل شيء إلى أحسن صورة ممكنه، (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)(هود/٨٨)،.. كما يستلزم تحريك الجميع لوقف أي فساد يطرأ على البيئة ، وإلا كانوا جميعاً ظالمين معرضين للهلاك؛ (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) (الأنفال/٢٥)،(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود/١١٦،١١٧) [٤].

رابعاً: إن البيئة قد فطرت غاية في الجمال

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)(النمل/٨٨)،(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (السجدة/٧) فالجمال سمة بارزة من سمات البيئة إن لم يكن أبرز سماتها ، وتعبيراً جلياً عن كمالها وتمامها.

وعند استقصاء حكمة الخالق من ذلك تقرر شريعة الإسلام: أن الله تعالى قد خلق قاصداً وعامداً البيئة غاية في الجمال حتى يستشعر الإنسان حقيقة البعد الجمالي في علاقته بالبيئة ، ويراعي هذا البعد في تعامله معها؛ فال تعالى:(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)(فاطر/٢٧،٢٨).

« فهذه الدعوة القرآنية إلى تأمل الجمال الكوني، هي دعوة إلى الارتفاع بعلاقات الإنسان .. بالبيئة إلى مستويات عليا من السلوك والرؤية الإنسانية النبيلة في مستويات الإصلاح والإعمار، ولا تقتصر فقط على الإصلاح المادي ، بل تتعداه إلى الجمال المعنوي في البيئة ، والذي يسعى الإنسان إلى تأمله والمساعدة على الاحتفاظ به وصيانته ...، ومن ثم يكون العمل

---

(١) كـالأحاديث التي: تنهى عن أكل لحوم الحيوانات والطيور التي تتغذى على القمامة والمخلفات، وتأمر صاحب الحيوانات المريضة ألا يوردها على الحيوانات الصحيحة ، وعدم القدوم على الأرض الموبؤة ، أو الخروج منها إلى الأرض الصحيحة فراراً من الوباء .- والتي يرويها: الإمام الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٢٦٩.، والترمذي في سننه- برقم/١٨٢٤،١٨٢٥، قائلاً: حسن صحيح :٢٧/٤.، و الإمام البخاري في صحيحه- كتاب/ الطب- بابي/٥٣،٣٠- رقم/٥٧٧١،٥٧٢٩.- والإمام مسلم في صحيحه- كتاب/ السلام- بابي/٣٣،٣٢- برقم/ ٢٢٢١،٢٢١٩.

(٢) كقوله تعالى(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)(لقمان/١٩) ، وحديث(إن الله يبغض كل...صخاب في الأسواق،جيفة بالليل ،حمار بالنهار)- الذي يرويه الإمام ابن جبان في صحيحه- كتاب/ العلم- رقم/٧٢- وقال المحقق:إسناده قوي :٢٧٣/١.

(٣) يراجع على سبيل المثال:الأمام مسلم- كتاب/الطهارة- باب/١١- رقم/٣٥- ص:٣٧.

(٤) ينظر:الدكتور بركات محمد مراد- الإسلام والبيئة رؤية حضارية:٨٨،٨٩.

على حماية البيئة من مختلف أشكال التلوث والفساد، والإبقاء على الجمال في صفحات الكون مطلباً إسلامياً عزيزاً تستحث لأجله الهمم، وتستثار(في سبيل تحقيقه) الغرائز»[1].

المطلب الثاني
تأطير علاقة الإنسان بالبيئة
وتحقيق التوحيد والتناغم والوفاق بينهما

أولاً: تأطير علاقة الإنسان بالبيئة

بإطارات:

١- الخلافة

المهمة التي انتدب الله تعالى الإنسان لأدائها في هذه البيئة ، والمقترنة بقرار خلقه الصادر في السماوات العلى ، المعلن في الملأ الأعلى؛(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة /٣٠).

والخليفة «هو الذي يخلف في الأرض يحكم فيها بشرع الله، ويحيا فيها بمنهجه»[2]، وحقيقتها:« عبادة طوعية لله بالتزام هديه ، وشرعه ، وينشأ عنه ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع الله ، وعلاقته بالكون والمخلوقات ، بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح»[3].

وهي(أي: الخلافة) إنما تتم بإقامة الحق والعدل، ونشر الخير والصلاح ؛ كما قال الله لداود عليه السلام:(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (ص /٢٦).

تأسيساً على ذلك : وعطفاً عليه ، يمكن القول وفقاً لهذا الإطار:

أ- إن الإنسان مستخلف في البيئة ، فهو ليس إلهاً يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وعلاقته بها ليست علاقة السيد المالك لها ، والحاكم فيها بأمره ، والمنفرد بالتصرف فيها بسلطانه[4].

ب- إن البيئة خلق الله تعالى وملك له ؛ فعلى الإنسان أن يلتزم في تعامله معها بتعليمات خالقها ومالكها الذي استخلفه ؛ فيتعامل مع البيئة «بما لا يجافي سنن الله في خلقه ولا أحكام الله في شرعه ، فيأخذ منها ويعطيها ، ويراعي لها حقها لتؤتي له حقه»[5].

ج - إن الإنسان مستخلف في البيئة وعلاقة الاستخلاف تعني التلازم بين الواجب والحق في البيئة ؛ فإذا كان للإنسان حق الانتفاع بالبيئة ؛ فإن عليه واجب الحفاظ عليها[6].

---

(١) المرجع نفسه- بتصرف يسير:٩٨،٩٩.

(٢) الدكتور محمد عزالين توفيق- التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية- ط/دار السلام - القاهرة مصر١٩٩٨م : ١٣٨.

(٣) الدكتور أحمد حسين فرحان- الخلافة في الأرض- ط/١- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان:(د.ت):٢٠.

(٤) ينظر: الدكتور القرضاوي- رعاية البيئة: ٢٠٠،٢٠٨.

(٥) المرجع نفسه:٢٣.

(٦) ينظر: الدكتور إبراهيم سليمان عيسى- تلوث البيئة :١٠٨،١٠٧.

د- إن الإنسان بمقتضى هذا الإطار ملزم بالعمل على تنمية ما هو مستخلف فيه حتى يتحقق المعنى الحقيقي للاستخلاف؛ فمن معاني الخلافة أن يخلف الإنسان بعضه بعضا بالتالي« فالموارد التي أودعها الله في البيئة ، إن لم يتم تنميتها ستفنى باستهلاك الجيل الحاضر دون الأجيال المقبلة ؛(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)(يونس/١٤)؛ فالخلافة من أجل العمل ، بل العمل الذي يثري البيئة، ويصلح فيها، ويبقيها»[١].

هـ- إن هذا الإطار هو الآلية العملية التي تحيل السلوك البيئي السوي الذي وصفته شريعة الإسلام وفقا لطبيعة البيئة(في المطلب السابق) واقعاً عملياً مشاهداً محسوساً وملموساً على كافة الصعد وبمختلف المقاييس ، سيما إذا ما أخذ بعين الاعتبار البعد العبادي(التزام هدي الله وشرعه ، والحياة بمنهجه) وما ارتبط بذلك من الثواب ، وبعدمه أو التقصير فيه من العقاب.

ليبقى هذا البعد مكمن سر نجاح(الخلافة) وجوهر فعاليتها في تأطير علاقة الإنسان بالبيئة، ومن ثم الحد من الجريمة البيئية.

٢- العمارة

تقرر شريعة الإسلام أن الغاية والمقصد من خلق الإنسان عمارة البيئة[٢]؛(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود/٦١)،أي: خلقكم لعمارتها ؛ فالاستعمار في الآية: طلب العمارة، و الطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب[٣].

بالتالي فإن علاقة الإنسان بالبيئة علاقة بناء وتنمية وتعمير ، لا إتلاف وتدمير وتخريب، وبموجب هذا الإطار فإن الإنسان ليس مطالباً بالمحافظة على البيئة وموارده وثرواتها فقط ، بل هو مطالب أيضاً بتنمية البيئة وعمل كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تحسينها وازدهارها ، من دون إضرار و إفساد ؛ ذلك أن العمارة : نقيض الخراب، وهي إنما تتحقق في شريعة الإسلام ببذل الجهد واستفراغ الوسع في الزراعة ، والصناعة ، والبناء ، والتعدين، وتنمية ما خلق الله وبث في البيئة من ثروات وموارد بعيداً عن كل إضرار ، وإخلال ، وتدمير ، وتخريب[٤]؛ قال تعالى:(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)(الأعراف/٧٤)؛ فـ« عاث يعيث عيثاً ، أي: ضرب فيها من غير مبالاة ، فيكون من ذلك التخبط والفساد»[٥]، « والعثي في الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار..، وقيده بالحال ، وهو قوله تعالى (مُفْسِدِينَ)، ليخرج ما كان صورته من العثي، والمقصود به الصلاح»[٦].

---

(١) المرجع نفسه - بتصرف يسير: ١٠٨،١٠٩.

(٢) ينظر:الراغب الأصفهاني - الذريعة إلى مكارم الشريعة - ط/دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان:٣١،٣٢.، و الدكتور يوسف القرضاوي- قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام - ط/٣- دار الصحوة- القاهرة - مصر ١٩٩٥م :٢٤،٢٥.

(٣) ينظر: الإمام القرطبي- الجامع لأحكام القرآن:٥٦/٩

(٤) ينظر: الدكتور القرضاوي- رعاية البيئة:٢٤.، والدكتور إبراهيم سليمان عيسى- تلوث البيئة:١٠٩.

(٥) عبد الكريم الخطيب- التفسير القرآني للقرآن- ط/دار الفكر العربي- بيروت- لبنان:(د.ت):١١٨٦/٣.

(٦) الإمام الشوكاني - فتح القدير: ٢٤٣،٢٥٥/٢.

إن عظمة (العمارة) وفاعليتها في تأطير علاقة الإنسان بالبيئة ومن ثم الحد من الجريمة البيئية في شريعة الإسلام تأتي من حيث إنها «مهمة مجردة مطلقة لا يشترط لها أن يستفيد منها من يقوم بها ، وإنما هي مهمة ربانية كلف بها الإنسان كوظيفة في الدنيا يؤديها دون أن ينتظر مردودها ونتيجتها....؛ لهذا الهدي النبوي (إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل)[1]،.. مما يعطي للعمل والإعمار في الإسلام مفهوماً يتعدى ذات الأشخاص والأفراد، ويتجاوز مصالحهم الآنية والشخصية العاجلة»[2]، كما يعطيه من الديمومة والاستمرار ما يكفل بقاء البيئة عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم، لحظة قيام الساعة الموذن بزوال البيئة ، وانتهاء الحياة على هذه البسيطة[3].

٣- الأمانة

من أهم ما وصف به الإنسان في الشريعة الإسلامية أنه حامل(الأمانة الكبرى) التي عرضت على أعظم الأجرام وأقواها فأبى حملها وأشفق منها؛(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)(الأحزاب/٧٢).

والأمانة« مصدر سمي به الشيء الذي في الذمة»[4]، تطلق على الحقوق المرعية التي يجب المحافظة عليها وأداؤها»[5]، وتعرف بأنها« ما يعهد إلى الإنسان رعايته أو حمله من ملك، أو قول، أو فعل، أو نحو ذلك»[6].

والبيئة(عناصرها ومواردها) من أهم ما ائتمن الله تعالى عليه الإنسان، وعهد إليه أن يرعاه ويحفظه منذ أن استخلفه (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة/٣٠)؛ فالإنسان وصي عليها ، وهي أمانة الله لديه ، وسيحاسب عن سوء استخدامه لهذه الأمانة[7]، أو التفريط فيها، وتعريضها للضياع؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الأنفال/٢٧) ، (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدّوا الأَمَانَاتِ إِلَىَ أَهْلِهَا)(النساء / ٥٨).

يقول الدكتور يوسف القرضاوي:« والأمانة تشمل كل ما أوئتمن عليه الإنسان من مال وولد، ومن ماديات ومعنويات ، ولهذا ورد أنها أثقل شيء في الدين. وهي بالقطع تشمل(موارد البيئة)، فهي من

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل- مسند أحمد- ط/مؤسسة قرطبة- القاهرة- مصر:(د.ت)- رقم/١٣٠٠٤- ص:١٩١/٣ .- ورجال الحديث أثبات ثقات- كما ذكر الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد- ط/دار الريان-القاهرة، ودار الكتاب العربي- بيروت- لبنان١٤٠٧هـ - ص:٦٣/٤.

(٢) الدكتور بركات محمد مراد- الإسلام والبيئة رؤية إسلامية حضارية:٢٧،٢٨.

(٣)راجع: تعليق الإمام عبد الرؤوف المناوي على هذا الحديث في كتابه: فيض القدير- ط/١- المكتبة التجارية - القاهرة- مصر:٣٠/٣ .، وينظر : المدخل إلى علوم البيئة:١٦.

(٤) الإمام القرطبي- الجامع لأحكام القرآن:٤١٥/٣.، وينظر: الإمام الشوكاني- فتح القدير:٣٠٣/١.

(٥) الدكتور محمد أحمد خلف الله - مفاهيم قرآنية- سلسلة عالم المعرفة- العدد/٧٩- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت - يوليو١٩٨٤م:٢١٤.

(٦) الإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي- تفسير النسفي-(دون بيانات) :٢١٧/٣.

(٧) الدكتور راتب السعود - الإنسان والبيئة.دراسة في التربية البيئية- ط/دار الحامد- عمان- الأردن ٢٠٠٤م :٢٥٣.

الأمانات التي حملها الإنسان ، فإذا حفظها حفظه الله ، وإذا ضيعها ضيعه الله وكان من الخائنين، الذين لا يحبهم الله تعالى، كما قال في كتابه:(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)(الأنفال/٥٨)»[١].

إن أهمية(الأمانة) في تأطير علاقة الإنسان بالبيئة ، وبالتالي الحد من جرائم البيئة تأتي من أن خيانة الإنسان لأمانات الله في البيئة موجب لاستحقاق العذاب ، وحلول ساعة الهلاك وزوال الوجود الدنيوي برمته ؛ على ما قال r :(إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)[٢].

٤ـ الإحسان

تفرض شريعة الإسلام على الإنسان فرضاً، وتوجب عليه إيجاباً أن يعامل البيئة، ويتعامل مع كل ما يحيط به بإحسان ؛ لهذا الأمر الإلهي: (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)(القصص/٧٧)[٣].

وهذا القول النبوي الصحيح: (إن الله كتب الإحسان في كل شيء..)[٤]، أي:«فرضه فريضة موثقة، كما قال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)(البقرة/١٨٣)،(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ) (البقرة/١٧٨).

والإحسان كلمة قرآنية نبوية تتضمن معنيين: أحدهما:الإحكام والإتقان ، والآخر:الإشفاق والرفق والحنان والإكرام[٥] .

وعليه فإن هذا الإطار يوجب على الإنسان في علاقته بالبيئة أمـران:

الأول: أن يعامل البيئة بإحكام وإتقان، لا بغفلة وإضاعة وإهمال و ؛لقوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)(الكهف/٧)، وقوله: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(هود/٧) ، فالغاية من خلق السماوات والأرض زينة لها- كما دلت عليها لام التعليل في:(لِنَبْلُوَهُمْ)(لِيَبْلُوَكُمْ)- ظاهرة، وهي غاية عملية ، مفادها أن يعمل الإنسان فيحسن العمل ، بل يجتهد أن يكون(أَحْسَنُ عَمَلًا)[٦].

وهذا التعامل المتقن المحكم مع البيئة لابد أن يكون في إطار الصلاح أو بالأحرى متسماً بالصلاح؛ ذلك أن الله تعالى: أكد في سورة العصر على أن عمل الإنسان في البيئة سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاده لشرطين أساسيين(الإيمان، والعمل الصالح)[٧] ، وقرر في سورة(ص/٢٨،٢٧) ما نصه: (وَمَا

---

(١) رعاية البيئة:٢١٢،٢١١.

(٢) الإمام البخاري- صحيح البخاري- كتاب العلم- باب/٢- رقم/٥٩- ص:٢٣.

(٣) قال الحافظ ابن كثير:«(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) أي:أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ) أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض وتسيء إلى خلق الله ، (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)».- تفسير القرآن العظيم:٣٧١/٣.

(٤) الإمام مسلم- صحيح مسلم- كتاب/ الصيد والذبائح- باب/١١- رقم/١٩٥٥-ص:٨٤٣.

(٥) ينظر: الدكتور يوسف القرضاوي- رعاية البيئة:١٢٠.

(٦) ينظر: قيمة الإنسان.. :٢١.

(٧) ينظر: الدكتور عماد الدين خليل- حول تشكيل العقل المسلم- ط/٤- المعهد العالي للفكر الإسلامي- هيرندن- فيرجينيا- أمريكا١٩٩١م:١٣٧.، و تراجع: سورة العصر- الآيات/١-٣.

خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ).

الثاني: أن يعامل الإنسان البيئة برفق، وإشفاق، وحنان، للحديث النبوي الصحيح:(إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله)[1]، (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه) ، (..وإن الله.. يعطي على الرفق مالا يعطي على العنف) ؛ فـ(من يحرم الرفق يحرم الخير كله)[2]« ويتمثل هذا الرفق مع كل عناصر البيئة، سواء كانت حية أم غير حية، عاقلة أم غير عاقلة. فيشمل هذا الرفق الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد»[3][4].

ثانياً: توحد الإنسان بالبيئة ، وتحقيق التناغم والوفاق بينهما

إذ راحت نصوص الشريعة الإسلامية (وعلى سبيل المثال لا الحصر):

١- تربط بين الإنسان والبيئة في المبدأ والمصير، ووحدة التكوين ، والكيفية التركيبية ، وتقرر خضوعهما معاً لقانون موحد يحكمهما في النشأة والصيرورة والمصير ، كوحدة السببية ، ووحدة الحركة والتغير المستمر [5]، وكل ذلك ظاهر مادياً ، جلي واقعياً ؛ فهو من الوضوح بما يغني عن كل استشهاد ، أو مزيد بيان وتفصيل.

٢- تجعل البيئة:

أ / خلق الله المسخر لخدمة الإنسان ونفعه ؛ (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)(الجاثية/١٣)(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا) (البقرة/٢٩)

ب/ خلق الله المذلل لإشباع حاجات الإنسان ، وتلبية كافة متطلباته(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)(الأعراف/١٠)، (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)(الملك/١٥).

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ و مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُون) (النحل/٨١،٨٠)

ج/ خلق الله الذي يلتفت الإنسان إلى ما فيه من أنواع الحسن والجمال فيستمتع به، ويغذي وجدانه(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) (الملك/٥) ، (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)(الصافات/٦)،

---

(١) متفق عليه: الإمام البخاري- صحيح البخاري- كتاب/ استتابة المرتدين- باب/٤- رقم/٦٩٢٧- ص:١٢٩٢.، والإمام مسلم- كتاب/ صحيح مسلم- كتاب/ البر والصلة- باب/٢٣- رقم/٢٥٩٣- ص: ١٠٨٨.

(٢) الإمام مسلم- صحيح مسلم- كتاب/ البر والصلة - باب/٢٣- رقم/٢٥٩٤،٢٥٩٣- ص:١٠٨٩،١٠٨٨.

(٣) الدكتور القرضاوي - رعاية البيئة: ١٢١.

(٤) وفي الكتاب والسنة الكثير من النصوص التي تدعو إلى ذلك، وتأمر به، وبمختلف أساليب الترغيب والحض.

(٥) ينظر: الدكتور عبد الحميد النجار- الإنسان والكون والعقيدة الإسلامية- مجلة المسلم المعاصر- العدد/٧٧ - أغسطس - أكتوبر١٩٩٥م:١٥-٢٠ .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)(الحجر/١٦)(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ)(النمل/٦٠)، (وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)(الحج/٥).

د/ طريق الإيمان بالله تعالى؛ بل ينبوع الإيمان الأول يصل من خلال (التأمل، الاعتبار، التفكر، النظر) في آياتها إلى الله تعالى ويحقق إيمانه ؛ (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت/٥٣) ، (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)(الأعراف/١٨٥).

٣- تربط الإنسان عقلياً ووجدانياً وانفعالياً بالبيئة ، وفي إطار من العبودية لله تعالى(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(آل عمران/١٩١،١٩٠).

٤- تعزز التناغم والتجانس بين الإنسان والبيئة ، فـ:

أ. تؤكد على:

- تساويهما في المخلوقية لله تعالى؛ كما قال سبحانه وتعالى:(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)(النحل/٣-٨)
- اشتراكهما في التسبيح لله رب العالمين؛ قال تعالى:(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(الحشر/١)، (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(التغابن/١)، وقال جل جلاله:(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)(الإسراء/٤٤).
- اشتراكهما في السجود لله تعالى، والانقياد لأمره، والخضوع والإذعان لسنته في الخلق،على ما قال سبحانه:(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)(الرعد /١٥)،(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)(النحل/٤٨،٤٩).(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ..)(الحج/١٨).

ب. تجعل جميع الأحياء المحيطة بالإنسان أمماً مثل بني الإنسان، وفقاً لقول العزيز الحكيم:(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)(الأنعام/٣٨).

٥- تنشئ عاطفة الود والحب فتحقق الألفة والوئام بين الإنسان والبيئة بجميع عناصرها ومكوناتها ، وتجعل من البيئة مصدر أنس وإيناس للإنسان، بمثل هذا الهدي النبوي الصحيح القائل فيه r (وهو عائد من غزوة تبوك): (.. هذا أحد.. جبل يحبنا ونحبه)[١]؛ ففي« هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد r من ود وألفة وتجاوب بينه وبين البيئة في أضخم وأخشن عناصرها»[٢] ، «هذا مع أن هذا الجبل وقعت بجواره غزوة أحد ، التي استشهد فيها سبعون من المسلمين ، على رأسهم حمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله، وربما لو كان أحد غيره لتشاءم من هذا الجبل، ولكنه عبر عن عاطفته نحوه بهذه الجملة المبينة الرائعة« يحبنا ونحبه» فكأنما جعل من الجبل كائناً حياً عاقلاً له قلب يحس يحب ، فلم يكتف بأنه يحب أحدا، بل قال عن الجبل: « يحبنا » فما أجملها وأروعها و أصدقها من علاقة ، وأي أنس بالبيئة، وأي إيناس لها أوضح مما دل عليه هذا التعبير النبوي الجميل»[٣].

ليبقى الدليل العملي على عمق التوحد والتناغم والوفاق ، وذلك الحب والود والأنس شاخصاً في بكاء البيئة على الإنسان عند وفاته إن كان من المؤمنين ، أما الكافرون (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)(الدخان/٢٩).

إن هذا الإجراء المنهجي(توحيد الإنسان بالبيئة وتحقيق التناغم والوفاق بينهما) ينطلق من حقيقة مفادها: أن الإنسان والبيئة في شريعة الإسلام جزأن مكملان لبعضهما ، فالبيئة التي بوأ الله تعالى الإنسان ، ليقوم بمهمة الخلافة فيها وعمارتها بدون الإنسان لا تعني شيئاً ؛ لأنه هو المكلف بعمارتها وصيانتها وإدارتها... ، والإنسان كذلك بدون(بيئة) لا يستطيع أن يؤدي مهمته ؛ بل لا يستطيع حتى مجرد الحياة..؛ فكل طرف يمنح الطرف الآخر معنى لوجوده مع الآخر[٤].

أما أهميته وفاعليته في الحد من جرائم البيئة فتأتي من أن التوحد ، والتناغم ، والوفاق بين الإنسان والبيئة «ينفي من نفس الإنسان مشاعر الخوف والعداء، التي تتأتى من اعتقاد الغربة والتناقض ؛ إذ الإنبتات وانعدام الوشائج ، تزرع في الإنسان الشعور بالغربة ، والشعور بالغربة والتناقض إزاء شيء ما من الأشياء أساس لنشوء الخوف والعداء.. كما أن من شأنه أن ينقذ الإنسان من أوضاع مرذولة في علاقته بالبيئة كثيراً ما وقعت فيها مجتمعات وأفراد ، نتيجة لتصورات فلسفية وعقدية ..، ومن تلك الأوضاع المرذولة ما أدت إليه بعض الفلسفات القائمة على علاقة الصراع بين الإنسان والطبيعة صراعاً ينبئ عن روح عدائية قائمة بينهما ، وهو ما كان في الفلسفة اليونانية القديمة ، ونراه اليوم في الحضارة المادية الحديثة ، كما تعبر عنه ألفاظ مثل « غزو الفضاء» وأمثالها. ولعل الوضع المفزع الذي آلت إليه (البيئة) من التلوث يعد من آثار فكرة الصراع المضمرة في أذهان صانعي الحضارة المادية الحديثة ، ومديريها ؛ حيث أثمرت تلك الفكرة نزوعاً جارفاً إلى امتصاص خيرات الطبيعة ، حينما تمت السيطرة عليها بالعلم ، ثم الإلقاء بالنفايات بما يعود عليها بالضرر الوبيل ، فيما يشبه حال ذلك الوحش الذي يصرع فريسته

---

(١) متفق عليه: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري- صحيح البخاري- كتاب/استتابة المرتدين- باب/٤- رقم/٦٩٢٧- ص:١٢٩٢.، والإمام مسلم- صحيح مسلم- كتاب/البر والصلة- باب/٢٣- رقم/٢٥٩٣- ص:١٠٨٨.

(٢) الإمام سيد قطب- في ظلال القرآن- ط/٧- دار الشروق- القاهرة- مصر١٩٧٨م- بتصرف يسير:٢٦/١.

(٣) الدكتور القرضاوي- رعاية البيئة:٣٠.

(٤) ينظر: - وزارة المياه والبيئة اليمنية - حماية البيئة في اليمن فريضة شرعية ومسؤولية وطنية - ط/اليمن الحديثة للطباعة- صنعاء- اليمن:٨،٩.

فيأكل منها ثم يعبث بما بقي منها. وقد كان هذا الوضع الذي نتج عن فكرة الصراع مفزعاً للعقلاء من أهل الحضارة الغربية ؛ فأطلقوا الصيحات العالية منبهة إلى وجوب تدارك الوضع وإعادة بناء العلاقة مع البيئة لتكون علاقة الوئام لا الصرع ؛ ولذلك تأسست الجمعيات الكثيرة ، بل والأحزاب السياسية التي تقوم على هذا المعنى، مثل جمعيات الرفق بالحيوان ، وجمعيات المحافظة على الطبيعة الخضراء ومقاومة التلوث»[١].

وقد كتب« رينيه دوبو» في هذا السياق في كتابه الشهير«إنسانية الإنسان» في نقد العلاقة العدائية بين الإنسان والطبيعة التي قامت عليها الحضارة الغربية ، وينتهي في كتابه إلى القول: « إن غزو البيئة أو السيطرة عليها ليست الطريقة الوحيدة للتخطيط ، ولا هي على كل حال الطريقة الفضلى ، وعلى الإنسان عوضاً عنها أن يحاول التعاون مع قوى الطبيعة ، يجب أن يجعل نفسه جزءاً من البيئة بحيث يصبح هو ونشاطاته في وحدة عضوية مع الطبيعة»[٢].

المطلب الثالث

بناء الفرد الصالح المحصن ضد الجريمة البيئية

اهتمت شريعة الإسلام منذ نزولها إلى الأرض ببناء الفرد الصالح المحصن ضد الجريمة ، عن طريق هدايته إلى فطرته التي فطر الله الناس عليها ، وهي الإسلام[٣]؛ قال تعالى:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(الروم/٣٠).

وحرصت شريعة الإسلام على بناء الأسرة الصالحة التي: تحافظ على فطرة الطفل وتصونها من الزلل والانحراف [٤] ، وتقييم حدود الله تعالى في الأرض(تطبق منهج الله تعالى في واقع الحياة) فتلتزم منهجه في مختلف نواحي حياتها[٥]؛ إذ جاءت نصوصها الصحيحة الصريحة توجه الرجل والمرأة على حد سواء إلـى ضرورة أن يحسن كل واحد منهما اختيار شريكه قبل الزواج اختياراً يراعي فيه: (الدين ، والخلق ، والصلاح) ، ومن تلك النصوص:

---

(١) الدكتور عبد المجيد النجار-الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية- بتصرف يسير:٢٩،٣٢،٣٣.

(٢) رينيه دوبو- إنسانية الإنسان- تعريب/نبيل صبحي الطويل- ط/٢- مؤسسة الرسالة- بيروت لبنان١٩٨٤: ٢٤٢.- نقلاً عن المرجع نفسه :٣٣،٣٤.

(٣) ينظر: الدكتور صالح الصنيع- التدين علاج الجريمة: ١٢.

(٤) لحديث(ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) -

المتفق على صحته: الأمام البخاري- كتاب/تفسير القرآن - باب/لا تبديل لخلق الله- رقم/٤٧٧٥- ص:٩١٢.، والإمام مسلم- صحيح مسلم- كتاب/

القدر- باب/ معنى كل مولود..- رقم/٢٦٥٨- ص:١١١٢.

(٥) لقول الله تعالى:(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ

وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(البقرة/٢٢٩،٢٣٠).

١. قول الله تعالى:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)(النور/٣٢).

(وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (البقرة/٢٢١).

(الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)(النور/٣).

٢. قول النبي r :

(إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[١]

(تنكح المرأة لأربع لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)[٢].

وحذرت شريعة الإسلام الفرد من إتباع الهوى الذي يضل الإنسان ويوقعه في الجريمة والإفساد البيئي(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)(المؤمنون/٧١)، وقد قال تعالى لنبيه داود عليه السلام:(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (ص/٢٦).

وحذرته كذلك من إتباع الشيطان الذي توعد أن يوقع الإنسان في أعظم ما يفسد البيئة ويخرجها عن طبيعتها المهيأة لصالح الإنسان ، وهو تغيير خلق الله (تغيير الفطرة التي فطر الله الناس والأشياء عليها)[٣] ؛ حين قال:(وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)(النساء/١١٩)،(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(سبأ/٢٠).

كما لم تنس الشريعة أن تحذر الفرد من إتباع وطاعة كل من انحرف عن الميزان الكوني الذي أقام الله تعالى البيئة عليه ؛ فابتعد عن التوازن والتوسط والاعتدال ، وكان سلوكه البيئي متسماً بالفساد بعيداً عن الصلاح ؛ (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) (الشعراء/١٥٢،١٥١).

ناهيك عن تنفير الفرد من النماذج المفسدة والتحذير منها ومن مشابهتها، كما في قوله تعالى في وصف بعض المنافقين:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ

---

(١) الإمام الترمذي- سنن الترمذي- كتاب/النكاح- باب/ إذا جاءكم - رقم/١٠٨٤- وقال:حديث حسن:٣٩٤/٣.

(٢) متفق عليه: الإمام البخاري - صحيح البخاري - كتاب/ النكاح - باب/ الأكفاء في الدين - رقم/ ٥٠٩٠- ص:٩٩٠.، والإمام مسلم - صحيح
مسلم- كتاب/الرضاع- باب/ نكاح ذات الدين- رقم/١٤٦٦- ص:٥٩٩.

(٣) ينظر: الدكتور القرضاوي- رعاية البيئة: ٢٢٢.

وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)(البقرة/٢٠٤-٢٠٦).

وبنت شريعة الإسلام ضمير الفرد المسلم على:

أ. التزام السمو لذاته لا لغيره ، والذي تبدو آثاره في الالتزام السري أكثر و أعمق من الالتزام الجهري؛ إذ حرمت المراءاة ؛ لكي يكون الالتزام ذاتياً [١] ؛ (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)(الماعون/٤-٧) .

ب. الالتزام العملي أكثر من الالتزام النظري ، وهذا يتجلى في قول الحق تبارك وتعالى:(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (البقرة/٤٤)[٢].

ج. مراقبة الله تعالى في العمل قبل أي شيء آخر؛(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(التوبة/١٠٥).

د. محبة الله ورسوله r (قبل أي شيء آخر) وتفضيل ذلك على كل حب ، حتى تكون محبة الله ورسوله r هي المحك لكل عمل يقوم به الفرد في هذه الحياة؛ فإن كان يرضيهما فعله، وإن كان يسخطهما - كالجريمة- تركه وابتعد عنه[٣]؛ قال تعالى:(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة /٢٤).

وعلى وجه عام فإن منهج الشريعة الإسلامية وهو يستهدف الحد من الجريمة البيئية ، يحرص على بناء الوازع الداخلي ، وتنمية الرقابة الذاتية على طريق الإيمان بقدسية التشريعات ، وثواب التزامها، والتربية والتدريب عليها ، فيبني الفرد أولاً من داخل نفسه قبل أن يضع التشريعات العقابية التي تضبطه من خارج النفس ، وهذا هو سر فاعلية المنهج و نجاحه وتميزه[٤].

(١) ينظر: الدكتور أحمد شلال العاني- عولمة الجريمة رؤية إسلامية في الوقاية:٦٦.
(٢) ينظر: المرجع نفسه.
(٣) ينظر: الدكتور صالح الصنيع- التدين علاج الجريمة: ١٢١.
(٤) يراجع: مقدمة الأستاذ/عمر عبيد حسنه على كتاب/عولمة الجريمة:٢٤.

المطلب الرابع

إرساء مبدأ المسؤولية
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أولاً: إرساء مبدأ المسؤولية

حتى تضمن الشريعة الإسلامية الحد من جرائم البيئة راحت ترسي مبدأ المسؤولية:(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)(المدثر/٣٨) ، (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الحجر/٩٢،٩٣) ، والتي بمقتضاها يتحمل الإنسان تبعة سلوكه البيئي سوياً كان أو غير سوي ، سيما وأن الله تعالى قد تعبد الإنسان إزاء البيئة بجملة من الأوامر والنواهي؛ (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (النجم/٣١) ، وقبل ذلك في هذه الدنيا يتحمل تبعة سلوكه البيئي غير السوي ، الذي يؤكد الفقه الإسلامي بإزائه على نوعين من المسؤولية[١]:

١. المسؤولية المدنية: وهي ضمان تعويض الضرر الذي أصاب غيره من جهته.
٢. المسؤولية الجنائية: وهي تحمل نتائج أفعاله المحرمة التي يأتيها على وجه الاعتداء.

من جهة أخرى حتى يضمن المنهج بلوغ غايته المنشودة راح يحمل الإنسان مسؤولية الحد من جرائم البيئة، بمقتضى الخلافة والأمانة، فالبيئة كما تقرر سلفاً(في المطلب الثاني) خلق الله تعالى وملك له،استخلف الإنسان فيها وائتمنه على مواردها وخيراتها، فهي بجميع عناصرها ومواردها داخله في دائرة مسؤوليته، يجب عليه أن يرعاها ويحفظها، ويحميها، بل وأن يقف في وجه كل من يروم الإضرار بها وإفسادها بوجه من الوجوه: بتخريب عامرها،وإهلاك أحيائها،واستنزاف أو إتلاف مواردها وطيباتها، أو تفويت منافعها ، أو تلويثها ، أو الإخلال بتوازنها..إلخ ؛ لأنه سيسأل عنها أمام الله تعالى الذي استخلفه فيها ، وائتمنه عليها ، كما جاء في الحديث الصحيح: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[٢]، فالراعي كما يقول العيني:«هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه،وما هو تحت نظره؛فكل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه.. ومتعلقاته..»[٣]، ولاشك في أن من أهم ما يحقق ذلك في جانب البيئة ، و تبرأ به ذمة الإنسان أمام الله تعالى، هو الحد من الإجرام في حق البيئة ؛ سيما وأن الله تعالى في كتابه قد حمل الإنسان مسؤولية كل فساد يحيق بالبيئة أو يطرأ عليها ، فجعله من عمله و صنع يده ؛ (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)(الروم/٤١).

ناهيك عن أن الشريعة الإسلامية قد جعلت الفرد مسؤولاً عن وقاية نفسه وأهله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)(التحريم/٦)،والمساهمة مع الآخرين في تطبيق الدفاع الاجتماعي ضد

---

(١) ينظر: الدكتور أحمد الحليبي- المسؤولية الخلقية والجزاء عليها. دراسة ومقارنة- ط/١- مكتبة الرشيد- الرياض- السعودية:١٩٩٦م: ٧١،٧٢.

(٢) متفق عليه: الإمام البخاري- صحيح البخاري- كتاب/ الأحكام- باب/١- رقم/٧١٣٨- ص:١٣٣.، والإمام مسلم - صحيح مسلم- كتاب/ الإمارة- باب/٥- رقم/١٨٢٩- ص:٧٩٥.

(٣) الإمام بدر الدين العيني- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري- ط/دار الفكر(د.ت) :١٩٠/٦.

الانحراف والجريمة[1] (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [2].

وهي مسؤولية أمام الله تعالى أولاً وقبل كل شيء ؛ (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الحجر/٩٢،٩٣) ، ويكون فيها الإنسان مسؤولاً أمام ضميره الديني الذي تكون لديه من مراقبة الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، القائل فـي كتابه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٍ) (الحديد/٤)، كما هي مسؤولية أمام الضمير الاجتماعي للأمة وفقاً لما سيتبين قي ثانياً:

ثانياً : إرساء مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو فعالية المجتمع المسلم، بل «..أسمى وظيفة اجتماعية تفضي إلى إصلاح (الكل) بوساطة (الكل)، وتبدي عالماً أمثل ينهى عن الرذيل والأرذال ، ويأمر بالفضيل والأفضل، وكأن كل واحد في المجتمع مسؤول عن واجب التربية والتوجيه»[3]، إنه يمثل الضمير الجماعي للأمة، ورقابة الرأي العام الواعي في الشريعة الإسلام؛ بمقتضى هذه الميزة التي ميز الله تعالى بها هذه الأمة:(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)(آل عمران/١١٠)، وهذه الصفة الأساسية لمجتمع المؤمنين: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (التوبة/٧١) ، ولا ريب في أن الحد من الجريمة البيئية من المعروف ، وعدم ذلك من المنكر إن لم يكن من أنكر المنكر، ومعنى هذا[4]:

١. أن الأمة مسؤولة عن الحد من جرائم البيئة؛ فإذا رأت أمماً أو جماعات أخرى تجور عليها بتلويث، أو إتلاف، أو فساد ، وجب عليها أن تنهاها عن ذلك (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)(الحج/٤١)، كما يجب عليها أن تتعاون معها على دفع ذلك المنكر؛(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (المائدة/٢).
٢. أن كل مسلم مسئول مسئولية تضامنية عن الحد من جرائم البيئة، فإذا رأى من يجور عليها بتلويث، أو إتلاف، أو فساد ، وجب عليه أن ينهاها عن ذلك، وأن يغير هذا المنكر بقدر استطاعته، بيده إن كان ذا سلطة، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.
٣. أن المسلم مسئول عن الحد من جرائم البيئة أيضاً أمام الضمير الاجتماعي للأمة ؛التي تملك حق توجيهه إذا أخطاء في حقها،وتقويمه إذا اعوج في تعامله معها، وتغيير ما يقترفه من تلويث وإتلاف وفساد باليد أو اللسان أو القلب حسب الاستطاعة.

وبهذا تحاصر الجريمة البيئية حصاراً أدبياً ، وتبقى في أضيق نطاق ممكن، حتى قيل:«إن الظاهرة الجرمية تتناسب تناسباً عكسياً مع الوضع الذي يسمو فيه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ الإنسان في المجتمعات الدينية المتمسكة بهذا المبدأ لا يستطيع اقتراف الجريمة جهراً؛ لأنه يخشى من

---

(١) ينظر:الدكتور محمد العاني- عولمة الجريمة:١٤٩،١٥٠.
(٢) الإمام مسلم- صحيح مسلم-كتاب/ الإيمان-باب/٢٠-رقم/١٧٧-ص:١٤٢.
(٣) المرجع السابق: ٨١.
(٤) ينظر: الدكتور القرضاوي- رعاية البيئة:٢٣٧،٢٠٩.

ثلاث عقوبات:الأولى عقوبة الله تعالى، والثانية عقوبة المجتمع المتمثلة برد الفعل الاجتماعي، والثالثة عقوبة القانون الذي يحكم به المحتسب أو القاضي بناء على طبيعة الدعوى»[١].

والمحتسب هو المسؤول المباشرعن وظيفة الحسبة، في نظام خاص من أنظمة الإسلام، وقد أخذت هذه الفريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في عصور الحضارة الإسلامية صورة نظام مؤسسي يعرف بنظام الحسبة؛ فكان المحتسبون يقومون بهذا الواجب الاجتماعي، ويفرضون رقابة قوية - بسلطان الشرع - على أفراد المجتمع ، ومؤسساته المتنوعة بمالهم من كفاية ، وأعوان ، وسلطة فيها طرف من هيبة القضاء ، وطرف من قوة الشرطة، وقدرتهم على التنفيذ[٢].

حتى إن صلاحيات المحتسب في العصر العباسي قد اتسعت حتى شملت جميع نواحي الحياة وجميع الناس مهما كانت مراكزهم في الدولة ، حتى الخلفاء أنفسهم ؛ فقد كان من حق المحتسب أن يحاسبهم ويرشدهم ، كما يحاسب ويرشد عامة الناس[٣]. «فعلى المحتسب أن يأخذ على يد الظالم ، وأن يحارب الجريمة والانحراف قبل أن يستفحل خطرها ويشتد أمرها ، وتفتك بالناس وإلا كان مسئولاً عن ذلك ، ومن ورائه الدولة التي عينته»[٤]؛(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)(المائدة/٧٨،٧٩)، « والشريعة - بجميع مذاهبها وإجماع فقهائها - توجب حماية المجموع من تجاوزات الأفراد، وإن كان في ذلك حجر على حرياتهم الفردية؛ فإن حريتهم ليست مطلقة بل هي مقيدة بأن لا تضر الآخرين. وأصل هذا :الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري وغيره عن النعمان بن بشير أن النبي **r** قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها؛ فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا:لوأنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذي من فوقنا؛ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)[٥]»[٦]. (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)(البقرة/٢٥١).

وقد قرر القرآن الكريم أن عدم القيام بواجب النهي عن الفساد في الأرض كان سبب استئصال الأمم السابقة ؛ قال تعالى:(فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ(.) وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُون)(هود/١١٦، ١١٧)، قال الإمام الشوكاني رحمه الله في تفسير هذه الآية:" هَذَا عَوْدٌ إِلَى أَحْوَالِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ لِبَيَانِ أَنَّ سَبَبَ حُلُولِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ بِهِمْ: أَنَّهُ مَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ وَيَأْمُرُ بِالرشاد، فقال: فَلَوْلا أَيْ: فَهَلَّا كانَ مِنَ الْقُرُونِ الْكَائِنَةِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ مِنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ وَالدِّينِ يَنْهَوْنَ

(١) الدكتور محمد شلال العاني- عولمة الجريمة: ٧٩.
(٢) ينظر المرجع السابق: ٢٣٧.
(٣) ينظر: الدكتور غازي الحاجب- المدخل إلى علم البيئة:٢٣.
(٤) الدكتور محمد عثمان شبير، وآخرون-حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة- كتاب الأمة- العدد/٨٧- ط/١- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر ٢٠٠٢م :١٦٣،١٦٤.
(٥) كتاب/الشراكة- باب/٦- رقم/٢٤٩٣-ص: ٤٥٣.
(٦) الدكتور القرضاوي- رعاية البيئة:٤٢،٤٣.

قَوْمَهُمْ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ ذلِكَ لِكَوْنِهِمْ مِمَّنْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ جَوْدَةِ الْعَقْلِ، وَقُوَّةِ الدِّينِ، وَفِي هَذا مِنَ التَّوْبِيخِ لِلْكُفَّارِ مَا لَا يَخْفَى،... وَالِاسْتِثْنَاءُ فِي: إِلَّا قَلِيلًا مُنْقَطِعٌ أَيْ: لَكِنْ قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ: هُوَ مُتَّصِلٌ ، لِأَنَّ فِي حَرْفِ التَّحْضِيضِ مَعْنَى النَّفْيِ، فكأنه قال: ما كان في القرون أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، وَمَنْ فِي مِمَّنْ أَنْجَيْنَا، بَيَانِيَّةٌ لِأَنَّهُ لَمْ يُنَجَّ إِلَّا النَّاهُونَ، ... وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ أَيْ: مَا صَحَّ وَلَا اسْتَقَامَ أَنْ يُهْلِكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْقُرَى بِظُلْمٍ يَتَلَبَّسُونَ بِهِ ... وَالْحَالُ أَنَّ أَهْلَهَا مُصْلِحُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ...، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يُهْلِكُهُمْ بِمُجَرَّدِ الشِّرْكِ وَحْدَهُ حَتَّى يَنْضَمَّ إِلَيْهِ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ"[1].

المطلب الخامس
إرساء قاعدة (لا ضرر و لا ضرار)
وتجريم الإفساد البيئي

أولاً : إرساء قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)

لم تكتف شريعة الإسلام في سبيل ضمان تحقيق غايتها المنشودة بتحميل الإنسان مسؤولية الحد من الإجرام في حق البيئة أداءً للأمانة وقياماً بحق الاستخلاف، بل راحت تحجم تعامله مع البيئة وسلوكه البيئي عموماً وتكفل دفع الضرر البيئي قبل وقوعه، وإزالته إذا وقع بقاعدة(لا ضرر ولا ضرار) التي هي في الأصل نص حديث نبوي شريف في رتبة الحسن[2]، وصححه العلماء بمجموع طرقه الكثيرة، وإن كان مقتبساً من نصوص آيات قرآنية عدة تنفي الضرر:(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)(النساء /٢٩)،(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)(البقرة/١٩٥)، وقوله تعالى في نفي الضرار: (لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ)(البقرة/٢٣٣)،(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ) (البقرة/٢٨٢)[3]؛ فالحديث النبوي الشريف أو القاعدة نص في تحريم الضرر بجميع أشكاله وأنواعه؛ إذ النفي بلا الاستغراقية يدل على تحريم سائر أنواع الضرر في الشرع[4].

وبموجب ذلك :يحرم على الإنسان أن يضر بالبيئة بوجه من الوجوه تحريماً يدخل فيه قليل الضرر وكثيره، ودقيقه وجليله؛ فكل ذلك فساد حرمه الله؛ (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) (الأعراف/ ٥٦،٨٥)، وهو سبحانه يبغضه، ولا يحب أهله؛ (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)(القصص/٧٧)، (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (المائدة/٦٤)، (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)(البقرة/٢٠٥).

وإذ أضفنا إلى القاعدة الكلية(لا ضرر ولا ضرار) جملة ما قرره فقهاء الشريعة الإسلامية من قواعد جزئية تتفرع عنها وتندرج تحتها مثل[5]:قاعدة الضرر يدفع بقدر الإمكان..قاعدة الضرر يزال .. قاعدة

---

(1) فتح القدير (بتصرف):٢/٦٠٤، ٦٠٥.

(2) ينظر: الدكتور محمد صدقي البورنو- الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية- ط/٥- مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان١٩٩٨م:٢٥٣.

(3) ينظر: الدكتور القرضاوي - رعية البيئة-٤٠.

(4) ينظر: المرجع السابق نفسه.

(5) يراجع على سبيل المثال: جمعية المجلة- المجلة- تحقيق/نجيب هواديني- ط/كار خارنه تجارت كتب:(د.ت):١/١٨-٢٠.،والإمام عبدالرحمن السيوطي- الأشياء والنظائر- ط/دار الكتب العلمية-

يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام..قاعدة يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى..إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما .. قاعدة الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف .. قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

-إذا أضفنا هذه القواعد الجزئية- علمنا أن قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)- زيادة على ما تقدم- توجب دفع الضرر البيئي قبل وقوعه بكل الوسائل والإمكانات المتاحة قدر الاستطاعة، وتوجب إزالته ودفعه إذا وقع بما يمكن من التدابير التي تزيل آثاره وتمنع تكراره[١].

ولا غرابة في ذلك فـ« هذه القاعدة(كما يقر العلماء) من أركان الشريعة، وهي أساس لمنع الفعل الضار وترتيب نتائجه من التعويض المالي والعقوبة، كما أنها سند لمبدأ الاستصلاح في جلب المصالح ودرء المفاسد، وهي عدة الفقهاء وعمدتهم وميزانهم في تقرير الأحكام الشرعية للحوادث»[٢].

ثانياً: تجريم الفساد البيئي

إفساد البيئة في شريعة الإسلام ليس فقط عملاً محرماً يبغضه الله ولا يحب أهله (كما مر قريباً) ، بل هو بجميع أنواعه جريمة ، وجريمة تعود بالضرر على الناس جميعاً!!، اقرأ وتدبر قول العليم الخبير:(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)(المائدة/٣٢).

فلو لم يكن إفساد البيئة جريمة لما« قرن الله تعالى في الآية الكريمة بين قتل النفس والفساد في الأرض، وجعل كل منهما مبرراً للقتل، واستثناءً من صيانة حق الحياة ، وتفضيع جريمة إزهاق الروح»[٣]، حتى قال الجصاص:« تضمنت هذه الآية ضروباً من الدلائل على الأحكام منها:.. أن.. الفساد في الأرض يُستحق به القتل»[٤]،« فكان في مضمون الآية إباحة قتل المفسد في الأرض»[٥].أما كون الإفساد البيئي بجميع أنواعه جريمة؛ فلأن الفساد المذكور في الآية عام يشمل كل فساد أو بالأحرى كل ما يمكن أن يصدق عليه وصف الفساد في الأرض.

قال الإمام الشوكاني في الفتح:« وقد اختلف في هذا الفساد المذكور في هذه الآية ماذا هو؟ .. وظاهر النظم القرآني أنه كل ما يصدق عليه أنه فساد في الأرض، فالشرك فساد في الأرض، وقطع الطريق فساد في الأرض، وسفك الداء وهتك الحرم ونهب الأموال فساد في الأرض، والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض ،وهدم البنيان ، وقطع الأشجار ، وتغوير الأنهار فساد في الأرض..فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد في

بيروت-لبنان١٤٠٣هـ:١/٨٣-٧٨.، ومحمد عميم الإحسان- قواعد الفقه-ط/١- الصدف ببلشرز- كراتشي- باكستان١٩٨٦م:٨٨.

(١) ينظر: الدكتور محمد صدقي البرونو- الوجيز:٢٥٦،٢٥٤.

(٢) الشيخ مصطفى أحمد الزقار- المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية- ط/٥- مطبعة الجامعة السورية- دمشق- سوريا١٣٧٧هـ- فقرة:٥٨٦.- نقلاً عن المرجع نفسه:٢٥٣.

(٣) الإمام سيد قطب- في ظلال القرآن:٢/٨٧٨.

(٤) الإمام أبي بكر أحمد الجصاص- أحكام القرآن- ضبط وتخريج/ عبد السلام شاهين- ط/١- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان١٩٩٤م:٢/٥٠٧.

(٥) المصدر نفسه:٢/٥٠٥.

الأرض.. ، وقد قال تعالى:(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)(البقرة/٢٠٥) انتهى»[١].

ولعلنا لن نجانب الصواب إذا قلنا: أنه على قراءة الحسن لهذه الآية في قوله تعالى:(أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ) بالنصب على تقدير فعل محذوف يدل عليه أول الكلام تقديره:أو أحدث فساداً في الأرض (على هذه القراءة) يصبح الأمر أكثر وضوحاً، وأتم بياناً، بل وأدق وأقوى في التعبير عن عمق الأثر الذي تحدثه الجريمة البيئية في حياة الناس جميعاً(سيما في عصر كالذي نعيشه) حتى إن أحد التقارير الدولية ليشير إلى أن التلوث البيئي يقتل كل عام عشرة ملايين طفل، يموت ثلاثة ملايين منهم بسب الأجواء الملوثة وهم لم يكملوا بعد السنة الخامسة من أعمارهم[٢] .

المطلب السادس
ضبط قاعدة(الضرورات تبيح المحظورات)
وتشريع عقوبة الإفساد البيئي

أولاً: ضبط قاعدة(الضرورات تبيح المحظورات)

حتى لا تدع الشريعة الإسلامية للجريمة ثغرة تنفذ منها إلى البيئة فتلحق بها الفساد الذي يعود بالضرر على الناس جميعاً، راحت تضبط قاعدة(الضرورات تبيح المحظورات) ، التي هي في الأصل مستنبطة من نصوص القرآن الكريم، وتحديداً من خمس آيات كريمة [٣] منها على سبيل المثال، قول الله تعالى:

(وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ)(الأنعام/١١٩).

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(البقرة/١٧٣).

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(الأنعام/١٤٥).

فـ « هذه القاعدة(كما هو واضح) سبب من أسباب التخفيف والتيسير، وقد أقبل الدارسون عليها تحقيقاً وتمثيلاً وتطبيقاً وتقعيداً ، وقد ترتبت عليها عدة أحكام فقهية شهدت لها الأصول والقواعد والمبادئ الشرعية»[٤] ، غير أن الملفت للانتباه أن هذه القاعدة بصورتها الحالية قد تصبح مدخلاً لمجاوزة الحدود في التعامل مع البيئة، ومن ثم تجويز الإجرام بحقها، وحدوث الفساد البيئي تحت مسمى الضرورة.

---

(١) الإمام الشوكاني- فتح القدير: ٣٣،٣٥/٢.

(٢) ينظر: الدكتور سليمان إبراهيم العسكري- قاتل اسمه البيئة- العربي العلمي- ملحق بمجلة العربي- العدد/٢٠- وزارة الإعلام- الكويت- يناير٢٠٠٧م:٣.

(٣) ينظر: الدكتور القرضاوي- رعاية البيئة:٤١.

(٤) الدكتور نور الدين بن مختار الخادمي- الاجتهاد المقاصدي. حجيته..ضوابطه..مجالاته- كتاب/ الأمة- العدد/٦٦- ط/١- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر- نوفمبر١٩٩٨م:١٦٠/٢.

ولذلك حرصت شريعة الإسلام على تحجيم هذه القاعدة كإجرام منهجي يكفل الحد من الجريمة البيئية ، فضبطتها بعدد من المبادئ أو القواعد المنبثقة منها ، كـ [1]:

١- قاعدة الاضطرار لا يبطل حق الغير.

٢- قاعدة الضرورات تقدر بقدرها- أو بعبارة أخرى- ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

٣- قاعدة ما جاز لعذر بطل بزواله.

٤- قاعدة إذا زال المانع عاد الممنوع.

... إلخ تلك القواعد أو المبادئ التي تقطع الطريق على كل من يروم الإضرار بالبيئة متذرعاً بأن الضرورة تبيح المحظورة.

ثانياً: تشريع عقوبة الإفساد البيئي

وهو آخر الإجراءات المنهجية ، قررته شريعة الإسلام علاجاً للجريمة البيئية، ووقاية منها في الوقت ذاته ؛ فالعقاب يردع الجاني ، وينبه من تسول له نفسه إتيان الجريمة .

جاء هذا الإجراء نصاً محكماً في كتاب الله :(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(المائدة /٣٣).

قال الإمام الطبري:«وهذا بيان من الله عزّ ذكره عن حكم الفساد في الأرض الذي ذكره في قوله: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ..) أعلم فيه عباده ما الذي يستحق المفسد في الأرض من العقوبة والنكال ، فقال تبارك وتعالى: لا جزاء له في الدنيا إلا القتل والصلب وقطع اليد والرجل من خلاف ، أو النفي من الأرض خزياً لهم، وأما في الآخرة إن لم يتب في الدنيا فعذاب عظيم»[2].

وفي شريعة الإسلام من عموميات النصوص، ومن مصادر التشريع (كالمصالح المرسلة ، وسد الذرائع ،..إلخ)، ومن القواعد الفقهية ما يعين على تقنين العقوبة المناسبة لكل جريمة بيئية لم يرد فيها نص، بل وإنشاء قانون متكامل للحد من جرائم البيئة، ومواجهة حتى الجرائم البيئية المستحدثة، وفق القواعد الشرعية:

لا ضرر ولا ضرار..الضرر يزال.. الضرر يدفع بقدر الإمكان.. يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى.. يرتكب أخف الضررين.. درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة..مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب،.. ما بني على باطل فهو باطل.. الأمور بمقاصدها.. العادة محكمة.. ما قارب الشيء يأخذ بحكمه.. النادر لا حكم له.. للأكثر حكم الكل..، وغيرها من القواعد الشرعية المعروفة التي نصت عليها المصادر

(1) ينظر: الإمام السيوطي- الأشباه والنظائر:١/٨٥-٨٧.، ومحمد عميم الإحسان- قواعد الفقه:٨٩.، وجمعية المجلة- المجلة:١/١٨-٢٠.

(2) الإمام أبي جعفر محمد جرير الطبري- جامع البيان عن تأويل آي القرآن- ط/دار الفكر- بيروت- لبنان١٤٠٥هـ :٦/٢٠٥.

والمراجع المعتمدة في الفقه وأصوله قديماً وحديثاً، وقننت بها جوانب المعاملات ، ورتبت عليها مالا حصر له ولا يحصى أويعد من الأحكام.

ومن المعروف فقهاً ، أن العقوبات في الشريعة الإسلامية نوعان:

١/عقوبات محددة منصوص عليها في جرائم معينة ، وهي المعروفة في الفقه باسم الحدود والقصاص، والتي ورد نص بحكمها.

٢/عقوبات اجتهادية غير منصوص عليها، وهي العقوبات التعزيرية، التي يستنبط أولو الأمر حكمها من النصوص، والمصادر، والقواعد العامة في دفع المفاسد وحفظ المصالح[١].

الخـاتمـة

بعد هذه الرحلة الممتعة مع شريعة الإسلام وفي حناياها بحثاً عن منهجها في الحد من جرائم البيئة ، نلخص أهم النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج

خلص البحث إلى عدة النتائج مبثوثة في صفحاته ، وستطول هذه الخاتمة لو تم استعراض كل تلك النتائج لذا سيتم الاقتصار على أهمها في النقاط الآتية:

١. أن المحافظة على البيئة وحمايتها من الجريمة مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية ، بل إنه

من أهم المقاصد الكلية التي دل الشرع على حفظها واعتبارها[٢].

٢. أن الشريعة الإسلامية تستهدف الحد من جرائم البيئة بمنظومة متكاملة من الإجراءات المنهجية الإنمائية ، الوقائية ، العلاجية تمثلت في:

- توصيف رؤية واضحة لطبيعة البيئة ، والسلوك البيئي السوي الذي يلائم تلك الطبيعة.
- توحيد الإنسان بالبيئة وتحقيق التناغم والوفاق بينهما.
- تأطير علاقة الإنسان بالبيئة .
- بناء الفرد الصالح المحصن ضد الجريمة البيئية.
- إرساء قاعدة المسؤولية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- إرساء قاعدة (لا ضرر ولا ضرار).
- تجريم الإفساد البيئي.
- ضبط قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات).
- تشريع عقوبة الإفساد البيئي، وسن قوانين لمواجهته.

٣. أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وفيها من عموميات النصوص ومصادر وقواعد التشريع ما يعين على إنشاء قانون متكامل لحماية البيئة ، ومواجهة جميع الجرائم البيئية المستحدثة.

---

(١) ينظر: الدكتور- القرضاوي- رعاية البيئة: ٢٣٩،٢٣٨،٤٢.

(٢) ينظر: الدكتور بركات مراد- الإسلام والبيئة :٣.

٤. أن الإجراءات التي انتهجتها الشريعة الإسلامية للحد من جرائم البيئة ، تمثل السياسات المعاصرة ، التي نادت بها المؤتمرات العربية والدولية ، وأوصت باعتمادها في مواجهة الجريمة البيئية ، خصوصاً بعد فشل التشريعات ، والسياسات العقابية بمفردها في مواجهة الجريمة ، وعدم قدرتها على الردع[١].

٥. أن البعد العبادي المعزز بالترغيب في الثواب والترهيب من العقاب الأخروي قبل الدنيوي ، الذي تضفية الشريعة الإسلامية على جميع إجراءاتها المنهجية ، يضمن بالضرورة فاعلية المنهج ، ونجاحه التام في الحد من جرائم البيئة ، وقبل ذلك يبقى سر تميز المنهج واستعلائه على جميع المناهج والسياسات المعاصرة الهادفة إلى ذات الغرض.

ثانياً: التوصيات

يوصي البحث بالآتي:

- إحياء وتطوير مؤسسة الحسبة في جميع الدول الإسلامية للحد من جرائم البيئة.
- إنشاء مركز إسلامي متخصص في التشريع البيئي.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات أولاً وآخرا

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)) (الصافات)

(١) ينظر:الدكتور إبراهيم عيسى-تلوث البيئة:٦.

ثبت المصادر والمراجع

وهي بعد كتاب الله تعالى(القرآن الكريم) :

١. **إبراهيم** جازم إبراهيم-الخواطر القرآنية وشمولية الحصر-مجلة عالم البناء-عدد/ يوليو-القاهرة مصر١٩٨٥م .

٢. **بدوي** عبد الرحمن - مناهج البحث العلمي- ط/دار النهضة- القاهرة – مصر(د.ت).

٣. **البخاري** محمد بن إسماعيل -صحيح البخاري- ط/دارالغد الجديد-المنصورة:(د.ت).

٤. **البورنو** د. محمد صدقي - الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية- ط/٥- مؤسسة الرسالة - بيروت- لبنان١٩٩٨م.

٥. **الترمذي** محمد بن عيسى-سنن الترمذي-تحقيق/أحمد محمد شاكر- ط/دار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان: (د.ت).

٦. **توفيق** د. محمد عزالين - التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية- ط/دار السلام - القاهرة- مصر١٩٩٨م.

٧. **الجرجاني** علي بن محمد - التعريفات- تحقيق إبراهيم الإبياري- ط/١- دار الكتاب العربي- بيروت - لبنان:١٤٠٥هـ..

٨. **الجصاص** الإمام أبو بكر أحمد - أحكام القرآن- ضبط وتخريج/ عبد السلام شاهين- ط/١- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان١٩٩٤م.

٩. **جمعية المجلة** -المجلة- تحقيق/نجيب هواديني- ط/كار خارنه تجارت كتب:(د.ت).

١٠. **الحاجم** د. غازي محمد- المدخل إلى علم البيئة- ط/٣- جمعية عمال المطابع التعاونية -عمان- الأردن١٩٩٠م.

١١. **الحاكم** النيسابوري - المستدرك على الصحيحين - تحقيق/مصطفى عبد القادر- ط/١- دار المكتبة العلمية- بيروت- لبنان١٩٩٠م.

١٢.**ابن حبان** محمد البستي – صحيح ابن حبان - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط- ط/٢- مؤسسة الرحالة- بيروت- لبنان١٩٩٣م.

١٣. **الحليبي** د. أحمد الحليبي- المسؤولية الخلقية والجزاء عليها. دراسة ومقارنة- ط/١- مكتبة الرشيد- الرياض- السعودية:١٩٩٦م.

١٤.**أبي حيان** الأندلسي محمد بن يوسف-البحر المحيط- تحقيق/عادل أحمد عبد الجواد وغيره-ط/دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان٢٠٠١م.

١٥. **ابن حنبل** الإمام أحمد ابن حنبل- مسند أحمد- ط/مؤسسة قرطبة- القاهرة- مصر:(د.ت).

١٦. **الخادمي** د. نور الدين بن مختار - الاجتهاد المقاصدي. حجيته..ضوابطه..مجالاته- كتاب/ الأمة- العدد/٦٦- ط/١- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر- نوفمبر١٩٩٨م.

١٧. **الخطيب** عبد الكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن- ط/دار الفكر العربي- بيروت- لبنان:(د.ت).

١٨. **خلف الله** د. محمد أحمد - مفاهيم قرآنية- سلسلة عالم المعرفة- العدد/٧٩- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت - يوليو١٩٨٤م.

١٩. **خليل د.**عماد الدين خليل - حول تشكيل العقل المسلم- ط/٤- المعهد العالي للفكر الإسلامي- هيرندن- فيرجينيا- أمريكا١٩٩١م.

٢٠. **دوبو** رينيه دوبو- إنسانية الإنسان- تعريب/نبيل صبحي الطويل- ط/٢- مؤسسة الرسالة- بيروت لبنان:١٩٨٤م.
٢١. **الزبيدي** محمد بن مرتضى - تاج العروس من جواهر القاموس- تحقيق/ علي شيري- ط/دار الفكر- بيروت - لبنان ١٩٩٤م.
٢٢. **الزقار** مصطفى أحمد الزقار - المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية- ط/٥- مطبعة الجامعة السورية- دمشق- سوريا١٣٧٧هـ٢٥٣.

٢٣. **الزمخشري** الإمام الزمخشري -الكشاف عن حقائق التنزيل في التأويل- ط/مكتبة مص- القاهرة- مصر(د.ت) .
٢٤. **زيدان** د.عبد الكريم – أصول الدعوة- ط/٩ – مؤسسة الرسالة– بيروت- لبنان٢٠٠٢م.
٢٥. **أبو السعود** الإمام أبو السعود -إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم-ط/دار الفكر- بيروت- لبنان:(د.ت).
٢٦. **السعود** د. راتب السعود - الإنسان والبيئة.دراسة في التربية البيئية- ط/دار الحامد- عمان- الأردن ٢٠٠٤م.
٢٧. **سليمان** د. إبراهيم عيسى - تلوث البيئة أهم قضايا العصر. المشكلة والحل- ط/دار الكتاب الحديث- القاهرة - مصر٢٠٠٢م.
٢٨. **السيوطي** الإمام عبدالرحمن السيوطي- الأشباه والنظائر- ط/دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.١٤٠٣
٢٩. **شبير** د. محمد عثمان، وآخرون- حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة- كتاب الأمة- العدد/٨٧- ط/١- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر٢٠٠٢م.
٣٠. **الشوكاني** الإمام الشوكاني-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير- ط/١- دار ابن كثير- بيروت - لبنان ١٩٩٤م.
٣١. **الصنيع** د. صالح بن إبراهيم - التدين علاج الجريمة- ط/١- مكتبة الرشيد- الرياض السعودية ١٩٩٨م.
٣٢. **الأصفهاني** الراغب الأصفهاني - الذريعة إلى مكارم الشريعة- ط/دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان(د.ت).
٣٣. **الطبراني** الإمام الطبراني المعجم الأوسط - تحقيق/طارق بن عوض،وعبد المحسن الحسيني- ط/دار الحرمين- القاهرة - مصر١٤١٥هـ..
٣٤. الطبري الإمام أبي جعفر محمد جرير - جامع البيان عن تأويل آي القرآن- ط/دار الفكر- بيروت- لبنان١٤٠٥هـ .
٣٥.**الغزالي** حجة الإسلام أبو حامد محمد-المستصفى -تحقيق/عبدالسلام عبدالشافي ط/١-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان١٤١٣ه.
٣٦. **العاني** د. محمد شلال -عولمة الجريمة رؤية إسلامية في الوقاية-كتاب الأمة-العدد/١٠٧ -ط/١-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –قطر-يوليو٢٠٠٥م.
٣٧. **عبد العظيم** أحمد عبد العظيم - الإسلام والبيئة-ط/مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية - مصر١٩٩٩ .

٣٨. **العسكري** د. سليمان إبراهيم - قاتل اسمه البيئة- العربي العلمي- ملحق بمجلة العربي- العدد/٢٠- وزارة الإعلام- الكويت- يناير٢٠٠٧م.
٣٩. **عميم الإحسان** محمد عميم الإحسان- قواعد الفقه-ط/١- الصدف ببلشرز- كراتشي- باكستان١٩٨٦م.
٤٠. **العيني** الإمام بدر الدين العيني- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري- ط/دار الفكر(د.ت).
٤١. **فرحان** د. أحمد حسين - الخلافة في الأرض- ط/١- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان:(د.ت).
٤٢. **الفرفور** د. محمد الفرفور- الوسطية في الإسلام- ط/١- دار النفائس- بيروت- لبنان١٩٩٣م.
٤٣. **الفقي** محمد عبد القادر
.البيئة. مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث-ط/الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- مصر١٩٩م.
.التوازن البيئي والنواميس- مجلة منار الإسلام- العدد/- - - ذوالقعدة١٤٢٥هـ .
٤٤. **القرطبي** الإمام القرطبي-الجامع لأحكام القرآن-ط/دار الشعب- القاهرة –مصر١٣٧٢ه.
٤٥. **القرضاوي** د. يوسف القرضاوي
.رعاية البيئة في شريعة الإسلام- ط/١-دار الشروق- القاهرة- مصر٢٠٠١م.
.قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام - ط/٣- دار الصحوة- القاهرة- مصر ١٩٩٥م.
٤٦. **القزويني** الإمام محمد بن يزيد -سنن ابن ماجه- تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي- ط/دار الفكر- بيروت- لبنان(د.ت).
٤٧. **قطب** سيد قطب - في ظلال القرآن- ط/٧- دار الشروق- القاهرة- مصر١٩٧٨م.
٤٨. **ابن كثير** الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم- ط/١- دار الغد الجديد المنصورة- مصر٢٠٠٥م.
٤٩. **لجنة الكتاب والسنة** المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- المنتخب في تفسير القرآن الكريم -ط/دار الأرقم- بيروت- لبنان:(د.ت).
٥٠. **الماوردي** الأحكام السلطانية والولايات الدينية- لعلي بن محمد - ط/١- دار الفكر- القاهرة١٤٠٤هـ.
٥١. **مراد** د. بركات محمد - الإسلام والبيئة رؤية حضارية- ط/١- دار القاهرة - القاهرة- مصر٢٠٠٣م.
٥٢. **الإمام مسلم** بن الحجاج النيسابوري-صحيح مسلم - ط/ مؤسسة المختار - القاهرة- مصر٢٠٠٥م.
٥٣. **ملكاوي** د. فتحي حسن - التفكير المنهجي وضروراته- مجلة إسلامية المعرفة- العدد/٢٨-المعهد العالمي للفكر الإسلامي- هيرندن - فرجينيا- أمريكا- السنة/٧- ربيع٢٠٠٢م.
٥٤. **الإمام مالك** بن أنس- مؤطا مالك- تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي- ط/دار إحياء التراث العربي- القاهرة - مصر(د.ت).
٥٥. **المناوي** الإمام عبد الرؤوف المناوي- فيض القدير- ط/١- المكتبة التجارية - القاهرة- مصرك(د.ت).
٥٦. **ابن منظور** ابن منظور- لسان العرب- ط/١-دارصادر-بيروت– لبنان:١٩٩٥م.

٥٧. **النجار** د. عبد الحميد النجار- الإنسان والكون والعقيدة الإسلامية- مجلة المسلم المعاصر- العدد/٧٧ - أغسطس - أكتوبر١٩٩٥م.
٥٨. **النسفي** الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي -مدارك التنزيل وحقائق التأويل- تحقيق/ سيد زكريا- ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة- السعودية٢٠٠٠م.
٥٩. **الهيثمي** الإمام الهيثمي- مجمع الزوائد- ط/دار الريان-القاهرة، ودار الكتاب العربي- بيروت- لبنان١٤٠٧هـ.
٦٠. **وزارة المياه والبيئة اليمنية** -حماية البيئة في اليمن فريضة شرعية ومسؤولية وطنية - ط/اليمن الحديثة للطباعة- صنعاء- اليمن(د.ت).
٦١. **وزيري** د. يحي وزيري- العمارة الإسلامية والبيئة.الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي- سلسلة عالم المعرفة- العدد/٣٠٤- الكويت- يونيو٢٠٠٤م.

الأحاديث الواردة في اعتبار الكفاءة
في الدِّين والخُلق في النكاح
جمعا ودراسة حديثية

د. ساعد سعيد الصاعدي

المقدمة

الحمد لله الذي يسر سبيل العلم وأعان عليه، والصلاة والسلام على من به أنقذ الله الناس من الضلالة، وأبان سبيل الجنة والنار، ليُسلك هذا، ويُجتنب هذا، وبعد:

فإن من سبيل الجنة التماس طلب العلم، تعلماً وتعليماً، سواءً كان ذلك بالدرس أو الكتابة، وما بقي منه بعد الموت نفع صاحبه ما أخلص فيه النية .

ولقد أحببت أن أكون ممن يسلك ذلك السبيل ويبقى له أثر بعد الرحيل، فقلبت النظر في عمل أرجو به النفع لنفسي ولطلبة العلم، فوقع في خاطري مسألة الكفاءة في النكاح، فرأيت أهل العلم مختلفين فيها: اشتراطاً لها في صحة النكاح، واعتباراً بها، وتعييناً لحدها، وغيرها من الأمور المترتبة عليها .

ولقد رأيت أن أجمع الأحاديث الواردة في أحد مسائلها المعتبرة عند العلماء، ألا وهي **"الدِّين والخُلق"**، ولم أجد -حسب اطلاعي- من سبقني لهذا الجمع ودراسة الأحاديث دراسة فيها تتبع للأسانيد وإبراز المتابعات والشواهد، والحكم عليها حسب المتبع عند المحدثين، والذي وجته ما يلي :

١- رسالة صغيرة للشيخ الفقيه المحدث: قاسم بن قطلوبُغا (ت ٨٧٩هـ)، واسم رسالته "الكفاءة في النكاح"[(١)]، ولم يورد فيها إلا خمسة أحاديث تقريباً - وما يخص مسألتنا منها :حديثان فقط-، وبقية الرسالة تناولت المسألة من جوانبها الفقهية .

٢- بحث بعنوان: "الكفاءة في النكاح"[(٢)] لسمير بن خليل المالكي، باحث معاصر من أهل مكة .

٣- بحث بعنوان: "الكفاءة في عقد النكاح"[(٣)]، للدكتور محمد زيدان .

٤- بحث بعنوان: "الكفاءة في الزواج مقارنة بقانون الأحوال الشخصية"[(٤)]، اعداد: حسن محمد عبد الحميد الكردي .

٥- بحث بعنوان: "الكفاءة في النكاح"[(٥)]، للشيخ فيصل مولوي .

وكل هذه الدراسات ذكرت شيئاً من الأحاديث المتعلقة بالمسألة، ولم تكن أحكام الباحثين عليها

---

(١) موجودة ضمن كتاب : لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام ، المجموعة (٤) ، رسالة رقم (٤٠) .

(٢) منشور على موقع الشبكة العنكبوتية .

(٣) مجلة الجامعة الإسلامية - غزة- المجلد (١٧) ، العدد الأول .

(٤) منشور على موقع الشبكة العنكبوتية .

(٥) منشور على موقع الشبكة العنكبوتية .

من باب الدراسة الحديثية وتتبع الأسانيد وذكر المتابعات والشواهد، كما هو صنيع المحدثين، وإنما الاكتفاء بالعزو ونقل أحكام بعض أهل العلم عليها - على تفاوت بينهم- وبقية الدراسة: انصبت على ذكر كلام الفقهاء في هذه المسألة، واختلافهم في جوانب بقية مسائل الكفاءة في النكاح كالحرية، والنسب، والحسب،.. الخ .

وقد سميت بحثي بـ: "الأحاديث الواردة في اعتبار الكفاءة في الدِّين والخُلق في النكاح"، جمع ودراسة حديثية .

هذا، وقسمت البحث إلى مقدمة ،وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة ،وفهارس .

ذكرت في التمهيد ما يتعلق بتعريف الكفاءة والدِّين والخُلق، وأما المبحثان، فهما :

المبحث الأول: الأحاديث الصريحة الواردة في اعتبار الدِّين والخُلق في النكاح .

المبحث الثاني: الأحاديث غير الصريحة الواردة في اعتبار الدِّين والخُلق في النكاح .

والخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج، والفهارس تنوعت .

وقد ابتدأت في كل حديث بذكره ،مقتصراً على الصحابي في أوله، ثم ذكرت بعده من أخرجه عنه، وتوسعت في التخريج طلباً للمتابعات، وبينت شواهد الحديث عند الحاجة ، وأذكر في كل ذلك ما وجدته من كلام العلماء على الحديث، مسترشداً بهم ومرجحاً بحسب ما تقتضيه قواعد الفن، وما كان منها في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به، والله تعالى أسأله التوفيق والقبول، وأن يجعله ذخراً لي يوم ألقاه، إنه سميع قريب مجيب من دعاه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأزواجه وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

تمهيد

*** تعريف الكفاءة**

في اللغة: المساواة والمماثلة[١]، من كافأه إذا ساواه، يقال: فلان كفء لفلان أي مساوٍ له، والكفء معناه: النظير والمثيل والمساوي، وكل شيء ساوى شيئاً فهو مكافئ له[٢]، ومنه قوله تعالى: (. / 0 1 2) [٣] أي: لا مثيل له .

والكفاءة في النكاح : هو أن يكون الزوج مساوياً للمرأة في حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك[٤].

وقال الجرجاني[٥]: الكفاءة كون الزوج نظيراً للزوجة .

وأما الكفاءة في النكاح في تعريف الفقهاء :

فقد اختلفوا في المراد بها بحسب اجتهادهم في المعتبر منها، ولقد رأيت من الأنسب في هذا المقام[٦] إيراد ملخص أقوالهم على لسان ابن القيم رحمه الله تعالى، فإنه قال:

" وقد تنازَعُ الفقهاء في أوصاف الكفاءة؛ فقال مالك في ظاهر مذهبه: إنها الدِّين، وفي روايةٍ عنه: إنها ثلاثة: الدِّين والحريَّة والسَّلامة من العيوب.

وقال أبو حنيفة: هي النسب والدِّين، وقال أحمد في روايةٍ عنه: هي الدِّين والنسب خاصَّة، وفي روايةٍ أخرى: هي خمسة: الدِّين والنسب والحريَّة والصناعة والمال.

وقال أصحاب الشافعي: يُعتَبر فيها الدِّين والنسب والحريَّة والصناعة والسَّلامة من العيوب المنفِّرة "[٧] .

---

(١) لسان العرب (١٣٩/١) مادة "كفأ"، المصباح المنير ص٥٣٧ .

(٢) مختار الصحاح ص٥٨٦ ، المصباح المنير ص٥٣٧ .

(٣) الإخلاص (٤) .

(٤)النهاية لابن الأثير (٣٣٧/٤) ،لسان العرب (١٣٩/١) .

(٥) التعريفات ص٢٣٧ .

(٦) الغرض من بحثي هو الدراسة الحديثية لأدلة المسألة، وليس التناول الفقهي ، فقد كفيت مؤنة ذلك من قبل أصحاب البحوث التي أشرت إليهم في المقدمة ، ومن غيرهم .

(٧) زاد المعاد (١٥٨/٥) .

*** تعريف الدِّين**

في اللغة: يُطلق على عدة أمور[١] :

١- الجزاء .

٢- الطاعة .

٣- العادة والشأن .

وقال ابن فارس: الدال والياء أصل واحد، إليه يرجع فروعه كلها، وهو: جنس من الانقياد والذُّل[٢] .

في الاصطلاح: هو إعتقاد قداسة ذات، ومجموعة السلوك الذي يدل على الخضوع لتلك الذات ذلاً وحباً، رغبة ورهبة[٣] .

*** تعريف الخُلق**

في اللغة: الخلق، بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبع والسجية[٤]، والمروءة[٥] .

في الاصطلاح: عرف الجرجاني الخلق بأنه :"عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقاً سيئاً"[٦] .

قلت: والخُلق الحسن من الدين، وقد عرَّف ابن القيم حسن الخلق-بعد إيراده لحديث النواس بن سمعان قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ **e** ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: "الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ"[٧] - فقال: هو الدين كله وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ولهذا قابله بالإثم[٨].

وقد عقد رحمه الله فصلاً، فقال: فصلٌ: الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين[٩] .

---

(١) انظر لسان العرب (١٦٩/١٣) مادة "دين" .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣١٩/٢) مادة "دين" .

(٣) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص١٠ .

(٤) لسان العرب (٨٦/١٠) مادة "خلق" .

(٥) تهذيب اللغة (١٨/٧) مادة "خلق" .

(٦) التعريفات ص١٠١ .

(٧) صحيح مسلم (١٩٨٠/٤)(٢٥٥٤) .

(٨) مدارج السالكين (٣٠٦/٢) .

(٩) المصدر السابق (٣٠٧/٢) .

المبحث الأول
الأحاديث الصريحة الواردة في اعتبار الدِّين والخُلق في النكاح

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّ رَسُولَ اللَّهِ e خَطَبَهُمْ وهو مُسْنِدٌ ظَهْرَهُ إلى الْكَعْبَةِ فقال: **"لاَ صَلاَةَ بَعْدَ الْعَصْرِ حتى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، وَلاَ صَلاَةَ بَعْدَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، وَالْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ على من سِوَاهُمْ، أَلاَ لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ و، َلاَ ذُو عَهْدٍ في عَهْدِهِ"**[١] .

أخرجه الإمام أحمد[٢]: ثنا عبد الصَّمَدِ ثنا خَلِيفَةُ عَن عَمْرِو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جَدِّهِ (الحديث) .
وأخرجه[٣] أيضاً عن يزيد عن محمد بن إسحاق ، وعن إبراهيم بن أبي العباس وحسين بن محمد كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عبد الرحمن بن الحرث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، كلاهما- ابن إسحاق وابن الحرث- عن عمرو بن شعيب به، بأتمَّ منه .
وأخرجه أبو داود[٤] عن قتيبة بن سعيد عن ابن أبي عدي عن ابن إسحاق به، وأخرجه أيضاً عن عبيد الله بن عمر بن ميسرة عن هشيم عن يحيى بن سعيد عن عمرو بن شعيب به .
عبد الصمد بن عبد الوارث التنوري أبو سهل الحافظ قال عنه الذهبي: حجة[٥]، وخليفة ابن خياط أبو هبيرة جد خليفة بن خياط الملقب بشباب ،ذكره ابن حبان في الثقات[٦]، ويزيد في الإسناد الثاني هو ابن هارون السلمي ثقة متقن[٧]، ومحمد بن إسحاق هو ابن يسار صاحب المغازي صدوق يدلس[٨] .
وهذا الحديث إسناده حسن، فحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، هذه السلسلة،عدها الذهبي[٩]من أعلا مراتب الحديث الحسن،وقد حسن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح[١٠].
وله **شاهد** من حديث عَلِيٍّ رضي الله عنه، ولفظه ،أن رَسُولَ اللَّهِ e قال: "الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ،وَهُمْ يَدٌ على من سِوَاهُمْ ،يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ،أَلاَ لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ ،وَلاَ ذُو عَهْدٍ في عَهْدِهِ" .

(١) أورده البيهقي في السنن (١٣٣/٧) تحت باب : اشتراط الدين في الكفاءة ، من حديث علي t .
(٢) المسند (٢١١/١)(٦٩٧٠) ، وهو من زوائد عبد الله .
(٣) المسند (١٨٠/٢)(٦٦٩٢) ، (٢١٥/٢)(٧٠١٢) .
(٤) السنن (٨٠/٣)(٢٧٥١) .
(٥) الكاشف (٣٣٧٦) .
(٦) الثقات (٢٦٩/٦)
(٧) التقريب (٧٧٨٩) .
(٨) التقريب (٥٧٢٥) .
(٩) الموقظة ص٣٢ ، بتحقيق عبد الفتاح أبو غدة .
(١٠) فتح الباري (٢٦١/١٢) .

أخرجه عبد الله[١] بن الإمام أحمد: حدثني عُبَيْدُ اللَّهِ بن عُمَرَ القواريري حدثنا محمد بن عبد الْوَاحِدِ بن أبي حَزْمٍ ثنا عُمَرُ بن عَامِرٍ عن قَتَادَةَ عن أبي حَسَّانَ عن عَلِيٍّ (الحديث) .
وأخرجه أحمد[٢] عن بَهْز عن همام عن قتادة به، بأطول منه، وأخرجه أيضاً[٣] عن يحيى(بن سعيد) عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة والأشتر عن علي (الحديث)، بأتم منه .
عبيد الله بن عمر القواريري، ثقة ثبت[٤]، ومحمد بن عبد الواحد ،ذكره ابن شاهين، و ابن حبان في الثقات[٥]، وعمر بن عامر، الذي يظهر من خلال ترجمته أنه صدوق[٦]، وهو ما اختاره الذهبي في الميزان[٧]، وقال ابن عدي[٨]: لا بأس به .
بهز بن أسد العمي أبو الأسود البصري ثقة ثبت[٩]، وهمام بن يحيى العوذي ثقة ربما وهم[١٠]،وقتادة ثقة ثبت[١١]،عدّه ابن حجر من أهل الطبقة الثالثة من المدلسين[١٢] ،وأبو حسان هو مسلم بن عبد الله الأعرج، وثقة ابن معين والعجلي وابن سعد وابن عبد البر، ونقل الأثرم عن الإمام أحمد أنه مستقيم الحديث، وقال أبو زرعة الرازي: لابأس به، واختار الذهبي توثيقه[١٣]، وهو الأقرب والعلم عند الله .
حديث علي هذا إسناده حسنٌ غير أن فيه عنعنة قتادة، وهو يتقوى بحديث الباب - حديث عمرو بن شعيب - والله أعلم .

٢- عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي **e** قال: **"تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ"** .
أخرجه البخاري في صحيحه[١٤]: حدثنا مُسَدَّدٌ حدثنا يحيى عن عُبَيْدِ اللَّهِ قال حدثني سَعِيدُ بن أبي سَعِيدٍ عن أبيه عن أبي هُرَيْرَةَ (الحديث) .
وأخرجه أيضاً مسلم في الصحيح[١٥]: حدثنا زُهَيْرُ بن حَرْبٍ وَمُحَمَّدُ بن الْمُثَنَّى وَعُبَيْدُ اللَّهِ بن

---

(١) المسند (١٢٢/١)(٩٩١) ، وهو من زوائد عبد الله .
(٢) المسند (١٢٢/١)(٩٥٩) .
(٣) المسند (١٢٢/١)(٩٩٣) .
(٤) التقريب (٤٣٢٥) .
(٥) تاريخ أسماء الثقات (ص٢١٠) ،الثقات لابن حبان (٦٠/٩) .
(٦) تهذيب التهذيب (٤١٠/٧) ، الجرح والتعديل (١٢٦/٦)
(٧) (٢٥١/٥) .
(٨) الكامل (٢٨/٥) .
(٩) التقريب (٧٧١) .
(١٠) التقريب (٧٣١٩) .
(١١) التقريب (٥٥١٨) .
(١٢) تعريف أهل التقديس بمعرفة من وصف بالتدليس (٩٢) .
(١٣) انظر : تهذيب التهذيب (٧٦/١٢) ، معرفة الرجال (٣٩٤/٢) ، الجرح والتعديل (٢٠١/٨) ، الكاشف (٦٥٧٦) .
(١٤) (١٩٥٨/٥)(٤٨٠٢) .
(١٥) (١٠٨٦/٢)(١٤٦٦) .

سَعِيدٍ قالوا: حدثنا يحيى بن سَعِيدٍ، به .

٣- عن أبي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قال: قال رسول اللَّهِ e : **"إذا جَاءَكُمْ من تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأرض وَفَسَادٌ**[١]**"**، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وإن كان فيه ؟! قال: **"إذا جَاءَكُمْ من تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ،ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"** .

أخرجه الترمذي[٢]: حدثنا محمد بن عَمْرٍو السَّوَّاقُ الْبَلْخِيُّ حدثنا حَاتِمُ بن إسماعيل عن عبد اللَّهِ بن مسلم بن هُرْمُزَ[٣] عن مُحَمَّدٍ وَسَعِيدٍ ابْنَيْ عُبَيْدٍ عن أبي حَاتِمٍ (الحديث) .

وقال: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وأبو حَاتِمٍ الْمُزَنِيُّ له صحبة، ولا نَعْرِفُ له عن النبي e غير هذا الحديث .

وأخرجه ابن أبي عاصم[٤] عن يعقوب بن حميد ،وأبو داود[٥] عن يحيى بن معين، وكذلك البخاري في الكنى[٦]، وابن أبي الدنيا[٧]، والطبراني[٨]، من طُرُق ،كلهم عن حاتم بن إسماعيل به .

وفي إسناد الحديث ابن هرمز "ضعيف"[٩]، ومحمد وسعيد ابني عبيد: مجهولان[١٠]، وأبو حاتم المزني اختُلف في صحبته، فأثبتها البخاري والترمذي وأبو نعيم الأصبهاني وابن عبد البر وابن حجر حيث ذكره في القسم الأول في الإصابة، ونفاها عنه أبو زرعة الرازي وأبو داود حيث أخرج هذا الحديث في المراسيل، وكذلك ابن القطان وضَعَّفَ الحديث للإرسال وضَعْف رواته[١١] .

وخلاصة القول:

الحديث ضعيف،لكن يرتقي للحسن لغيره بشهادة الذي بعده ،وهو حديث أبي هريرة[١٢]، وقد حسن الترمذي[١] حديث أبي حاتم المزني .

---

(١) في المصادر الأخرى ، زيادة : "عريض" ، بعد قوله : وفساد .

(٢) السنن (٣٩٥/٣)(١٠٨٥) .

(٣) قال المزي : وقع في بعض النسخ المتأخرة من الترمذي "عبد الله بن مسلم بن هرمز" وهو خطأ ، وفي الأصول القديمة الصحيحة : "عبد الله بن هرمز" ، وهو الصواب ، وهو غير "عبد الله بن مسلم بن هرمز" ، بينما يرى ابن حجر أنهما واحد ، وأيد كلامه بصنيع ابن عساكر في الأطراف ، وابن السكن في الصحابة.
انظر : تحفة الأشراف ، والنكت عليها (١٤٢/٩) ، التقريب (٣٦١٦) .

(٤) الآحاد والمثاني (٣٥١/٢)(١١٢٢) .

(٥) المراسيل ص١٩٢ (٢٢٤) .

(٦) الكنى (٢٠٦) .

(٧) العيال (٢٦٤/١)(١١٧) .

(٨) المعجم الكبير (٢٩٩/٢٢)(٧٦٢) .

(٩) التقريب (٣٦١٦) .

(١٠) التقريب (٦١٢٣) ، (١٩٣١) .

(١١) انظر : الكنى للبخاري (٢٠٦) ، وسنن الترمذي (٣٩٥/٣) ، والعلل له ص١٥٤ ، معرفة الصحابة (٢٨٦٨/٥) ، الاستيعاب (١٦٢٥/٤) ، المراسيل لأبي داود ص١٩٢(٢٢٤) ، المراسيل لابن أبي حاتم ص٢٥٠ ، الجرح والتعديل (٣٦٣/٩) ، بيان الوهم والإيهام (٢٠٣/٥) .

(١٢) الآتي برقم (٢٤) .

٤- عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللَّهِ e : **"إذا خَطَبَ إِلَيْكُمْ من تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأرض وَفَسَادٌ عَرِيضٌ"** .

أخرجه الترمذي[٢]: حدثنا قُتَيْبَةُ حدثنا عبد الْحَمِيدِ بن سُلَيْمَانَ عن ابن عَجْلَانَ عن ابن وَثِيمَةَ النَّصْرِيِّ عن أبي هُرَيْرَةَ (الحديث) .
أخرجه ابن ماجه[٣]، والحاكم[٤]، والطبراني[٥] من طرق عن عبد الحميد به .
ورواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبي هريرة عن النبي e ، ولم يذكر أحداً بين ابن عجلان والنبي e ، فهو إسناد منقطع، كما أفاده الترمذي، ونقل عن شيخه البخاري أن حديث الليث أشبه، ولم يَعُدَّ حديث عبد الحميد محفوظاً[٦] .
قلت: وهذا مقتضى الصنعة الحديثية، فعبد الحميد ضعيف[٧]، والليث ثقة ثبت فقيه إمام[٨]، تُقدم روايته، وعليه فالحديث ضعيف لانقطاع سنده، لكن يشهد له حديث أبي حاتم المزني السابق[٩]، فيكون حسناً لغيره، والعلم عند الله .

٥- عن ابن عمر قال: قال رسول الله e : **"إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير"** .

أخرجه الدولابي[١٠]: أخبرني أحمد بن شعيب، قال: أخبرني سعيد بن الحكم المبنجي، قال: حدثنا عمار بن مطر أبو عثمان الصفار، قال: حدثنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر (الحديث).
وأخرجه ابن عدي[١١]: ثنا صالح بن أبي الحسن المنبجي ثنا الحكم بن خلف أبو مروان ثنا عمار بن مطر، به .
قال ابن عدي: حديث عمار عن مالك بهذا السند باطلٌ، ليس هو بمحفوظ عن مالك، وعمار بن مطر الضعف على رواياته بيِّن .
وقال النسائي[١٢] عن الحديث: كذب، يعني: على مالك .

---

(١) السنن ٣٩٥/٣٤)(١٠٨٥) .
(٢) السنن (٣٩٤/٣)(١٠٨٤) .
(٣) السنن (٦٣٢/١)(١٩٦٧) .
(٤) المستدرك (١٧٩/٢)(٢٦٩٥) .
(٥) المعجم الأوسط (١٤٢/١)(٤٤٦) .
(٦) سنن الترمذي (٣٩٤/٣) .
(٧) التقريب (٣٧٦٤) .
(٨) التقريب (٥٦٨٤) .
(٩) رقم (٢٣) .
(١٠) الكنى والأسماء (٧١٧/٢)(١٢٥٥) .
(١١) الكامل (٧٢/٥) .
(١٢) انظر كتاب الكنى السابق .

٦- عن أبي هريرة عن النبي e قال: **"كَرَمُ الرَّجُلِ دِينُهُ، وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ"** .

أخرجه أحمد[١]: ثنا حُسَيْنُ بن مُحَمَّدٍ ثنا مُسْلِمٌ يعني ابن خَالِدٍ عَنِ الْعَلاءِ بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هُرَيْرَةَ (الحديث) .
وأخرجه أيضاً ابن حبان في صحيحه[٢]، والحاكم[٣]، والدارقطني[٤]، من طرق عن مسلم بن خالد به .
ومسلم بن خالد هو الزنجي "صدوق كثير الأوهام"[٥]، وقال الذهبي[٦] بعد أن ذكر له عدة أحاديث: "فهذه الأحاديث وأمثالها تُرد بها قوة الرجل ويُضَعَّف" اهـ .
وأخرجه الطبراني[٧]: حدثنا محمد بن الحسن ثنا محمد بن خلف ثنا رواد نا أبو غسان محمد بن مطرف عن ابن عجلان عن خالد بن اللجلاج عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: **"كرم المؤمن تقواه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه"** .
وهذا إسناد ضعيف، فيه شيخ الطبراني مُتكلم فيه[٨]، ورواد بن الجراح، قال ابن عدي: يُكتب حديثه[٩]، وخالد بن اللجلاج - ويقال له حصين بن اللجلاج مجهول[١٠].
و أخرجه ابن عساكر[١١]: أخبرنا بهرام بن بهرام بن فارس أبو الشجاع الفارسي إجازة كتب بها إلينا من بغداد، قال: أبنا القاضي أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي قراءة عليه، قال: أبنا أبو عمر محمد بن العباس بن محمد بن زكريا بن حيويه الخزاز، قال: قرئ على أبي بكر محمد بن خلف بن المرزبان، قال: ثنا أبو علي العبدي ثنا معتمر بن سليمان ثنا ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي e قال: **"كرم المرء تقواه، ومروءته خلقه، وحسبه دينه"**، وقال: هذا حديث حسن غريب .
و أخرجه أبو يعلى[١٢]: حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معدي بن سليمان أبو سليمان صاحب الطعام عن بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي e قال: **"كرم المؤمن تقواه، ومروءته عقله، وحسبه دينه"** وعنده في متنه زيادة .
معدي بن سليمان، قال أبو زرعة: واهي الحديث يحدث عن ابن عجلان بمناكير[١٣]، وقال ابن

---

(١) المسند (٣٦٥/٢)(٨٧٥) .
(٢) (٢٣٢/٢)(٤٨٣) .
(٣) المستدرك (٢١٢/١)(٤٢٥) .
(٤) السنن (٣٠٣/٣)(٢١٤) .
(٥) التقريب (٦٦٢٥) ، تهذيب التهذيب (١١٥/١٠) .
(٦) ميزان الإعتدال (٤١٥/٦) .
(٧) الأوسط (٥/٧)(٦٦٨٦) .
(٨) لسان الميزان (١٣٣/٥) .
(٩) الكامل (١٧٨/٣) .
(١٠) التقريب (١٣٨١) .
(١١) في معجم شيوخه (٢٢٥) ، حققه الدكتورة وفاء تقي الدين ،دار البشائر /دمشق .
(١٢) المسند (٣٣٢/١١)(٦٤٥٠) .
(١٣) تهذيب التهذيب (٢٠٦/١٠) .

حبان: يروي المقلوبات عن الثقات والملزقات عن الأثبات لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد[١]، وابن عجلان واسمه محمد ،قال الذهبي: صدوق[٢] .
قلت: الحديث يُحسن بما ذكرت من متابعات ،ومعاني ألفاظها متقاربه، فدل على أن الخلق والدِّين من الحسب، والعلم عند الله .

٧- عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللَّهِ e : **"لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودُ إلا مثله"** .

أخرجه أبو داود[٣]: حدثنا مُسَدَّدٌ وأبو مَعْمَرٍ قالا: ثنا عبد الْوَارِثِ عن حَبِيبٍ حدثني عَمْرُو بن شُعَيْبٍ عن سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عن أبي هُرَيْرَةَ (الحديث) .
وأخرجه أحمد[٤] عن عبد الصمد بن عبد الوارث عن أبيه، به .
وأخرجه الحاكم[٥]، وابن حزم[٦] من طريق يزيد بن زريع، عن حبيب به .
عبد الوارث هو ابن سعيد "ثقة ثبت"[٧]، وحبيب هو المعلم، ثقة[٨]، وعمرو بن شعيب، وإن كان صدوقاً[٩]، إلا أن يحيى بن سعيد القطان قال فيه: "إذا روى عنه ثقة فهو ثقة محتج به"[١٠]، قلت: والراوي عنه هنا ثقة، وعليه فالحديث صحيح، والعلم عند الله .
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد .
قال ابن عبد الهادي: رواه أحمد، وأبو داود، وإسناده صحيح إلى " عمرو " وهو ثقة محتج به عند الجمهور[١١] .اهـ
وقال ابن حجر: "رواه أحمد وأبو داواد ،ورجاله ثقات"[١٢]، وصححه الألباني[١٣] .

٨- عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله e : **"من زَوَّج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها"** .
أخرجه ابن حبان[١]: أخبرنا محمد بن الحسن بن قتيبة ثنا وارث بن الفضل ثنا الحسن بن محمد

(١) المجروحين (٤٠/٣) .
(٢) في كتابه : من تُكلم فيه وهو ثقة أو صالح الحديث (٣٠٨) .
(٣) السنن (٢٢١/٢)(٢٠٥٢) .
(٤) المسند (٣٢٤/٢)(٨٢٨٣) .
(٥) المستدرك (٢١١/٢)(٢٧٤٨) .
(٦) المحلى (٤٧٧/٩) .
(٧) التقريب (٤٢٥١) .
(٨) الكاشف (٩٢٤) ، ذكر من تكلم فيه وهو موثق أو صالح الحديث (٧٧) .
(٩) التقريب (٥٠٥٠) .
(١٠) تهذيب الكمال (٦٧/٢٢) ، وإن كان الذهبي تردد في صحة هذا النقل عن ابن القطان ، لوجود ما يخالفه عنه ، السير (١٦٦/٥) .
(١١) المحرر (٢٢١/١) .
(١٢) البلوغ ص٢٠٨ (١٠٢٩) .
(١٣) السلسلة الصحيحة (٥٧٢/٥)(٢٤٤٤) .

البلخي ثنا حميد الطويل عن أنس بن مالك (الحديث) .
ومن طريق ابن حبان أخرجه ابن الجوزي[٢]، وأخرجه ابن عدي[٣] عن ابن قتيبة به .
في سند الحديث الحسن بن محمد البلخي، قال ابن حبان: "يروي عن حميد الطويل وعوف الأعرابي الأشياء الموضوعة، وعن غيرهما من الثقات الأحاديث المقلوبة، لا يجوز الاحتجاج به، ولا الرواية عنه بحال"[٤]، وقال ابن عدي: " وليس بمعروف، منكر الحديث عن الثقات"[٥] .
فالحديث منكر، قال ابن حبان: هذا من قول الشعبي، ورفعه باطل[٦]، وقال ابن عدي: وهذا الحديث مُسْنَدُهُ منكر، وإنما يُروى هذا عن الشعبي رحمه الله من قوله[٧]، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات[٨]، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة[٩] .
وهو مروي عن الشعبي من قوله، أخرجه ابن حبان في الثقات[١٠]: حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي ثنا سعيد بن يعقوب ثنا يحيى بن ضريس عن الخليل بن زرارة عن مطرف عن الشعبي قال: من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها .

وأخرجه أبو نعيم[١١]: حدثنا سليمان بن أحمد ثنا الحسن بن العباس الرازي ثنا محمد بن حميد ثنا حكام بن سلم عن الخليل بن زياد عن مطرف عن الشعبي به .
قال العراقي: رواه ابن حبان في الثقات من قول الشعبي بإسناد صحيح[١٢] .
ويروى عن فضيل بن عياض نحوه، فقد أخرج ابن حبان[١٣]: حدثنا أبو يعلى ثنا عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل يقول: من زوج ابنته من مبتدع فقد قطع رحمها .
قلت: وهذا أيضاً إسناده صحيح .

---

(١) المجروحين (٢٣٨/١)(٢١٤) .
(٢) الموضوعات (١٦٦/٢) .
(٣) الكامل (٣٢٢/٢) .
(٤)المجروحين (٢٣٨/١)(٢١٤) .
(٥)الكامل (٣٢٢/٢) .
(٦) المصدر السابق .
(٧) المصدر السابق .
(٨) (١٦٦/٢) .
(٩) (١٣٢/٢) .
(١٠) (٢٣٠/٨) .
(١١) الحلية (٣١٤/٤) .
(١٢) المغني عن حمل الأسفار (٣٨٨/١) .
(١٣) الثقات (٤١٥/٨) .

المبحث الثاني
الأحاديث غير الصريحة الواردة في اعتبار الدِّين والخُلق في النكاح

٩- عن فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّ أَبَا عَمْرِو بن حَفْصٍ طَلَّقَهَا الْبَتَّةَ وهو غَائِبٌ، فذكرتْ الحديث إلى أن قالت: فلما حَلَلْتُ ذَكَرْتُ له -يعني النبي e- أَنَّ مُعَاوِيَةَ بن أبي سُفْيَانَ وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي فقال رسول اللَّهِ e: **"أَمَّا أبو جَهْمٍ فلا يَضَعُ عَصَاهُ عن عَاتِقِهِ ،وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ له، انْكِحِي أُسَامَةَ بن زَيْدٍ"**، فَكَرِهْتُهُ، ثُمَّ قال: **"انْكِحِي أُسَامَةَ"**، فَنَكَحْتُهُ،فَجَعَلَ الله فيه خَيْرًا وَاغْتَبَطْتُ به[١] .

أخرجه مسلم في صحيحه[٢]: حدثنا يحيى بن يحيى قال قرأت على مَالِكٍ عن عبد اللَّهِ بن يَزِيدَ مولى الْأَسْوَدِ بن سُفْيَانَ عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن عن فَاطِمَةَ (الحديث)، وأخرجه[٣] أيضاً من طريق أبي بَكْرِ بن أبي شَيْبَةَ قال: حدثنا وَكِيعٌ حدثنا سُفْيَانُ عن أبي بَكْرِ بن أبي الْجَهْمِ بن صُخَيْرٍ الْعَدَوِيِّ عن فَاطِمَةَ به .

***

١٠- عن سَهْلٍ قال: مَرَّ رَجُلٌ على رسول اللَّهِ e فقال: **"ما تَقُولُونَ في هذا"** ؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قال أَنْ يُسْتَمَعَ، قال: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ من فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فقال: **"ما تَقُولُونَ في هذا"** ؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قال أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فقال رسول اللَّهِ e: **"هذا خَيْرٌ من مِلْءِ الأرض مِثْلَ هذا"** .

أخرجه البخاري في صحيحه[٤]: حدثنا إِبْرَاهِيمُ بن حَمْزَةَ حدثنا بن أبي حَازِمٍ عن أبيه عن سَهْلٍ (الحديث) .

١١- عن عائشة قالت: قال النبي e: **" إِنَّما النكاحُ رِقٌّ، فلْيَنظُرْ أحدُكم إلى مَن يرِقُّ عَتِيقَتَه"** .

أخرجه مُكْرَم البزّاز في فوائده[٥]: حدثنا عيسى بنُ إسحاقَ بن موسى الأنصاريُّ: حدثنا محمدُ بنُ حاجبٍ المَروزيُّ أبو عقيلٍ: حدثنا عبدُ الرزاق، عن معمرٍ، عن الزُّهريِّ، عن عروةَ، عن عائشة رضي الله عنها (الحديث) .

هذا الحديث رواته ثقات، إلا محمد بن حاجب، قال عنه أبو حاتم الرازي: "صدوق"[٦]، فإسناده أقل أحواله الحُسن، إلا أن العراقي قال: رواه أبو عمر الشوقاني في كتاب معاشرة الأهلين، موقوفاً على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، قال البيهقي: وروي ذلك مرفوعاً،

---

(١)بوَّب عليه البيهقي في السنن (١٣٥/٧) فقال : باب اعتبار اليسار في الكفاءة .
(٢) (١١١٤/٢)(١٤٨٠) .
(٣) (١١١٩/٢)(١٤٨٠) .
(٤) (١٩٥٨/٥)(٤٨٠٣) ، في باب : الأكفاء في الدين .
(٥) فوائد مُكْرَم البزّاز / أبي بكر مكرم بن أحمد بن محمد بن مكرم القاضي البغدادي (ت٣٤٥ هـ) انظر [مجموع فيه ثلاثة أجزاء حديثية (ص٣٤٠)(٧٤٧) تحقيق : نبيل سعد الدين جرار ، ط١/ دار البشائر ١٤٣١ه] .
(٦) الجرح والتعديل (٢٤٠/٧) .

والموقوف أصح أهـ .[١]

١٢- عن عَلِيٍّ بن أبي طَالِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ e قال لـه: **"يا عَلِيُّ ثَلَاثٌ لَا تُؤَخِّرْهَا الصَّلَاةُ إذا أَتَتْ، وَالْجَنَازَةُ إذا حَضَرَتْ، وَالْأَيِّمُ إذا وَجَدْتَ لها كفؤاً"** .

أخرجه الترمذي[٢]: حدثنا قُتَيْبَةُ حدثنا عبد اللَّهِ بن وَهْبٍ عن سَعِيدِ بن عبد اللَّهِ الْجُهَنِيِّ عن مُحَمَّدِ بن عُمَرَ بن عَلِيِّ بن أبي طَالِبٍ عن أبيه عن عَلِيِّ بن أبي طَالِبٍ (الحديث) .
وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير[٣]عن قتيبة به سواء،وكذا البيهقي[٤] من طريق قتيبة به.
وأخرجه أحمد[٥]: ثنا هَارُونُ بن مَعْرُوفٍ أَنْبَأَنَا ابن وَهْبٍ، به مثله .
وأخرجه الحاكم[٦] من طريق الإمام أحمد، إلا أنه قال في سنده "سعيد بن عبد الرحمن الجمحي" بدل سعيد بن عبد الله الجهني، وكذا أخرجه ابن حبان في المجروحين[٧]: حدثنا ابن خزيمة قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا هارون بن معروف عن ابن وهب عن سعيد ابن عبد الرحمن الجمحي به .
قال ابن حجر[٨]: ورواه الحاكم من هذا الوجه فجعل مكانه: سعيد بن عبد الرحمن الجمحي، وهو من أغلاطة الفاحشة اهـ .
وأخرجه البيهقي[٩] من طريق شيخه الحاكم على الصواب، وقال عقبه: "وقع في كتاب شيخنا: سعيد بن عبد الرحمن الجهني، وهو خطأ" .
قال الترمذي: هذا حديث غريب، وما أرى إسناده بمتصل[١٠] .
وأما الحاكم فقال: غريب صحيح[١١]، هكذا قال ،لكن عرفت ما وقع عنده من خطأ في إسناده .
وعزاه السخاوي[١٢] للترمذي وحسن إسناده .
قلت: فيه سعيد بن عبد الله الجهني، قال، أبو حاتم: مجهول[١٣]، وقال ابن حجر: "مقبول"[١٤]، وقال في التلخيص [١٥]: مجهول، وأورده الذهبي في المغني في الضعفاء[١]، وقال ابن حبان:

---

(١) المغني عن حمل الأسفار (٣٨٨/١) ، وانظر قول البيهقي في السنن الكبرى (٨٢/٧) .
(٢) في جامعه (٣٨٧/٣)(١٠٧٥) .
(٣) (١٧٧/١)(٥٣٨) .
(٤) السنن (١٣٢/٧)(١٣٥٣٥) .
(٥) المسند (١٠٥/١)(٨٢٨) .
(٦) المستدرك (١٧٦/٢)(٢٦٨٦) .
(٧) (٣٢٣/١)(٣٩٨) .
(٨) التلخيص الحبير (٥٢٠/٢) .
(٩) السنن الصغرى (١٢٩/٦-١٣٠)(٢٤٠٦) .
(١٠) السنن (٣٨٧/٣) .
(١١) المستدرك (١٧٦/٢)(٢٦٨٦) .
(١٢) المقاصد الحسنة (ص٢٤٨) .
(١٣) الجرح والتعديل (٣٧/٤) .
(١٤) التقريب (٢٣٤١) .
(١٥) التلخيص الحبير (٥٢٠/٢) .

ثقة[٢] .
وأورد ابن تيمية هذا الحديث في شرحه على العمدة، ونقل كلام الترمذي، ثم قال عقبه: "لكن هذا الانقطاع هو من رواية ولده، ومثل ذلك يكون أقوى المراسيل، فإنهم أعلم بحديثهم"[٣] اهـ .
وأورده عبد الحق الإشبيلي في أحكامه[٤] وقال: "ويقال إن عمر بن علي لم يسمع من أبيه لصغره، إلا أن أبا حاتم قال: عمر بن علي بن أبي طالب سمع أباه، وسمع منه محمد" .
قال ابن الملقن[٥]: "فاتصل إسناده على هذا، لكن أُعلَّ بعلة أخرى، وهي جهالة سعيد بن عبد الله الجهني، كما نص عليه أبو حاتم الرازي، أعله بذلك عبد الحق في أحكامه"اهـ
والحديث ضعف إسناده ابن حجر[٦] .

١٣- عن جابر قال: قال رسول الله e : **" لا تنكحوا النساء إلا الأكفاء، ولا يزوجهن إلا الأولياء، ولا مهر دون عشرة دراهم" .**

أخرجه الطبراني[٧]: حدثنا أحمد بن عبد الوهاب قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطاة عن عطاء وعمرو بن دينار عن جابر (الحديث) .
وأخرجه ابن عدي[٨] من طريقين عن أبي المغيرة به .، ومن طريق ابن عدي أخرجه الدارقطني[٩]، وابن شاهين[١٠] .
وأخرجه ابن عدي[١١]: ثنا علي بن أحمد بن علي بن عمران ويحيى بن محمد بن عيسى الحمصي قالا: ثنا سعيد بن عمرو الحمصي ثنا بقية حدثني مبشر بن عبيد عن حجاج بن أرطاة عن عطاء وعمرو بن دينار عن جابر (الحديث) .
والعقيلي[١٢] :حدثنا محمد بن أحمد بن الوليد الأنطاكي قال: حدثنا حيوة بن شريح قال: حدثنا بقية قال: حدثنا مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطاة عن عطاء عن جابر(الحديث) .
وأخرجه ابن عدي[١٣] عن القاسم بن الليث عن محمد بن مصفي، والدارقطني[١٤]، عن الحسين

(١) (٢٦٢/١) .
(٢) معرفة الثقات (٤٠١/١) .
(٣) شرح العمدة (١٩٢/٤) .
(٤) الأحكام الوسطى (١٢٦/٢) .
(٥) البدر المنير (٢٥٠/٣) .
(٦) الدراية (٦٣/٢) .
(٧) الأوسط (٦/١)(٣) .
(٨) الكامل (٤١٨/٦) .
(٩) السنن (٢٤٤/٣)(١١) .
(١٠) ناسخ الحديث ومنسوخه ص٣٩٥ (٥١١) .
(١١) الكامل (٤١٧/٦) .
(١٢) الضعفاء (٢٣٥/٤)(١٨٢٨) .
(١٣) الكامل (٤١٧/٦) .
(١٤) السنن (٢٤٥/٣)(١٢) .

بن محمد بن سعيد المطيقي، كلاهما عن بقية به، ولفظه: "لامهر دون عشر دراهم"
وأخرجه ابن عدي[١]: أخبرنا أبو يعلى وإبراهيم بن أسباط قالا: ثنا محمد بن عبد الرحمن بن سهم ثنا بقية حدثني مبشر بن عبيد عن أبي الزبير عن جابر (الحديث) .

قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عمرو إلا الحجاج، تفرد به مبشر بن عبيد .
قلت: الحديث مداره على مبشر بن عبيد الحمصي أبو حفص كوفي الأصل وهو "متروك ،ورماه أحمد بالوضع"[٢]، قال البيهقي: "أجمع أهل العلم بالحديث على ترك حديثه"[٣] .
قال ابن عدي: "وهذا الحديث مع اختلاف ألفاظه في المتون، ومع اختلاف إسناده، باطل، كان لا يرويه غير مبشر"[٤] .

١٤- عن عَائِشَةَ قالت: قال رسول اللَّهِ e **"تَخَيَّرُوا لِنُطفِكُمْ، وَانْكِحُوا الْأَكْفَاءَ، وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ"**.

أخرجه ابن ماجه[٥]: حدثنا عبد اللَّهِ بن سَعِيدٍ ثنا الْحَارِثُ بن عِمْرَانَ الْجَعْفَرِيُّ عن هِشَامِ بن عُرْوَةَ عن أبيه عن عَائِشَةَ (الحديث) .
وأخرجه الحاكم[٦] والبيهقي[٧] من طريق عبد الله بن سعيد به .
وأخرجه ابن أبي حاتم[٨]، وابن حبان[٩]، والدارقطني[١٠] من طريق أبي سعيد الأشج عن الحارث بن عمران به مثله .
وأخرجه ابن عدي[١١] من طريق علي بن حرب عن الحارث به، ولفظه: "تخيروا لنطفكم، ولا تضعوها إلا في الأكفاء" .
وأخرجه ابن أبي الدنيا[١٢]، والحاكم[١٣]، والبيهقي[١٤] من طريق عكرمة بن إبراهيم عن هشام بن عروة به مثله .
قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" .

(١) الكامل (٤١٨/٦) .
(٢) التقريب (٦٤٦٧) ، وانظر تهذيب التهذيب (٣٠/١٠) .
(٣) معرفة السنن والآثار (٢١٩/١٠) .
(٤) الكامل (٤١٨/٦) .
(٥) (٦٣٣/١)(١٩٦٨) .
(٦) المستدرك (١٧٦/٢)(٢٦٨٧) .
(٧) السنن (١٣٣/٧)(١٣٥٣٦) .
(٨) الجرح والتعديل (٤٠٤/١) .
(٩) المجروحين (٢٢٥/١)(٢٠٣) .
(١٠) السنن (٢٩٩/٣)(١٩٨) .
(١١) الكامل (١٩٥/٢)(٣٨٢) .
(١٢) العيال (٢٨٢/١)(١٣١) .
(١٣) المستدرك (١٧٧/٢)(٢٦٨٨) .
(١٤) السنن (١٣٣/٧)(١٣٥٣٧) .

وأخرجه الدارقطني[١] من طريق صالح بن موسى عن هشام بن عروة به نحوه، ولفظه : "اختاروا لنطفكم المواضع الصالحة" .
وأخرجه أيضاً[٢] من طريق أبي أمية بن علي-إسماعيل بن أمية- عن هشام بن عروة به، وزاد: "وإياكم والزنج، فإنه خلق مشوه" .
وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني[٣] من طريق عيسى بن ميمون عن هشام بن عروة به، وزاد: "وانظروا أين تضعونها، فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن" .
ورواه أيضاً عن هشام بن عروة: الحكم بن هشام العقيلي، واختلف عليه :
فرواه أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقي عنه عن هشام به، أخرجه ابن أبي الدنيا[٤]، ورواه هشام بن عمار عن الحكم بن هشام عن مندل بن علي عن هشام بن عروة به، ذكر هذه الرواية الخطيب البغدادي[٥]، وأورده كذلك ابن أبي حاتم في العلل[٦] ووقع عنده في سنده تصحيف نبه عليه المحقق .
ورواه أبو المقدام هشام بن زياد عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبي **e** مرسلاً .
أخرجه الدارقطني[٧]: حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، قال: حدثنا إسحاق بن البهلول، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا هشام - أبو المقدام - ،
وحدثنا الحسين بن إسماعيل، قال: وحدثنا إسحاق بن البهلول، قال: حدثنا معاوية بن هشام، قال: حدثنا سفيان عن هشام -أبي المقدام - عن هشام بن عروة عن أبيه: قال رسول الله **e**: "تخيروا لنطفكم، وزوجوا الأكفاء، وتزوجوا إليهم" .
قال الدارقطني: وهو أشبه بالصواب .
وقال مثله الخطيب في تاريخه[٨]، وعبد الحق الإشبيلي في أحكامه[٩] .

(١) السنن (٢٩٨/٣)(١٩٦) .
(٢) السنن (٢٩٩/٣)(١٩٧) .
(٣) معرفة الصحابة (٣٢١٣/٦) .
(٤) العيال (٢٨٠/١)(١٣٠) .
(٥) تاريخ بغداد (٨١/٢) .
(٦) (١٨/٤) .
(٧) العلل (٦١/١٥) .
(٨) (٨١/٢) .
(٩) نقله عنه الزيلعي في تخريجه لأحاديث الكشاف (٢٧٤/١) .

وأخرج الحديث ابن أبي شيبة[١]: حدثنا أبو معاوية عن مختار بن منيح عن قتادة عن عروة بن الزبير قال: قال رسول الله e: "تخيروا لنطفكم" هكذا مرسلاً، ومختصراً لفظه .
قال الدارقطني[٢]: تفرد به المختار بن منيح عن قتادة، ولم يروه عنه غير أبي معاوية .
وأخرجه ابن عدي[٣]: حدثنا عمر بن سنان قال: ثنا هشام بن عبد الملك قال: ثنا يحيى بن سعيد قال: ثنا عيسى بن ميمون عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله e: "تخيروا لنطفكم، فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأشباه أخواتهن" .

الحديث ترويه عائشة رضي الله عنها، ويرويه عنها كلٌ من :
القاسم بن محمد، وعروة بن الزبير .
أما القاسم فيرويه عنه عيسى بن ميمون المدني، قال البخاري[٤]: منكر الحديث، وقال الفلاس، وأبو حاتم الرازي، والأزدي، والنسائي: متروك الحديث[٥]، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه أحد عليه .
وقال عبد الرحمن بن مهدي: استعديت عليه، فقلت: ما هذه الأحاديث التي تروي عن القاسم عن عائشة - في النكاح- ؟! فقال: لا أعود[٦] .
وأما عروة بن الزبير، فيرويه عنه ابنه هشام - "ثقة فقيه ربما دلس (ط/١)"[٧]-، وعن هشام كلٌ من:

١- الحارث بن عمران الجعفري، وهو ضعيف، بل رماه ابن حبان بالوضع[٨]، واستنكر أبو حاتم الرازي حديثه هذا وقال: "لا أصل له"[٩] .
٢- عيسى بن ميمون، وهو منكر الحديث، متروك، سبق ذكره .
٣- عكرمة بن إبراهيم، مُجمع على ضعفه[١٠]، قال ابن حبان: كان ممن يقلب الأخبار ويرفع المراسيل لا يجوز الاحتجاج به[١١] .
٤- صالح بن موسى الطلحي، متروك[١٢] .
٥- إسماعيل بن يعلى، أبو أمية، متروك[١٣] .

---

(١) المصنف (٢٥/٤)(١٧٤٣٢) .
(٢) انظر أطراف الغرائب (٦١٤٩) .
(٣) الكامل (٢٤١/٥) .
(٤) التاريخ الكبير (٤٠١/٦)(٢٧٨١) .
(٥) الجرح والتعديل (٢٨٧/٦) ، الضعفاء للنسائي ص٧٦ ، تهذيب الكمال (٤٨/٢٣) ، الكامل (٢٤١/٥) .
(٦) تهذيب الكمال (٢٤١/٢٣) ، تاريخ الإسلام (٣٨٦/١٠) .
(٧) التقريب (٧٣٠٢) ، تعريف أهل التقديس (٣٠) .
(٨) التقريب (١٠٤٠) ، المجروحين (٢٢٥/١) .
(٩) الجرح والتعديل (٨٤/٣) .
(١٠) المغني في الضعفاء (٤٣٢/٢) .
(١١) المجروحين (١٨٨/٢) .
(١٢) التقريب (٢٨٩١) .
(١٣) المغني (٨٩/١) ، لسان الميزان (٤٤٥/١) .

٦- الحكم بن هشام الثقفي مولى آل عقيل، صدوق[١] واختلف عليه :
فرواه أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقي، عنه، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة الحديث، وأبو النضر ثقة[٢] .
ورواه هشام بن عمار عن الحكم بن هشام عن مندل بن علي عن هشام بن عروة به، فزاد في سنده "مندل بن علي"، وابن عمار قال فيه ابن حجر: "صدوق مقرئ كبر فصار يتلقن فحديثه القديم أصح"[٣] ، وعليه فطريق أبي النضر أرجح .
٧- ورواه أبو المقدام هشام بن زياد عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبي **e** مرسلاً .
وأبو المقدام، ضعيف[٤] .
٨- ورواه أبو معاوية عن مختار بن منيح عن قتادة عن عروة بن الزبير قال: قال رسول الله **e** : "تخيروا لنطفكم" هكذا مرسلاً، ومختصراً لفظه .
قال الدارقطني[٥]: تفرد به المختار بن منيح عن قتادة، ولم يروه عنه غير أبي معاوية .
وقال ابن حبان[٦] عن المختار: يُغرب .
مما تقدم يتبين أن الحديث **حسن**، لثبوته من رواية أبي النضر عن الحكم بن هشام عن هشام بن عروة به، والله أعلم، وقد توقفت في تحسينه فترة من الزمن هيبة لبعض أهل العلم المتقدمين، لكن حسبي تطبيق قواعد هذا الفن بعد جمع الطرق والترجيح بينها، والله الهادي إلى سواء السبيل .
والحديث حسنه الألباني من طريق أبي النضر هذا[٧]، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير[٨]: "ومداره على أناس ضعفاء، رووه عن هشام، أمثلهم صالح بت موسى الطلحي، والحارث بن عمران الجعفري، وهو حسن"، وقال في فتح الباري[٩]: أخرجه بن ماجة، وصححه الحاكم من حديث عائشة مرفوعاً "تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء"، وأخرجه أبو نعيم من حديث عمر أيضاً، وفي إسناده مقال، ويقوى أحد الإسنادين بالاخر . اهـ .
والحديث مروي عن عدد من الصحابة وسيأتي تخريج أحاديثهم .

---

(١) التقريب (١٤٦٥) ،
(٢) تهذيب التهذيب (١٩٢/١) ، الكاشف (٢٧٩) .
(٣) التقريب (٧٣٠٣) ، وانظر تهذيب التهذيب (٤٦/١١) .
(٤) انظر تهذيب التهذيب (٣٦/١١) .
(٥) انظر أطراف الغرائب (٦١٤٩) .
(٦) الثقات (٥١٣/٧) .
(٧) السلسلة الصحيحة (٥٧/٣) .
(٨) (٢٢٤١/٥) .
(٩) (١٢٥/٩) .

١٥- عن عمر عن e قال :**"تخيروا لنطفكم وعليكم بذوات الأوراك فإنهن نجب"**.
أخرجه ابن عدي[١]: حدثنا أحمد بن علي المدائني ثنا إبراهيم بن أبي داود ثنا يحيى بن صالح الوحاضي ثنا سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله عن عمه أبي مشجعة عن عمر به .
وأخرجه أبو نعيم[٢] عن الحسين بن محمد عن عبد الرحمن بن داود عن محمد بن يزيد بن عبد الوارث عن يحيى بن صالح الوحاضي به، وزاد: "وانتخبوا المناكح"، وقال في آخره: "فإنهن أنجب" .
الحديث فيه سليمان بن عطاء، قال عنه ابن حجر[٣]: منكر الحديث، ومسلمة بن عبد الله الجهني، وعمه أبي مشجعة مقبولان [٤] .

١٦-عن أنس قال: قال e : **" تخيروا لنطفكم "** .
أخرجه تمام في فوائده[٥]: أخبرنا أبو عبد الرحمن ضحاك بن يزيد السكسكي ببيت لهْيا: ثنا أبو هشام: وَريزة بن محمد الغساني حدثني عبد العظيم بن إبراهيم ثنا محمد بن عبد الملك ثنا سفيان بن عيينة عن زياد بن سعد عن الزهري عن أنس به .
ومن طريق تمام أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة[٦] .
وأخرجه أبو نعيم[٧] - ومن طريقه ابن الجوزي[٨]-: حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا أحمد بن عمرو بن الضحاك حدثني عبد العظيم بن إبراهيم السالمي ثنا عبد الملك بن يحيى ثنا سفيان بن عيينة عن زياد بن سعد عن الزهري عن أنس به، وزاد فيه: "واجتنبوا هذا السواد فإنه لون مشوه" .
وقال: غريب من حديث زياد والزهري لم نكتبه إلا من هذا الوجه .

دُكر في السند عند تمام في فوائده وكذا عند الضياء في المختارة: "محمد بن عبد الملك"، بينما جاء عند أبي نعيم في الحلية، وابن الجوزي: "عبد الملك"، وكلاهما مجهول، وفي كلٍ من الطريق إليهما مجهول أو من لم يذكر فيه جرح ولا تعديل .
قال ابن الجوزي: فيه مجاهيل، وضعفه السخاوي[٩]، وقال الألباني: إسناده مظلم[١٠].
وأخرجه ابن عدي[١١]: ثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا إسماعيل بن حصن أبو سليم الجبيلي

(١) الكامل (٢٨٥/٣) .
(٢) تاريخ أصبهان (٥٤/٧) .
(٣) التقريب (٢٥٩٤) ، وانظر تهذيب التهذيب (١٨٤/٤) .
(٤) التقريب (٦٦٥٩) ، (٨٣٦٩) .
(٥) (٢٠١/٢) .
(٦) (١٩٧/٧) .
(٧) حلية الأولياء (٣٧٧/٣) .
(٨) العلل المتناهية (٦١٣/٢) .
(٩) المقاصد الحسنه ص٢٥٤ (٣٢٣) .
(١٠) السلسلة الضعيفة (١٦٠/٢) .
(١١) الكامل (٧٢/٧) .

ثنا عتبة بن الرخص عن الموقري عن الزهري عن أنس عن رسول e ، ولفظه:
"تزوجوا في الحي الصالح فإن العرق دساس" .
قال ابن عدي: وهذا لا يرويه عن الزهري غير الموقري .
والموقري هذا متروك[١]، وقال الجوزجاني: كان غير ثقة يروي عن الزهري عدة أحاديث ليس لها أصول[٢]، وقال ابن حبان: كان لا يبالي، ما دفع إليه قرأه، روى عن الزهري أشياء موضوعة لم يروها الزهري قط، وكان يرفع المراسيل ويسند الموقوف لا يجوز الاحتجاج به بحال[٣] .

١٧- عن ابن عمر قال: سمعت النبي e يقول: وهو يوصي رجلاً: " **يا أبا فلان: أقِل من الدين تعش حراً، وأقِل من الذنوب يهن عليك الموت، وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس** " .
أخرجه ابن الأعرابي[٤]: نا أحمد بن محمد بن بكر بن خالد بن يزيد قال: حدثني أبي محمد بن بكر بن خالد بن يزيد، نا عبيد الله بن العباس بن الربيع الحارثي من أهل نجران اليمن بعرفات، نا محمد بن عبد الرحمن البيلماني(ابن البيلماني)، عن أبيه، عن ابن عمر (الحديث).
وأخرجه ابن عدي[٥]: حدثنا أحمد بن محمد بن شبيب ثنا محمد بن بكر بن خالد به .
وأخرجه القضاعي[٦] عن أبي محمد عبد الرحمن بن عمر التجيبي عن أحمد بن محمد بن زياد عن أحمد بن محمد بن بكر به .
فيه محمد بن عبد الرحمن البيلماني(ابن البيلماني): منكر الحديث، قاله البخاري[٧] وأبو حاتم الرازي[٨]، والنسائي[٩]، وأبو نعيم الأصبهاني[١٠]، وقال يحيى بن معين[١١]: ليس بشيء، وقال وقال ابن حبان[١٢]: لايجوز الإحتجاج به .
فالحديث شديد الضعف .

(١) التقريب (٧٤٥٣) ، تهذيب التهذيب (١٣١/١١) .
(٢) أحوال الرجال ص١٦١ .
(٣) المجروحين (٧٧/٣) .
(٤) في معجمه (٤٤٧/٢) .
(٥) الكامل (١٧٨/٦) .
(٦) مسند الشهاب (٣٧٠/١)(٦٣٨) .
(٧) التاريخ الكبير (٢٠٥/١) .
(٨) الجرح والتعديل (٣١١/٧) .
(٩) الضعفاء ص٥٢٦ .
(١٠) الضعفاء ص١٤٠ .
(١١) تاريخ الدارمي (٧٤٠) .
(١٢) المجروحين (٢٦٤/٢) .

الخاتمة

الحمد لله على نعمه العظيمة المتوالية، وصلاة ربي وسلامه على صفوته من خلقه، وبعد، فبعد انتهائي من هذا البحث، أحببت أن أسطر أبرز النتائج :

١- حوى هذا البحث دراسة ١٧ حديثاً .
٢- الثابت منها ٩، وغير الثابت ٨ .
٣- من غير الثابت حديثان يصحان موقوفان .
٤- كانت هذه الأحاديث أدلة الفقهاء من السنة ،في مسألة اعتبار الدِّين والخُلق في النكاح .
٥- اعتبار الأخذ بما دلت عليه بعض هذه الأحاديث الثابتة المتعلقة بالخُلق راجع للمرأة وأوليائها .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة .
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، اسم المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: المكتب الإسلامي – بيروت – ١٤٠٥هـ، الطبعة: الثانية .
- الإصابة في تمييز الصحابة، اسم المولف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار الجيل - بيروت - ١٤١٢ - ١٩٩٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي .
- البحر الزخار [مسند البزار] اسم المولف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، دار النشر: مؤسسة علوم القرآن ، مكتبة العلوم والحكم - بيروت ، المدينة - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله ١-٩، وعادل بن سعد ١٠-١٥ .
- البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير، اسم المولف: سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن، دار النشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض-السعودية - ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، الطبعة: الاولى، تحقيق: مصطفى أبو الغيط و عبدالله بن سليمان وياسر بن كمال .
- بلوغ المرام من أدلة الأحكام، اسم المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت – ١٤٠٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد حامد الفقي .
- بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، اسم المولف: للحافظ ابن القطان الفاسي أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك، دار النشر: دار طيبة - الرياض - ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. الحسين آيت سعيد .
- تاريخ ابن معين (رواية الدوري)، اسم المولف: يحيى بن معين أبو زكريا، دار النشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة - ١٣٩٩ - ١٩٧٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. أحمد محمد نور سيف .
- تاريخ بغداد، اسم المولف: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الغرب - بيروت – ١٤٢٢هـ - الطبعة: الأولى، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف .
- تاريخ بغداد، اسم المولف: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت .
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، اسم المولف: أبي القاسم علي بن الحسن إبن هبة الله بن عبد الله الشافعي، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٩٩٥ ،تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري .
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/الأولى ١٤٠٥ه، تحقيق: إبراهيم الأنباري .
- تقريب التهذيب، اسم المولف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار الرشيد - سوريا - ١٤٠٦ - ١٩٨٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة .

- تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، اسم المولف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار النشر: أضواء السلف- الرياض – ١٤٢٨هـ الطبعة: الأولى، تحقيق: الدكتور محمد الثاني بن عمر بن موسى .
- تهذيب التهذيب، اسم المولف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٤ - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى .
- تهذيب الكمال، اسم المولف: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٠ - ١٩٨٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. بشار عواد معروف.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي -بيروت- تحقيق: محمد عوض، ط/١ ،٢٠٠١م
- الثقات (معرفة الثقات)، اسم المولف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار النشر: دار الفكر - ١٣٩٥ - ١٩٧٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.
- الجرح والتعديل، اسم المولف: عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٢٧١ - ١٩٥٢، الطبعة: الأولى .
- دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود بن عبد العزيز الخلف ،مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية محمد، مؤسسة الرسالة- مكتب المنار الإسلامية، بيروت، ط/١٤، عام ١٤٠٧ه .
- الزهد للمعافى بن عمران الموصلي ،المؤلف: أبو مسعود المعافى بن عمران بن نفيل بن جابر الأزدي الموصلي (المتوفى: ١٨٥هـ) ،الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت ،المحقق: الدكتور عامر حسن صبري
الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- سنن ابن ماجه، اسم المولف: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، دار النشر: دار الفكر - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .
- سنن أبي داود، اسم المولف: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار النشر: دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد .
- سنن البيهقي الكبرى، اسم المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، دار النشر: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ - ١٩٩٤، تحقيق: محمد عبد القادر عطا .
- سنن البيهقي الكبرى، اسم المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، دار النشر: الفاروق الحديثة - القاهرة .
- سنن الترمذي "الجامع الصحيح سنن الترمذي"، اسم المؤلف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - -، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون .

- سنن الدارقطني، اسم المؤلف: علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، دار النشر: - دار المعرفة - بيروت - ١٣٨٦ - ١٩٦٦، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني .
- سنن النسائي "المجتبى من السنن"، اسم المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار النشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - ١٤٠٦ - ١٩٨٦، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة .
- سؤالات ابن الجنيد ليحيى بن معين، اسم المؤلف: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الختلي المشهور بابن الجنيد، دار النشر: مكتبة الدار – المدينة المنورة – ١٤٠٨هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: الدكتور أحمد محمد نور سيف .
- سير أعلام النبلاء، اسم المؤلف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، وآخرون .
- شرح مشكل الآثار، ، اسم المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - لبنان/ بيروت - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: شعيب الأرنؤوط .
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، اسم المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤ - ١٩٩٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط .
- صحيح ابن خزيمة، ، اسم المؤلف: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٠ - ١٩٧٠، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي
- صحيح البخاري ،الجامع الصحيح المختصر، اسم المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار النشر: دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا .
- صحيح مسلم، ، اسم المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .
- صحيح مسلم بشرح النووي، ، اسم المؤلف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢، الطبعة: الطبعة الثانية .
- الطبقات الكبرى، اسم المؤلف: محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، دار النشر: دار الخانجي – مصر ١٤٢١هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: الدكتور: علي محمد عمر .
- طرح التثريب في شرح التقريب ، اسم المؤلف: زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسيني العراقي ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠م ، الطبعة: الأولى ، تحقيق: عبد القادر محمد علي .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، اسم المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب .
- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب، الستة اسم المؤلف: حمد بن أحمد أبو عبدالله الذهبي الدمشقي، دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ، مؤسسة علو - جدة - ١٤١٣ - ١٩٩٢،

الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة .
- الكامل في ضعفاء الرجال، اسم المؤلف: عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبو أحمد الجرجاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٩ - ١٩٨٨، الطبعة: الثالثة، تحقيق: يحيى مختار غزاوي .
- الكنى، للبخاري، ضمن كتاب: التاريخ الكبير، في ،آخره .
- الكواكب النيرات، اسم المؤلف: محمد بن أحمد بن يوسف أبو البركات الذهبي الشافعي، دار النشر: المكتبة الإمدادية - السعودية - مكة – ١٤٢٠هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد القيوم عبد رب النبي .
- الكواكب النيرات، اسم المولف: محمد بن أحمد بن يوسف أبو البركات الذهبي الشافعي، دار النشر: المكتبة الإمدادية - السعودية - مكة – ١٤٢٠هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد القيوم عبد رب النبي .
- لسان العرب، اسم المولف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى .
- لسان الميزان، اسم المولف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ١٤٠٦ - ١٩٨٦، الطبعة: الثالثة، تحقيق: دائرة المعرف النظامية - الهند - .
- لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام - المجموعة الرابعة، دار البشائر ط/٢، ١٤٢٦ه .
- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، اسم المولف: الإمام محمد بن حيان بن أحمد بن أبي حاتم التميمي البستي، دار النشر: دار الوعي - حلب - ١٣٩٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد .
- مجلة الجامعة الإسلامية - غزة- المجلد (١٧)، العدد الأول.
- مجموع فيه مصنفات أبي العباس الأصم، وإسماعيل الصفار، تحقيق نبيل سعد الدين جرار) دار البشائر الإسلامية، ط/١، ١٤٢٥هـ .
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار النشر: مكتبة لبنان ناشرون -بيروت ١٤١٥ه، تحقيق: محمود خاطر .
- مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد، اسم المؤلف / أحمد بن علي بن محمد، المشهور بابن حجر العسقلاني، دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت – ١٤١٢هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: صبري بن عبد الخالق أبو ذر .
- المراسيل، اسم المولف: سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود، دار النشر: مؤسسة الرسالة
- المستدرك على الصحيحين، اسم المولف: محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا .
- مسند ابن الجعد، اسم المولف: علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري البغدادي، دار النشر: مؤسسة نادر - بيروت - ١٤١٠ - ١٩٩٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: عامر أحمد حيدر .
مسند أبي يعلى، اسم المولف: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، دار النشر: دار المأمون للتراث - دمشق - ١٤٠٤ - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى، تحقيق: حسين سليم أسد .

مسند الإمام أحمد بن حنبل، اسم المولف: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، دار النشر: مؤسسة قرطبة – مصر .
- مشاهير علماء الأمصار، اسم المولف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٦هـ، تحقيق: مجدي بن منصور الشوري .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ،أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) ،الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.
- المصنف، اسم المولف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي .
- المصنف في الأحاديث والآثار، اسم المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت .
- المصنف في الأحاديث والآثار، اسم المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت .
- المصنف في الأحاديث والآثار، اسم المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، دار النشر: شركة دار القبلة - جدة - ١٤٢٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة .
- المعجم الكبير، اسم المولف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، دار النشر: مكتبة الزهراء - الموصل - ١٤٠٤ - ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي .
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، دار الجيل -بيروت- ط/٢، ١٤٢٠ه.
- معرفة السنن والآثار، اسم المولف: الحافظ الامام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو أحمد البيهقي ، دار النشر: دار الوفاء - القاهرة/ المنصورة - ١٤١١، الطبعة: الأولى ، تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي .
- معرفة الصحابة، اسم المولف: لأبي نعيم الأصبهاني، دار النشر: الوطن - الرياض - ١٤١٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، اسم المولف: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود .
- النسب ومدى تأثير المستجدات العلمية في إثباته، سفيان بن عمر بورقعة، كنوز أشبيليا، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، اسم المولف: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، دار النشر: المكتبة العلمية -بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى -محمود محمد الطناحي .
- نَيْلُ المَآرِب بشَرح دَلِيلُ الطَّالِب، عبد القادر بن عمر بن عبد القادر ابن عمر بن أبي تغلب بن سالم التغلبي الشَّيْبَاني (المتوفى: ١١٣٥هـ)، المحقق: الدكتور محمد سُليمان عبد الله الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط/١ ،١٤٠٣ه .

من صور الإعجاز العلمي للسواك في السنة النبوية

د. عبد الله بن محمد بن منصور آل الشيخ
جامعة بيشة – كلية العلوم والآداب بالنماص

المقدمة

الحمد لله الذي لم يزل بعباده خبيراً بصيراً، الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدر تقديراً، أحمده على إحسانه وأشكره اعترافاً بفضله وتعظيماً لشأنه، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، أحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة وعلماً، خلق فسوى وقدر فهدى وهو الحكيم الخبير.

وأشهد أن محمدً عبده ورسوله، صاحب المقام المحمود والحوض المورود، الهادي البشير والسراج المنير، صلى الله وسلم عليه ما تهاطلت الأمطار، وما تعاقب الليل والنهار، وعلى آله وأصحابه الأطهار ومن سار على نهجهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من العلوم المهمة المستجدة علم (الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة النبوية)، ويهدف هذا النوع من العلم، لإظهار العديد من الاكتشافات العلمية من خلال الإشارات لذلك في الكتاب والسنة، كما أن هذا النوع من العلم يُظهر عظم هذه الشريعة؛ وصدق ما أخبر به رسولنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم لا سيما لغير المسلمين الذين ليس لديهم معرفة بهذا الدين، {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} المدثر (آية/31)، ويقوى يقين من ضعف إيمانه، كل ذلك مصداق قوله تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} فصلت (آية/53)، ولأهمية هذا النوع في بيان حكمة التشريع وإظهار أوجه وصور الإعجاز في نصوص الوحيين، ولما له من نفعٍ عظيم في جانب الدعوة إلى الله لاسيما لغير المسلمين، مع ما يقترن به من متعة وفائدة، كان من اللازم أن يعمل على خدمته المتخصصون في أقسام الكتاب والسنة، **وذلك لأسباب منها:**

1- أن أكثر من يكتب في هذا العلم هم من المتخصصين في العلوم الطبية والكونية والعلمية التطبيقية، ولديهم ثقافة دينية ليست بمستوى معرفة المتخصص في علوم القرآن والسنة، **ولذلك يحصل لدى بعضٍ منهم الخطأ والخلط عند إثبات صورة من صور الإعجاز** بناء على دلالة أو إشارة إليها في الكتاب والسنة، فكانت الحاجة داعية لأن يتناول أهل الاختصاص الشرعي هذا النوع من البحوث، ويضعون الأشياء في ميزانها الصحيح، **فالمادة العلمية العملية التي تصلح لخدمة علم الإعجاز العلمي** في الغالب متوافرة في سائر الجوانب العلمية التطبيقية تقريباً، ويبقى على المتخصص النظر في صحة الإلحاق، ومراعاة ضوابط ذلك، بعيداً عن الحدس والظنون، والتكلف المذموم، ولوي الآيات والأحاديث لتوافق ما توصل له العلم الحديث، قولاً على الله بغير علم، وقد قال الله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} هود (آية 18).

٢- هناك دلائل وإشارات في الكتاب والسنة دقيقة، تعتمد أحياناً على اللفظ الظاهر، وفي أحيان أخرى ترجع للمعنى الذي يفهمه المتخصص من تفسير الآية، **يمكن استنباطها واستخراجها، وتقديمها للباحثين والمتخصصين في العلوم المتنوعة لعمل الدراسة عليها والوصول لاكتشافات علمية نافعة**، وهذا يحتاج لباحث شرعي متذوق له اطلاع على البحوث العلمية في الإعجاز، ولديه قدرة شرعية على الاستنباط والتتبع لهذي الإشارات الإعجازية في الكتاب والسنة.

وقد وقع اختياري على موضوع مهم في نظري، وهو: **"صور الإعجاز العلمي للسوك في السنة النبوية"**، دعاني لخوض غماره أنني قرأت في أحد الكتب مقالاً نقله أحد الكتاب الفضلاء عن أحد المؤتمرات الطبية العالمية لطب الأسنان، والتي عقدت في دولة السويد ***وقرر المؤتمرون في نهايته أن الحل الأمثل لتنظيف الأسنان والذي ليس له أي نوع من المضاعفات ولا يتسبب في نقل المكروبات هو استعمال المسواك الطبيعي، وأنه يتفوق على الفرشاة التي لا تسلم من سلبيات ومضاعفات أخرى، تأثر على اللثة أو الأسنان.***

وحكيت ذلك لأحد أطباء الأسنان فقلل من أهمية ما قلت بكثير وقام بسرد الميزات التي تختص بها الفرشاة والمعجون على السواك وقال لي: ما دعاك لهذا الكلام إلا لتعظيمك لشأن السواك لأنه جاء في السنة، أما من ناحية أفضليته علمياً فلا يستقيم لك ذلك، ومضت الأيام وأصبحت ***كل ما مررت على أحاديث السواك أتعجب لكثرتها حتى عدها بعض العلماء من المتواتر المعنوي، وكيف أن علماء الحديث عقدوا للسواك باباً مستقلاً في كتبهم، وكيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كاد أن يوجبه خمس مرات في اليوم والليلة لولا خشية المشقة على أمته***[(١)]، ثم إنه صلى الله عليه وسلم قال: (أكثرت عليكم في السواك)[(٢)]، ثم بدأت أتأمل الصور الإعجازية في هذه الأحاديث الكثيرة، فأردت أن أشفي غليلي بالنظر في ذلك، وأطلع على ما قرره الطب الحديث في شأن السواك، وما الذي توصلت إليه الأبحاث العلمية في ذلك، وبعد النظر في تلك الأبحاث لأطباء مسلمين ولكفرة ملحدين، أدت في منتهاها إلى تفضيلهم للسواك على غيره، رأيت ما يثير العجب!! وتذكرت قوله الله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}فصلت (آية/٥٣)، وأيقنت أن إحكام ذلك كله من لدن حكيم خبير؛ لذا اخترت هذا الموضوع، وأحببت دراسته، لاسيما وأنه يرغّب الناس ويدعوهم للمحافظة والاهتمام بهذه السنة، التي في العمل بها أجرٌ إذا قصد العبد بفعلها متابعة النبي صلى الله عليه وسلم، ولما يترتب على المحافظة عليها من حفظ الأسنان الذي يدخل **تحت نوع الطب الوقائي**.

---

(١) سيأتي تخريجها في ص٨٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه(٣٠٣/١، رقم٨٤٨) في الجمعة باب: السواك يوم الجمعة، وانظر معرفة النساك في أحكام السواك وحاشيته (ص٦٢)، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البُغا - دار ابن كثير - ط الخامسة - ١٤١٤هـ.

الدراسات السابقة:

لا يوجد حسب تفتيشي وتتبعي بحث مستقل يتناول -وفق الطريقة التي سنتناولها- قضايا السواك في السنة والإعجاز العلمي، حتى موقع الهيئة العالمية للأعجاز العلمي لم يذكر في بحوثه ومطبوعاته بحثاً يتعلق بالسواك، بل هناك بحوث تتناول جزئيات حول السواك، أو نتائج أبحاث حول السواك من الناحية العلمية، وهذا يشجع الباحث أن يمضي قدماً في البحث في هذا الموضوع الثري.

وقد أعددت لذلك الخطة التالية: وهي تتكون من مقدمة وفصلين وخاتمة:

فالمقدمة تحوي:

- أهمية الموضوع، وأسباب اختياره.
- خطة البحث.
- منهج البحث.

أما الفصل الأول: فيتناول تعريف الإعجاز العلمي في السنة، مع ذكر تعريف السواك وحكمه لدى الفقهاء، والأحاديث الواردة في فضله، **وفيه أربعة مباحث:**

المبحث الأول: تعريف الإعجاز العلمي في السنة النبوية.

المبحث الثاني: ضوابط الإعجاز العلمي في السنة.

المبحث الثالث: تعريف السواك وحكمه لدى الفقهاء.

المبحث الرابع: الأحاديث الواردة في فضل السواك في السنة.

الفصل الثاني: الإعجاز في السنة النبوية، وربطه بالبحث العلمي، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإشارات الإعجازية للسواك في السنة النبوية.

المبحث الثاني: بعض فوائد السواك الطبية التي ذكرها الفقهاء.

المبحث الثالث: السواك في السنة، وصور الإعجاز فيه من خلال البحث العلمي، **وفيه أربعة مطالب:**

المطلب الأول: الصورة الأولى من صور الإعجاز، في خصوصية شجرة الأراك في السواك على غيرها.

المطلب الثاني: الصورة الثانية من صور الإعجاز، في الحث والتأكيد على تكرار السواك معظم اليوم.

المطلب الثالث: الصورة الثالثة من صور الإعجاز، في اهتمامه صلى الله عليه وسلم بتسويك اللسان

المطلب الربع: الصورة الرابعة من صور الإعجاز، في سنية غسل السواك، أو تطيبه باللعاب.

الخاتمة والتوصيات: وتحوي أهم النتائج، والمقترحات.

منهج البحث:

١- اعتمدت في كتابة البحث على الطريقة المسلوكة التي ينبغي مراعاتها في أغلب البحوث الأكاديمية، فيما يتعلق بالكتابة والحواشي وعلامات الترقيم ونحوها.

٢- حاولت جاهداً في هذا الباب الاكتفاء بالأحاديث الصحيحة التي تخدم الموضوع، دون الضعيفة، إلا في النادر مع تبين وجه الضعف.
٣- إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فإني أكتفي بذلك في العزو ولا أتوسع، لا سيما عند عدم الحاجة.
٤- إذا كان الحديث في خارجهما، فإني أخرجه بالقدر الذي يكفي لبيان ضعفه أو صحته، وأذكر قول من صححه أو ضعفه من الأئمة، وأذكر رأيي إذا احتاج الأمر.
٥- أبدأ عند الكلام على صور الإعجاز بذكر الأحاديث التي تدل على الإعجاز، وذلك بعد الاطلاع على كلام شراح الحديث عليها.
٦- ثم أذكر صور الإعجاز من خلال الكشوف العلمية الحديثة في السواك.
٧- حاولت ضبط العبارة عند تقرير أي صورة من صور الإعجاز وإثبات دخول هذه الصورة في المعنى الذي دل عليه الحديث بما يناسب، من غير شطط إن شاء الله، حتى لا نحمل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يحتمله.
٨- حاولت لفت نظر المتخصصين في البحث العلمي التطبيقي على إشارات نبوية لمسائل إعجازية، ربما تفتح باب الاكتشاف العلمي، ومزيد من البحث الذي قد يوصل إلى نتائج بحثية سديدة، تصب في رصيد الإعجاز العلمي للسنة النبوية.

ووفي الختام أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقّت إلى ما أصبو إليه من هذا البحث وصلى الله وسلم على محمد.

الفصل الأول

يتناول تعريف الإعجاز في السنة و تعريف السواك وحكمه لدى الفقهاء، والأحاديث الواردة في فضله، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإعجاز في السنة النبوية.

المبحث الثاني: ضوابط الإعجاز العلمي في السنة.

المبحث الثالث: تعريف السواك وحكمه لدى الفقهاء.

المبحث الرابع: الأحاديث الواردة في فضل السواك في السنة.

المبحث الأول
تعريف الإعجاز في السنة النبوية

"نجد في كتب اللغة واللسان العربي معنى العجز يدور حول (الضعف)، ويقولون إن أصله في لغة العرب: التأخر عن الشيء والقصور عن فعله، فهو ضد القدرة، وأعجزت فلاناً، وعجزته وعاجزته: جعلته عاجزاً، وجاء في القران الكريم {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ}سورة الأنعام (آية ١٣٤)...ومصدر عجز: الإعجاز، ومنه اشتقت كلمة (معجزة) وهي اسم الفاعل منه لحقته التاء للمبالغة"(١).

"والمعجزة: هي اسم فاعل من العجز المقابل للقدرة، وفي القاموس: معجزة النبي: ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء فيها للمبالغة، **وهي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد من يختاره لنبوته ليدل على صدقه وصحة رسالته...**"(٢).

"ولم تكن كلمة (إعجاز) ولا (معجزة) شائعة في الاستعمال، وإنما جاء في القران الكريم اسم: الآية (بمعنى العلامة المبينة على صدق الرسول دافعة إلى الإيمان بالله أكثر من ثمانين مرة في القرآن الكريم)... **وقد بدأ استعمال المعجزة في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث في كتب العلماء الذين ألفوا في بيان الإعجاز في القرآن الكريم**، فاستعملوا كلمة الإعجاز ومن ثمة المعجزة، هذا بالنسبة للقرآن الكريم، وأما خوارق العادة التي جاءت في السنة النبوية، فقد أطلق عليها علماء السنة (علامات النبوة)...لأن هذه الخوارق تدل دلالة واضحة على أن القادر على خرق العادة المستقرة هو خالقها فلا بد أن تكون هذه الخوارق من الله تعالى، مصدقاً لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من النبوة فكانت علامات ودلائل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم..."(٣).

ودلائل النبوة مسمىً عام يدخل تحته أنواع، **فقد عرف علماؤنا دلائل النبوة فقالوا**: "هي الأدلة التي تُعرف بها نبوة النبي الصادق، ويعرف بها كذب المدعي للنبوة من المتنبئين الكذبة؛ لأن هذا موضوع هامٌ جداً، ودلائل النبوة كثيرة ومتنوعة... ليست محصورة في المعجزة كما يقوله المتكلمون!...

فمنها أيضاً: إخبارهم الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أعدائهم، وبقاء العاقبة لهم، فوقع كما أخبروا، ولم يتخلف منه شيء...**ومنها أن ما جاؤوا به من الشرائع والأخبار في**

---

(١) انظر القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ص ٦٦٣-٦٦٤)، مادة (عجز)، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ثانية – ١٤٠٧هـ، وانظر الإعجاز العلمي في السنة النبوية للدكتور صالح الرضا (١٨/١)،مكتبة العبيكان - ط أولى، ١٤٢١.

(٢) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للعلامة الشيخ صالح الفوزان (ص٢٠٥)،دار ابن خزيمة - ط ثانية- ١٤١٧، وانظر الإعجاز العلمي في السنة (١٨/١).

(٣) الإعجاز العلمي في السنة (١٩/١)، وانظر الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة تاريخه وضوابطه للدكتور عبدالله المصلح ص١٥، هيئة الإعجاز العلمي، دار جياد، ط ثالثة، ١٤٣٢ه-

غاية الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدي الخلق مما يعلم بالضرورة أن مثله لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأبرهم..."[(١)].

فنلاحظ مما تقدم أن علماء أهل السنة لم يفرقوا بين المعجزة ودلائل النبوة بل هي داخلة في الدلائل.

قال أستاذنا الدكتور صالح الرضا: "وإني أرى كما هو في **التعريف المختار**: أن ما عدّ من دلائل النبوة وعلاماتها هو من الإعجاز بلا شك ولا ريب؛ لأن خرق العادة فيها كان لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أجراه الله عز وجل ليؤكد للمؤمنين إيمانهم، ويزيدهم رسوخاً في هذا الإيمان والتسليم لرسول الله [صلى الله عليه وسلم] المصطفى ما قاله وشرعه وأمر به..."[(٢)].

وأما تعريف المعجزة بأنه: "أمر يجريه الله على يد نبيه، أو علم يبديه من قوله، لا يقدر أحد على الإتيان **بمثله في زمانه** يكون دليلاً على نبوته لخروجه عن طاقة الخلق"[(٣)].

ووضع قيد (في زمانه) لتدخل الأمور العلمية التي ذكرت في القرآن الكريم...

واعتبار هذا التعريف جامعاً لجميع الوجوه التي عدت من الإعجاز **فيه عندي نظر والله أعلم،** وذلك لأن هذه الدلائل تبقى معجزة لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثلها لا في زمانه صلى الله عليه وسلم ولا في غير زمانه، وغاية ما يحصل في العصر الحديث بعد وجود هذه الأجهزة المتطورة هو التعرف بشيء من الوضوح على تفاصيل وصور هذه الدلائل، فمثلاً أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الذباب في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء[(٤)]، وهذا حق لا يتخلف، ولا وجه هنا لعبارة (لا يقدر أحدٌ على الإتيان بمثله في زمانه) فهو حاصلٌ من حين إخبار النبي صلى الله عليه وسلم به إلى يوم الدين، وأتى العلم الحديث وكشف عن صدق هذا الخبر بشيء من التوضيح والتصوير، وكذا أخبر صلى الله عليه وسلم عن مراحل التخليق[(٥)] وهي معجزة في عصره وإلى آخر الزمان وغاية ما يحصل الآن هو تصوير هذه الحقيقة بالأجهزة الحديثة مما يزيد في اليقين ويثير العجب لدى غير المسلمين المتشككين فيدعوهم إلى اليقين

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للعلامة الشيخ صالح الفوزان (ص٢٠٥-٢٠٦)، ومن أراد المزيد فلينظر في هذا الموضوع كتاب النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) الإعجاز العلمي في السنة (٢١/١)، وقد حذفت بعض ماله صله بالتعريف مما أرى أنه غير مسلم به، وأبقيت ما أرى أنه أقرب للصواب.

(٣) الإعجاز العلمي في السنة (٢١/١).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣ /١١٧٤، رقم٣٠٣٦)، في بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة،(الجامع الصحيح)، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري- تحقيق الدكتور مصطفى ديب البُغا - دار ابن كثير - ط الخامسة - ١٤١٤هـ، ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٦، رقم٢٦٤٣)،لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي–بيروت. في القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ولفظ البخاري: ((إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ...)).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٣ /١٢٠٦، رقم٣١٤٢)، في بدء الخلق، باب: إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء.

بصحة ما أخبر به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون سبباً في هداية من يشاء الله منهم، والله هو الهادي إلى سواء السبيل، لذا فأرى أن يحذف من تعريف المعجزة عبارة (لا يقدر أحد٠ على الإتيان بمثله في زمانه)، فهي لا تحقق المعنى الذي أراد قائله تقريبه.

أما الشطر الثاني من التعريف وهو قولنا: (في السنة):

فالمراد به الحقائق العلمية التي دلت عليها السنة النبوية، وتم اكتشافها مؤخراً، وعليه فلا بأس من إطلاق عبارة (الإعجاز) أي العلمي على الحقائق العلمية التي دلت عليها السنة النبوية، ***من باب التجوز والتوسع في التعبير إذ أن الدلائل والمعجزة بينها نوع تداخل.***

وهناك تعريف آخر للإعجاز العلمي وهو: "إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم"(١).

المبحث الثاني
ضوابط الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

لابد لبحوث الإعجاز العملي من ضوابط وقواعد تحدد مسار البحوث وفق الأصول الشرعية، مع العناية بالجوانب الفنية والعلمية، وحتى تكون مرشداً للباحثين في هذا المجال لاسيما من غير المتخصصين في العلوم الشرعية، وحتى تمنع التجاوزات التي تحصل في هذا الباب من العديد من الباحثين، مما لا علاقة له بالإعجاز، لذا انبرى بعض العلماء لوضع هذه الضوابط.

ضوابط استخراج وجه الإعجاز بين النص والحقيقة كالتالي:

- ثبوت النص وصحته إن كان حديثاً لتواتر القرآن دون الحديث.
- ثبوت الحقيقة العلمية ثبوتاً قاطعاً وتوثيق ذلك توثيقاً علمياً، متجاوزة مرحلة الفرض والنظرية إلى القانون العلمي.
- وجود الإشارة إلى الحقيقة العلمية في النص القرآني أو الحديثي بشكل واضح لا مرية فيه.

فإذا تم ذلك أمكنت دراسة القضية لاستخراج وجه الإعجاز، ويجب في أثناء تلك الدراسة مراعاة الضوابط التالية :

١- جمع النصوص القرآنية أو الحديثية المتعلقة بالموضوع ورد بعضها إلى بعض لتخرج بنتيجة صحيحة لا يعارضها شيء من تلك النصوص بل يؤيدها .

٢- جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالموضوع إن وجدت، وكذلك روايات الحديث بألفاظها المختلفة .

٣- معرفة ما يتعلق بالموضوع من سبب نزول ونسخ، وهل يوجد شيء من ذلك أو لا ؟

(١) الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة ص٢٢.

٤- محاولة فهم النص الواقع تحت الدراسة على وفق فهوم العرب إبان نزول الوحي وذلك لتغير دلالات الألفاظ حسب مرور الوقت، ولهذا يقتضي الأمر الإلمام بمسائل تعين على فهم النص والتمكن من تقديم معنى على آخر، **وهي كالآتي :**

- إن النص مقدم على الظاهر والظاهر مقدم على المؤول.
- إن المنطوق مقدم على المفهوم وإن المفاهيم بعضها مقدم على الآخر كذلك.
- أن يخضع في تناوله للنص لقاعدة : العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين وأن العموم مقدم على الخصوص والإطلاق مقدم على التقييد، والإفراد على الاشتراك، والتأصيل على الزيادة، والترتيب على التقديم والتأخير، والتأسيس على التأكيد، والبقاء على النسخ، والحقيقة الشرعية على العرفية، والعرفية على اللغوية.
- مراعاة السياق والسباق وعدم اجتزاء النص عما قبله وما بعده .
- مراعاة قاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
- معرفة معاني الحروف وعدم تفسير حرف أو حمله على معنى لا يقتضيه الوضع العربي
- مراعاة أوجه الإعراب وعدم القول بتوجيه لا يسانده إعراب صحيح أو قرينة أخرى.
- أن المشترك اللفظي يمكن حمله على واحد من معانيه دون نفي الآخر أو القطع بأن هذا الصواب وحده ما لم تكن هناك قرينة راجحة.

٥- إظهار وجه الإعجاز : فإذا تم ذلك لم يبق على الباحث سوى أن يظهر الربط بين الحقيقة الشرعية والعلمية بأسلوب واضح مختصر.

٦- أن هناك أموراً من قبيل المتشابه لا مجال لفهمها أو تناولها بالبحث.

٧- عدم البحث في الأمور الغيبية كموعد قيام الساعة وبداية الخلق والجنة والنار.

٨- عدم الاعتماد على الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة.

٩- الاعتماد على المصادر المعتبرة في ذلك دون غيرها كأمهات التفسير والحديث وكتب غريب القرآن والسنة، مع الإشارة إلى جهود الدراسات السابقة إن وجدت .

١٠- الابتعاد عن تسفيه آراء السلف من علماء التفسير والحديث ورميهم بالجهل لأن القرآن والسنة خطاب للبشرية في كل عصر، والكل يفهم منهما بقدر ما يفتح الله عليه، وبحسب ما يبذله منجهد وما هو متوفر لديه من وسائل، ولن يحيط بفهم الوحي أهل عصر إلى قيام الساعة، فلا مجال للتسفيه والتجهيل وإنما هي الاستفادة والتكميل والدعاء لمن تقدم ، قال تعالى :{وَالَّذِينَ جَاؤُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحشر:١٠)، بل الواجب اتباع فهم السلف رضي الله عنهم، وخصوصاً الصحابة رضوان الله عليهم لأنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين وعبدالله بن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.

١١- فهم العمدة والعدول بخبر الله تعالى، وعنهم أخذ التابعون وعلى نهجم ساروا، فمن عدل عن تفسيرهم إلى ما يخالفه كان مخطئاً، بل ومبتدعاً؛ لأنهم كانوا أعلم بتفسير كتاب الله من غيرهم وأورع وأتقى.

١٢- ينبغي أن تحصر الدراسة فيما تمكن القدرة عليه فالأفراد يمكن أن يقصروا بحوثهم فيما يتعلق بالاكتشافات فيما هو خاضع لتجاربهم المخبرية ليصلوا من خلال ذلك إلى الحق، وللجامعات والمراكز والدول مجالات أكثر وأكبر.

١٣- ينبغي أن يعلم الباحث في هذا المجال أن كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم صدق وحق ولا يمكن بحال أن يخالف حقيقة علمية لأن منزل القرآن هو الخالق العالم بأسرار الكائنات قال تعالى:{أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}(الملك: ١٤) ومعرفة ذلك تقتضي منا التريث وعدم تحميل النص ما لا يحتمله من أجل أن يوافق ما نظنه حقيقة، فإذا لم يتيسر ذلك بشكل واضح فعلينا أن نتوقف دون نفي أو إثبات ونبحث عن موضوع آخر والزمن كفيل بانكشاف الحق بعد ذلك .

١٤- على الباحث أن يتحر الصدق والصواب وأن يخلص نيته لله في تبيين الحق للناس من أجل هدايتهم وأن يعلم خطورة ما يتناوله ويعبر عنه.

١٥- ينبغي أن يتصف الباحث كذلك بالصبر مع توفر الكفاءة العلمية المكتسبة حتى يميز الحق من الباطل ويقبله ويلتزم بالموضوعية، ومعناها هنا : حصر المعلومات ودراستها من غير تحيز لفكرة أو رأي سابق مع التقيد بالمنهج العلمي في التوثيق والاقتباس والإحالات[١].

المبحث الثالث
تعريف السواك وحكمه لدى الفقهاء.

تعريف السواك في اللغة والاصطلاح:

قال ابن فارس: "السين والواو والكاف: أصل واحد يدل على حركة واضطراب، ومنه اشتق اسم السواك وهو العود نفسه، والسواك: استعماله أيضاً"[٢].

وقال ابن منظور: "سوك السوك فِعْلُك بالسِّواك والـمِسْواك... ساك الشيءَ سَوْكاً دَلَكه، ساك فَمَه بالعُود يَسُوكه سَوْكاً ... سَاكَ وسَوَّكَ واحدٌ واسْتاكَ مشتق من ساكَ، وإذا قلت: اسْتاك أو تَسَوَّك فلا تذكر الفَم والعُود"[١].

---

(١) الإعجاز العلمي في القران والسنة ص٣٠-٣٥، وانظر الأعجاز العلمي ضوابط وحدود، لفهد اليحيى، موقع الهيئة العالمية للاعجاز العلمي في القرآن والسنة:
http://www.eajaz.org/index.php/component/content/article/73-Number-XV/724-Scientific-Miracles.

(٢) مقاييس اللغة (٣/١١٧-١١٨)، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا - تحقيق عبدالسلام هارون- دار الجيل - بيروت - ط الأولى- ١٤١١هـ.

وقال النووي: "وهو في **اصطلاح العلماء:** استعمال عود أو نحوه في الأسنان لتذهب الصفرة وغيرها عنها والله أعلم"(٢).

أما حكمه لدى الفقهاء:

فقال النووي: "ثم أن السواك سنة ليس بواجب في حال من الأحوال، لا في الصلاة ولا في غيرها بإجماع من يعتد به في الإجماع، وقد حكى الشيخ أبو حامد الاسفراينى إمام أصحابنا العراقيين عن داود الظاهري أنه أوجبه للصلاة وحكاه الماوردي عن داود، وقال: هو عنده واجب لو تركه لم تبطل صلاته، وحكى عن إسحاق بن راهويه أنه قال: هو واجب فان تركه عمداً بطلت صلاته! وقد أنكر أصحابنا المتأخرون على الشيخ أبي حامد وغيره نقل الوجوب عن داود وقالوا مذهبه أنه سنة كالجماعة، ولو صح إيجابه عن داود لم تضر مخالفته في انعقاد الإجماع على المختار الذي عليه المحققون والأكثرون، وأما إسحاق فلم يصح هذا المحكي عنه والله أعلم"(٣).

وقال الصنعاني: "هو سنة عند جماهير العلماء، وقيل بوجوبه"(٤).

وقال الشوكاني: "هو من السنن المؤكدة، وليس بواجب في حال من الأحوال..."(٥).

وقال ابن قاسم: "اتفق العلماء على أنه سنة مؤكدة لحث الشارع ومواظبته عليه"(٦).

أما الأوقات التي يستحب فيها السواك:

فقال النووي: "السواك مستحب في جميع الأوقات، ولكن في خمسة أوقات أشد استحباباً:

أحدها: عند الصلاة سواء كان متطهرا بماء أو بتراب أو غير متطهر، كمن لم يجد ماءً ولا تراباً.

الثاني: عند الوضوء.

الثالث: عند قراءة القرآن.

الرابع: عند الاستيقاظ من النوم.

---

(١) لسان العرب مادة (سوك) (٤٤٦/١٠)، بتصرف، لمحمد بن مكرم بن منظور - دار صادر- بيروت - ط أولى.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٤٢/٣)،مؤسسة الكتب الثقافية - ودار الكتب العلمية - بيروت، وانظر نيل الأوطار (١٣٣/١)، لمحمد بن علي الشوكاني- تعليق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث- ط أولى-١٤١٣، وحاشية الروض المربع (١٤٨/١)، لعبدالرحمن بن قاسم- بدون ذكر للدار- ط رابعة – ١٤١٠هـ.

(٣) شرح النووي على مسلم (١٤٢/٣).

(٤) سبل السلام (٧٢/١)، لمحمد بن إسماعيل الصنعاني- تحقيق محمد محرز سلامة وزملاؤه- مطبعة جامعة الإمام- ط الرابعة- ١٤٠٨هـ، ورد الوجوب بقوله في تتمة كلامه: ((وحديث الباب دليل على عدم وجوبه)) يشير لحديث لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء، وسيأتي تخريجه. وهذا اللفظ عزاه ابن حجر في البلوغ لمالك وأحمد والنسائي وصححه ابن خزيمة وذكره البخاري تعليقاً، انظر سبل السلام (٧١/١).

(٥) نيل الأوطار (١٣٤/١).

(٦) حاشية الروض المربع (١٥٠/١).

الخامس: عند تغير الفم، وتغيره يكون بأشياء منها ترك الأكل والشرب، ومنها أكل ما لـه رائحة كريهة، ومنها طول السكوت ومنها كثرة الكلام"[1].

المبحث الرابع
بعض الأحاديث الواردة في فضل السواك والحث عليه

اقتصرت هنا على بعض الأحاديث الصحيحة التي فيها بيان فضيلة السواك صراحة، واكتفيت بهذا العدد طلباً للاختصار، وهناك أحاديث أخرى عديدة وصحيحة تدل على الأفضلية أكثرها من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، كما أن هناك أحاديث أخرى في الأفضلية، من قول النبي صلى الله عليه وسلم ومن فعله، منها ما هو حسن ومنها ما هو ضعيف، وقد اكتفيت بما يلي وانتقيته ليحصل به المقصود وهي كالتالي:

الحديث الأول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لولا أن أشق على أمتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة)[2].

الحديث الثاني:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء))[3].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤٢/٣-١٤٣)، وانظر نيل الأوطار (١٣٤/١)، وانظر ما زاده في زاد المستقنع وحاشيته (١٥١/١-١٥٣)، والشرح الممتع (١١٩/١-١٢٦)للشيخ محمد صالح العثيمين- مؤسسة آسام- ط أولى- ١٤١٤هـ، مع أدلة بعض هذه الأوقات، ووجه إلحاق ما لا دليل خاص عليه بها.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٠٣/١، رقم٨٤٧) في الجمعة باب: السواك يوم الجمعة، ومسلم في صحيحه (٢٢٠/١، رقم٢٥٢) في الطهارة، باب: السواك، لكن بلفظ: (عند كل صلاة).

(٣) رواه البخاري في صحيحه معلقاً بصيغة الجزم (٦٨٢/٢)، ورواه أحمد في مسنده (٤٦٠/٢)،تحقيق جماعة بإشراف الدكتور سمير طه المجذوب - المكتب الإسلامي - بيروت - ط أولى - ١٤١٣هـ، من طريق مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة مرفوعاً **بسند صحيح**، وابن خزيمة في صحيحه (٧٣/١، رقم١٤٠) تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ثانية - ١٤١٢هـ ، من طريق روح بن عبادة عن مالك به ، وقال عقبه: ((هذا الخبر في الموطأ عن أبي هريرة: لولا أن يشق على أمته لأمرهم بالسواك عند كل وضوء ورواه الشافعي وبشر بن عمر كراوية روح))، وانظر طرق متعددة لهذا الحديث في بغية النساك في أحكام السواك وحاشيته (ص٥٥-٥٦) لمحمد بن أحمد السفاريني- تحقيق عبدالعزيز ابن إبراهيم الدخيل- دار الصميعي- ط أولى- ١٤٢٠.

الحديث الثالث:

عن أنس رضي الله عنه قال:(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكثرت عليكم في السواك))[١].

الحديث الرابع:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء...)[٢].

الحديث الخامس:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(السواك مطهرة للفم مرضاة للرب)[٣].

الحديث السادس:

عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالسواك حتى خفت على أضراسي)[٤].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه(٣٠٣/١، رقم٨٤٨) في الجمعة باب: السواك يوم الجمعة، وانظر معرفة النساك في أحكام السواك وحاشيته (ص٦٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٢٣، رقم ٢٦١)، في الطهارة باب: خصال الفطرة، وأحمد في مسنده(١٣٧/٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه معلقاً بصيغة الجزم، فهو صحيح (٦٨٢/٢)، ورواه أحمد في مسنده من طرق عديدة منها (٤٧/٦)، طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر عن عائشة به، وابن خزيمة في صحيحه (٧٠/١، رقم١٣٥) في الوضوء، باب: فضل السواك، من طريق أخرى رجالها ثقات، وانظر ما قاله المحقق حول الحديث.

(٤) رواه الطبراني في الكبير(٢٥١/٢٣، رقم٥١٠)،لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني - تحقيق حمدي السلفي - الدار العربية، ومطبعة الأمة - بغداد - ١٩٧٨م، من طريق أبي تميلة عن عبد المؤمن بن خالد عن بن بريدة عن أبيه عن أم سلمة به، ورواه البيهقي في سننه (٤٩/٧)لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي - دار الفكر - بيروت، في الطهارة باب: في فضل السواك من طريق أبي تميلة أيضاً عن خالد بن عبيد عن عبد الله بن بريدة به، وقال البيهقي عقبه: ((كذلك رواه غيره [أي أحمد بن عمر القاضي] عن أبي تميلة يحيى بن واضح، **قال البخاري رحمه الله** هذا حديث حسن)) انتهى كلام البيهقي.

قلت: **إسناده ضعيف** لضعف محمد بن حميد الرازي، لكن له شواهد عديدة حول هذا المعنى، انظر التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير (٦٧/١) لابن حجر العسقلاني-تحقيق عبدالله هاشم اليماني-دار المعرفة- بيروت. وبغية النساك وحاشيته(ص٧٠-٧١).

الفصل الثاني

الإعجاز في السنة النبوية وربطه بالبحث العلمي، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإشارات الإعجازية للسواك في السنة النبوية.
المبحث الثاني: بعض فوائد السواك الطبية التي ذكرها الفقهاء.
المبحث الثالث: السواك في السنة وصور الإعجاز فيهمن خلال البحث العلمي.

المبحث الأول
الإشارات الإعجازية للسواك في السنة النبوية.

نلاحظ أن الأحاديث الصحيحة تؤكد وترغب في استعمال السواك، حتى ذهب جماهير العلماء إلى استحبابه، ونص غير واحد منهم على أنه سنة مؤكدة، بل نُقل القول بوجوبه في بعض الحالات عن بعض العلماء كما تقدم.

ويلفت النظر كثرة الأحاديث الواردة في فضل السواك وهدي النبي صلى الله عليه وسلم في طريقة استعماله وأوقات استعماله، حيث عقدت له كتب الحديث باباً مستقلاً.

قال صاحب البدر المنير: "قد ذُكر في السواك زيادة على مائة حديث، فواعجباً!! لسنة تأتي فيها الأحاديث الكثيرة، ثم يهملها كثير من الناس!!، بل كثير من الفقهاء، فهذه خيبة عظيمة"(١).

وقال ابن قاسم: "ورد في فضل السواك أكثر من مائة حديث، حتى عُدّ في المتواتر"(٢).

بل قال النبي صلى الله عليه وسلم صراحة:(أكثرت عليكم في السواك)(٣).

وهذه الكثرة في أحاديث السواك تثير التساؤل لماذا هذه الأهمية؟! لا بد أن يكون في الأمر شيء!!

وتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لولا خوف المشقة على أمته لفرض عليهم السواك وأوجبه عند كل صلاة، أو عند كل وضوء، **فلماذا هذا التأكيد الذي كاد أن يبلغ الوجوب؟!.**

ومعلومٌ أن الشريعة لا تأمر بشيء وتأكد عليه إلا لأهميته وكثرة نفعه وخيره، وما تنهى عن شيء إلا لخطره وشره أو لضرره.

وما من شيء يشرعه الله تعالى لعباده إلا و له فيه حكمة وأسرار قد تكون ظاهرة وقد تكون مستترة، وقد تظهر لبعض الناس دون بعض، وقد لا تظهر في زمان، لكنها تظهر في زمان آخر!!

والعجيب أنه من خلال الواقع نلاحظ كثرة المراكز الطبية والمستوصفات الحكومية والأهلية التي تقوم بالعناية بالأسنان وعلاجها ونلاحظ كثرة المتدفقين عليها، خلافاً لسائر المراكز التي تعنى بعلاج أمراضٍ أخرى، وما ذلك إلا لكثرة الإصابة بالتسوس وانتشار أمراض الأسنان واللثة، وقد أثبتت الدراسات أن الذين يستعملون السواك يقل عندهم الإصابة بمثل هذه

(١) سبل السلام (٧٢/١).
(٢) حاشية الروض المربع (١٥٠/١).
(٣) تقدم تخريجه ص٣.

الأمراض[١]، بل أكد الأطباء أن العناية بالسواك يخفف على الدول اقتصادياً، ويحفظ لها الملايين من الأموال التي تصرف على الصحة، لاسيما على مصحات الأسنان.

ومن المهم دراسة قضية السواك وربطها بالأبحاث العلمية، لأن مشكلة التسوس تعد من أكثر المشاكل الطبية في المملكة، فقد ذكر مصدر طبي سعودي أن ٩٠% من سكان السعودية يعانون من تسوس الأسنان![٢]

وقال الدكتور علي الأحيدب أن ٥١ مليون ساعة دراسية يفقدها الطلبة بسبب مشكلات الأسنان، و٩٦% من أطفال المملكة يعانون تسوس الأسنان!![٣]

وكشف مختصون في طب وتقويم الأسنان، أن نسبة الأطفال الذين يستخدمون تقويم الأسنان في السعودية تصل إلى ٨٠ في المائة، مرجعين الأمر إلى خليط من الأسباب التي تتضمن الوراثة وقلة التوعية بأهمية تنظيف الأسنان مما يسبب سقوطها.[٤]

كما أثبتت الدراسات العالمية تأثير تسوس الأسنان على القلب وعلى الجانب النفسي، فقد ذكرت دراسة أعدها باحثون في تايوان أن الأشخاص الذين يعتادون على تنظيف أسنانهم بشكل منتظم لدى الطبيب تقل لديهم بنسبة ٢٤% مخاطر الإصابة بأزمات قلبية وبنسبة ١٣% احتمالات الإصابة بالسكتة الدماغية مقارنة بغيرهم الذين لم يخضعوا من قبل لمثل هذا الإجراء، حيث أوضحت الدراسة أن العادات الصحية السيئة تجاه الفم ترتبط بزيادة مخاطر الإصابة بأمراض القلب[٥].

كل ذلك يذكرنا بقول **ابن ماسوية الطبيب** لما قرأ حديث (ما ملأ آدميٌ وعاءً شراً من بطن...)[٦] قال: ((لو استعمل الناس هذه الكلمات سلموا من الأمراض والأسقام، ولتعطلت المارستانات[٧] ودكاكين الصيادلة))[٨].

وأقول أيضاً: **لو عمل الناس بوصيته صلى الله عليه وسلم بالعناية بالسواك، فحافظوا على هذه السنة لما كثرت أمراض اللثة والأسنان بأنواعها، ولما احتجنا لهذه الكثرة الكاثرة من العيادات والمراكز الصحية المتعلقة بمعالجة أمراض الأسنان والتسوس، ولما بُذلت الملايين على ذلك من قبل الدول ولا من قبل الناس.** فإن التسوك بالسواك من أسباب الوقاية من كل أمراض الأسنان واللثة، ولذا فقد أدخله الأطباء ضمن الطب الوقائي.

---

(١) انظر علي سبيل المثال كتاب السواك ص١٤٦، للدكتور محمد على البار- دار المنارة – جده- ط أولى، ١٤١٤هـ.

(٢) (صحيفة الرياض عدد١٥٦٤٤).

(٣) صحيفة الاقتصادية العدد(٦٢٩٣).

(٤) جريدة الشرق الأوسط العدد (١٢١١٩).

(٥) جريدة الرياض http://www.alriyadh.com/683043.

(٦) انظر الحديث والكلام على سنده وشرحه في جامع العلوم والحكم (٤٦٧/٢)للحافظ ابن رجب عبدالرحمن بن شهاب الدين، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم برجس- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط الثالثة- ١٤١٢.

(٧) أشبه بالمصحّات التي يتم فيها العلاج أو بالمستوصفات والمراكز الصحية.

(٨) جامع العلوم والحكم (٤٦٨/٢).

من الإشارات: حث النبي صلى الله عليه وسلم وفعله للسواك في أغلب أوقات اليوم، عند الصلاة وعند دخول البيت وعند القيام من الليل، بل حتى في اللحظات الأخيرة من مغادرته للدنيا! فحصول الأفضلية لهذه الأوقات المتعددة في اليوم والليلة تشير لأهمية تنظيف الأسنان بصفة متكررة طوال اليوم بل إنه صلى الله عليه وسلم كاد أن يوجبه خمس مرات في اليوم والليلة، لولا خوف المشقة على أمته، فلماذا هذا التأكيد وهذه الأهمية؟! وسيأتي معنا في ثنايا البحث ما قرره الطب الحديث من سرعة تكون الجراثيم والطبقات التي تجتاح السن وتغطيه، وأن العلاج والحل الأمثل هو ضرورة تكرار السواك طوال اليوم.

كل هذه الإشارات وأمثالها والتي تظهر لنا من خلال النظر في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم تثير للمسلم النبيه تساؤلات حول أهمية السواك وشدة نفعه، قبل أن يطلع على ما ذُكر من إعجازٍ أثبته العلم الحديث، وقد دلت عليه أو على نتائجه الأحاديث الصحيحة.

المبحث الثاني
بعض فوائد السواك الطبية التي ذكرها الفقهاء

سنذكر بعض ما قاله علماء الشريعة وأطباء المسلمين عن السواك، **وسنلاحظ أن أكثر ما ذكروه مثبت بالتجارب العصرية التي سنذكر طرفاً منها في ثنايا البحث،** ليُعلم أن الطب عند المسلمين كان في غاية التطور والرقي العلمي، وسأنقل ما قاله الفقيه الحبر شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في ذلك مرتباً على هيئة نقاط، وسيذهل القارئ إذا علم أن أكثر ما ذكره في غاية الدقة والصحة وقد أثبته الطب الحديث، وإليك كلامه.

قال ابن القيم رحمه الله في الطب النبوي:

((وأصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه.

ولا ينبغي أن يؤخذ من شجرة مجهولة، فربما كانت سماً.

وينبغي القصد في استعماله فإن **بالغ فيه فربما أذهب طلاوة الأسنان وصقالتها** وهيأها لقبول الأبخرة المتصاعدة من المعدة والأوساخ.

ومتى استُعمل باعتدال جلا الأسنان وقوى العمود وأطلق اللسان **ومنع الحَفَر** وطيب النكهة ونقّى الدماغ وشهى الطعام.

وأجود ما استعمل مبلولاً بماء الورد، ومن أنفعه أصول الجوز، قال صاحب التيسير: زعموا أنه إذا استاك به المستاك كل خامس من الأيام نقى الرأس وصفى الحواس وأحدّ الذهن.

وفي السواك عدة منافع: يطيب الفم، ويشد اللثة، ويقطع البلغم، ويجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويصح المعدة، ويصفي الصوت، ويعين على هضم الطعام، ويسهل مجاري الكلام، وينشط للقراءة والذكر والصلاة، ويطرد النوم، ويرضي الرب ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات،

ويستحب كل وقت، ويتأكد عند الصلاة، والوضوء، والانتباه من النوم، وتغيير رائحة الفم، ويستحب للمفطر والصائم في كل وقت لعموم الأحاديث فيه ولحاجة الصائم إليه، ولأنه مرضاة

للرب، ومرضاته مطلوبة في الصوم أشد من طلبها في الفطر، ولأنه مطهرة للفم، والطهور للصائم من أفضل أعماله...))[1].

المبحث الثالث
السواك في السنة وصور الإعجاز فيه من خلال البحث العلمي.
وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الصورة الأولى من صور الإعجاز، في خصوصية شجرة الأراك في السواك على غيرها.
المطلب الثاني: الصورة الثانية من صور الإعجاز، في الحث والتأكيد على تكرار السواك معظم اليوم.
المطلب الثالث: الصورة الثالثة من صور الإعجاز، في اهتمامه صلى الله عليه وسلم بتسويك اللسان.
المطلب الرابع: الصورة الرابعة من صور الإعجاز، في سنية غسل السواك، أو تطيبه باللعاب.

المطلب الأول
الصورة الأولى من صور الإعجاز
في خصوصية شجرة الأراك في السواك على غيرها

فقد جاء في السنة تحديد الشجرة التي يفضل الاستياك بها، إلا وهي شجرة الأراك[2]، **ونص الفقهاء على أن أفضل ما يُستاك به شجرة الأراك**، ثم بقية الأشجار التي لا ضرر فيها، ولنذكر بعض الأحاديث التي تدل على أفضلية الأراك وأنه الشجرة التي يفضل الاستياك بها:
فعن ابن مسعود رضي الله عنه: ((أنه كان يجتني سواكا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤوه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد)) [3].

---

(١) زاد المعاد، (الطب النبوي منه) (٣٢٢/٤-٣٢٤)، لمحمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية- تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة- ط ثالثة- ١٤٠٩، وبغية النساك في أحكام السواك (ص١٠٩-١١٠)، وانظر كتاب الطب من الكتاب والسنة لموفق الدين البغدادي وحاشيته (ص٢٦-٦٣)، تحقيق الدكتور عبدالمعطي أمين قلعجي- دار المعرفة- بيروت- ط ثالثة- ١٤١٤هـ، و حاشية الروض المربع (١٥٣/١) ، فقد ذكر عن العلماء مجموعة من فوائد السواك.
(٢) انظر الإعجاز العلمي في السنة النبوية (٥١٤/١-٥١٥).
(٣) راوه أحمد في مسنده (٤٢٠/١-٤٢١)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص٤٧ رقم٣٥٥)لسليمان بن داود الطيالسي- دار المعرفة- بيروت، وأبو يعلى في مسنده (٢٠٩/٩، رقم٥٣١٠)لأحمد بن علي أبو يعلى الموصلي-تحقيق حسين سليم أسد- دار التراث - دمشق- ط أولى- ١٤١٤هـ، من طريق حماد بن سلمة عن عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود به،

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بهم وهم يجتنون أراكاً، فأعطاه رجل جني أراك، فقال: لو كنت متوضأ أكلته))[١].

وعن أبي خيرة الصُّبَاحي قال: ((كنت في الوفد الذي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبدالقيس **فزودنا الأراك نستاك به،** فقلنا يا رسول الله: عندنا الجريد ولكنا نقبل كرامتك وعطيتك، فقال رسول الله **r** : اللهم اغفر لعبد القيس إذ أسلموا طائعين غير مكرهين، إذ بعض قوم لم يسلموا إلا خزايا موتورين))[٢].

ومن الأحاديث الصريحة في مكانة عود الأراك في السواك، ما رواه أبو أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- قَالَ « مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ». فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ **وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**»[٣].

وقد ذهب الفقهاء إلى استحباب الاستياك بالأراك وتفضيله لهذه الأحاديث[٤]،وهو قول الجمهور[٥].

ورواه بنحوه الطبراني في المعجم الكبير(٧٨/٩، رقم٨٤٥٢)، وغيره بألفاظ متقاربة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٩/٩)لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي- دار الكتاب- بيروت- ط ثالثة- ١٤٠٢هـ بعدما أورده بطرقه: ((وأمثلها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبو يعلى رجال الصحيح))، وقال الألباني: **سنده حسن،** وانظر إراوء الغليل (١٠٤/١، رقم٥٦) للمحدث محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي- بيروت- ط ثالثة- ١٤٠٥هـ.

(١) رواه أحمد في مسنده ٣٨٦/٣، عن حسن (وهو بن أعين) عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة أن مولى لجابر بن عبد الله أخبره فذكره...، **وسنده ضعيف،** لضعف ابن لهيعة وجهالة مولى جابر، قال في التقريب: "عبدالله بن لهيعة...صدوق..خلط بعد احتراق كتبه ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما.."رقم٣٥٦٤، للحافظ أحمد بن علي بن حجر- تحقيق محمد عوامة - دار ابن حزم- بيروت- ط أولى- ١٤٢٠هـ، **لكن يشهد له ماقبله.**

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٧٨/٧-٨٨)لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري - تقديم إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٣٨٠هـ، عن خليفة خياط قال: حدثنا عون بن كهمس قال: حدثنا داود بن المساور عن مقاتل بن همام عن أبي خيرة الصُّبَاحي به، وأورده البخاري في التاريخ الكبير في كتاب الكنى (٢٨/٨)،لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الكتب العلمية - بيروت -١٤٠٧هـ، عن خليفة خياط أيضاً بنفس السند، ورواه الطبراني في الكبير (٣٦٨/٢٢ رقم٩٢٣، و٩٢٤) من نفس الطريق، قال في المجمع: (٦٥/٥): **(وفيه جماعة لم أعرفهم)**، أي مجاهيل وهو كما قال، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة (١١١/٧)، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني - دار الكتب العلمية - بيروت - مصورة عن النسخة المطبوعة ١٨٥٣م.

(٣) ما رواه مسلم في صحيحه برقم٣٧٠(١/ ٨٥) دار الجيل، وهذا دليل على أهمية وشهرة عود الأراك، ولم يكن يستخدم إلا في السواك.

(٤) قال النووي في المجموع (٣٣٦/١)لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي- دار الفكر- بيروت،: ((واستدلوا للأراك بحديث أبي خيرة الصباحي رضي الله عنه...))، ونقل ابن حجر في التلخيص (٧١/١) عن ابن الصلاح قوله: ((وهذا الحديث مستند قول صاحب الإيضاح والحاوي والتنبيه حيث استحبوه)).

(٥) انظر بحثاً للشيخ الدبيان بعنوان "التسوك بالعود وأي السواك به أفضل" ،

قال ابن القيم: "وأصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه..."[١].

مكانة نبتة سواك الأراك بين غيرها من نبات السواك:

لقد أثبتت الأبحاث وجود ما لا يقل عن ١٨٢ نبتة أو شجرة مختلفة الفصائل والتي تستخدم أعوادها لتحضير السواك، من هذه الأشجار يوجد ما لا يقل عن ١٥٨ نبتة في قارة أفريقيا وحدها، وأشهر هذه الأشجار على الإطلاق وأكثرها شيوعاً واستخداماً هي شجرة الأراك[٢].

واسمها العلمي هو السلفادور برسيكا، وهي تنمو في مناطق عديدة حول مكة وفي المدينة المنورة وفي اليمن وفي أفريقيا، وهي شجرة قصيرة، لا يزيد قطر جذعها عن قدم، أطرافها مغزلية، أوراقها لامعة، جذوعها مجعدة، ولونها بني فاتح، والجزء المستعمل هو لب الجذور، ولاستعماله تجفف ثم يحفظ في مكان بعيد عن الرطوبة، وقبل استعماله يدق بواسطة آلة حادة ثم يبدأ في استعماله، وإذا كان جافاً يغمس في الماء ثم تسوك به الأسنان، ويظل استعماله هكذا حتى إذا ضعفت وتآكلت يوقف استعماله ثم يقطع هذا الجزء ويستعمل جزء آخر وهكذا[٣].

وإلى القارئ الكريم التعرف على التركيبة الكيماوية الخاصة بالأراك، الذي دلت السنة على الاستياك به، والتي قررها العلم الحديث:

فقد جاء في أحد البحوث وصف التركيبة الخاصة بالسواك كالتالي:

١- مادة شبه قلويدية يمكن أن تكون سلفارورين.
٢- تراي مثيل أمين (ثلاثي المثيل أمين).
٣- نسبة عالية من الكلوريد والفلوريد والسيليكا.
٤- كبريت.
٥- فتامين جي.
٦- كمية قليلة من مادة الصابونين، والتانين والفلافويند.
٧- كمية وفيرة من مادة السيتوستيرول.

وبنظرة بسيطة على المكونات الكيماية للسواك يمكن معرفة الآتي:

./http://www.alukah.net/sharia/0/47584

(١) زاد المعاد، (الطب النبوي منه) (٣٢٢/٤-٣٢٤)، وبغية النساك في أحكام السواك (ص١٠٩-١١٠)، وانظر كتاب الطب من الكتاب والسنة لموفق الدين البغدادي وحاشيته للدكتور القلعجي (ص٢٦-٦٣)، و حاشية الروض المربع (١٥٣/١) ، فقد ذكر عن العلماء مجموعة من فوائد السواك.

(٢) الإعجاز العلمي للسنة النبوية في أسرار مسواك عود الأراك وتأثيره على صحة الفم ومناعة الخلايا البشرية، د. مشاري بن فرج العتيبي، نقلاً عن موقع: http://www.nooran.org/con8/Research/46.htm.

(٣) نفس المصدر السابق.

أ- ثبت أن لها تأثيراً على وقف نمو البكتريا بالفم، وذلك يمكن أن يكون بسبب مادة تحتوي على الكبريت.
ب- مادة الترميثيل، تخفض من الأس الهيردروجيني للفم (وهو أحد العوامل الهامة لنمو الجراثيم) وبالتالي فإن نمو هذه الجراثيم قليل.
ت- أنها تحتوي على مادة فتامين ج ومادة السيستوستيرول، والمادتان تساعدان على تقوية الشعيرات الدموية المغذية للثة، وبذلك يتوفر وصول الدم إليها بالكمية الكافية، ويعمل فيتامين ج أيضاً على حماية اللثة من الاتهابات.
ث- تحتوي على مادة راتنجية تقوي اللثة.
ج- تحتوي على مادة اللكلوريد والسليكات وهي مواد تزيد بياض الأسنان[1].

أيضاً جاء في بحث آخر في تركيبة السواك الكيمائية وجود المواد التالية:

١- أملاح معدنية: وهذه إما تكون موجودة في النباتات أو تكون موجودة بشكل أملاح عضوية بالترميد، (أي تحويلها إلى رماد) أو التكليس (أي بإضافة مادة الكالسيوم) إلى أملاح ثابتة، ويتم الترميد بتسخين مسحوق العقار في فرن حرارته عالية، فتتخرب المواد العضوية فيه، ثم تتفحم، وأخيراً تتحول إلى مواد معدنية لا تتأثر بالحرارة، فوجد أن فيها مواد الكبريت والكبريتور، والكلور والكالسيوم، والفحمات والفوسفات والصوديم والحديد وبلورات السليكات بنسبة ٤ % من وزن العيدان الجافة.
٢- مواد عطرية زيتية ذات رائحة زكية تنحل في الغول (الكحول الأثيلي) والأثير: وكانت نسبة المواد العطرية ١% من الوزن الجاف.
٣- مواد سكرية مثل النشأ الذي يظهر بوضوح عند إضافة محلول اليود، فيظهر اللون الأزرق المتميز للنشأ، ومواد صمغية، ومواد سكرية بسيطة، مثل سكاكير خلونية، وسساكر خمّاسية وجالكتوز.
٤- النشادر(الأمونيا).
٥- أحماض غلوية: وهي أحماض هيدروكسيلية، وقد أشارت بعض الكتب إلى أن تفاعل المسواك قلوي خفيف، كما قال الدكتور زكي كرام في رسالة باللغة الألمانية ألفها في هذا الشأن، ولهذا التفاعل تأثير دوائي هام، فكثير من أمراض الفم الأوساط القلوية أكثر من الحامضية [2].

---

(١) بحث بعنوان استعمال السواك لنظافة الفم وصحته (٤٠٧/١-٤١١)، للدكتور محمد رجاء المصطيهي وزملاؤه، داراسة سريرية وكيميائية، أبحاث المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي،الكويت- ١٤٠١، وعنه كتاب السواك (ص١٥١-١٥٣)، وهناك نتائج مقاربة عن الدكتور عبدالغني حمزة، نقلها عنه الدكتور عبدالله السعيد في كتابه السواك والعناية بالأسنان (ص٤٥-٤٦)مكتبة المنار الزرقاء- الأردن- ١٤٠٢، وانظر كتاب السواك للدكتور محمد على البار (ص١٥٣-١٥٤) وانظر استعمال السواك لنظافة الفم وصحته، دراسة سريرية وكيميائية د.محمود رجائي وزملاؤه، نقلاً عن موقع:
http://www.islamset.com/arabic/ahip/practice/ragay.html.

(٢) السواك والعناية بالأسنان (ص٥١)، وهو منقول من بحث للصيدلي صلاح الدين الحنفي في رسالته للتخرج من كلية الصيدلة بجامعة دمشق، وانظر كتاب السواك للدكتور محمد على البار

وجاء أيضاً في مجموع أبحاث أخرى ما ملخصه:

((أن مسواك الأراك المستخدم في السعودية وغيرها يحتوي على مواد مطهرة وقاتلة للميكروبات أهما: الكبريت، ومادة سيستوستيرول(ب) كما يحتوي المسواك على مادة منظفة للأسنان هي بيكربونات الصودا ويحتوي عود الأراك على مواد مضادة للالتهاب ومضادة للتسوس كما ذكر ذلك براون وجاكوب (يعقوب) في بحثهما عن المسواك، وقد أكدا وجود مواد قاتلة للميكروبات.

وأوضح الدكتور عبدالرحيم محمد والدكتور جميس ترنر أن لحاء، وخشب عود الأراك المقطوع حديثاً لا يوجد فيه مواد ضارة بالخلايا، ولكن إذا ترك الجزء المستعمل لأربعة وعشرين ساعة فإنه يحتوي على مواد ضارة للخلايا، **ولذا فإن الباحثين ينصحان بقطع الجزء المستعمل كل أربع وعشرين ساعة على الأكثر**))[1].

ولعظيم نفع هذا المادة التي أبهرت الأطباء بكثرة فوائدها التي لا يعادلها شيء من المعاجين المصنعة، هرعت الكثير من الشركات الأوربية والآسيوية إلى تصنيع معاجين مستحضرة من مادة السواك[2].

وبما تقدم ذكره من أبحاث تثبت فوائد هذه المادة التي دلت عليها سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم يتبين لنا وجه الإعجاز في حث النبي صلى الله عليه وسلم على السواك.

وقد قارن أساتذة الطب في دراسات عجيبة بين السواك المأخوذ من شجرة الأراك وفرشاة الأسنان الحديثة، بل وصل الحال في أحد المؤتمرات العالمية الطبية والذي عقد في السويد أن يقرر الأطباء العيوب التي تحصل من جراء استعمال الفرشاة وأن الحل الأمثل الذي لا عيب فيه من الناحية الطبية استعمال السواك فقط دون غيره!.

(ص١٥٤-١٥٥)، وانظر تنبيهه في الحاشية على خطأ علمي في الفقرة الأخيرة من كلام الدكتور الحنفي، وانظر الإعجاز في السنة النبوية (٥٠٩/١-٥١١) للدكتور صالح الرضا، ومقدمة تحقيق كتاب معرفة النساك في معرفة السواك(ص٢٢-٢٣)، وانظر دراسات طبية في بعض الأحاديث النبوية للبرفسور محمد محمد الشريف (ص٢٦-٢٧) جده- دار الشريف- ١٤١٩هـ.

(١) السواك للدكتور محمد على البار (ص١٥٦-١٥٧) بتصرفٍ يسير، نقلاً عن أبحاث باللغات الأجنبية، منها بحث للأستاذ الدكتور عبدالرحيم محمد(كلية طب الأسنان جامعة الملك سعود بالرياض)، والأستاذ الدكتور جيمس ترنر(كلية الطب بجامعة تينيسي بالولايات المتحدة) والمنشور في مجلة طب الفم والأسنان الاستوائية، وانظر مقدمة تحقيق كتاب معرفة النساك في معرفة السواك، حيث نقل المحقق بحث الدكتور عبدالرحيم محمد عن صحيفة الجزيرة السعودية: (الأحد ٦/رجب١٤٠١، الموافق ١٠مايو سنة ١٩٨١م عدد٢١٩٠) بعنوان: بحث علمي في كلية الأسنان يؤكد أن السواك مضر إذا استخدم أكثر من ٢٤ ساعة. وانظر موسعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة،

http://www.quran-m.com/firas/arabicold/print_details.php?page=show_det&id=287 .

(٢) انظر السواك للدكتور البار (ص١٥٩-١٦٠)، وفيه ذكر بعض هذه الشركات.

وقد انتهت مجمل دراسات العديد من الباحثين في ذلك إلى أن المسواك يفوق جميع الوسائل والطرق المستعملة لتنظيف الأسنان، فهو منظف آلي يقوم مقام معجون الأسنان، أو المسحوق المنظف، بل أفضل منه، لما يحتويه من مواد مطهرة...ومواد زالقة منظفة، فتدعك وتدلك الأسنان وتجعلها بيضاء لامعة، ولا تخدش أنسجة السن، وهي خير من المواد الرغوية التجارية التي توجد بالمعاجين، **فقد أعلنت مجلة أطباء الأسنان الأمريكية**، أن أغلبية المعاجين المستعملة هناك غير صحية أو طبية... **وأوجز الدكتور السعيد ما ذكره الأطباء في مزايا السواك على الفرشاة في النقاط التالية:**

١- حقوة ألياف السواك وليونتها ومتانتها، مما لا يتوفر في فرشاة الأسنان.
٢- احتواءه على مواد كيميائية ذات فائدة عظيمة للأسنان، مما لا يوجد منه بتاتاً في جميع المعاجين والمحاليل.
٣- دقة أليافه ورقتها بالنسبة للفرشاة الحديثة.
٤- تجديد رأسه باستمرار وبله.
٥- أليافه غير قابلة للتلوث، لوجود المواد الكيميائية المطهرة.
٦- التحكم في صلابة أو طراوة أليافه.
٧- وصول أليافه إلى أماكن ضيقة بين الأسنان.
٨- إمكانية جعل أليافه ثخينة، أو رفيعة، أو طويلة، أو قصيرة.
٩- أصالة وطبيعة المواد المكونة له، بخلاف إمكانية غش المحاليل ونحوها.

مما تقدم نرى أن المسواك يحتوي على مواد عديدة مفيدة لا توجد بأي معجون أو منظف أسنان[١].

بل صرح الدكتور فارس علوان **بأفضلية السواك على الفرشاة** فقال: ((وللمسواك فوائد عديدة، وميزات كثيرة تجعله يفضل الفرشاة والمعجون ويتفوق عليهما، وذلك للأسباب التالية...)) ثم ذكر اثنا عشر سببا[٢].

وقد قام نخبة من أكبر علماء طب الأسنان في العالم بإجراء بحوث وتجارب كلفت أموالاً طائلة -ولا تزال- حينما حاولوا استخلاص تلك المواد الفعالة الموجودة في السواك ووضعوها في معجون أسنان يسمى Qualimeswaks أنتجته الشركة العالمية السويسرية (فارما بازل ليمتد) وطرح في الأسواق **ولكن وجدوا أنه لا يقوم بنفس ما يقوم به عود الأراك!!** ويرجع السبب في ذلك إلى عدة أمور، فإلى جانب ثراء عود الأراك بالمكونات الكيميائية فهو يحتوي على

(١) انظر السواك والعناية بالأسنان (ص١١-١٣) و (٢٠٧-٢١٥) والسواك فوئده في طب الفم والأسنان للدكتور عزت أبو الشعر (ص٤٧-٦٤)، ومقدمة التحقيق لكتاب بغية النساك في أحكام السواك (ص٢٢-٢٤)، ومقدمة التحقيق لكتاب معرفة النساك في معرفة السواك (ص٢٤-٢٦)، وانظر في نفس الموضوع الأعجاز العلمي في السنة النبوية للدكتور صالح الرضا، (٥١٢/١-٥١٣)، وحاشية الدكتور القلعجي على كتاب الطب من الكتاب والسنة (ص٦٣)، وانظر السواك بين الطب والإسلام، http://draldaker.wordpress.com.

(٢) انظر الإعجاز العلمي في السنة النبوية (٥١٢/١-٥١٣)، وانظر الأسباب مفصلة فيه.

عناصر أخرى لا تظهر إلا بعد التفاعل مع لعاب الفم، وكانت المفاجأة حين عثروا في اللعاب على مركبات جديدة لم يسبق التعرف عليها في خلاصة الأراك المعملية، وبعد تجارب تحليلية دقيقة توصلوا إلى أن هذه المركبات الجديدة هي في الأصل من مكونات الأراك الطبيعية ولكنها مقيدة بمركبات أخرى، **فلا يظهر تأثيرها إلا بفعل إنزيمات اللعاب حتى تصول وتجول بين جحافل البكتريا الفموية الضارة فيمكنها القضاء على ٩٧% من أفراد الميكروبات في زمن محدود.** علاوة على الدور العكسي الذي تحدثه إنزيمات اللعاب صوناً للمادة الفعالة الزائدة من الضياع، فإذا زادت عن حاجة الفم وما أن تغيرت حموضة الفم بفعل نشاط الميكروبات حتى ينقلب الحال فتنشط إنزيمات اللعاب ويتحرر جزء من المادة الفعالة التي سرعان ما تبيد البكتريا الضارة بحكمة واقتدار(١).

ومن أشهر وأحدث البحوث العلمية حول مادة الأراك:

ما أجراه الدكتور مشاري بن فرج العتيبي، وبعد مقارنة تأثير سواك أعواد الأراك مع فرشاة الأسنان فيما يخص صحة اللثة والقدرة على إزالة طبقات اللويحة السنية المتواجدة في الشق اللثوي وعلى أسطح الأسنان فقد ظهرت النتائج التالية:

١-وجد أن انخفاض معدلات ومستويات تواجد اللويحة السنية (Dental plaque)، والتي كانت في مرحلة استخدام السواك (عود الأراك) كانت أعلى مما وجد خلال مرحلة فرشاة الأسنان.

٢-كذلك فقد وجد أن انخفاض معدلات ومستويات المقاييس الخاصة بصحة اللثة (Gingivalinflamations)، والتي كانت في مرحلة استعمال السواك كانت تفوق ما وجد خلال مرحلة استعمال فرشاة الأسنان، ولقد كان ذلك الانخفاض واضحاً وبفارق كبير لصالح السواك.

وفي هذا البحث قام الدكتور مشاري أيضاً بدراسة مقارنة حول تأثير استخدام السواك (عود الأراك) وفرشاة الأسنان على عدد من أنواع البكتيريا الفموية المتواجدة ضمن اللويحة اللثوية بالشق اللثوي، وباستخدام تقنية الحامض النووي الوراثي تمت دراسة مدى تأثير استخدام السواك (عود الأراك) على مستويات البكتيريا الفموية **وللمرة الأولى على مستوى العالم.**

ولقد لوحظ أنه بعد نهاية مرحلة استخدام السواك كان المشاركون يحملون عدداً أقل من البكتيريا المسماة Actinobacillus (Actinomycetemcomitan) واختصارها (A.a) إذا ما قورن بالعدد قبل بداية هذه المرحلة، ووجد أن الفارق هنا يعتبر فارقاً إحصائياً حقيقياً ($P<0.05$). وهذه النتيجة تؤكد أن استخدام أعواد السواك تقلل من تواجد هذا النوع من البكتيريا الفموية (A.a) والتي تعتبر من أشرس أنواع الميكروبات، والسبب الرئيسي لعدد كبير من أمراض اللثة والعظم المحيط بها.

---

(١) انظر السواك بين السنة والطب، أحمد حسين خليل حسن، نقلاً عن موقع: http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=999 ، وانظر السواك بين الطب والشرع: http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1649.

ولقد أثبتت النتائج أن لخلاصة السواك (عود الأراك) تأثيراً قاتلاً على البكتيريا الفموية المسماة Actinobacillus (Actinomycetemcomitan) واختصارها (A.a)، ويقول الدكتور مشاري بن فرج: "وهذه المعلومة تسجل للمرة الأولى على مستوى المعرفة الطبية، **وهذا يعتبر حقاً نطالب بحفظه في المحافل العالمية**، ففي الصحن المحتوي على تلك البكتيريا نجد أن نمو هذه البكتيريا يتوقف كلياً إذا أصبح على بعد ١٠ملم من قطعة عود الأراك المغروسة في منتصف الوسط الحاوي للبكتيريا النامية، وهذا يعني أن نمو هذه البكتيريا قد تأثر بوجود عود الأراك الذي أبطل نموها، أو استطاع أن يعطل عملية النمو التي تقوم بها هذه البكتيريا في الظروف الملائمة لذلك"[١].

وجه الأعجاز: كما أن من المعلوم أن الأراك ينمو في الأماكن الحارة والاستوائية ويكثر عادة في أودية الصحاري وكذا في تهامة[٢] فلا يستغرب أن يكون هو المتوافر غالباً والمقدم في العصر الأول، لدى الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة، وقد ذهب الجمهور من الفقهاء إلى تفضيل الاستياك به كما تقدم، ولا يزال سواك الأراك هو الأكثر استعمالاً في أنحاء الجزيرة العربية، لاسيما في المملكة العربية السعودية، حتى في الأماكن التي لا ينبت فيها لسهولة نقله إليها، والشاهد مما تقدم، أن هذه الشجرة المفضلة للسواك كما دلت عليه السنة، لها خصائص لا توجد في غيرها كما تقدم، وهذا يؤكد وجه الإعجاز فيما حثنا عليه النبي صلى الله عليه وسلم من التأكيد على استعمال السواك، **وكذا نوع السواك الذي يناسب ويتميز عن غيره في التنظيف ودفع الضرر عن الأسنان والفم.**

(١) الإعجاز العلمي للسنة النبوية في أسرار مسواك عود الأراك وتأثيره على صحة الفم ومناعة الخلايا البشرية، د. مشاري بن فرج العتيبي، نقلاً عن موقع:
http://www.nooran.org/con8/Research/46.htm
والسواك بين الشريعة والطب:
http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1649.

(٢) انظر السواك للدكتور محمد البار (ص١٤٧).

المطلب الثاني
الصورة الثانية من صور الإعجاز
الحث والتأكيد على تكرار السواك معظم اليوم

فقد جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة، أو عند كل وضوء))[١]، **وفي هديه في تكرار السواك عدة مرات في اليوم عند كل صلاة**[٢]، **وحين دخول البيت**، فقد قالت عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ بَدَأَ بِالسِّوَاكِ»[٣]، **وعند القيام من الليل** فعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَشُوصُ فَاهُ»[٤] **بل حتى عند الموت:**

فقد أثبت الطب الحديث ضرورة تنظيف الأسنان في اليوم عدة مرات، لإزالة الميكروبات المتتابعة التي سرعان ما تغطي الأسنان.

قال الإمام الحافظ ابن رجب وفي الحديث: "دليلٌ على أن الاستياك سنةٌ في جميع الأوقات، عند إرادة الصلاة وغيرها، فإن استياك النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بهذا السواك كان في مرض موته عند خروج نفسه، ولم يكن قاصداً حينئذ لصلاةٍ ولا تلاوة"[٥].

ما قرره الطب الحديث في سرعة تكون الميكروبات:

فقد تحدث الطب الحديث عن دور اللويحة السنّية(الطلاوة) والبكتريا التي تغطي السن أو عنقه في نخر الأسنان...وذكروا أنه "عندما تستوطن الميكروبات هذه اللويحة وتكوّن مستعمرات فيها تبدأ عملها على بقايا الطعام وخاصة المواد السكرية فتحولها إلى أحماض مثل حامض اللبنيك وحامض الفورميك (النمليك)...وإذا لم يتم إزالة هذه اللويحة السنية بتنظيف الأسنان واللثة فإنها تزداد تكثفاً ولذا ينصح بإزالتها كل أربع ساعات تقريباً، **وهذا ما توفره تعاليم الإسلام في السواك عند كل وضوء وصلاة وعند القيام من النوم وعند قراءة القرآن وعن دخول المنزل**...إلخ"[٦].

ويقول أحد الأطباء: ((مبدأ حفظ صحة الأسنان هو التأكيد على تنظيفها تنظيفاً مستمراً وبخاصة الثلم اللثوي كل أربع ساعات))[٧].

---

(١) تقدم تخريجه ص٧٤.
(٢) تقدم تخريجه ص٧٤.
(٣) صحيح مسلم١/ ٢٢٠، رقم٢٥٣.
(٤) صحيح البخاري٣٠٣/١، رقم ٨٨٩.
(٥) فتح الباري شرح البخاري لابن رجب٨/ ١٢٩، تحقيق محمود شعبان وزملاؤه، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة، ط الأولى، ١٤١٧ هـ.
(٦) كتاب السواك للبار (ص٨٦-٨٧)، وانظر موسعة الإعجاز في الكتاب والسنة، http://www.ylomonya.com/vb/showthread.php?t=25964
(٧) الوجيز في علم أمراض اللثة وطرق معالجتها (ص٩)ط، الأولى سنة ١٤٠٢ ه، للأستاذ الدكتور عبدالغني ماجد السروجي، وانظر السواك (ص٨٧).

وقد أجرى أحد الأطباء عدة تجارب فوجد أن الجراثيم تعود إلى مستواها الطبيعي في الفم بعد عشرين دقيقة فقط من استعمال معجون الأسنان، وبعد أربع وعشرين ساعة من تكون اللويحة السنّية تظهر أعناق الأسنان ترسّبات رخوة مرئية بالعين المجردة، إذا لم يتم تنظيف الأسنان وتسويكها(١).

وفي أحد البحوث والدراسات الطبية تم فحص أربعمائة وثمانين شخصاً بالغاً (من سن ٣٥إلى سن٤٥) ومجموعة أخرى من سن خمس وستين فما فوق من مدينتي جدة ومكة، وقد وجد الباحثون أن من يستخدمون السواك بانتظام لا يعانون من التهاب محيط السن إلا بنسبة ضئيلة، وهم أقل بكثير ممن لا يستعملون المسواك، وبمقارنتهم بالدول الأخرى فإن استعمال المسواك يوضح مدى الوقاية في صحة الأسنان وصحة الفم نتيجة استخدام المسواك(٢).

وفي بحث آخر جاء فيه ((أن استخدام السواك يقلل من الإصابة بالتهاب اللثة، والتهاب محيط السن، ووجود جيوب صديدية، وكانت المجموعة التي لا تستخدم المسواك ولا الفرشاة والمعجون أكثرها تعرضاً للإصابة، **ويبدوا أن استخدام المسواك ربما كان أفضل من الفرشاة في إزالة اللويحة السنّية والمحافظة على صحة الأسنان والفم**))(٣).

وقد ثبت تكون لويحة جرثومية (Bacterialplaque) تلتصق بالأسنان في غلالة رقيقة من اللعاب التي تسبح فيه، وهذه اللويحة أو الطبقة تتكون سريعاً حتى بعد تلميع الأسنان في أقل من ساعة، ويزداد سمكها ويحدث فيها ترسبات رخوة كلما تركت من غير إزالة.

وقد ثبت أن هذه اللويحة الجرثومية التي تتكون على الأسنان هي المسئولة عن أمراض اللثة ونخر الأسنان، لما تحويه من عدد هائل من الجراثيم؛ إذ يصل عددها داخل هذه اللويحة إلى حوالي مائة بليون جرثومة في الجرام الواحد، وهذا يوضح لنا حكمة حث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على دوام استعمال السواك.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيح فيما تقدم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك؛ لأن ركود اللعاب أثناء النوم، أحد العوامل التي تشجع تكاثر الجراثيم وازدياد ترسباتها في هذه اللويحة، كما أن هذه اللويحة ليس لها علاقة بالأكل وفضلات الطعام فهي دائمة التكوين، لذا نفهم الحكمة من ترغيب النبي صلى الله عليه وسلم وحضّه على السواك وملازمته له حتى أثناء الصيام(٤).

---

(١) انظر صحة الفم والأسنان للدكتور السعيد (ص٩٩)، نقلاً عن بحث للدكتور فوزي زريق من جامعة القاهرة، والسواك (ص٨٧).

(٢) بحث للدكتور الخطيب وزملائه نشرته مجلة صحة طب المجتمع للأسنان عام ١٩٩١، باللغة الإنجليزية، انظر كتاب السواك (ص١٤٦) بتصرف يسير، وانظر فوائد متتمة لبحوث السواك: http://www.alukah.net/sharia/0/53389/.

(٣) بحث نشرته مجلة الطبية للدكاترة عيد والشمري وسليم عام ١٩٩٠، باللغة الإنجليزية، انظر السواك للدكتور البار (ص١٤٦).

(٤) انظر: من إعجاز القرآن الكريم والسنة المطهر في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة، للدكتور عبد الجواد الصاوي، نقلاً عن موقع: http://www.nooran.org/O/3/3O9.htm.

وهذه اللويحة الجرثومية (طبقة البلاك) في أفواهنا تشتمل على أعداد ميكروبية هائلة تقدر بنحو ٣٠٠ مليون خلية في كل مليجرام، وبالتالي فإنها تعتبر خطراً حقيقياً يزحف على الأسنان، فثمة سلالات بكتيرية من أمثال الاستربتوكوكس واللاكتوباسلس ونحوها لا تزال تطلق أنزيماتها المحللة للبقايا السكرية حتى تحولها إلى سكريات أبسط كالجلوكوز ثم تمضي عاملة عليها بغية تحويلها إلى أحماض عضوية كاللاكتيك والبيروفيك والخليك والبروبيونيك. ولا يخفى ما لهذه الأحماض من قدرة على إذابة الجزء الصلب الملاصق لمينا الأسنان محدثة فجوة تسويس الحامض، وعندها يبدأ سطح السن في التآكل ممهداً لدخول موجات جديدة من البكتريا المحللة إلى أعماق أبدع حتى يصل الهدم إلى منتهاه.

إذاً فميكانيكية التسوس تكمن في تكون البلاك، وبدون البلاك لا يحدث تسوس وعند الرغبة في القضاء على التسوس يجب القضاء على البلاك.

إن اللويحة الجرثومية (طبقة البلاك) هي التي تحتضن ملايين الميكروبات -إن هي أهملت ولم تطرح عاجلاً- فإن ميكروباتها تقتنص الفرصة ولا تزال تتآزر بل تتآمر مع فضلات الطعام التي تنتشر هنا وهناك على سطوح الأسنان حتى تفرخ المؤامرة التهاباً في اللثة، وهذه المواد السامة الناتجة عن الالتهابات لا تلبث أن تقوم بتفتيت الأنسجة الليفية الضامة في اللثة حول الأسنان مكونة بؤراً صديدية عفنة تحت اللثة وفيما بين العظام وجذور الأسنان. وهنا تحدث الكارثة فلا تزال تلك البؤر الصديدية تمتلئ بخليط من صديد ممزوج بخلايا ميتة وميكروبات وفضلات طعام حتى تصاب اللثة باليوريا وتغدو الأسنان عرضة للسقوط.

وإن بكتريا البؤرة الصديدية وسمومها كثيراً ما تتسرب -عبر الدماء- إلى أجهزة الجسم والأعضاء فتصيبها في الصميم. وهناك تقارير علمية حديثة تفيد أن أنواعاً من الجراثيم الفموية مثل بكتريا (بورفيروموناز جينجيا فالس) تستطيع التسرب إلى الشرايين القلبية وإحداث عطب بجدرانها على نحو يوفر الفرصة لانسدادها ولو بعد حين. وتفيد تقارير أخرى أن معظم المصابين بقرح المعدات يوجد بأفواههم عدد هائل من بكتريا (هليوكوباكتربيلوري) وهي نوع مشاغب يستطيع التسرب إلى المعدة والتشبث بجدرانها وإحداث ثقوب دقيقة فيها تتسع شيئاً فشيئاً حتى تتقرح المعدات.

بالإضافة إلى **تقارير أخرى تفيد أن خطر البكتريا الفموية يمكن أن يبلغ الدماغ حيث تنتج إنزيمات تزيد من تراكم الدهنيات بشرايين الرقبة السباتية حتى يقل الإرواء الدموي للخلايا المخية مما يهدد بكارثة في المخ توشك على الوقوع.** ليس هذا فحسب فخطر البكتريا الفموية يمكن أن يمتد إلى العيون والرئتين والى المرارة والجلد والكليتين وإلى مفاصل البدن أيضاً، وتظل آثار البؤرة الصديدية تمتد إلى أجزاء الجسم المختلفة، على أن هذا كله يمكن حظره إذا أزيلت طبقة البلاك التي هي السبب الرئيسي لكل ذلك وبالتالي منع لائحة الأمراض السابق ذكرها من الحدوث[١].

(١) السواك بين السنة والطب، أحمد حسين خليل حسن، نقلاً عن موقع: http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=999.وانظر السواك بين الشريعة والطب:

وجه الأعجاز:

المبالغة في التأكيد على تكرار السواك، والحث عليه، واستحبابه في كل وقت حتى في وقت الصيام ووقت التوقف عن أكل الطعام، والنبي صلى الله عليه وسلم، خشية المشقة على الأمة كاد أن يلزمها بتكرار السواك عند كل صلاة، ومع كل وضوء، ولا يأتي هذا التأكيد والحث المبالغ فيه إلا لحكمة عظيمة، وللسلامة من خطر كبير والله أعلم، وهذا ما أكده العلم الحديث من سرعة تكونك طبقات للجراثيم ولو بدون أكل للطعام، وهذا من الأعجاز الذي دلت عليه سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثالث

الصورة الثالثة من صور الإعجاز

اهتمامه صلى الله عليه وسلم بتسويك اللسان

جاء في الأحاديث اهتمامه صلى الله عليه وسلم بتسويك اللسان ودلكه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: ((أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فوجدته يستن بسواك بيده يقول: أُغ أُغ، والسواك في فيه كأنه يتهوع))[١].

وفي رواية مسلم: ((وطرف السواك على لسانه))[٢].

قال الحافظ ابن حجر في شرح قوله (أع أع):((... ترجع إلى حكاية صوته إذ جعل السواك على طرف لسانه، كما عند مسلم، والمراد: طرفه الداخل كما عند أحمد يستن إلى فوق، ولهذا قال هنا: كأنه يتهوع، والتهوع: التقيؤ، أي له صوت كصوت المقيئ على سبيل المبالغة، **ويستفاد منه: مشروعية السواك على اللسان طولاً، أما الأسنان فالأحب فيها أن تكون عرضاً**، وفيه حديث مرسل عند أبي داود وله شاهد موصول عند العقيلي في الضعفاء، ***وفيه تأكيد السواك وأنه لا يختص بالأسنان...***))[٣].

ما قرره الطب الحديث في أهمية تنظيف اللسان:

وقد ((اهتم الأطباء في الآونة الأخيرة بتنظيف اللسان؛ لما يتراكم عليها من الإفرازات وبقايا الطعام مما يؤدي إلى تجمع الميكروبات، ولذا فإن أهمية تنظيف اللسان تكاد تعدل أهمية تنظيف الأسنان)) [٤].

يلاحظ بالعين المجردة أن اللسان بكامل سطحه العلوي به شقوق واضحة غائرة ولا شك أن هذه الشقوق يلتصق بها الكثير من بقايا فتات الطعام والشراب الدقيقة مما ينتج عنه بعد ذلك تعفنها

.http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1649

(١) رواه البخاري في صحيحه (٩٦/١، رقم٢٤١) في الوضوء باب: السواك.
(٢) مسلم بشرح النووي (١٤٤/٣).
(٣) فتح الباري (٤٢٤/١)لأحمد ابن علي بن حجر العسقلاني – تصحيح الشيخ عبدالعزيز بن باز ومحب الدين الخطيب - دار الريان - القاهرة - ط الثانية - ١٤٠٩.
(٤) انظر السواك للدكتور محمد على البار (ص٣٣-٣٤).

وخروج رائحة كريهة. ***وقد ثبت علمياً أن اللسان أخصب مكان في الفم لنمو شتى أنواع البكتريا الضارة من جراء هذا التعفن لاسيما المنطقة الخلفية*** (قاعدة اللسان) لأن المنطقة الأمامية من اللسان تحتكّ دائماً بالأسنان وسقف الفم مما يعمل على تنظيفها من هذه البكتريا بصفة دائمة. كما أن الحليمات الذوقية التي تغلفها شقوقها أقل غوراً وأقل تجعداً بعكس المنطقة الخلفية (قاعدة اللسان) التي تفتقد لهذا وشقوقها أكثر غوراً وتجعداً ولا شك أن هذه البكتريا الضارة تندفع إلى داخل جسم الإنسان مع أي وجبة قادمة وقد تسبب هذه البكتريا بعض التقرحات للسان.

أما كيفية تنظيف اللسان:

فقد ورد في موقع animated-teeth.com. وهو أحد المواقع العلمية المتخصصة في أمراض الفم والأسنان قولهم حول أفضل الطرق لتنظيف وصيانة الفم والأسنان: "هناك طرق متعددة يمكن من خلالها تنظيف المنطقة الخلفية للسان لكن كل منها لها نفس الهدف، هو قشط البكتيريا والأوساخ التي تجمعت على سطح اللسان. عندما تنظف لسانك، ليست المشكلة في الطريقة التي اخترت استعمالها ولكن يجب عليك أن تحاول تنظيف المنطقة الخلفية البعيدة في لسانك. لا تتفاجأ إذا وجدت شعوراً بالغثيان (رغبة في التقيؤ)، إن شعورك بالغثيان هو رد فعل طبيعي سوف يزول مع الوقت"[(١)].

وجه الإعجاز:

لم يعرف الطب قديماً أهمية لتنظيف اللسان، أو أن لترك تنظيفه خطورة تذكر، وكان التركيز على تنظيف الأسنان ذاتها، ثم جاء الطب الحديث ليبين أهمية تنظيف اللسان وأنه يحتوي على عدد كبير من الجراثيم والتي بدورها تنتقل أيضاً للأسنان، وتتابعت البحوث العلمية الحديثة في عمل دراسات تجريبية للتعمق في ذلك، وما توصلت إليه هذه البحوث من أهمية تنظيف اللسان وخطر التهاون في ذلك، سبق إليه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الذي حث على السواك، وكاد أن يفرضه على أمته، وكان ينظف لسانه بالسواك، وينظف المنطقة المتأخرة من اللسان، والتي تتركز فيها الميكروبات وتسبب الرائحة للفم، وكل ذلك من الإعجاز العلمي النبوي للسواك.

(١) الهدي النبوي في تسويك اللسان، لطارق عبده أسماعيل:
http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=1119.
وانظر السواك بين الطب والشرع:
http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1649.

المطلب الرابع

الصورة الرابعة من صور الإعجاز في سنية غسل السواك أو تطيبه باللعاب

فقد جاء في السنة استحباب غسل السواك قبل استعماله، وكذا جعله عند كل وضوء؛ ليحصل كمال التنظّف، من ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها:

((دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا مسندته إلى صدري ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبدّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بصره، **فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته ثم دفعته إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاستن به،** فما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استن استناناً قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رفع يده أو إصبعه ثم قال: في الرفيق الأعلى ثلاثاً ثم قضى، وكانت تقول مات بين حاقنتي وذاقنتي))[(١)].

وفي لفظ آخر للبخاري:((فَقَصَمْتُهُ، ثُمَّ مَضَغْتُهُ فَأَعْطَيْتُهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَنَّ بِهِ وَهُوَ مستند إِلَى صَدْرِي))[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:((كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يستاك فيعطيني السواك لأغسله، فأبدأ به فاستاك، ثم أغسله وأدفعه إليه))[(٣)].

وأيضاً حديث ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء))[(٤)].

وحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بهم وهم يجتنون أراكاً، فأعطاه رجل جني أراك، فقال: **لو كنت متوضأً أكلته**))[(٥)].

قال النووي في شرحه لحديث عائشة في سنن أبي داود: "فيه استحباب غسله"[(٦)].

قال الحافظ ابن حجر: "قَوْلُهُ ثُمَّ لَيَّنْتُهُ ثُمَّ طَيَّبْتُهُ أَيْ بِالْمَاءِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ طَيَّبْتُهُ تَأْكِيدًا لِلَيِّنْتُهُ، وَسَيَأْتِي مِنْ رِوَايَةِ ذَكْوَانَ عَنْ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ فَتَنَاوَلْتُهُ فَأَدْخَلْتُهُ فِي فِيهِ فَاشْتَدَّ فَتَنَاوَلْتُهُ فَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ"[(٧)].

ما يقوله الطب الحديث في بلّ السواك:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٦١٣، برقم: ٤١٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه٥/٢، رقم٨٩٠.

(٣) رواه أبو داود في سننه (١٤/١، رقم٥٢)، من طريق عنبسة عن كثير عن عائشة به، ورواه من طريق أبي داود البيهقي في الكبرى (٣٩/١، رقم١٦٨)، ورجال إسناده ثقات إلا كثير بن عبيد التيمي مولى أبي بكر الصديق ورضيع عائشة رضي الله عنها، روى عنها وعن أبي هريرة وزيد وأسماء بن ابي بكر، وعنه ابنه عنبسة وغيره، ليس فيه جرح ولا تعديل، وقال عنه ابن حجر في التقريب: (مقبول)، وذكره ابن حبان في الثقات، فهو أحد التابعين المستورين وعندي أن **هذا الحديث حسن الإسناد**. انظر التقريب (رقم٥٦١٩) والتهذيب(٤٦٣/٣).

(٤) تقدم تخريجه ص٨٧.

(٥) تقدم تخريجه ص٨٠.

(٦) الإيجاز في شرح سنن أبي داود للنووي ص٢٢٧، الدار الأثرية، عمان.

(٧) فتح الباري لابن حجر٨/ ١٣٩.

لبلّ السواك وغسله بالماء حكمة عجيبة وهي: حل المادة المركبة والمقاومة للجراثيم، وفي استعماله جافاً يؤدي إلى تآكل أنسجة الأسنان الصلبة(١).

واستمع إلى ما قاله أحد علماء الطب ومدير معهد الجراثيم والأوبئة في أحد الجامعات الألمانية في مقال له في بعض المجلات حول بلّ المسواك قبل استعماله وقطعه بعد فترة يقول: "إن هناك حكمة كبيرة في استعمال العرب للمسواك بعد بله بالماء؛ لأن استعماله جافاً لا ينجع؛ لما يحويه من مادة مضادة للجراثيم، أما الحكمة الأخرى فهي في تغيير المسواك من حين لآخر؛ لأنه يفقد مادته الهامة، المقاومة للجراثيم بطول الاستعمال"(٢).

وقد حاولت بعض الشركات العالمية استخلاص تلك المواد الفعالة الموجودة في السواك ووضعوها في معجون الأسنان، **لكن وجدوا أنه لا يقوم بنفس ما يقوم به عود الأراك!!** ويرجع السبب في ذلك إلى عدة أمور، فإلى جانب ثراء عود الأراك بالمكونات الكيميائية فهو يحتوي على عناصر أخرى ***لا تظهر إلا بعد التفاعل مع لعاب الفم،*** وكانت المفاجأة حين عثروا في اللعاب على مركبات جديدة لم يسبق التعرف عليها في خلاصة الأراك المعملية، وبعد تجارب تحليلية دقيقة توصلوا إلى أن هذه المركبات الجديدة هي في الأصل من مكونات الأراك الطبيعية ولكنها مقيدة بمركبات أخرى، **فلا يظهر تأثيرها إلا بفعل إنزيمات اللعاب حتى تصول وتجول بين جحافل البكتريا الفموية الضارة فيمكنها القضاء على ٩٧% من أفراد الميكروبات في زمن محدود.** علاوة على الدور العكسي الذي تحدثه إنزيمات اللعاب صوناً للمادة الفعالة الزائدة من الضياع، فإذا زادت عن حاجة الفم وما أن تغيرت حموضة الفم بفعل نشاط الميكروبات حتى ينقلب الحال **فتنشط إنزيمات اللعاب ويتحرر جزء من المادة الفعالة التي سرعان ما تبيد البكتريا الضارة بحكمة واقتدار**(٣).

وجه الإعجاز:

أن من السنة تطيب السواك بالماء، أو تطييبه باللعاب قبل دفعه خاصة مع من لا يعافه كما بين الزوج والزوجة، أو تناوله مع الوضوء. وخلط السواك بالماء، وكذا اختلاطه باللعاب يكسبه نوعاً من التفاعل لمقاومة الميكروبات بشكل لا يتصوره الإنسان، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث مؤخراً، وأشارت له السنة النبوية في العصر الأول، وهو من إشارات الإعجازي النبوي للسواك.

---

(١) انظر مقدمة تحقيق كتاب بغية النساك في أحكام السواك (ص١٤)، وانظر الإعجاز العلمي في السنة (٥١٣/١) الفقرة (١٢)، فيما نقله عن بحث الدكتور فارس علوان.

(٢) السواك والعناية بالسنان للدكتور السعيد (ص٨٥)، وانظر الإعجاز العلمي في السنة (٥١٣/١)، ومقدمة بغية النساك (ص١٣).

(٣) انظر السواك بين السنة والطب، أحمد حسين خليل حسن، نقلاً عن موقع: http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=999،وانظر السواك بين الشريعة والطب: http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1649 .

الخاتمة

في ختام هذا البحث نخلص إلى هذه النتائج:

١- حاولت جاهداً تحرير ما يتعلق بالتعريف المناسب للإعجاز، بما يناسب التعريف الجاري عليه للمعجزة ودلائل النبوة عند أهل السنة والجماعة، والجواب عن خطأ بعض محترزات التعاريف التي وردت في بعض كتب الإعجاز في السنة النبوية.
٢- عرفّت السواك في اللغة والاصطلاح، وذكرت حكمه لدى الفقهاء، وأنه سنة مؤكدة لا واجب، وتشكيك العلماء في صحة ما نسب لبعض العلماء من القول بوجوبه.
٣- ذكرت أشهر الأحاديث الصحيحة في فضل السواك والترغيب فيه.
٤- حاولت استخراج بعض الإشارات الإعجازية التي تظهر للمتأمل في أحاديث السواك، والتي قد نستفيد بعضها، من كلام بعض الشراح.
٥- يعد السواك والحث عليه من السنن المؤكدة، التي كادت أن يوجبها الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في فضائل السواك أكثر من مائة حديث كما ذكر العلماء، وما ذلك إلا لأهميته في الشريعة.
٦- عناية الشرع الحنيف بصحة أعضاء الإنسان، لا سيما الأسنان هنا، والإرشاد لطرق الوقاية من تضررها.
٧- أن وراء هذا الحث وإثارة الأهمية نحو السواك أسرار صحية عجيبة، تبين حكمة ما يشرعه الله للناس، وما يسنه نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم لأمته.
٨- ذكرت أربع صور من صور الإعجاز من خلال أحاديث السواك، وربطتها بما ثبت في الطب الحديث من بحوث وتجارب، وأسهبت في الصورة الأولى لأهميتها، وهي ما يتعلق بسواك الأراك وما توصل له العلم الحديث في فوائد وعجائب هذه المادة.
٩- نقلت ما يدل من البحوث على تفوق السواك ومادته على الفرشاة والمعجون من نواحي عديدة، وأن الفرشاة والمعجون لها سلبيات طبية، والسواك هو الوحيد الذي ليس فيه سلبيات طبية.

التوصيات

١- اقترح عمل توعية وقائية من قبل وزارة الصحة بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم والجامعات والوزرات للتوعية بأهمية السواك وفضله، وأثره من في علاج مشاكل التسوس التي تعاني منها المملكة بشدة، وذلك عبر جولات لفريق طبي توعوي يقوم بالمهمة بشكل مهني وراق.
٢- تشجيع وتطوير بيع السواك وتصنيعه وتسهيل توزيعه بكثرة، في أمكان العمل وعند المساجد وفي المدارس والجامعات، وتخصيص كشكات لذلك.
٣- تشجيع زراعة شجر المسواك وتسهيل جنيه للمستثمرين لنشر هذه السنة العلاجية الوقائية.
٤- إن كثيراً من المسلمين الآن وللأسف اتجهوا نحو الماديات بشكل كبير ومخيف، لاسيما مع انفتاح العالم إعلامياً وتقنياً، كما حصل هنالك شعور بضعف اليقين لدى بعض الشباب بدينهم

وعقيدتهم وحضارتهم الإسلامية، ومثل هذا النوع من البحوث يجمع بين أمرين، فيزيد الشاب والمسلم يقيناً بدينه ونبيه صلى الله عليه وسلم، ويوفر له شعور بالاعتزاز والفخر لما توصل له دينه من الحث على قضايا طبية وقائية أثبت العلم الحديث فعاليتها الخارقة، ويكون لديه مادة للنقاش والمحاجة بل ودعوة غير المسلمين للإسلام.

٥- إن تناول مثل هذه المادة العلمية الغنية يعيش في نوع من الانفصام، حيث يقوم المتخصصون الشرعيون والمحدثون بتناول فضائل السواك في السنة والشريعة على حدة، بينما يتناول الباحثون من الصيادلة والأطباء السواك من الناحية العلمية والمخبرية وعجائب هذه المادة، مع إشارتهم إلى فضل السواك في السنة، ***بينما الأمر يتعدى ذلك إلى ضرورة الجمع*** بين تفاصيل الإشارات النبوية للسواك وفضله والحث والتأكيد على استعماله، مع تحديد أوقات وأماكن وطريقة استعماله، **وهذه تحتاج لمتخصص شرعي**، لديه اطلاع ونفس طويل في النظر في الأبحاث العلمية القديمة والحديثة، وربط الجانبين ربطاً متيناً وهادفاً.

٦- إن أكثر من يخوض في الإعجاز العلمي هم من غير المتخصصين شرعياً، ولذا يقعون في أخطاء فادحة أحياناً في الفهم وتفسير النصوص ولي أعناقها؛ لتحقيق إعجازاً بناء على بعض الاكتشافات العلمية، وهذا يتطلب انبراء أكاديميين مختصين للعناية بهذا الجانب لوضع الأشياء في مسارها الصحيح، ومساعدة الباحثين العلميين والأطباء في بحوثهم الثرية في هذا الجانب.

٧- مشكلة تسوس الأسنان في المملكة تمثل مشكلة كبيرة للغاية! حيث لم تف ولم تغط المراكز الحكومية الحاجة الكبيرة لعلاج حالات التسوس، مما أدى إلى انتشار مراكز الأسنان وزراعتها الأهلية التجارية مع ضعف الجودة، واستنزاف أموال الناس في معالجة أسرهم مع استمرار مشكلة التسوس، على حد قولهم: مصائب قوم عند قوم فوائد!! كل ذلك يعود لإهمال الجانب الوقائي والتوعوي الذي جاءت به السنة، بأقل تكلفة وإيجاد البدائل الناجعة، ومن ذلك نشر سنة السواك، حيث أثبتت الدراسات العلمية وصُرح بذلك في مؤتمرات كبرى أن السواك بعود الأراك هو الوحيد الذي ليس له أي مضاعفات جانبية مقارنة بفرشاة الأسنان!! بل إن فترت مقاومات مادة الأراك للميكروبات تفوق المعاجين الخاصة بتنظيف الأسنان! وقد تبقى لساعات أطول.

٨- اقترح فتح مراكز علمية بحثية طبية تعتمد على دراسة ما ورد في الكتاب والسنة من أشفية وأطعمة ذات نفع وشفاء، وتخرج بأبحاث نافعة للمسلمين، وللعالم أجمع تدل على إعجاز المصدرين التشريعين لدى المسلمين.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتقبل منا صالح أعمالنا، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس المصادر والمراجع

١- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد - الدكتور صالح الفوزان- دار ابن خزيمة - ط ثانية- ١٤١٧.

٢- إرواء الغليل – المحدث محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي - بيروت- ط ثالثة- ١٤٠٥.

٣- الإعجاز العلمي في السنة النبوية، الدكتور صالح الرضا، مكتبة العبيكان - ط أولى، ١٤٢١.

٤- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوبطه، الدكتور عبدالله المصلح، هيئة الإعجاز العلمي، دار جياد، ط ثالثة، ١٤٣٢هـ.

٥- الإيجاز في شرح سنن أبي داود السجستاني، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، علق عليه وخرج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن، الدار الأثرية، عمان – الأردن، ط الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٦- استعمال السواك لنظافة الفم وصحته- الدكتور محمد رجائي المصطيهي - أعمال المؤتمر الأول للطب الإسلامي- الكويت- ١٤٠١.

٧- بغية النساك في أحكام السواك- محمد بن أحمد السفاريني- تحقيق عبدالعزيز ابن إبراهيم الدخيل- دار الصميعي- ط أولى- ١٤٢٠.

٨- تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الشيخ عبدالمجيد الزنداني وزملاؤه، رابطة العالم الإسلامي، ط ثانية، ١٤٢١هـ.

٩- تقريب التهذيب- الحافظ أحمد بن علي بن حجر- تحقيق محمد عوامة - دار ابن حزم- بيروت- ط أولى- ١٤٢٠.

١٠- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير- ابن حجر العسقلاني - تحقيق عبدالله هاشم اليماني- دار المعرفة- بيروت.

١١- تهذيب التهذيب- للحافظ أحمد بن علي بن حجر- باعتناء إبراهيم الزيبق - وعادل مرشد- مؤسسة الرسالة- ط أولى – ١٤١٦.

١٢- جامع العلوم والحكم- للحافظ ابن رجب عبدالرحمن بن شهاب الدين – تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم برجس- مؤسسة الرسالة- بيروت - ط الثالثة- ١٤١٢.

١٣- حاشية الروض المربع- عبدالرحمن بن قاسم- بدون ذكر للدار- ط رابعة - ١٤١٠.

١٤- دراسات طبية في بعض الأحاديث النبوية- الدكتور البورفسور محمود محمد الشريف- جده- دار الشريف- ١٤١٩.

١٥- زاد المعاد- محمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية- تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط- مؤسسة الرسالة- ط ثالثة- ١٤٠٩.

١٦- سبل السلام شرح بلوغ المرام- محمد بن إسماعيل الصنعاني- تحقيق محمد محرز سلامة وزملاؤه- مطبعة جامعة الإمام- ط الرابعة- ١٤٠٨.

١٧- سنن البيهقي الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي - دار الفكر - بيروت.

١٨- السواك- الدكتور محمد على البار- دار المنارة – جده- ط أولى، ١٤١٤.
١٩- السواك والعناية بالإسنان- الدار السعودية- جده- ط أولى- ١٤٠٢.
٢٠- الشرح الممتع على زاد المستقنع- الشيخ محمد صالح العثيمين- مؤسسة آسام- ط أولى- ١٤١٤.
٢١- صحة الفم والأسنان، الدكتور عبدالله عبدالرزاق السعيد- مكتبة المنار الزرقاء- الأردن- ١٤٠٢.
٢٢- صحيح البخاري (الجامع الصحيح)، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري - تحقيق الدكتور مصطفى ديب البُغا - دار ابن كثير - ط الخامسة - ١٤١٤هـ.
٢٣- صحيح ابن خزيمة، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ثانية - ١٤١٢هـ.
٢٤- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي - مؤسسة الكتب الثقافية - ودار الكتب العلمية - بيروت.
٢٥- الطب من الكتاب والسنة- موفق الدين عبداللطيف البغدادي- تحقيق الدكتور عبدالمعطي أمين قلعجي- دار المعرفة- بيروت- ط ثالثة- ١٤١٤.
٢٦- الطبقات الكبرى، لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري - تقديم إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٣٨٠هـ.
٢٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي، تحقيق محمود شعبان وزملاؤه، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة، ط الأولى، ١٤١٧ هـ.
٢٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني - لأحمد ابن علي بن حجر العسقلاني – تصحيح الشيخ عبدالعزيز بن باز ومحب الدين الخطيب - دار الريان - القاهرة - ط الثانية - ١٤٠٩.
٢٩- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي - تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ثانية – ١٤٠٧هـ.
٣٠- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور - دار صادر- بيروت - ط أولى.
٣١- مجمع الزوائد- نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي- دار الكتاب- بيروت- ط ثالثة- ١٤٠٢.
٣٢- المجموع شرح المهذب- لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي- دار الفكر- بيروت.
٣٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل - تحقيق جماعة بإشراف الدكتور سمير طه المجذوب - المكتب الإسلامي - بيروت - ط أولى - ١٤١٣هـ.
٣٤- مسند الطيالسي- سليمان بن داود الطيالسي- دار المعرفة- بيروت.
٣٥- المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني - تحقيق حمدي السلفي - الدار العربية، ومطبعة الأمة - بغداد - ١٩٧٨م.
٣٦- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا - تحقيق عبدالسلام هارون - دار الجيل - بيروت - ط الأولى - ١٤١١هـ.

٣٧- معرفة النساك في معرفة السواك- ملا علي قاري- تحقيق نظر محمد الفريابي- دار الراية- الرياض- ط أولى- ١٤١٠.
٣٨- نيل الأوطار- محمد بن علي الشوكاني- تعليق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث- ط أولى-١٤١٣.
٣٩- الوجيز في علم أمراض اللثة وطرائق معالجتها: أطلس أمراض اللثة، ط، الأولى سنة ١٤٠٢ هـ.

الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الأسرة

د. أحمد إبراهيم يحيى يابس
أستاذ الفقه المشارك
بكلية التربية بالحديدة – جامعة الحديدة

ملخص البحث:

هذا البحث يتناول موضوع الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الأسرة من حيث: اتخاذ القرار من قبل أحد الأولياء بالتزويج للمرأة دون الرجوع إلى بقيتهم، وكذا استقلال بالولاية على طرفي عقد النكاح، ثم استقلال المرأة لتزويج نفسها دون إذن وليها، ثم تزداد أهمية هذا البحث في الاستقلال الشخصي في قضايا فسخ العقد، فإذا ظهر لأحد الأولياء أن هذا الزوج ليس كفئا للمرأة أو أن فيه عيبًا فاستقل بطلب فسخ العقد، وكذا الفسخ بسبب دعوى الزوج أو الزوجة رضاعه مع الآخر، ومما يكون له حكم الاستقلال الشخصي استقلال الزوج بالظهار من زوجته بما هو محرم عليه مؤبدا، ثم تزداد أهمية هذا البحث في الاستقلال الشخصي في قضايا الطلاق فيستقل به الزوج دون الزوجة لما يترتب عليه من تبعات الطلاق من النفقة والسكنى والعدة والرضاع والحضانة إن كان له ولد، ثم يأتي استقلال الزوجة بالحضانة نتيجة للطلاق الذي يحصل لها من زوجها، ومن أهم قضايا الطلاق تحمل الدولة وقيامها على حضانة الأولاد غير الشرعيين.

إلى غير ذلك من مباحث الاستقلال الموجودة في كتب الفقه.

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى آله ومن والاه، وبعد:

فإن مما لا شك فيه أن الأسرة تنشأ برابطة زوجية بين رجل وامرأة بعقد شرعي يتفرع عنه بعد ذلك الأولاد، وتظل تلك الأسرة ذات صلة وثيقة بأصولها عن طريق عقد النكاح الذي يعتبر من أهم العقود التي اهتمت بها جميع الأديان السماوية السابقة؛ بل جعله الإسلام وسيلة لسعادة المجتمع الإنساني وشفائه من الأمراض الاجتماعية والخُلُقيَّة التي تصيبه بسبب البعد عنه.

ومن أجل ذلك اهتم الإسلام بالأسرة اهتماما بالغا لما يترتب عليها من أمور تتعلق بها من حسن تربية الأبناء وتخريج الأجيال الناشئة، ليكونوا درعا حصينة للأمة الإسلامية في الدفاع عن حياضها وكرامتها وعزتها.

ولما كان للأسرة شأن عظيم في الإسلام فإن الفقهاء تناولوا كل ما يتعلق بها من الأحكام الشرعية سواء أكان ذلك قبل العقد أم بعده، ومما تناوله الفقهاء التصرفات الشخصية الصادرة عن أحد أفراد هذه الأسرة سلبًا وإيجابًا وهذه التصرفات قد يحصل عليها الاتفاق من جميع الأسرة، وقد لا يحصل عليها اتفاق مما قد يستقل به من له الحق في ولاية هذه الأسرة.

ونظرًا لأهمية هذا الموضوع أحببت الإسهام فيه بجمع مسائله بداية من عقد النكاح ونهاية بموضوع الحضانة، حتى يسهل على القارئ الوقوف على أهم القضايا: من استقلال أحد الأولياء بالتزويج للمرأة دون الرجوع إلى بقية الأولياء، وكذا الاستقلال بالولاية على طرفي عقد النكاح، ثم استقلال المرأة لتزويج نفسها دون إذن وليها، ثم تزداد أهمية هذا البحث من حيث علاقته بفسخ العقد، فإذا ظهر لأحد الأولياء أن هذا الزوج ليس كفؤا للمرأة أو أن فيه عيبًا فاستقل بطلب فسخ العقد، وكذا الفسخ بسبب دعوى الزوج أو الزوجة رضاعه مع الآخر، ومما يكون له حكم الاستقلال الشخصي استقلال الزوج بالظهار من زوجته بما هو محرم عليه مؤبدا، ثم تزداد أهمية هذا البحث من حيث الاستقلال الشخصي في قضايا الطلاق؛ لأن الزوج يستقل بالطلاق دون الزوجة لما يترتب عليه من تبعات الطلاق من النفقة والسكنى والعدة والرضاع والحضانة إن كان له ولدا، ثم يأتي استقلال الزوجة بالحضانة نتيجة للطلاق الذي يحصل لها من زوجها، ومن أهم قضايا الطلاق تحمل الدولة وقيامها على حضانة الأولاد غير الشرعيين.

أسباب اختيار البحث:

١-أثناء كتابتي لرسالة الماجستير (الكفاءة في عقد الزواج)كنت أجد بعض هذه المسائل الفقهية خصوصًا ما يتعلق بالأولياء و الولاية على المرأة.

٢-علق في ذهني وأنا أدرس طلبة المستوى ثاني دراسات إسلامية مادة الزواج والفراق فكنت أجد بعض العبارات الدالة على الاستقلال لقولهم: للمرأة الحق في الاستقلال بطلب الفسخ إذا

كان زوجها معسرًا دون الرجوع إلى أوليائه(١)، وكقولهم: إذا استبد الولي في عدم تزويج ابنته من غير الكفء لها فله ذلك دون اعتراض عليه(٢)، وكذا قولهم: وأن الخلع مما تختص به المرأة دون الرجل(٣) أي تستقل به دون الرجل.
وغير ذلك من العبارات الدالة على الاستقلال الشخصي.
٣-أثناء كتابتي في بحث الاجتهاد الانتقائي للإمام الفقيه الحنفي أبي جعفر الطحاوي، كنت أجد له تفردات واختيارات في بعض المسائل الفقهية استقل بها عن غيره سواء في المذهب الحنفي أم في غير المذهب الحنفي.

خطة البحث:

ينقسم البحث إلى: مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.
ذكرت في المقدمة أهمية الموضوع وأسباب اختياره.
أما التمهيد جعلته للحديث عن مفهوم الاستقلال والألفاظ ذات الصلة به، وكذا الحديث عن الأسرة وبيان أهميتها في الإسلام.

المبحث الأول: الاستقلال الشخصي في أهم قضايا النكاح، وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: استقلال أحد الأولياء بالتزويج دون الرجوع إلى بقية الأولياء.
المطلب الثاني: الاستقلال بالولاية في عقد النكاح لطرفي العقد.
المطلب الثالث: استقلال المرأة باختيار الزوج لها خلافاً لأبيها.
المبحث الثاني: الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الفسخ، وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: استقلال أحد أفراد الأسرة بفسخ عقد النكاح بسبب عدم الكفاءة.
المطلب الثاني: استقلال أحد الزوجين بفسخ النكاح بسبب دعوى الرضاع.
المطلب الثالث: استقلال الزوج بالظهار على زوجته بما هو محرم عليه مؤبدا .
المبحث الثالث: الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الطلاق، وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: استقلال الرجل بوقوع الطلاق منه دون المرأة .
المطلب الثاني: استقلال المرأة بالحضانة بسبب وقوع الطلاق عليها.
المطلب الثالث: استقلال الدولة بالحضانة للأبناء غير الشرعيين.

وإني أرجو الله أن يتقبل مني هذا العمل ويجعله خالصًا لوجهه الكريم إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصل الله على نبينا محمد وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار.

(١) المغني لابن قدامة، ج١١ص٣٦٩ .
(٢) مغني المحتاج، ج٣ص ١٥٣.
(٣) الفقه الواضح، تأليف الدكتور محمد بكر إسماعيل،ج٢ص١٣٣.

التمهيد:

أولًا: التعريف بالاستقلال والألفاظ ذات الصلة به.

قد يتعرض أحد أفراد الأسرة بمن يستقل بأمره خصوصًا المرأة من قبل أوليائها، مما قد ينتج عنه أمر إما سلبًا أو إيجابًا؛ لذا لا بد من معرفة هذا اللفظ وعلى ماذا يدل.

تعريف الاستقلال في لغة العرب:

أ- الاستقلال مصدر قياسي لفعل (استقل)، يقال استقل بالأمر إذا انفرد به وحده، وليس معه شريك(١)، ويأتي الاستقلال على عدة معان منها: الحمل(٢)، يقال استقله إذا حمله ورفعه، ومنه قوله تعالى: استقام ومنه قوله تعالى:(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا)(٣) والمعنى حتى إذا أقلت السحاب أي حملت(٤) .

ب - تعريف الاستقلال في الاصطلاح .

يستعمل الفقهاء لفظ الاستقلال بمعنى قيام الفرد الواحد بعمل ما الأصل فيه الجماعة، والاستقلال بالتعرف عمن له المشاركة فيه(٥).

والمتأمل في كتب الفقه يجد هذا واضحًا في التعبير عن الاستقلال ببعض الألفاظ لكنها لا تخرج عن هذا المعنى، فقد يعبر عن الاستقلال بلفظ الاستبداد والاختصاص، والتوحد، والتفرد كما سيأتي في الألفاظ ذات الصلة بالاستقلال.

ج - الألفاظ ذات الصلة بين الاستقلال وغيره.

بالنظر إلى ما تقدم من تعريف الاستقلال لغة واصطلاحًا يظهر أن هناك ألفاظًا لها علاقة بلفظ الاستقلال وهذه الألفاظ هي:

١- الاستبداد، يقال استبد بالرأي والأمر، أي استقل به دون غيره(٦).

فيتفق الاستبداد والاستقلال في أن كلًا منهما يرد المعنى الآخر ويكون دالًا على التوحد والاستقلال.

٢- الاختصاص، يقال اختص فلان بكذا أي أصبح خاصًا به دون غيره فهو مفتقر له، ومنه الخصاصة في قوله تعالى: تعالى: استقام ومنه قوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)(٧)، وأصل الاختصاص الاستقلال بالأمر، والخصاصة الاستقلال بالحاجة، ومعنى الآية ولو كان بهم فاقة وحاجة(٨).

---

(١) انظر: لسان العرب،ج٣ص٣٣، المصباح المنير، ص ٢٤٢، ومعجم متن اللغة،ج٤ص٣٧٩..

(٢) انظر: لسان العرب،ج١١ص٥٦٦، والقاموس، ص١٠٤٩(قلل).

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٧.

(٤) انظر: تفسير القرطبي-الجامع لأحكام القرآن،ج٧ص٢٢٩.

(٥) انظر: شرح فتح القدير لابن الهمام، ج٣ص٩١، حاشية الدسوقي ج٣ص ١٩٣، المجموع للنووي ج٩ص ١٩٧، كشاف القناع ج٤ص ٧٨.

(٦) لسان العرب ج١١ص٥٦٦.

(٧) سورة الحشر: الآية ٩.

(٨) لسان العرب ج٧ص ٢٥، والقاموس ص ٦١٧، الجامع لأحكام القرآن ج١٨ص٢٩. تفسير القرطبي ج٧ص٢٢٩.

فيتفق الاختصاص مع الاستقلال في أن كلًا منهما يرد بمعنى الآخر ويكون دالًا عليه.
٣-الإفراد والتوحد: يقال: اختص فلان بكذا وخصه به: إذا أفرده به دون غيره، كما يقال: اسقتل بالأمر، أي عمله وحده منفردا (١).

ثانيًا: التعريف بالأسرة وبيان أهميتها في التشريع الإسلامي.

أ ـ تعريف لفظ الأسرة في لغة العرب:

إن الناظر في مدلول لفظ الأسرة في اللغة العربية يجد معناها مأخوذ من لفظ الأسر وهو الشدة والقوة، وهذا يعني أن أفراد الأسرة يفترض فيهم أن يشد بعضهم من أزر بعض ويقوي بعضهم بعضًا(٢).

وتأتي الأسرة بمعنى العائلة المأخوذة من العيلة المشار إليها في قوله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٣)، أي حاجة وفقرًا(٤)، ومعلوم أن أعضاء العائلة يحتاج بعضهم إلى بعض، أو يعتمدون في حاجتهم على كبير العائلة أو رب العائلة(٥) .

ب ـ تعريف لفظ الأسرة في الاصطلاح:

الأسرة جماعة صغيرة من الناس نواتها رجل و امرأة يرتبطان معًا برباط مقدس هو الزواج، وهذا الأسلوب الذي اختاره الله للتوالد و التكاثر بين بني البشر حتى يضع الغريزة في سبيلها المأمون، فيحمي النسل من الضياع ويصون المرأة من أن تكون كلأ مباحًا يرتاده كل راتع(٦).

جـ ـ أهمية الأسرة في التشريع الإسلامي.

فالأسرة باعتبارها خلية أو نواة للمجتمع، إذ المجتمع حقيقة تكوينه ما هو إلا مجموعة من الأسر، تعد صورة مصغرة لهذا المجتمع فترابطها آية على ترابطه وتفككها آية على تفككه، وكذا انحلالها ومدى تمسكها بالقيم، ودرجتها من العلم ونصيبها من السلوك الراقي المتحضر، ودرجة المودة والتفاهم التي تسري بين أفرادها... كل ذلك ينعكس لا محالة على المجتمع سلبًا أو إيجابًا.

ومن هنا كان اهتمام الفقهاء بموضوع الأسرة بجميع نواحيه وقضاياه حتى تبقى الأسرة في وئام دائم فأفردوا أبوابًا في الفقه الإسلامي بشأن هذه الأسرة بداية من اختيار أحد الزوجين ونهاية بالميراث الخاص بأحد الزوجين.

لكن قد يحدث في بعض أفراد الأسرة من يستقل بشأنها إما سلبًا أو إيجابًا باعتباره واليًا أو له حق الولاية على هذه الأسرة فيعرض الأسرة للبقاء أو يعرض الأسرة للفشل.

وكون هذا الاستقلال يتعلق بالأسرة فقد حاولت جمعه في هذا البحث (الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الأسرة).

---

(١) معجم مقاييس اللغة ج٢ص ١٥٣، القاموس ص ٦١٧، الصحاح ج٣ص١٠٣٧.
(٢) لسان العرب ج ٤ص٢٠.
(٣) سورة التوبة: الآية ٢٨.
(٤) تفسير القرطبي، ج٨،ص ١٠٦.
(٥) الموسوعة الفقهية الميسرة. ص٢٨ .
(٦) الزواج، للدكتور محمد إبراهيم الحفناوي ص٣.

المبحث الأول: الاستقلال الشخصي في أهم قضايا النكاح(١)، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: استقلال أحد الأولياء في تزويج المرأة.

لما كان عقد النكاح له أهمية بالغة في تكوين الأسرة لزم أن يتولى هذا العقد كبير الأسرة وهو الذي يطلق عليه في عرف الفقهاء الولي، وقد عرف الولي بأنه هو الذي ولاه الله أمر تزويج من لا يجوز أن يزوج نفسه بنفسه كالمرأة والصغير؛ لأن ولي المرأة هو الذي يلي عقد النكاح عليها ولا يدعها تستقل بعقد دونه سواء أكان هذا الولي محرماً كالعم أم رحما غير محرم كابن العم، ولا ولاية للأبعد مع وجود الأقرب(٢).

ومن أجل ذلك شرعت الولاية على المرأة، لأن عقد النكاح لا تعود مغباته على العاقدين وحدهما فقط، بل ينال الأسرة شيء من العار أو الفخار .

وهذا المطلب يتناول مسألة وهي: أنه إذا تعدد أولياء المرأة وهم متساوون في الدرجة والقرابة- كالإخوة الأشقاء- لكن أحدهم استقل بتزويج المرأة دونهم فهل يثبت للمستقل منهم الولاية عليها دونهم ويسقط حقهم، وهل العقد صحيح أو لا؟

معلوم أنه إذا اتحد الأولياء في الجهة والدرجة وقوة القرابة، فإنهم يكونون متساويين في ثبوت الولاية، ويكون لكل واحد منهم ولاية كاملة على المرأة، فإذا استقل أحدهم بالتزويج فليس للباقي حق الاعتراض عليه.

وانطلاقًا من هذا فإن العقد يكون صحيحاً ولا يتوقف على اجتماع باقي الأولياء ولا إجازتهم وإلى هذا ذهب الإمام أبو حنيفة ومحمد بن الحسن رحمهما الله تعالى.

في حين يذهب أبو يوسف وزفر ورواية عن الإمام مالك، وقول للشافعية، والحنابلة أنه لا يستقل بالعقد أحدهم دون بقية الأولياء؛ لأن الحق مشترك بين الأولياء وليس لأحدهم الاستقلال بمباشرة العقد فإذا باشره أحدهم دونهم كان للباقين الحق في الاعتراض(٣).

ويبدو أن القول الأول هو الأنسب للأخذ به؛ لأن تعدد الآراء بتعدد الأولياء واختلافهم قد يفسد على المرأة أمر زواجها، إذ قلما تجتمع الإرادات على غرض واحد، ثم إن هذا الحق لا يقبل التجزئة، لأن سببه لا يقبل كذلك التجزئة وهو القرابة، والقاعدة المقررة أن إسقاط بعض ما لا يتجزأ إسقاطه إسقاط لكله- كالعتق-فإذا استقل أحد الأولياء بالتزويج سقط حق الباقين قياسًا على حق القصاص الثابت لجماعة، فإنه حق لا يقبل التجزئة، فإذا عفا بعضهم سقط حق الباقين(٤) .

---

(١) النكاح في اللغة يعني: الوطء والضم، تقول: نكحتها، ونكحت هي أي تزوجت، وهى ناكح في بني فلان أي هي ذات زوج منهم، والنكاح في الاصطلاح يعني: "عقد وضع لتملك المتعة بالأنثى قصدا". ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية: ج١ص٤١٣، فتح القدير: لابن الهمام، ج٢ص٣٤١.

(٢) أحكام الأسرة في الإسلام، د. محمد مصطفى شلبي، ص٣٢٢.

(٣) ينظر: بدائع الصنائع، للإمام الكاساني، ج٢ص٥٥١، ومواهب الجليل،ج٣ص٣٣، وتكملة المجموع، للشيخ محمد بخيت المطيعي، ج١٦ ص ١٥٦، والكافي لابن قدامة، ج٤ص٢٢٧.

(٤) ينظر: المبسوط، للإمام السرخسي،ج٤ص٢١٨، وشرح فتح القدير للإمام ابن الهمام، ج٢ص٤١٩، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نُجَيْم الحنفي، ج٣ص١٣٨، وحاشية ابن عابدين، ج٢ص٤٣٦-٤٤٣ .

ثم كذا القياس على ولاية أمان المسلمين للكفار، فإنها ولاية تثبت لكل فرد منهم والجامع بين ولاية الأمان والقرابة هي ثبوت الولاية في كل منهما(١).
وكذا إذا كانت الولاية كاملة للأولياء المتساويين في القرابة فتكون الولاية كاملة لكل واحد منهم إذا استقل، لأن سببها واحد هو القرابة(٢).
وهذه المسألة فيما لو استقل أحد أفراد الأسرة بتزويج المرأة من الكفء لها، أما إذا زوجها من غير كفء لها فللأولياء حق الاعتراض
وسيأتي الحديث عن هذه المسألة في فسخ العقد بسبب عدم توفر الكفاءة في الزوج.

المطلب الثاني: استقلال أحد الأولياء بالولاية على طرفي العقد النكاح.
هذه المسألة من المسائل الخلافية عند الفقهاء لوجود اختلاف الأفهام في أدلة كل فريق، وصورة هذه المسألة: أنه إذا تولى عاقد واحد طرفي العقد من حيث الإيجاب والقبول سواء أكان هذا الولي أصيلًا عن الجانبين أم وكيلًا من جانب وولي من جانب آخر أم كان وكيلاً عن الجانبين.
وهذه المسألة اختلف الفقهاء فيها على قولين:
القول الأول: إذا استقل أحد بتولي طرفي العقد صح العقد منه وإلى هذا ذهب الحنفية والمالكية ورواية عند الحنابلة وقول عند الشافعية إذا كان متولي الطرفين الجد(٣)، ولهذا القول أدلة كثيرة منها:
١ـ قوله تعالى: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ)(٤)، إلى قوله تعالى: (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) ففي الآية دلالة على أن الوالي يصح منه تزويجها من نفسه إذ لا يعاتب أحد على ترك ما هو حرام(٥)، ومثل هذا القول قيل في قول الله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى)(٦)، حيث إن الخطاب للأولياء(٧).
٢ـ قوله تعالى: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ))(٨)، فقد أمر الله تعالى بالإنكاح مطلقاً من غير فصل بين الإنكاح من غيره أو من نفسه، فدل على أن للشخص أن يتولى طرفي عقد النكاح (٩).
القول الثاني: ليس للشخص أن يستقل بتولي طرفي عقد النكاح، وإلى هذا ذهبت الشافعية وهو رواية ثانية عند الحنابلة(١)، ولهذا القول أدلة كثيرة من أهمها: إن الإيجاب والقبول مخاطبة

(١) ينظر: بدائع الصنائع، للإمام الكاساني، ج٢ص٥٢١، المبسوط، للإمام السرخسي،ج٤ص٢١٨.
(٢) ينظر: تكملة المجموع، للشيخ محمد بخيت المطيعي، ج١٦ص١٥٦، والكافي لابن قدامة، ج٤ص٢٢٧.
(٣) المبسوط، ج٥ص١٧-١٨، الذخيرة للقرافي، ج٤ص٢٤٩، وتكملة المجموع، ج١٦ص١٧٣، وروضة الطالبين، ج٥ ص٤١٥-٤١٦، والمغني لابن قدامة، ج٩ص٣٧٤.
(٤) سورة النساء: الآية ١٢٧.
(٥) أحكام القرآن للجصاص، ج٢ص٧٥-٧٩، فتح الباري،ج٩ص٩٦.
(٦) سورة النساء: الآية ٣.
(٧) أحكام القرآن للقرطبي،ج٥ص١١، وأضواء البيان للشنقيطي، ج١ص٣٦٧ .
(٨) سورة النور: الآية ٣٢.
(٩) أحكام القرآن للقرطبي،ج١٢ص٢٣٩-٢٤٠، وينظر: بدائع الصنائع، ج٢ص٤٨٩.

بالقول، ويتعذر مخاطبة الإنسان لنفسه، كما أن الواحد لا يمكن أن يكون مملِّكا ممتلِكا(٢)، كما استدلوا بأن هذا عقد لا يملك فيه البذل إلا بإذن، فلم يملك فيه القبول، كالوكيل في البيع، فإنه لا يملك القبول في شرائه لنفسه(٣) .

والذي يظهر أن ما ذهب إليه أصحاب المذهب الأول من جواز استقلال الولي بتولي طرفي العقد هو الصحيح وذلك لعدة أمور:

١ـ وضوح أدلة القول الأول من عموم الآيات القرآنية، وكذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم ـ حين أعتق صفية بنت حيي وتزوجها(٤) .

٢ـ توافق القول الأول مع يسر الشريعة وسماحتها خصوصاً إذا كان أحد طرفي العقد غائبًا.

٣ـ أن القول الثاني تعرضت أدلته للاعتراض خصوصاً قياس البيع على النكاح؛ لأن القياس على الدَّين يختلف عن النكاح.

المطلب الثالث: استقلال المرأة باختيار الزوج لها خلافاً لأبيها.

إن النكاح يحتوي على عقد عظيم الخطر لكونه عقد العمر، ويترتب عليه آثار خطيرة،كان من المصلحة أن يسند هذا العقد إلى وليّ أمر المرأة؛ لأن المرأة قد تضع نفسها عند غير الكفء لها نظراً لقلة خبرتها بأحوال الرجال، ولذا قال العلماء: المرأة سريعة التأثر والانخداع فتنساق وراء العاطفة دون نظر للمستقبل؛ ولذلك اشترط الفقهاء وجود الولي، واعتبروا النكاح بدونه باطلا يفسخ في كل حال(٥)، وذلك لحِكَم عدة في طيَّاتها مصلحةُ الفتاة حتى لا تتورط في اختيار من لا يصلح لها زوجا، ومصلحةُ الأسرة من حيث إبداء الرأي والمشاورة والبحث عن أخلاق الزوج وسلوكه شريطة ألا يستبد أهل الفتاة بالرأي دونها خاصة إذا كانت بالغة رشيدة؛ لأن المرأة البالغة الرشيدة تميز بين مفاسد النكاح ومصالحه بخلاف المرأة غير البالغة الرشيدة فقد توقع نفسها عند من لا يكون كفؤاً لها.

لذا فالأسرة إذا اتفقت كلمتها لا يمكن أن يدخل إليها فاسق أو مفسد أو من ليس على شاكلتها؛ ومصلحةُ المجتمع تكمن في إشهار النكاح بين الناس، وقطع دابر التحايل والتلاعب بحيث تتم

---

(١) تكملة المجموع، للمطيعي،ج١٦ص١٧٥، وروضة الطالبين، للنووي،ج٥ص٤١٦، والمغني، لابن،ج٩ص٣٧٥.

(٢) الاختيار لتعليل المختار، للموصلي الحنفي المتوفى(٦٨٣ه)ج٣ص٩٨، وفتح الباري،ج٩ص٩٥، والذخيرة،ج٩ص٢٤٩.

(٣) المغني، لابن،ج٩ص٣٧٥.

(٤) والحديث في صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من جعل عتق الأمة صداقها، ج٣ص٨.

(٥) هذا هو مذهب جمهور الفقهاء وهو مروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وابن عمر وعائشة رضي الله عنهم أجمعين وهو قول سعيد بن المسيب والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز وسفيان الثوري وأبن أبي ليلى وابن شبرمة، خلافا للسادة الأحناف- ينظر: المهذب للشيرازي،ج٥ص٣٥، والمغني، ج٦ص٤٤٩، والمحلى، ج٩ص٣١-٣٢)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج٣ص٧٢، والمبسوط، ج٥ص١٠، وفتح القدير لابن الهمام، ج٣ص٢٥٥، وبدائع الصنائع، ج٣ص١٣٦٤ .

فيه الإجراءات الصحيحة والسليمة مما يؤدي إلى الاستقرار، بعكس النكاح الذي يُفقد فيه الولي فإنه عرضة لطلاق المرأة وتشرد الأطفال وكثرة المشاكل(١).

وصورة هذه المسألة هي أنه: إذا استقل الأب باختيار زوج كفء لابنته واستقلت البنت باختيار زوج كفء لها فلمن يكون الاستقلال؟ هل للأب أن يستقل ويفسخ اختيار البنت أم يكون الاستقلال لها باعتبارها صاحبة الشأن؟

هذه المسألة من المسائل الخلافية التي وقع فيها، اختلاف الفقهاء كغيرها من المسائل الخلافية، فذهبت الشافعية-في الأصح عندهم- والحنابلة إلى أن المرأة إذا عنيت كفؤاً وأراد الأب أو الجد المجبر كفؤاً آخر غيره فللأب الحق في ذلك؛ لأنه أكمل نظراً من المرأة(٢)، وذهبت المالكية ورأى ثان لبعض الشافعية أن المرأة إذا دعت للكفء لها، ودعا وليها لكفء آخر، فإنه يلزمه إجابتها، لأن في هذا اعفافا لها(٣) .

وأصل الخلاف قائم في هذه المسألة على هل الكفاءة حق للمرأة أم للأولياء؟

فمن قال الكفاءة حق للمرأة دون الأولياء قال بأنها تستقل باختيار زوجها الكفء لها، وستند هذا القول على جواز عرض المرأة نفسها دون إذن وليها على الزوج سوء أكان هذا الزوج كفؤاً لها أم غير كفء لها، ولا يحق للولي أن يعترض عليها مادامت عاقلة بالغة، وهذا هو مذهب الأحناف، قال صاحب الهداية: (وينعقد نكاح المرأة العاقلة البالغة برضاها وإن لم يعقد عليها ولي بكراً كانت أو ثيباً عند أبن حنيفة وأبي يوسف في ظاهر الرواية)(٤).

أما من منع امرأة أن تستقل بتزويج نفسها دون وليها سواء أكان الزوج كفؤاً أم غير كفء فإنه يستند إلى عدة وجوه:

الوجه الأول: أن إذن الولي ورضاه شرط في صحة النكاح.

الوجه الثاني: الحفاظ على مصلحة المرأة حتى لا تتورط في اختيار من لا يصلح لها زوجا؛ لأن المرأة في الغالب تكون سريعة التأثر والانخداع بالقول اللين والترغيب المصطنع، خاصة عند غلبة الشهرة في الرجل، والميل منها إليه.

(١) الولاية والشهادة في عقد النكاح: لأستاذنا الدكتور حسين سمرة - ص٦٥- ٦٧ بتصرف، وأحكام الأسرة : د.محمد بلتاجي، ص٢٣١.
(٢) مغني المحتاج، ج٣ص١٥٣، المغني لابن قدامة، ج٩ص٣٩٠-٣٩٤.
(٣) مغني المحتاج، ج٣ص١٥٣، والشرح الكبير مع حاشية الدسوقي، ج٢ص٢٣٣.
(٤) الهداية مع فتح القدير، ج٣ص٢٥٦.

الوجه الثالث: أن مباشرة المرأة عَرْض نفسها على الرجل والتعاقد معه دون علم وليها مُشْعِر بالوقاحة منها وعدم الحياء؛ لأن ذكر النكاح من قبل المرأة وتوليها العقد بنفسها يؤدي إلى نفور الناس منها، ويكسبها سمعة سيئة خاصة عند الخُطَّاب وأهليهم، فمنعت من مباشرة ذلك(١)، ومتى حصل منها ذلك فإن حكم العقد حكم المبذِّر في المال لسوء تصرفه فيه، فكذلك عقد النكاح لسوء تصرف المرأة فيه(٢).

والذي أميل إليه هو ما ذهب إليه الأحناف- وهو جواز تزويج المرأة نفسها على الرجل الصالح سواء أكان هذا الرجل كفؤاً لها أو غير كفء، وسواء أكانت بكرا أم ثيبا؛ بل يحق لها تزويج نفسها أصالة ونيابة عن غيرها أو وكالة من غيرها لها، ولا يحق للولي أن يعترض عليها ما دامت عاقلة بالغة رشيدة متعلمة دَيِّنة، والسبب في ترجيحي لهذا المذهب هو وجاهته في الاستدلال بأن منع المرأة من الاستقلال بالعقد هو سوء اختيارها الذي هو مظنة الوقوع في المفسدة، فإذا انتفت المفسدة المظنونة وذلك كونها عاقلة بالغة رشيدة متعلمة دَيِّنة، صح منها ذلك قياسا على تصرفها في المال.

أما الأدلة التي منعت من ذلك التصرف فإنها محتملة فقوله تعالى: (وإذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)(٣)، فالخطاب في الآية للأزواج وليس للأولياء؛ لأن الخطاب صدر في أولها لهم (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) فلا يكون فيه دليل على اشتراط أذن الولي في النكاح؛ لأن الله تعالى نهى الأولياء عن المنع من أن يتزوجن من يردن فليس للأولياء حق الاعتراض على نكاح المرأة إذا باشرت بنفسها(٤)، والدليل الثاني قوله عليه الصلاة والسلام (لا نكاح إلا بولي)(٥)، فقيل إنه مضطرب في إسناده؛ لأنه روي موصولا ومنقطعا ومرسلا، وهذا يدل على ضعفه فلذا لا حجة للاستدلال به، وقد فصل العلماء هذا الاضطراب(٦).

(١) ينظر: المغني لابن قدامة،،ج ٦ص٤٥٠، والمحلى لابن حزم،ج ٩ص٢٥، وحقوق المرأة في الزواج: للشيخ محمد بن عمر عتين - دار الاعتصام- القاهرة، ص٣٣-٣٨.
(٢) ينظر: المبسوط،ج ٥ص١١، وفتح القدير،ج ٣ص٢٥٦، وبداية المجتهد،ج ٢ص١٣.
(٣) سورة البقرة: الآية:٢٣٢.
(٤) ينظر: فتح القدير،ج٣ص٢٥٨، وبداية المجتهد،ج ٢ص١١.
(٥) الترمذي كتاب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي،ج٤ص٢٢٦) رقم الحديث(٥١٣٠).
(٦) تحفة الأحوذي،ج ٤ص٢٢٩-٢٣٠، ومعالم السنن للخطابي،ج ٢ص٥٦٧، ونصب الراية للزيلعي،ج ٣ص١٨٥، وإرواء الغليل للألباني،ج ٦ص٢٤٤-٢٤٥، وللإمام حجة الله الدهلوي كلام نفيس في هذا يراجع: حجة الله البالغة، ج٢ص١٢٧ .

المبحث الثاني: الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الفسخ(١)، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: استقلال أحد أفراد الأسرة بفسخ عقد النكاح بسبب عدم الكفاءة(٢).

وصورة هذه المسالة: إذا تساوى الأولياء في الدرجة فهل يستقل أحدهم بطلب فسخ النكاح إذا كان الزوج غير كفء؟

وهذه المسألة مكملة لمسألة كون الولاية كاملة لكل واحد من أولياء المرأة خلافاً لمن يراها أنها مشتركة بين الأولياء(٣).

وعلى هذا إذا ثبت لأحد أولياء المرأة أن زوجها ليس كفؤاً لها فإن له الحق في طلب الفسخ منه، لأنه سيلحق بالأسرة العار، والكفاءة شرعت لحفظ الأسر وحمايتها من كل نقص يلحقها خصوصاً إذا ظهر أن الزوج فاسق(٤).

وإذا كانت الولاية كاملة لكل واحد من الأولياء في تزويج المرأة فإن من باب أولى تكون الولاية كاملة في الفسخ لكل واحد منهم وذلك لرفع العار عنه، ولا يزول رفع العار إلا بالمطالبة بالفسخ، وستند هذا القول على القياس على الدين إذا كان لجماعة، حيث إن كل واحد منهم يملك المطالبة بحقه في الدين، فكذلك حال الأولياء، فلأحدهم الحق أن يستقل بالمطالبة بالفسخ، لأن الجامع بين الدين والولاية أن كلا منهما مطالب بخالص حقه(٥).

ثم كذلك القياس على ما لو قذف شخص جماعة، فعفوا إلا واحدا؛ فإن له الحق في المطالبة بإقامة حد القذف، فكذلك هنا للشخص أن يستقل بالمطالبة بالفسخ، بجامع رفع العار بسبب القذف وتخلف الكفاءة(٦)، يقول ابن قدامة: (فلو زوجها بعض الأولياء بدون مهر مثلها كان لأحد الباقين الاستقلال بالاعتراض، مع أن المهر خالص حقها، فكذلك هنا مع أنه حق لهم أولى)(٧).

---

(١) الفسخ معناه: نقض العقد المبرم بين الزوجين والتفريق بينهما من غير طلاق بسبب خلل وقع في شروط صحة العقد، أو بسبب طارىء عليه يمنع بقاؤه، وللفسخ صورتان: الصورة الأولى: الفسخ بسبب الخلل الواقع في العقد، الصورة الثانية: الفسخ الطارىء على العقد. بنظر: فتح القدير،ج ٣ص٢٩٤، وأحكام الزواج والفرقة: لأستاذنا الدكتور أحمد يوسف، ص ٢٨٩-٢٩٣، والفقه الواضح: د.محمد بكر إسماعيل ،ج٢ص١٥٥.

(٢) الكفاءة في اللغة تأتي بالفتح والمد والهمزة، وهي: مصدر كَفَأ، والكُفْءُ والكُفُؤُ: النظير والمساوي، والجمع أكْفَاء وكِفَاء، وفي الاصطلاح الكفاءة هي: مساواة الرجل للمرأة في أمور مخصوصة بحيث لا تكون المرأة ولا أولياؤها عرضة للتعيير بزوجها نظر: لسان العرب ٣ص٢٦٩، وأنيس الفقهاء ١٤٩، والمطلع على أبواب المقنع ٢١٥، ومغني المحتاج ،ج٣ص١٦٥، والمعجم الوسيط، ج ٢ص٧٩١، ويقع بعض الدارسين في الخطأ حين ينطقون جمع الكفء على أكِفَّاء بكسر الكاف؛ لأن مفرد أكِفَّاء كفيف وهو الذي لا يرى فيقولون تعاقدنا مع مدرسين أكفاء، وهذا التعريف للكفاءة جاء في البحر الرائق شرح كنز الدقائق لزين الدين بن نُجَيْم الحنفي،ج ٣ص١٣٧، وقد ارتضاه من الفقهاء المعاصرين العلامة محمد سلام مدكور- الأحوال الشخصية ، ص١٠٨.

(٣) ينظر: بدائع الصنائع، للإمام الكاساني، ج٢ص٥٥١، وتكملة المجموع، للشيخ محمد بخيت المطيعي، ج١٦ ص ١٥٦، والكافي لابن قدامة، ج٤ص٢٢٧.

(٤) أجاز المالكية فسخ نكاح الفاسق؛ لأن الفسق يعتبر عندهم عيبا يفسخ به النكاح. ينظر: مواهب الجليل: للشيخ أبي عبدالله المعروف بالحطاب المالكي، ج٣ص٤٦١ .

(٥) بدائع الصنائع، للإمام الكاساني، ج٢ص٦٢٥.

(٦) بدائع الصنائع، للإمام الكاساني، ج٢ص٦٢٤-٦٢٥.

(٧) المغني لابن قدامة، ج٩ص٣٩٠.

المطلب الثاني: استقلال أحد الزوجين بفسخ النكاح بسبب دعوى الرضاع(١).

هذه المسألة كغيرها من المسائل الخلافية، وهي: استقلال زوج المرأة بدعوى أنه رضع مع زوجته ويدعي أنها أخته من الرضاعة أو أنه يدعي أنه رضع مع أبيها بحيث يصبح عمها من الرضاع.

وقبل معرفة أقوال الفقهاء في هذه المسألة لا بد من معرفة السبب لهذه الدعوى وما الحامل له على ذلك هل هو إنزال الضرر بالمرأة؟ أم أنه حقيقة رضع معها؟.

فإن كان حقيقة فقد اتفق الفقهاء على فسخ العقد والتفريق بينهما فوراً سواء أكان دخل بها أم لم يدخل بها، لأنه غير متهم في قصده مفارقتها؛ لأن بيده الطلاق(٢).

أما إذا كان القصد بهذه الدعوى إنزال الضرر بالمرأة بحيث يدعي أنه أخطأ، أو أنه ما أراد ذلك حقيقة، ولكنه كان مازحًا، أو هازلًا ثم أكذب نفسه أمام القاضي، فإن الفقهاء في هذه الصورة اختلفوا في الحكم على قولين:

القول **الأول**: إذا استقل زوج المرأة بدعوى الرضاع ولا بنية له ثم رجع عن دعواه، فإنه لا يصدق، لكنه يفرق بينه وبين زوجته، وهذا مذهب الجمهور، لأن دعوى الرضاع إقرار منه بسبب الفرقة، فلا يملك الرجوع، كما لو أقر بالطلاق ثم رجع عنه(٣).

القول الثاني: أنه يصدق في دعواه الخطأ أو النسيان ونحوه، ويبقى النكاح بينه وبين زوجته مستمرًا؛ لأن الإقرار الموجب للفرقة إنما هو الإقرار الذي ثبت عليه صاحبه، فإذا ادعى الخطأ أو أكذب نفسه، سقط إقراره، وإلى هذا القول ذهب الأحناف(٤).

ويظهر أن ما ذهب إليه الجمهور هو الراجح؛ لأن دعوى قياس النكاح على الرضاع قياس غير مسلم به، إضافة أن الرجوع من الزواج فيه ريبة، والمسلم منهي عن الريبة بنص الحديث((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)) (٥)، ثم إن قضايا الفروج يؤخذ فيها بالاحتياط؛ لأنه يحتاط لها ما لا يحتاط لغيره(٦)، ويترتب على التفريق بينه وبين زوجته أن لها المهر كاملًا إن كان دخل بها، ونصف المهر إن كان لم يدخل بها؛ لأن حقها لا يسقط بهذه الدعوى من الزوج فلعله عمل هذا ليتخلص مما عليه إن كان المهر عليه مؤخرًا، كما يجب لها النفقة والسكنى في العدة؛ لأن

---

(١) الرضاع في اللغة مأخذ من الفعل رضع بفتح الراء وكسرها، يُقَالُ: رَضِعَ الصبي يَرْضَعُ رَضَاعَةً وَرَضَاعًا، وَرَضَعَ يَرْضِعُ رِضَاعًا وَرَضَاعَةً (بِكَسْرِ الرَّاءِ فِي الْأَوَّلِ وَفَتْحِهَا فِي الثَّانِي) بمعنى: مص الثدي، وشرب من لبنه، وفي الاصطلاح الفقهي يعني: حصول لبن امرأة أو ما حصل منه في معدة طفل أو دماغه. ينظر: إصلاح المنطق للإمام أبي يوسف يعقوب بن إسحاق المغروف بابن السكيت (المتوفى: ٢٤٤هـ) ص١٥٨، تفسير القرطبي ٣ص١٦١، ونهاية المحتاج للرملي،ج٧ص١٧٢، والموسوعة الفقهية، د. محمد إبراهيم الخفاجي، ٣٩٩.

(٢) ينظر: بدائع الصنائع، ج٣ ص ٤١٥، الذخيرة؛ ج٤ ص ٢٧٧، روضة الطالبين، ج٦ ص٤٤٣، المغني لابن قدامة، ج١١ ص٣٤٣.

(٣) المدونة،ج٢ ص٣٠١، والحاوي، ج١٤ ص٤٧١، والمغني لابن قدامة ج١١ ص ٣٤٣.

(٤) بدائع الصنائع ، ج٣ ص٤١٥، والمبسوط، ج٥ ص١٤٥، وحاشية ابن عابدين،ج٤ص٣٠٧.

(٥) أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح، برقم (٢٥١٨)، ج٤ ص٥٧٦، وذكره أحمد في المسند، ج١ص٢٠٠، و ج ٣ ص١١٢،ص١٥٣.

(٦) حاشية الدسوقي، ج٤ ص٢٠٠-٢٠١، والمغني لابن قدامة، ج١١ ص٣٤٣.

الإقرار حجة قاصرة على المقر لا يتعداه إلى غيره إلَّا إذا صدقه الغير، أو يثبت بالبنية صحة الإقرار، ولكن لا يبطل الإقرار من الزوج حق المرأة في المهر والنفقة والسكنى[١].
وعكس هذه المسألة مسألة استقلال المرأة بدعوى الرضاع مع زوجها لكن الزوج كذبها وليس لها على هذه الدعوى بنية.
وما قيل في المسألة الأولى يقال هنا في هذه المسألة مع زيادة قول ثالث للشافعية وهو إذا كان النكاح حال العقد جرى بغير رضاها فتحلف وتقبل دعواها، ويفسخ العقد، بينما إذا جرى العقد برضاها، فلا تصدق[٢].
والراجح في هذه المسألة خلاف ما كان في المسألة السابقة وهو استقلال الزوجة بدعوى الرضاع مع زوجها ولا يقبل منها بعد العقد ويحكم ببقاء الزوجية وقبل الدعوى منها قبل العقد، ويمتنع على زوجها نكاحها والبقاء معها، وذلك لعدة وجوه:
الوجه الأول: إن دعواها الرضاع بعد العقد يجعلها متهمة بالتحيل والكذب، وأنها إنما ادعت ذلك للتخلص من الزوج، وأنها غير راغبة في البقاء معه، ولا سبيل إلَّا بهذه الدعوى، بخلاف ما إذا كانت الدعوى قبل العقد، فإن اتهامها بالتخلص غير وارد[٣].
الوجه الثاني: إن قبول دعوى الرضاع من المرأة، قد تتخذه الفاسقات ذريعة إلى الفراق، فدعت الحاجة إلى سد هذه الذريعة[٤].
الوجه الثالث: يمكن أن تقبل دعواها إذا كان لها بنية وإلَّا فلا تقبل؛ لأن الضرر منها أقوى من الضرر من الزوج في دعوى الرضاع مع زوجته.
لكن إن تركها الزوج من باب الورع والحذر من الوقوع في الشبهات فله ذلك.
فيوقع عليها تطليقه لتحل لزوج غيره، ويخلف الله خيرًا منها.

المطلب الثالث: استقلال الزوج بالظهار[٥] من زوجته بما هو عليه محرم مؤبدا.
من الأمور المسلم بها أن الظهار مما يستقل به الزوج دون الزوجة، فإذا قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، فقد حرمت عليه، فلا يحل له منه شيء حتى يكفر عن هذا المنكر من القول والزور، وهذا هو مذهب جمهور الفقهاء لكن لو ظاهرت المرأة من زوجها وقالت له: أنت عليّ

(١) الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي، ج٧ ص٦٧٤.
(٢) روضة الطالبين، ج٥ ص٥٦٩؛ والمهذب للشيرازي، ج٢٠ ص ٣٠٤.
(٣) الذخيرة، ج٤ ص ٢٧٧، روضة الطالبين، ج٥ ص ٥٦٩، المغني، ج١١ ص٣٤٥.
(٤) روضة الطالبين، ج٥ ص ٥٦٩، والفقه الإسلامي، ج٧ ص ٦٧٤.
(٥) الظهار لغة: بكر الظاء، مشتق من الظهر، وسمي بذلك لتشبيه الزوج المظاهر زوجته بظهر أمه، وخص الظهر دون غيره؛ لأنه موضع الركوب من البعير وغيره، وفي الاصطلاح: هو أن يشبه الزوج المسلم زوجته بامرأة محرمة عليه على التأبيد أو بجزء منها يحرم عليه النظر إليه كالظهر والبطن والفخذ، فإذا قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، فقد حرمت عليه، فلا يحل له وطؤها ولا لمسها ولا تقبيلها حتى يكفر عن ظهاره. ينظر: فتح الباري،ج٩ص٤٣٢، وتوضيح الأحكام، ج٥ص٤٥، والفقه الإسلامي وأدلته، ج٧ص٥٥٥، وأحكام الأسرة في التشريع الإسلامي، ص٣٤٦.

كظهر أمي كان ظهارها عند جمهور الفقهاء لغو لا حرمة عليها ولا كفارة، ولهذا القول أدلة كثيرة منها:

الأول: قوله تعالى: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ)[١] فخص الأزواج بالظهار دون النساء؛ لأن الخطاب موجه للأزواج[٢] كما خص الأزواج دون النساء في العود في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا)[٣] قال الإمام القرطبي رحمه الله: ليس على النساء تظاهر؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يقل ثم يعودونّ إلى ما قلنّ وإنما قال: (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا)، ثم قال: وبهذا قال مالك رضي الله عنه: أي: ليس على النساء تظاهر؛ لأن الله لم يقل اللائي يظهرن منكن من أزواجهن، إنما الظهار على الرجال.

ثم نقل رحمه الله كلام ابن العربي فقال: هكذا روي عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد. وهو صحيح معنًى؛ لأن الحل والعقد (والتحليل والتحريم) في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع[٤].

الثاني: حديث أوْس بن الصّامت الذي ظاهر من امرأته خُوَيْلة بنت ثعلبة، وحديث سلمة بن صخر البياضيّ الذي ظاهر من امرأته أيضا[٥]، وفي كلا الحديثين يقول الزوج ظاهرت من زوجتي، ولم يثبت أن امرأة ظاهرت من زوجها.

الثالث: الظهار قول يوجب تحريماً على الزوجة يملك الزوج رفعه، فاختص به الرجل كالطلاق، ولأن حل الاستمتاع بالمرأة حق للرجل، فلم تملك المرأة إزالته كسائر حقوقه[٦].

الرابع: أن من أركان الظهار: المظاهر، والمظاهر منها، فلو كان الظهار يحصل من المرأة أو تستقل به لكتفى بذكر أحد المظاهرين، بل ذكر الفقهاء شروطا في المرأة المظاهرة منها كما اشترطوا شروطاً في الزوج المظاهر[٧].

وعلى هذا فلم يجز أكثر العلماء ظهار المرأة في الرجل تشبيهاً للظهار بالطلاق وإذا حصل منها فإنه لغو لا كفارة فيه عليها.

القول الثاني: قال الحسن بن زياد الحنفي[٨]: هي مظاهرة، ووافقه الزهري، ولكن الزهري قال: أرى أن تكفر كفارة الظهار، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها[٩] .

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١.
(٢) قبس من نور القرآن الكريم للشيخ محمد علي الصابوني، ج١٣ص١٤.
(٣) سورة المجادلة: الآية ١.
(٤) ينظر: تفسير الإمام القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠ص ٢٨٠ وما بعدها .
(٥) أبو داود، كتاب النكاح، باب الظهار،ج١ص٥٥٦-٥٥٩.
(٦) الفقه الإسلامي وأدلته، ج٧ص٥٥٨.
(٧) ينظر: بدائع الصنائع، للإمام الكاساني، ج٣ص٢٣٢، وبداية المجتهد، ج٢ص١٠٧وما بعدها، والمهذب، ج٢ص١١٣، والمعني،ج٧ص٢٣٩،ص٣٥٤-٣٨٤. ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته، ج٧ص٥٦٢.
(٨) هو القاضي الفقيه الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي أحد أصحاب أبي حنيفة، له تصانيف كثيرة منها: أدب القاضي، والنفقات، والخراج، والفرائض، توفي رحمه الله سنة ٢٠٤هـ. ينظر: الفوائد البهية في تراجم الحنفية لأبي البركات اللكنوي ص٦٠، والطبقات السنية ج٣ص٥٩-٦١، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٧ص٣١٤.
(٩) ينظر: تفسير الإمام القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠ص ٢٨٠ وما بعدها .

القول الثالث: ذهب الإمام أحمد أن الظهار لا يقع من المرأة ولكن تجب عليها الكفارة؛ لأنها قد أتت بالمنكر من القول والزور، وفي رواية عنه عليها كفارة اليمين، قال ابن قدامة: وهذا أقيس على مذهب أحمد وأشبه بأصوله، لأنه ليس بظهار بدليل سائر الكذب، وللإمام أحمد رواية ثالثة[1] توافق ما ذهب إليه جمهور الفقهاء.

والظاهر: أن ظهار المرأة ليس بظهار وليس عليها كفارة إلا إذا نوت اليمين فعليها كفارة يمين.

المبحث الثالث: الاستقلال الشخصي من أهم قضايا الطلاق[2]، وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: استقلال الرجل بوقوع الطلاق منه دون المرأة .

معلوم بأن الحياة الزوجية قائمة على الدوام والاستمرار والمحبة والألفة، لكن قد يحدث من الزوج أو أحد الزوجين ما يسبب حل رابطة الزواج بينهما بحيث يصير بقاء الزواج مفسدة محضة، وضررا مجردا، بإلزام الزوج النفقة والسكنى، وحبس المرأة مع سوء العشرة، والخصومة الدائمة من غير فائدة.

فإذا حدث مثل هذا فعلى الزوج أن يصبر ويتحمل الأذى ولا يلجأ إلى الطلاق إلا بعد أن يستنفذ جميع الطرق المشروعة من الوعظ والإرشاد والهجر والضرب غير المبرح، ثم الصلح من قبل الحكمين-حكم من أهله وحكم من أهلها- لكن قد لا ينفع في بعض الأحيان هذه الأمور كلها فتظل المشاكل متزايدة يوما بعد يوم فحينئذ شرع الإسلام الطلاق-لكن طلاق لمرة واحدة أو لمرتين فقط؟.

لعل من وقع في الخطأ من الزوجين يراجع حسابه ويقدر ظروف الآخر ويندم على ما وقع منه ويقلع عن الأخلاق المذمومة التي كانت سببا في الفرقة بينهما.

---

(١) تعدد الروايات في مذهب الإمام أحمد لا تدل على قصوره في المجال العلمي أو إضراباته فيه –كما يفهمه بعض من لا علم له-، بل تعدد الروايات تدل على سعة اطلاعه وعلمه الواسع سواء في مجال الحديث أو الفقه، ثم إن تعدد الروايات يكون منه- أحيانا- وذلك لأسباب منها:

١-إن الصحابة رضي الله عنهم إذا اختلفوا على قولين جاء عنه في المسألة روايتان.

٢-إن تعدد الروايات قد يكون سببه أن الإمام أحمد رأى أدلة جديدة قوية غيرت رأيه كقوله: كنت أقول: الأقراء الأطهار، وأن المتيمم لا يخرج إذا رأى الماء في الصلاة، وهذا يدل على تواضعه وعلمه.

٣-قد يكون سبب تعدد الروايات اختلاف أصحابه في فهم أقواله، وأفعاله، وإجاباته وفتاويه، فكل منهم يجتهد وسعه في استنباط الحكم الذي قد يكون مراد الإمام فتختلف الأفهام والقدرات فتختلف نتيجة لذلك الروايات والأقوال المنسوبة للإمام. ينظر: الفروع لابن مفلح ج١ص٧٠، والبحث الفقهي للدكتور إسماعيل عبد العال ص٢٣٨، ومناهج الفقهاء في استنباط الأحكام، لنا ص٢١٧.

(٢) الطلاق: هو حل عقد النكاح بلفظ الطلاق ونحوه في الحال أو المآل، والطلاق له أسباب منها: أن الطلاق في الغالب لا يقع إلا بعد مشاكل قد تكون من قبل الزوج وقد تكون من قبل الزوجة؛ فإن كانت المشاكل من قبل الزوج يوعظ وينصح فإن رجع وإلا طلق عليه القاضي، أما إذا كانت المشاكل من قبل الزوجة فإن الزوج يأتي بالوسائل الأربع التي في قوله تعالى: **(**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**)**(٢)، فإذا رأى الحكمان أن الحياة الزوجية مستحيلة بين الزوج وزوجته طلق الزوج مقابل ما دفعه من المهر.ينظر: حاشية ابن عابدين، ج٣ص٢٢٦، ومغني المحتاج، ج٣ص٢٧٩.

وهنا تعود الحياة الزوجية من جديد يملؤها الحب والاحترام والتقدير وتتلاشى المشاكل السابقة بالعفو عن الزلة والخطأ وتبدل الأخلاق السيئة بالأخلاق الحسنة، ويبدأ الزوج في توفير احتياجات الزوجة خوفا من عودة المشاكل من جديد، لكن قد تقف الظروف أمام الزوج ويصعب عليه توفير كل شيء فتعود الفتنة من جديد والمشاكل أكثر وينفذ صبر الزوج أو الزوجة، فإن نفذ صبرها عليه فلها أن تطلب الخلع-: وهو إزالة العلاقة الزوجية بين الزوجين من قبل الزوجة، وذلك بسبب ظهور النفور من الحياة الزوجية(دون الفاحشة)، وقد جعل الإسلام هذا الشيء بيد المرأة لتفتدي به نفسها على وجه لا رجعة للرجل عليها إلا برضاها، وهو في مقابل حق الطلاق الذي أعطته الشريعة الإسلامية للرجل [١].

أما إذا نفذ الصبر من الزوج على زوجته فإن الإسلام شرع له الطلاق وجعله حقاً من حقوقه كما جعل الخلع حقاً من حقوق الزوجة، لأن الزوج كان حريصاً على بقاء الحياة الزوجية التي انفق في سبيلها من المال ما كان يحتاج إلى إنفاق مثله أو أكثر منه، إذا طلق وأراد عقد زواج آخر إضافة إلى أن الزوج يتحمل مؤخر الصداق، ومتعة الطلاق، ونفقة العدة، وحقوق الرضاع، ومؤنة الحضانة إذا كان معه منها ولد.

ومن هنا جعل الإسلام الطلاق بيده دون المرأة، لذا فهو يُعمل عقله قبل أن يفكر في الطلاق ويصبر على ما يكره من المرأة، فلا يسارع إلى الطلاق عند أدنى غضب يصيبه، والمرأة في المقابل هي أسرع في الغضب والانفعال، وأقل احتمالا من الزوج، ثم إنه ليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته مثل ما على الزوج، فإن أعطيت المرأة الطلاق بيدها لكانت سريعة إلى حل رابطة الزوجية لأدنى الأسباب، وليس معنى هذا أن الإسلام قلل من شأنها كما يظنه الحملة من أبناء الغرب[٢].

لكن الشريعة الإسلامية راعت أنها سرعة الغضب والانفعال مما يؤدي إلى عدم تريثها أو ترويها فتنتهي الحياة الزوجية لأدني الأسباب بدليل أن الشريعة الإسلامية لم تُهمل حقها في طلب الطلاق إذا وجد ما يبرر ذلك كما إذا تعسف الزوج في استعمال هذا الحق، فأباح لها الالتجاء إلى القاضي بطلب تطليقها على زوجها حالات بعينها وذلك لا يكون بعبارتها[٣].

ومن هنا تظهر حكمة الله في جعل الطلاق بيد الزوج، لأن الطلاق يستتبع أمورا مالية-كما سبق-وهذه التكاليف المالية من شأنها أن تحمل الزوج على التروي في إيقاع الطلاق، فيكون من الخير والمصلحة جعل الطلاق في يد من هو أحرص على بقاء الحياة الزوجية، أما المرأة فلا تتضرر ماليا بالطلاق فلا تتروى في إيقاعه بسبب سرعة تأثرها وانفعالها[٤].

ثم إن الشريعة الإسلامية أباحت للزوجة أن يكون الطلاق بيدها في حالتين:

الحالة الأولى: إذا تضررت وساء خلق زوجها، فلها أن تبذل شيئا من العوض لتفتدي نفسها

(١)كشاف القناع، ج٥ص٢١٢، ومغني المحتاج، ج٣ص٢٦٢، وأحكام الأسرة في التشريع الإسلامي، لأستاذنا الدكتور حسين سمرة، ص٣٧٠-٣٧١، شرح أحاديث القضاء والنكاح للدكتور أحمد يابس، ص٣٤.

(٢) الثقافة الإسلامية بين النظرية والتطبيق المعاصر للدكتور أحمد يابس من ص١١٦-١١٧.

(٣) أحكام الأسرة في التشريع الإسلامي، لأستاذنا الدكتور حسين سمرة، ص٣٧٠-٣٧١.

(٤) الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي-رحمه الله-ج٧ص٣٤٧.

منه، وهذه الحالة لا خلاف عند الفقهاء في وقوع الطلاق بها .
الحالة الثانية: حالة تفويض(١) الزوج زوجته بالطلاق منه، وهذه الحالة فيها خلاف عند الفقهاء:
فذهب جمهور الفقهاء إلى جواز وقوع الطلاق من الزوجة عند تفويضه لها بالطلاق واعتبروا ذلك توكيلا منه لها بدليل جواز رجوعه عن التفويض لها سواء بفسخ التفويض صراحة أو وطئه لها؛ لأن التفويض نوع توكيل والتصرف فيما وكل فيه يبطل الوكالة، وإن ردت المرأة ما جعل إليها بطل كما تبطل الوكالة بفسخ الوكيل(٢).
ومع جواز الجمهور وقوع الطلاق من المرأة عن طريق التفويض إلا أنهم اختلفوا في نوع الصيغة التي يقع بها الطلاق وهي ثلاث صيغ:
الأولى: إذا قال لها اختاري نفسك.
الثانية: إذا قال لها أمرك بيدك.
الثالثة: إذا قال لها طلقي نفسك إن شئت.
ففي الصيغة الأولى قالت الحنفية إذا قال الزوج لها اختاري نفسك، وقالت له اخترت نفسي فإنها تقع طلقة بائنة؛ لأنها إذا قبلت ذلك بالاختيار وجب أن يزول عنها، ولا يحصل ذلك مع بقاء الرجعة، وهذا القول مروي عن سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه(٣).
ونقل الإمام ابن قدامة رحمه الله أن ذهب الإمام الشافعي وأحمد أن التفويض يقع طلقة واحدة رجعية، وهذا القول مروي عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم منهم عمر وابن مسعود وابن عباس، وهو رأي لعمر بن عبدالعزيز وابن أبي ليلى وسفيان الثوري وإسحاق بن راهوية وأبي ثور(٤).
لكن المالكية رأت أن التفويض يكون طلاقا ثلاثا وليس واحدة؛ لن لفظ اختاري نفسك عندهم يقتضي إيقاع تنقطع معه العصمة، إلا أن يكون تخييرا مقيدا مثل أن يقول: اختاري تطليقة أو تطليقتين(٥).

الصيغة الثانية أمرك بيدك وخلاف الفقهاء فيه.

اختلف الفقهاء في هذه الصيغة فإذا قال الزوج لزوجته أمرك بيدك، فهو تمليك المرأة إيقاع الطلاق، فيصير الأمر بيدها في الطلاق، ويصبح طلاقا بواحدة رجعية فقط لكن بشرطين:
الأول: نية الزوج الطلاق، لأنه من ألفاظ كنايات الطلاق، فيفتقر إلى نية.
الثاني: علم المرأة بأن زوجها جعل أمرها بيدها.
وهذا القول هو مذهب جهور الفقهاء، وهو مروي عن جمع من الصحابة والتابعين.

(١) التفويض هو: جعل الأمر باليد أو تمليك الطلاق للزوجة بطلاق نفسها من الزوج فيكون بمشيئتها .
(٢) المغني لابن قدامة ،ج٨ص٢٨٨.
(٣) اللباب شرح الكتاب للإمام عبدالغني الغنمي الدمشقي، ج٣ص٥١.
(٤) المغني لابن قدامة ،ج٨ص٢٨٧-٢٨٩.
(٥) بداية المجتهد ،ج٢ص١٠٥.

وذهب أبو حنيفة أنه يقع بهذا اللفظ أمرك بيدك طلقة واحدة بائنة، لأن تمليك الزوج للزوجة يقضي زوال سلطانه عنها، وإذا قبلت ذلك وجب أن يزول عنها، ولا يحصل ذلك مع بقاء الرجعة(١).

وأما الصيغة الثالثة: طلقي نفسك إن شئت.

فهذه الصيغة أجازتها الأحناف وقالوا: تقع بها طلقة واحدة رجعية، في حين شنع الإمام ابن حزم رحمه الله على هذه الصيغ كلها وقال: كل هذه الأقاويل آراء لا دليل على صحة شيء منها؛ لأن التمليك والتخيير ليس بشيء فما جعل الشرع بيد الرجل لا يجوز أن يرجع إلى يد المرأة بجعل جاعل(٢).

هذا فيما يتعلق باستقلال الرجل بالطلاق وقصر هذا الحق عليه دون المرأة، مع الإشارة إلى أقوال الفقهاء في وقوع الطلاق من المرأة؛ لأن الزواج في الإسلام من الناحية العقدية هو عقد رضائي علني يقوم على العطاء المتبادل بين الزوجين في شخصيهما وفقا للأحكام الشرعية ليتمتع كل منهما بشخص الآخر تمتعا كان محرما عليهما لولا هذا العقد(٣).

المطلب الثاني: استقلال المرأة بالحضانة(٤)بسبب وقوع الطلاق عليها.

معلوم بأن الحضانة أو ما يسمى بكفالة الطفل من أهم القضايا في النكاح؛ لما له من أهمية بالغة في تربية الطفل وحفظه، ورعايته، وصيانته.

وقد تناول الفقهاء موضوع الحضانة من حيث بيان معناها، وحكمها، وصاحب الحق فيها، ثم ترتيب درجة الحواضن وشروطهن، ثم أجرة الحضانة وتوابعها من السكنى والنفقة، وكذا مكان الحضانة ومدتها وما يترتب على ذلك.

لكن هنا مسألة استقلال المرأة بالحضانة بسبب وقوع الطلاق عليها.

فإن الفقهاء اتفقوا على أن الأقرب له الأحقية في أن يستقل بها إذا نازعه فيها غيره من المستحقين لها، فالأم لها أن تستقل بالحضانة في حالة منازعة أمها أو أم زوجها، وذلك عند توافر شرطين أساسيين:

الشرط الأول: إذا طلق الزوج المرأة ثم تزوجت بعد انتهاء عدتها من رجل غير محرم، أمَّا إذا تزوجت بمحرم فإن حقها في الحضانة لا يسقط.

الشرط الثاني: عدم وجود ما يسقط حق الأم في الحضانة من الشروط(٥).

---

(١) البدائع ج٣ص٥٢، واللباب شرح الكتاب للإمام عبدالغني الغنمي الدمشقي، ج٣ص٥١، وبداية المجتهد ،ج٢ص١٠٥، والمغني لابن قدامة ،ج٨ص٢٨٧-٢٨٩.

(٢) المحلى لابن حزم،ج٩ص٢٩٢وما بعدها، وبداية المجتهد ،ج٢ص١٠٦.

(٣) الثقافة الإسلامية بين النظرية والتطبيق المعاصر للدكتور أحمد يابس من ص١١٦-١١٧.

(٤) الحضانة هي: تربية وحفظ من لا يستقل بأمور نفسه عما يؤذيه لعدم تمييزه كطفل وكبير مجنون، وذلك برعاية شؤونه، وتدبير طعامه، وملبسه، ونومه، وتنظيفه، وغسله، وغسل ثيابه في سن معينة ونحوها. ينظر: أنيس الفقهاء للإمام القونوي المتوفى٩٧٨هـ ص١٦٧، والفقه الإسلامي وأدلته، ج٧ ص٦٧٩.

(٥) هناك شروط أساسية في المرأة الحاضنة، وهناك شروط إضافية مثل: التعليم، والقراءة، والكتابة، والسلامة من المرض، وعدم الانشغال بالوظيفة، وكذا سفرها خارج بلاد الحضانة، وأما الشروط الأساسية فهي: الإسلام،

فإذا تحققت الشروط المطلوبة في الحاضنة وتنازعها أحد المستحقين للحضانة، فإن الأم لها الاستقلال في الحضانة لحديث المرأة التي قالت: ((يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء(١)، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينزعه مني))، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أنت أحق بها ما لم تنكحي)) (٢).

وإذا كان هذا في حق الأب، فغيره من باب أولى.

إضافة إلى الدليل العقلي وهو أن الأم تكون أشفق عليه، وأهدى إلى تربيته، وأصبر على القيام على مصالحه، وأشد ملازمة له(٣).

المطلب الثالث: استقلال الدولة بالحضانة للأبناء غير الشرعيين.

معلوم بأن حضانة الطفل أمر لابد منه، وأولى الناس به قرابته، وبعض القرابة أولى من بعض فتكون الحضانة حق للطفل على أمه المسلمة العاقلة البالغة العفيفة المقيمة المتفرغة له القائمة على أمره ونظافته وتربيته وتأديبه، لأنها أشفق عليه من غيرها، فإذا أسقط حقها لأسباب شرعية فإن الحضانة تنتقل إلى أم الأم وإن علت- مالم يفقد شرط من شروط الحضانة – ثم أم الأب، ثم الأخت الشقيقة، ثم الأخت لأم، ثم الأخت لأب، ثم بنت الأخت الشقيقة فبنت الأخت لأم، ثم الخالة الشقيقة، ثم الخالة لأم، ثم لأب، ثم بنت الأخت لأب، ثم بنت الأخ الشقيق، فبنت الأخ لأم، فبنت الأخ لأب، ثم العمة الشقيقة، فالعمة لأم ثم لأب، ثم خالة الأم، فخالة الأب، فعمة الأم، ثم عمته الأب، بتقديم الشقيقة في كل منهن .

فإذا لم توجد للصغير قريبات من هذه المحارم، أو وجدت لكن ليست أهلاً للحضانة، انتقلت الحضانة إلى العصبات من المحارم، من الرجال على حسب الترتيب في الإرث فإذا لم يوجد في عصبة الطفل من الرجال أحد، أو وجد وليس أهلاً للحضانة انتقل حق الحضانة إلى محارمه من الرجال غير العصبة فيكون أحق بالحضانة الجد لأم، الأخ لأم، ثم لابن الأخ لأم، ثم للعم لأم، ثم الخال الشقيق، ثم الخال لأب، فالخال لأم .

فإذا لم يكن للصغير قريب عين القاضي له حاضنه تقوم بتربيته .

وهكذا راعى الإسلام حق الطفل الشرعي في الحضانة (٤).

والبلوغ، والعقل، وحسن الخلق بحيث لا تكون فاسقة أو فاجرة – ينظر: الفقه الواضح، ج٢ ص١٦١ – ١٦٢؛ والفقه الإسلامي وأدلته، ج٧ ص٦٨٦ وما بعدها.

(١) الحجر – المكان الذي يكون فيه الطفل وهو ما بين الإبط إلى الكشح، ومن هنا سميت الحضانة حضانة؛ لأن الطفل يكون بين جنب أمه، ومعنى الحواء كناية عن المكان الذي يحوي الشيء بمعنى يضمه ويجمعه – النهاية في غريب الحديث، ج١ ص٢٣٠.

(٢) الترمذي، كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد، ج٢ ص٧٠٧ والحديث حسنه الألباني في الإرواء، ج٧ ص ٢٤٤.

(٣) الفقه الإسلامي، ج٧ ص٦٨٠، وقد حكى ابن المنذر الاتفاق عن ذلك ينظر: الإجماع، ص٦٣.

(٤) الفقه الإسلامي، ج٧ ص٦٨٠، وقد حكى ابن المنذر الاتفاق عن ذلك ينظر: الإجماع، ص٦٣.

وهذا بالنسبة للأولاد الشرعيين لكن الأولاد غير الشرعيين كالقيط(١)مثلاً فإن حضانتهم تكون على الدولة قياساً على دفع المهر له عند تزويجه من بيت مال الدولة شرط ألا يكون لهذا اللقيط مال وجد معه أثناء تركه.

أما إذا وجد معه مال فتكون نفقته و حضانته من ماله، لأنة غير محتاج إليه فلا يثبت حقه في بيت المال، وهذا الحكم مجمع عليه بين العلماء(٢).

وزاد الدكتور محمد بكر إسماعيل، أن نفقة اللقيط تكون على الدولة أو يفرض له المسلمون من أموالهم ما يكفيه على سبيل التبرع أو من زكاة أموالهم .

ثم علل أن اللقيط إذا مات وترك ميراثاً فإنه يكون لبيت المال، وكذا إذا قتل خطأ فإن ديته تكون لبيت المال(٣).

كما علل الدكتور وهبة الزحيلي بهذا وزاد عليه" وعلى بيت المال غرمه، لأن بيت المال حق للصرف على المحتاجين(٤).

وبهذا القدر نكون قد انتهينا من بحثنا((الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الأسرة) وإني أرجو الله أن أكون قد أشرت إلى بعض ما يستحقه هذا الموضوع من الجمع والدراسة،كما نأمل من الله التوفيق والسداد.

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله الأطهار، وصحابته الأخيار.

والحمد لله رب العالمين.

(١) الطفل المفقود الذي لا أب له ولا أم ووجد مطروحا على الأرض خشية من مسؤولية إعالته أو فرارا من تهمة الريبة أو الزنا.

(٢) بداية المجتهد،ج٢ص٣٠٥، ومغني المحتاج،ج٢ص٤٢١، والمغني لابن قدامة،ج٥ص٦٨٣، والفقه الإسلامي، ج٥ ص٦٢٦.

(٣) الفقه الواضح، ج٣ص٩٦-٩٧.

(٤) الفقه الإسلامي، ج٥ ص٦٢٦.

الخاتمة(١) وأهم نتائج البحث:

بحمد من الله وتوفيق منه سبحانه تم إكمال هذا البحث الصغير في حجمه الكبير في أهميته-في نظري-، وقد أسميته(الاستقلال الشخصي في أهم قضايا الأسرة).

وكما يقال لكل بداية نهاية فهذه نهاية البحث والتي يتلخص فيها عدة نقاط:

١-أن عقد النكاح له أهمية بالغة في بناء الأسرة وتكوينها، وتبقى هذه الأسرة سعيدة إذا كان من يستقل بشؤونها عاقل رشيد فيحقق لها المصالح ويدرأ عنها المفاسد، ومن مصالح بقاء الأسرة اتخاذ القرار الحاسم في تزويج الرجل الكفء، وكذا استقلال من يصلح للولاية في العقد بحيث يتولى طرفي العقد، كما يدخل في استقلال شؤون النكاح عقد المرأة لنفسها من الكفء لها خصوصا إذا كانت عاقلة رشيدة بالغة.

٢-أن فسخ عقد النكاح لا يستقل به أحد أفراد الأسرة إلا إذا كانت هناك مفاسد متحققة، فيفسخ العقد في حالة إلحاق العار بأهل الزوجة ممن ليس كفئا لها، كما يفسخ عند إثبات الرضاع لأحد الزوجين مع الآخر، ثم من صور فسخ العقد استقلال الزوج بالظهار وعدم العجز عن كفارته.

٣-أن حل رابطة الزواج تكون عن طريق الاستقلال بالطلاق من قبل الزوج؛ لأن الطلاق بيده وهو مستقل به لعدة مقاصد وحكم، ثم من صور الاستقلال في قضايا الطلاق استقلال الأم بالرضاع لطفلها نتيجة للطلاق الذي وقع عليها من قبل زوجها أو الوكيل عنه، كما أن الدولة تسهم في الاستقلال وذلك عند فقد من له الحق في الحضانة، فإذا لم يوجد من يقوم بواجب الحضانة فإن الدولة تقوم بحضانته خصوصا الطفل اللقيط.

هذه هي أهم خلاصة البحث ونتائجه التي خرجت بها منه، مع وجود غيرها ولكن هذه أهمها.

هذا وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتقبل منا هذا العمل وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، إنه سبحانه قادر ومعين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

(١) اللهم حسن خاتمتنا وجميع المسلمين.

أهم المراجع والمصادر

(١)أحكام الأسرة في التشريع الإسلامي، لأستاذنا الدكتور حسين سمرة، دار الهاني للطباعة والنشر.
(٢) الاختيار لتعليل المختار للإمام عبدالله بن محمود الموصلي الحنفي- دار المعرفة بيروت.
(٣) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء للشيخ القونوي - دار الوفاء بجدة ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
(٤) البحر الرائق شرح كنز الرقائق للإمام زين الدين بن نجيم– بيروت
(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للإمام الكاساني- دار إحياء التراث العربي-بيروت.
(٦) تكملة المجموع، للشيخ محمد المطيعي المصري-دار الفكر بيروت.
(٧) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي الأندلسي المتوفى ٦٧١هـ -دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
(٨) حاشية الدسوقي للشيخ محمد الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، دار الفكر، بيروت.
(٩) الحاوي الكبير، للإمام أبي الحسن علي بن محمد حبيب الماوردي-دار الفكر، بيروت.
(١٠) روضة الطالبين وعمدة المفتين للإمام النووي، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، ١٤٠٥.
(١١) صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة ١٩٩٨م.
(١٢) شرح فتح القدير، للإمام كمال الدين محمد بن عبدالواحد الشهير بابن الهمام-بدون طبع.
(١٣) الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي- دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة ١٤٠٩هـ.
(١٤) الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة للشيخ الدكتور محمد بكر إسماعيل- دار المنار ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
(١٥) لسان العرب لابن منظور- دار صادر ، بيروت-١٩٩٤م، وأيضا دار المعارف، القاهرة.
(١٦) المغني للإمام ابن قدامة، تحقيق الشيخ عبد الله التركي، دار الكتاب العربي،بيروت ١٤٠٣هـ.
(١٧) مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، للشربيني المتوفى ٤٧٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
(١٨) مواهب الجليل، للإمام أبي عبد الله المعروف بالحطاب، المتوفى ٩٥٤هـ، دار الفكر، بيروت.
(١٩) الولاية والشهادة في عقد النكاح: لأستاذنا الدكتور حسين سمرة.
(٢٠) الهحداية شرح بداية المبتدي لبرهان الدين المَرْغِينَانِيّ المتوفى ٥٩٣هـ، المكتبة الإسلامية.

الوحدة الموضوعية في سورة العلق

نبيلة بنت حسن بن محمد بن عبدالله تركي

المقدمة :

إن الحمد لله، نحمده و نستعينه، ونستغفره، و نستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ،من يهده الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله ، واهتدى بهداه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن نعم الله عز وجل لا تعد ولا تحصى ومن أعظمها ما امتن به الله على عباده من إنزاله للكتب السماوية، واختص الله U أمة نبينا محمد r وشرفهم على سائر الأمم بإنزال وحيه المبين، فجعله حجة للعالمين، ومنارا للسالكين] U V W X Y [Z [\ ] ^ _ ` a b [المائدة: ١٦] فكشف به ظلمات الجهل وأسباب العذاب، وأمر بتدبره أولو الألباب فقال أعز من قائل :] B C D E F G H I J K Z [ص: ٢٩].

و من كمال حفظ الله U لكتابه أن قيض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله r فألفوا في ذلك كتبا، كل ينهل من معينه، فاستنبط الفقهاء من أحكامه، واهتدى أهل البيان بنظامه، وتفكر المتفكرون في قصصه وأخباره،وتأملت طائفة في حججه وبراهينه.

ولما كانت الحكمة من إنزال القرآن هي لأمور ثلاثة: الأمر الأول: التعبد لله بتلاوته، والثاني: التدبر لمعانيه، والثالث: الاتعاظ به.

فكان صرف الأوقات في تعلمه والعناية به والارتشاف من معينه الذي لا ينضب، مطلبا ينبغي أن يقصده القاصدون ويتنافس فيه المتنافسون، ويسعى إليه المجدون من خلال مواصلة البحث فيه، والكشف عن علومه وحقائقه ، وإظهار إعجازه ،وتجلية محاسنه ؛مع بذل

الغالي والنفيس من أجل الوصول إلى هذا المقصد والانكسار بين يدي الله U ليحقق لنا هذا المطلب .

ولقد اهتم العلماء والسلف بدراسة هذا الكتاب العظيم، وتناولوه من جميع الجوانب، واعتنوا بتفسيره أشد عناية، ومن تلك الجوانب ما ظهر في عصرنا الحاضر من منهج جديد في التفسير،هو " التفسير الموضوعي" فكانت عناية العلماء والباحثين به من خلال ما قدموه لنا من كثير من موضوعات القرآن وعلومه ومعانيه وحقائقه، ولذلك رأيت أن أشارك في خدمة كتاب الله عزّ وجل وذلك من خلال تناوله من جانب الوحدة الموضوعية ووقع اختياري على دراسة الوحدة الموضوعية في سورة العلق،" والبحث في الوحدة الموضوعية في السورة هو الجزء المكمّل لما أطلق عليه " التفسير الموضوعي للقرآن الكريم"،وتعني: اجتماع أهداف السورة في تقرير موضوع محدد.أو إبراز القضية المحورية في السورة القرآنية"[1].

ولا يخفى أن تحديد موضوع السورة–قصيرة كانت أو طويلة–يتطلب من الباحث دراسة واعية شاملة تبتدئ من الآية الأولى وتستمر حتى نهاية السورة، ويتطلب ذلك إدراكاً عميقاً لأساليب القرآن، ونظراً ثاقباً في محتوى السورة ومضمونها بعيداً عن النظرات السريعة غير المتأنية؛وبالتالي فإن عملية البحث في موضوع السورة لا تتم بمجرد القراءة العابرة، أو النظرة الخاطفة،بل يحتاج ذلك إلى فترات طويلة يديم فيها الباحث النظر و التأمل، وهنا يتحقق الهدف المرجو من خلال الوقوف على آيات الكتاب المبين تدبراً وفهما، إضافة إلى ما يحققه الوقوف على موضوع السورة والقضايا التي تناولتها من كونه كتاب هداية وإعجاز ومنهج نهضة وحياة للأمة.

هذا وأعتذر عما وقع في البحث من تقصير وخلل ، فلا أدعيّ أني وفيته حقه ، أو استقصيته من جميع جوانبه ، وحسبي أني بذلت جهدي فيه ، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من نقص وزلل فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه .

---

[1] – الدغامين،زياد خليل، التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه،(١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧م)،دار عمار–عمَّان،ص ٢٠٥ .

^ أهداف البحث:

إبراز مكانة هذه السورة الكريمة؛وبيان خصائصها ومنزلتها.

بيان الموضوعات الأساسية للسورة ،والعلاقة بين تلك الموضوعات ومحاورها، وبالتالي ربطها بالمحور العام للسورة.

بيان علاقة الموضوعات المطروحة في السورة بحياة الإنسان فرداً وجماعةً.

إثبات تماسك وتناسق الكلمات والآيات؛ وكذلك الموضوعات بعضها مع بعض.

^ الجهود السابقة:

(جهود عامة حول الوحدة الموضوعية)

اهتم عدد من العلماء المتقدمين والمتأخرين بدراسة الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم.

لم تكن دراسة هذا الموضوع جديدة؛وإنما هناك جهود جبارة لكثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين، والتي تمثل قاعدة راسخة ولبنة قوية،لا غنى عنها في فهم مدلولات الوحدة الموضوعية،إلاّ أن فهم هذه المدلولات يتسع لتطور العلم،ورقي الفكر،واتساع المعرفة جيلاً بعد جيل.

ولقد حاول بعض العلماء إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ، مثل :

المعلم الهندي عبد الحميد الفراهي في تفسيره(نظام القرآن) فله محاولة جادة في تأصيل منهج الوصول إلى الوحدة الموضوعية.

الدكتور محمد عبد الله دراز ، وتحدث عن ذلك في كتابه : (النبأ العظيم).

ومن المهتمين والمبرزين في هذا الجانب : سيد قطب ، في تفسيره (في ظلال القرآن) فقد استوعب جميع سور القرآن الكريم ، في بيان وحدتها الموضوعية ، والجرس الموسيقي المتناسب مع الآيات والمعاني .

اهتم الشيخ محمود شلتوت ببيان مقاصد السورة ، ووحدتها الموضوعية ، من خلال تفسيره الذي فسر فيه عشر سور من القرآن الكريم.

كما اهتم بها الشيخ عبد العزيز جاويش ، ودعا إلى تلمس الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية ، التي تبين بصورة جلية ارتباط الآي بعضها ببعض ، فتتناسق آياتها ، وتتلاحم ، حتى تكون كالسبيكة الواحدة.

كما كانت للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس ، نظرات ثاقبة في تبيين الوحدة الموضوعية في السور القرآنية ، من خلال استعراضه للقصص القرآني في كتابه : (القصص القرآني ، إيحاؤه، ونفحاته).

الشيخ الغزالي في كتابه(نحو تفسير موضوعي)، فيهدف الكتاب إلى تقديم تفسيرا موضوعيا لكل سورة من الكتاب العزيز، وقد اعتنى عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة، وتأسى في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة– وهى أطول سورة في القرآن الكريم– فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة.

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم وهو من إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن،بإشراف أ.د مصطفى مسلم: وهو مجهود مجموعة من العلماء،يقومون بتفسير جميع سور القرآن الكريم على منهج التفسير الموضوعي، لكنه يفسر الآيات تفسيراً إجمالياً،وإن كان يتعرض لمحور السورة؛ويقصدون به الأمر الجامع الذي يجمع موضوعات السورة وجزئياتها في نسق واحد.

وهناك كتب اختصت بالحديث عن التفسير الموضوعي،وذكرت هذا اللون من ألوان التفسير الموضوعي وتحدثت عنه من الناحية النظرية والتطبيقية ، فمن تلك الكتب:

مباحث في التفسير الموضوعي ، للأستاذ الدكتور مصطفى مسلم.

التفسير الموضوعي بين النظريّة والتطبيق،للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي.

التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه للأستاذ الدكتور زياد خليل الدغامين.

الوحدة الموضوعية ، للدكتور محمود الأطرش، وغيرهم...

(جهود خاصة حول الوحدة الموضوعية في سورة العلق)

لم أجد دراسة مستقلة تعنى بدراسة الوحدة الموضوعية في سورة العلق حسب اطلاعي، إلا أن الإمام الشاطبي–رحمه الله– قد تكلم عنها في كتابه الموافقات .

٨ هيكل البحث

تتكون خطة البحث من مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس:

المقدمة: وتشتمل على :

أهمية الموضوع وطبيعة البحث فيه ؛و أهداف الموضوع وأسباب اختياره ؛والجهود السابقة في الموضوع ، منهج في البحث ، هيكل البحث .

المبحث الأول: سورة العلق مقدمات تعريفية.

وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول: ذكر اسم السورة ، ووجه تسميتها بما ٦يت به.

المطلب الثاني: ما ورد في فضلها.

المطلب الثالث :مكان نزول السورة.

المطلب الرابع: عدد آياتها وكلماتها وحروفها.

المطلب الخامس: أهداف السورة ومقاصدها.

المطلب السادس: مناسبتها لما قبلها ولما بعدها.

المطلب السابع: وجه اختصاص السورة بما اختصت به .

المبحث الثاني:الوحدة الموضوعية في سورة العلق وتفسير الآيات في ضوئها

تمهيد:الجو العامّ في السورة

المطلب الأول : امتنان الله على الإنسان بالخلق والتعليم" الآيات :١ –٥".

المطلب الثاني: انحراف النفس الإنسانية عن المنهج القويم ، ومجاوزتها لذلك بالطغيان الأثيم" الآيات:٦–٧ ".

المطلب الثالث: تهديد الإنسان وتحذيره من عاقبة الطغيان ؛ مع ذكر بعض أثار الطغيان ووعيد الله عليها "الآيات :"٨–١٨".

الخاتمة وتشتمل على أهم النتائج

الفهارس

^ وأما عن منهجي في كتابة البحث، فكان على النحو التالي:-

يستند البحث في هذه الدراسة على منهجين وهما:

المنهج الاستردادي: من خلال الوقوف على مقدمات السورة التي تتضمن ذكر اسم السورة ، ووجه تسميتها بما سميت به،ما ورد في فضلها ،والمكي والمدني ،وعدد آياتها وكلماتها وحروفها،وأهداف السورة ومقاصدها،ومناسبتها لما قبلها ولما بعدها،و وجه اختصاص السورة بما اختصت به .

المنهج الاستنباطي:الذي يقوم على الاستنباط والفهم من خلال ربط المناسبات مع بعضها البعض، وربطها بمحورها العام الذي يجمع موضوعات السورة وجزئياتها ،واستنباط الموضوع العام من خلال تفسير الآيات على ضوء الوحدة الموضوعية.

المنهج التحليلي،وذلك لتحليل الموضوعات التي اشتملت عليها السورة،وبيان وحدتها الموضوعية الخاصة بهذا البحث.

المبحث الأول
سورة العلق مقدمات تعريفية

المطلب الأول :ذكر اسم السورة ، ووجه تسميتها بما سميت به.

اسم السورة:

تسمى هذه السورة ب "سورة العلق" وهو اسمها التوقيفي.

ووجه تسميتها:

وذلك لوقوع لفظ "العلق" في أوائلها.

أسماء أخرى للسورة :

اشتهر تسمية هذه السورة في عهد الصحابة والتابعين باسم "سورة اقرأ باسم ربك".

روي عن عائشة–رضي الله عنها–: "أول سورة نزلت من القرآن اقرأ باسم ربك"[1] . وتسمى "سورة اقرأ"[2].

وعنونها ابن عطية ، وأبو بكر بن العربي ب "سورة القلم" .

وعقب ابن عاشور على هذه التسمية بقوله:"وهذا اسم سميت به سورة" ن والقلم" ولكن الذين جعلوا اسم هذه السورة "سورة القلم" يسمون الأخرى سورة " ن"، و لم يذكرها في "الإتقان" في عداد السور ذات أكثر من اسم" [3] .

المطلب الثاني : ماورد في فضلها :

مما جاء في فضائل هذه السورة في السنة:

(أ)– ما أخرجه البخاري في "صحيحه" عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ:"أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ،فَكَانَ لَا يَرَى

---

[1] – أخرجه الحاكم في "مستدركه" ، كتاب: التفسير،باب: تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق/ ح(٣٩٥٣)، (٥٧٦/٢). وعلق عليه الذهبي في التلخيص بقوله :" على شرط مسلم".

[2] – انظر: ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي ،التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ط. الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)،مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ج ٣٠ ،ص ٣٨٢ .

[3] – انظر: ابن عاشور،التحرير والتنوير، ج ٣٠ ،ص ٣٨٢ .

رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ– اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ،فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ" اقْرَأْ ،قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ،قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ :"مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ ،فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ،فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:] K L M N O P Q R

S T U V W X Y Z [العلق: ١- ٣] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ:" زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي". فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ:" لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"، فَقَالَتْ له خَدِيجَةُ: كَلَّا ،وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ،وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ،فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى –ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ– وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ،وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ :يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ :يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ :هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ"؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ"[1].

(ب)– أخرج الحاكم في " المستدرك" عن عائشة رضي الله عنها قالت :" أول سورة نزلت من القرآن :] K L M Z "[2].

[1] – أخرجه البخاري في " صحيحه" كتاب بدْءِ الْوحْيِ،ح (٣) ص ١ .

[2] – سبق تخريجه في ص ٧ .

المطلب الثالث : مكان نزول السورة :

سورة العلق مكية باتفاق[1].

وصدر سورة اقرأ و هو قوله تعالى:] K L M N O P Q R S T

[العلق: ١- ٥] Z c b a` _ ^] \ [Z Y X W V U

هو أول ما نزل من القرآن، على أصح الأقوال وأرجحها[2]، وقد دلت الأحاديث الصحيحة الواضحة على ذلك –وقد ذكرته آنفا–.

المطلب الرابع : عدد آياتها وكلماتها وحروفها :

عدد آي سورة العلق وكلماتها وحروفها:

عدد آيها :

وهي ثماني عشرة آية في الشامي، وتسع عشرة في الكوفي والبصري، وعشرون في المدنيين والمكي،اختلافها آيتان :] لَمْ ´ ¸ Z عدها المدنيان، والمكي، ولم يعدها الباقون،] r s t u Z لم يعدها الشامي، وعدها الباقون.

كلمها: اثنتان وسبعون كلمة . حروفها :مئتان وثمانون حرفا[1].

---

[1] –انظر: السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن ،الإتقان في علوم القرآن ، تقديم: محمد شريف سكر، راجعه: مصطفى القصّاص، ط٠الثانية(١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، دار إحياء العلوم،بيروت، مكتبة المعارف،الرياض،ج١، ص ٣٠ ، ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ج ٣٠ ، ص ٣٨٢ .

[2] – اختلف العلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق على أقوال كثيرة؛ أصحها وأرجحها هو القول بأن أول ما نزل صدر سورة اقرأ ،وهو قول الجمهور،وقيل: أول ما نزل سورة المدثر، وأجيب عن هذا بعدة أجوبة فمن ذلك :أ ن المراد بالأولية هنا أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة، وقيل : غير ذلك. وللمزيد في تأصيل المسألة انظر:السيوطي، الإتقان ج ١ ، ص ٧٠– ٧٢ ، الرومي،فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، دراسات في علوم القرآن، ط٠العاشرة(١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)،مكتبة الرشد، الرياض.ص ٢٢٧–٢٣١ .

[1] – الداني ،عثمان بن سعيد الأموي ،البيان في عد آي القرآن ، تحقيق : غانم قدوري الحمد، ط. الأولى(١٤١٤ هـ/١٩٩٤م)،مركز المخطوطات والتراث ، الكويت .،ص ٢٨٠ .

المطلب الخامس : أهداف السورة ومقاصدها

أشار الفيروز آبادي إلى محتويات هذه السورة ومضمونها بقوله: " معظم مقصود السورة: ابتداء في جميع الأمور باسم الخالق الرب – تعالى – جلت عظمته، والمنة على الخلق بتعليم الكتابة، والحكمة، و الشكاية من أهل الضلالة، وتهديد أهل الكفر والمعصية، وتخويف الأجانب بالعقوبة، وبشارة الساجدين بالقربة، في قوله:] وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ Z [العلق: ١٩] [1].

و ممن تكلم أيضاً في مقاصد هذه السورة الكريمة ابن عاشور إذ يقول[2]:

أغراضها: تلقين محمد r الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبْل .

والإيماءُ إلى أن علمه بذلك ميسر لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء.

وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم .

وتوجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات وخاصة خلقه الإنسان خلقاً عجيباً مستخرجاً من علقة فذلك مبدأ النظر.

وتهديدُ من كذَّب النبي r وتعرض له ليصده عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى .

وإعلام النبي r أن الله عالمٌ بأمر من يناوئنه ،وأنه قامعهم وناصر رسوله .

وتثبيتُ الرسول على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى الله .

وأن لا يَعْبأ بقوة أعدائه؛ لأن قوة الله تقهرهم.

و ذكر د.وهبة الزحيلي أن هذه السورة المكية أول شيء نزل من القرآن على قلب النبي r لبيان الأمور الثلاثة التالية[3]:

---

[1] – الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز،(١٣٨٤ هـ /١٩٥٧ م)،القاهرة، ج ١، ص ٥٢٩ .

[2] – التحرير والتنوير :لابن عاشور، ج ٣٠ ، ص ٤٣٤ .

١- بيان حكمة اللَّه في خلق الإنسان من ضعف إلى قوة، والإشادة بما زوّده وأمره به من فضيلة القراءة اقرأ ؛والكتابة عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ،لتمييزه على غيره من المخلوقات:] M L K ZO N..[الآيات : ١ – ٥].

٢- الإخبار عن مدى طغيان الإنسان وتمرده على أوامر اللَّه، وجحوده نعم اللَّه عليه وغفلته عنها رغم كثرتها في حال توافر الثورة والمال والغنى لديه، فقابل النعمة بالنقمة، وكان الواجب عليه أن يشكر ربّه على فضله، فجحد النعمة وتجبّر واستكبر:] f e d h g .. [الآيات: ٦- ٨].

٣- افتضاح شأن فرعون هذه الأمة أبي جهل الذي كان ينهى رسول اللَّه r عن الصلاة، انتصارا للأوثان والأصنام، وتوعده بأشد العقاب إن استمر على ضلاله وكفره وطغيانه، وتنبيه الرسول r إلى عدم الالتفات لما كان يوعده به ويتهدده:] Z u t s r [.. إلى] كَلَّا لَئِن لَّمْ ´ µ ¶ ¸ Z [الآيات: ٩- ١٩].

المبحث السادس : مناسبتها لما قبلها ولما بعدها

مُنَاسَبَتُهَا لمَا قَبْلَهَا:

من المناسبات التي ظهرت لي–والله تعالى أعلم– :

١. لما ذكر سبحانه في سورة التين أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أحط درجات العجز أسفل سافلين– وبدء خلق الإنسان في نشأته يكون من نطفة، ثم علقة ،وهكذا

(٣) –الزحيلي، وهبة بن مصطفى ، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ،ط. الثانية (١٤١٨ هـ)،دار الفكر المعاصر، دمشق،ج٣٠،ص٣١١-٣١٢ .

من المراحل التي يمر بها الإنسان– جاء في سورة العلق فأشار إلى مرحلة من هذه المراحل في قوله تعالى:] Z U T S R Q [العلق: ٢].

٢. ختمت السورة السابقة لها بقوله تعالى:] Z J I H G F [التين: ٨] فهو أقضى القاضين الذي يحكم بين نبيه r وبين أهل التكذيب، وذكر في سورة العلق صورة من صور هؤلاء المكذبين لنبيه r وكيف أن الله عزّ وجل يدافع عن نبيه صلوات الله وسلامه عليه ويقضي بينه وبين المكذبين له بحكمه العدل؛ فهذه صورة لهذا الطاغية الذي قال تعالى عنه:] أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ © Z وقد تهدده الله في الدنيا قبل الآخرة بقوله تعالى:] كَلَّا لَئِن لَّمْ ´ µ ¶ Z الخ الآيات [العلق: ١٣– ١٩].

– وذكر السيوطي–رحمه الله– في كتابه"تناسق الدرر ص ١٦" إحدى المناسبات فقال: " لمَّا ذكر في التين حسن خلق الإنسان ، ذكر بعده حسن خلقه ، ونعمته عليه بما علّمه من الكتابة والقراءة،وما تعلمه مما لم يكن يعلمه ؛إ كراما منه تعالى ولطفا ، ولذلك قال:] W V X Z Y [العلق٣] [(١).

– وأشار الألوسي –رحمه الله– إلى المناسبة بين سورة العلق وما قبلها في كتابه"روح المعاني"بقوله: "ولما ذكر سبحانه في سورة التين خلق الإنسان في أحسن تقويم بين عزّ وجلّ هنا أنه تعالى خلق الإنسان من علق فكان ما تقدم كالبيان للعلة الصورية وهذا كالبيان للعلة المادية، وذكر سبحانه هنا أيضاً من أحواله في الآخرة ما هو أبسط مما ذكره عزّ وجلّ هناك [(٢)].

<u>مُنَاسَبَتُهَا لمَا بعدها:</u>

[(١)] – السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن ،تناسق الدرر في مناسبات السور(أسرار ترتيب القرآن) ،تحقيق :جميل عبد الله عويضة،(بدون تاريخ)، ص ٣٤ .

[(٢)] – الألوسي ،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني، لأبي الفضل محمود ، تحقيق: محمد أحمد الأمد، عمر عبد السلام السلامي، ط٠ الأولى(١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، ج٣٠،ص٥٥٦ .

أشار السيوطي إلى وجه مناسبتها بما بعدها بقوله[1].:" قد يُقال : لَمَّا قال في تلك :] K L M N O P Q Z الآيات ، وهو أول ما نزل من القرآن ، ناسب ذلك أن يليه] ! " # $ % & Z [القدر: ١]، أي ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر ، وأيضا لَمَّا قال :] وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ Z نبّه على ما يقرِّب فيه من الأزمان ، وهو ليلة القدر ، كما نبّه على ما يقرِّب فيه من الأعمال ، وهو السجود ؛ تحريضا على الاقتراب فيها من الله تعالى ؛ لشرفها ، وفي الحديث :" أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ" [2] .

وذكر الألوسي وجه مناسبة العلق للقدر بقوله:" ووجه مناسبتها أنها كالتعليل للأمر بقراءة القرآن المتقدم فيه كأنه قيل : اقرأ القرآن لأن قدره عظيم وشأنه فخيم. وقال الخطابي : المراد بالكتابة في قوله تعالى فيها] ! " Z الإشارة إلى قوله تعالى:] K Z [العلق : ١] ولذا وضعت بعد" [3] .

المبحث السابع : وجه اختصاص السورة بما اختصت به

لكل سورة من سور القرآن موضوعها المستقل،ولها روحها الذي يسري في كيانها، ولكل سورة خصائصها التي تتميز بها،وقد يصعب تحديد الخصائص التي تتميز بها السورة عن بقية السور لباحث لم يتمعن ويطيل النظر في محتوى السورة ومضمونها،فلابد للمفسر أن ينظر نظرة ثاقبة في تحليل الآية وما يمكن أن تنور به العقول والأفهام ، في ضوء وحدتها الموضوعية حتى يستخرج أهدافها المنبثقة من ذلك الموضوع،مما يعينه على ظهور شخصيتها المميزة وخصائصها المستقلة؛وبذلك بظهر وجه إعجاز القرآن في جعل مقدار التحدي سورة من مثله.

---

[1] – السيوطي ،تناسق الدرر في مناسبات السور، ص ٣٤ .

[2] - أخرجه مسلم في " صحيحه" كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود،ح ٢١٥(٤٨٢)، ص٢٠٠ .

[3] - الألوسي ،روح المعاني ، ج٣٠،ص ٥٧٢ .

وفي ضوء دراستي للوحدة الموضوعية في سورة العلق سأقف على بعض خصائص هذه السورة الكريمة.

فسورة العلق سورة مكية تتشابه مع كثير من السور المكي في موضوعاتها وقضاياها الفرعية ، فهذه السورة يغلب عليها سمات القرآن المكي من كثرة الزجر والترغيب والترهيب والتهديد ، إلاّ أن لها سمات خاصة انفردت بها ، وتميزت بها عن غيرها من السور؛ومن الخصائص التي اختصت بها —والله تعالى أعلم–:

هي المؤسسة لرسالة محمد r العظيمة.

كانت أولى السور التي حثت على أهمية القراءة فلها قصب السبق في ذلك حيث افتتحت بالقراءة،ومن هنا أصبح البعض يشتق مسمى للأمة الإسلامية ألا وهو((أمة اقرأ)) مستشهداً بهذه السورة.

أثبتت هذه السورة معجزة محمد r الخالدة وهو قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، وقد أمر بقراءته وأقرأه إيّاه جبريل الأمين،مع كونه أميّاً لتبقى هذه المعجزة العظمى دالة على أنه تنزيل من رب العالمين وأنه كلام رب العالمين.

نبهت هذه السورة على ابتداء خلق الإنسان من علقة وهي قطعة الدم الجامد الرطب غير جاف.

"وقد جاء في إعجاز القرآن العلمي ذكر العلقة ،لأن الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جداً لا ترى إلا بالمرآة المكبِّرة أضعافاً تكون في مبدأ ظهورها كروية الشكل سابحة في دم حيض المرأة فلا تقبل التخلق حتى تخالطها نطفة الرجل فتمتزج معها فتأخذ في التخلق إذا لم يَعُقْها عائق كما قال تعالى :] q r s Z ۝ [الحج : ٥] فإذا أخذت في التخلق والنمو امتد تكورها قليلاً فشابهت العلقة التي في الماء مشابَهة تامة في دقة الجسم وتلونها بلون الدم الذي هي سابحة فيه وفي كونها سابحة في سائل كما تسبح العلقة[1]".

[1] — انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٤٣٨ .

تميزت هذه السورة بأنها جمعت صوراً متعددة للإنسان من حيث طبيعته المادية فتكلمت عن نشأته، وطبيعته النفسية فميزت بين إنسان الخير وهو صاحب العلم ،وإنسان الشر وهو صاحب الدنيا الذي يتمادى في الطغيان.

أنها تضم خمس عشرة فاصلة قصيرة، وهذا نسق متساوق يربط فواصله تناسق داخلي دقيق.

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة العلق وتفسير الآيات في ضوئها

الجو العامّ في السورة:

مطلع هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن باتفاق –كما تقدم بيانه–.

وافتتحت السورة بكلمة] Z K إيذاناً بأن رسول الله r سيكون قارئاً ، أي تالياً كتاباً بعد أن لم يكن قد تلا كتاباً قال تعالى :] T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b Z [العنكبوت : ٤٨] أي من قبل نزول القرآن ، ولهذا قال النبي r حين قال له اقرأ : " ما أنا بقارىء " .

وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن [١].

وأما بقيتها فإنها نزلت فيما بعد. فهي تشير إلى مواقف وحوادث في السيرة لم تجىء إلا متأخرة ، بعد تكليف الرسول r – إبلاغ الدعوة ، والجهر بالعبادة[٢].

وبعد النظر في آيات السورة الكريمة والبحث في المناسبات التي تربط بينها يمكن القول بعد الاعتماد على الله عزّ وجل وطلب العون والسداد منه:

إن سورة العلق موضوعها هو الإنسان من حيث الطبيعة المادية والنفسية وطريقة تهذيبه، وقد تمثل ذلك في ذكرها للإنسان بوجه عام ، وبوجه خاص.

[١] –ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٣٠،ص٤٣٥.

[٢] – سيد قطب، إبراهيم،في ظلال القرآن،(بدون تاريخ)، دار الشروق ـ القاهرة.ج ٦،ص ٣٩٣٨ .

Z P O N M L K [8 7 [العلق].

فاختص الله عزّ وجل من الإنسانية نبي الهدى محمد r حيت ابتدأت الآيات بمنة الله عليه وتعليمه القراءة التي افتتح بها الوحي ،وما في ذلك من إشعاره بالرسالة وبدء النبوة، وفي إضافته إلى الرب عند تلقيه الأمر دلالة على العناية به مع ما أولاه الله إياه من التربية والرعاية التي أحاطت بشخصه الكريم.

Z U T S R Q [[العلق].

ثم توجهت الآيات إلى ذكر الإنسان بوجه عام من حيث الطبيعة المادية إذ خص الله عزّ وجلّ خلق الإنسان من بين مخلوقاته ،ففي ذكره لعموم الخلق دلالة واضحة على قدرته العظيمة وأنّه ما من مخلوق في الكون إلا والله خالقه ومن بين تلك المخلوقات هذا الإنسان الذي كرمه الله عزّ وجل واختصه في هذه السورة الكريمة بالذكر،وقد خلقه الله عزّ وجل أطوارا فمر بمراحل متعددة،واقتصرت هذه السورة الكريمة على ذكر مرحلة منها وهي مرحلة العلقة التي هي عبارة عن قطعة من دم رطب،فذكرها بلفظ الجمع، لأنه أراد بالإنسان الجمع، مع ما ينطوي من ذكر هذه المرحلة من أسرار عظيمة ناسبت الجو العام للسورة والبيئة المعنوية التي نزلت فيها السورة إذ كانت هذه الآيات المتلوة هي أول ما نزل من الوحي ونزلت على قومٍ ينكرون وجود الله عزّ وجلّ فبدأهم الباري في التدليل على وجوده بآية من آياته تعالى وخاطبهم بما يعرفونه ويسلمون له من كون أصل المخلوق من قطعة الدم هذه .

وفي ذكر هذه المرحلة التي تدل على ضعف الإنسان ، وأنه خلق من أحقر الأشياء تدرج للوصول إلى المراحل العليا حين يبلغ الإنسان كماله الإنساني ويصير عالما بحقائق الأشياء ، وكأن فيه إيحاء إلى أن من خلق من الدم الجامد إنسانا حيا ناطقا يسود المخلوقات الأرضية جميعها ، قادر أن يجعل محمدا r قارئا وإن لم يتعلم القراءة والكتابة.

فامتن الله على الإنسانية جمعاء بنعمة العلم وفي هذه الآيات إشارة إلى ذلك حيث زود الله الإنسان بآلة العلم فقال تعالى:] Z [\ [Z [العلق]. ((فالقلم آلة جامدة لا

حياة فيها وليس من شأنها الإفهام ، فمن جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان. أفيصعب عليه أن يجعل من محمد r قارئا مبيّنا ، وتاليا معلّما)) [1].

ثم جاء البيان لهذا الإجمال الذي ذكره في تعليمه بالقلم ،ما الذي علمه بالقلم ؟.فقال

] ^ _ ` a b c Z[العلق]، فالله عزّ وجل هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وكل ما تعلمه هو من فضل الله عزّ وجل وتوفيقه له، وهنا مرحلة عظيمة تهدف إلى الرقي بالإنسان في مجالات الحضارة ليبني الإنسان ذاته وأمته،ولا أدل من ذلك من نزول أولى الآيات تدعو إلى القراءة،ثم تختم بالعلم ، فبالعلم يحيا الإنسان،ويتطور،ويرقى إلى المجد،وبالعلم تحيا القلوب والأبدان،ويخرج الإنسان من الظلمة إلى النور،ويحقق الإنسان أسمى الغايات للوصول إلى الهدف؛متى ما سلك سبيل الحق والرشاد واستمر على النهج القويم.

ولا يزال سياق الآيات مترابط وهي ترسم صورة للإنسان من حيث امتنان الله عليه بالخلق والتعليم، فإن هذا المخلوق الذي خلق من علق وامتن الله عليه حتى غدا يافعا وعلمه ما لم يكن يعلمه ، ورزقه من حيث لا يحتسب،وامتن عليه بالغنى والمال؛فإذا نوع من هذا الإنسان ينسى كل ما تقدم ، ويطغى ويتجاوز حده وهنا تأتي الآيات لتصور لنا انحراف النفس الإنسانية عن المنهج الحق فقال تعالى:] d e f g h i j k l Z [العلق] .

ثم يأتي تهديد الله ووعيده لمن انحرف عن الجادة ، وتحذيره من تربص الدوائر،وأن الله له بالمرصاد، 7 8

] m n o p q Z [العلق]. وتذكر الآيات بعضاً من آثار الطغيان ووعيد الله عليها] كَلَّا لَئِن لَّمْ ´ µ ¶ ¸ Z وفي هذا تهذيب للإنسان من التنكب عن الطريق الحق

[1] – المراغي،أحمد مصطفى، تفسير المراغي ، (بدون تاريخ)،دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان ،ج ٢٨،ص ١٩٩ .

، ومن سلوك هذا الطريق الشاذ،وأن المرء لابد أن يدرك النعمة التي أنعم الله به عليه وأن يقابل الإنعام بالشكر والعرفان لا بالتجبر والطغيان فتختم السورة بالأمر بالسجود والاقتراب إلى الله تعالى] كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ Z [العلق].

هذا –والله تعالى أعلم– ما كشفت عنه آيات السورة الكريمة، وهذا هو موضوعها الذي عالجته آياتها،وبنته بناء محكماً متيناً.

و قد عرضت السورة الكريمة هذا الموضوع على مراحل متعددة، وتناولته في حلقات متناسبة،وسأذكر فيما يأتي حلقات هذا الموضوع،متضمنة ذكر المناسبة التي تربط بين آيات الحلقة الواحدة أو المرحلة الواحدة، ثم تفسير الآيات في ضوء الوحدة الموضوعية للسورة.

قد سلكت السورة الكريمة في أداء هذا الموضوع ثلاث مراحل تناسقت تناسقاً عجيباً بين أجزائها،وتسلسلت تسلسلاً رائعاً في ترتيب الحقائق التي تضمنتها،وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى:امتنان الله على الإنسان بالخلق والتعليم" الآيات :١ –٥".

المرحلة الثانية:انحراف النفس الإنسانية عن المنهج القويم ، ومجاوزتها لذلك بالطغيان الأثيم" الآيات:٦–٧ ".

المرحلة الثالثة: تهديد الإنسان وتحذيره من عاقبة الطغيان ؛ مع ذكر بعض أثار الطغيان ووعيد الله عليها" الآيات :"٨–١٨".

المرحلة الخاتمة:تهذيب النفس الإنسانية من خلال إرشادها إلى طريق الجادة"الآية ١٩".

المطلب الأول:امتنان الله على الإنسان بالخلق والتعليم" الآيات:١– ٥ "

محور السورة:

سورة العلق تتحدث عن الإنسان من حيث طبيعته المادية والنفسية وطريقة تهذيبه.

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

محور السورة كما أسلفت يتحدث عن الإنسان وطبيعته المادية والنفسية وطريقة تهذيبه،وسميت السورة بسورة العلق إشارة إلى هذه المرحلة من مراحل نمو الإنسان وتطوره ،وكأن فيها إشارة إلى ما ينطوي في أصل خَلْق الإِنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطانَ هذا العالم الأرضي .

فإن هذا المخلوق الضعيف ؛ المخلوق من قطعة دم شديدة الحمرة، قد جعل الله فيه قوى كامنة بحيث ينمو ويتطور ليصبح ذلك الإنسان الذي كرمه الله عزّ وجل من بين مخلوقاته، فالذي قدر على أن يجعل من قطعة الدم تلك مخلوقاً ناطقا قادرٌ على أن يعلمه القراءة والكتابة لتتهذب نفسه وتسمو روحه.

ثانياً:المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

"افتتحت سورة العلق بالأمر بالقراءة و ختمت بالأمر بالسجود و وسطت بالصلاة التي أفضل أقوالها و أولها بعد التحريم هو القراءة و أفضل أفعالها و آخرها قبل التحليل هو السجود"[1].

المقطع الأول: امتنان الله على الإنسان بالخلق والتعليم..

قوله تعالى:] K L M N O P Q R S T U V W X Y

[Z \ ] ^ _ ` a b c d Z[العلق].

جاء في هذا المقطع بيان امتنان الله على الإنسان بالخلق والتعليم.

هذه الآيات هي أول ما نزل من كتاب الله عزّ وجلّ مما يلفت المتأمل إلى الوقوف عليها وتدبرها، فكتاب الله عزّ وجلّ هو المعجزة الإلهية وهو الكتاب المبين الذي أنزله الله على رسوله الأمين وجهله منهاجاً لنا ، وأمرنا بتدبره والتفكر فيه،فحريٌ لمتدبر ومتأمل أن يقف على آيات هذا الكتاب ويمعن النظر فيها ليقف على عظمة هذا الكتاب ويهتدي بنوره،فهو كتاب هداية [U V W X Y Z [\

[1] – ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى ، (١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م)،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ج ١٦،ص ٤٧٧ .

e d c b a ` _ ^]

f g Z [المائدة: ١٦].

والمتأمل في هذه السورة المؤسسة لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة،وارتباطها بالوحي ، يدرك مدى العناية التي ينبغي أن تحاط بها ،فهي بحق افتتاحية الوحي.

فنظرة في تلك الأحداث التي جاءت في السيرة النبوية وما حدث لنبي الأمة حال تعبده في الغار بعيداً عن الأهواء والصخب،فيأتيه الوحي وتنزل عليه هذه الآيات العظيمة في حدث جلل سجله التاريخ وحفظته الأمة،وكانت تلك الكلمة العظيمة كلمة (اقرأ) لنبي أمي تشعر ه بالدهشة؛ ماذا سيقرأ ؟وكأنها مفتاح لما بعد ذلك وبدأ تنزل القرآن حتى اكتمل هذا الكتاب العزيز، فكانت أول كلمة فيه إيحاء لما بعد ذلك وأنه سيكون هناك كتابٌ يقرأه، وستتلوه الأمة من بعده ، وستنشأ الحضارات وتعيش الأمة في عزة ورخاء فهي بحق أمة اقرأ، وهنا دعوة لكل الحضارات الزائفة التي تَدعيّ الرقي وتنظر للأمة الإسلامية نظرة شؤم وازدراء وتّدعي أنها من ركبت الحضارة، دعوة للرجوع إلى الوراء قليلا؛وكيف أن هذه الرسالة العظيمة افتتحت بهذا الأمر.فهاهي تدعو نبي الأمة في أول وهلة بالقراءة وكانت إيذاناً بعد ذلك لما سيتبعه من أمور عظيمة؛ فلم يقف الحد عند القراءة فقط ، بل ذكرت الأداة المعينة عليه وكأنها تزوده خطوة خطوة، وعند ذكر السبب لابد من ربطه بالمسبب فالذي دعاك إلى القراءة وزودك بالآلة هو من سيعلمك فهو المعلم (وما توفيقي إلا بالله) .

لنقف وقفة متأمل عند هذه الآية العظيمة Z P O N M L K [[العلق]،ومن خلال تأملنا لهذه الكلمات (القراءة– معرفة الرب– الخلق) سنجد أنها كلمات تعبر في مضمونها عن الحقيقة التي وجدنا من أجلها وكأنها تصور لنا كل المعالم التي نعيشها ونسعى لها ؛وبالتالي نحقق الرضا والسعادة عند تحقيق أهدافنا.

فما حولنا من الكون الذي أوجده الباري عزّ وجلّ هو مخلوق من مخلوقاته عزّ وجل ؛وهو آية من آياته العظام التي تدل على وجوده ؛فهو خالق الأكوان وخالق البريات ،أوجدنا من

العدم ولم يخلقنا عبثا وإنما لغاية جليلة هي عبادته عزّ وجل،فهو رب الأرباب الذي ينبغي أن نتعرف عليه فمعرفتنا للخالق تقودنا إلى تحقيق الغاية العظمى وبذلك لا نتجه إلا إليه .

إذن لابد لنا من السعي إلى تحقيق الهدف ؛ولا بد أن نسعى إلى تعمير الكون وتحقيق الخلافة التي أمرنا بها، وهاهي الوسيلة المعينة على ذلك إنها القراءة التي ستقودنا إلى العلم ؛ فإذا تعلم الإنسان استطاع تعمير هذا الكون، وهكذا ترتبط هذه السلسلة العظيمة...وتترابط هذه الآيات فكل جملة فيها مترابطة مع الأخرى.

وقد جاء فيها بيان عظم هذه النعمة التي امتن الله بها على الإنسان في تسلسل عجيب .

فابتدأ الأمر فيها بالقراءة ووجه الأمر إلى نبي أمي،وفي هذا إبراز للمعجزة العظمى، فهاهو الأميّ بالأمس صار معلماً اليوم،] K L M Z مبتدئاً القراءة] L M Z فالمقام هنا مقام ربوبية وتصرف وتدبير للأمور وابتداء رسالة .

((وعدل عن اسم (الله)العَلم إلى صفة (ربك) لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به ، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبي **r** إضافة مؤذنة بأنه المنفرد بربوبيته عنده رداً على الذين جعلوا لأنفسهم أرباباً من دون الله فكانت هذه الآية أصلاً للتوحيد في الإسلام))[1] .

إذن اقرأ يا محمد مستعيناً باسم الله؛لأن أسماء الله تعالى كلها خير– وكأنه هنا يرشدنا أن القراءة والأمور كلها ينبغي أن تكون بالاستعانة باسمه تعالى– اقرأ باسم ربك الذي رباك وأحاطك بربوبية خاصة وامتن عليك بهذه النعمة ، اقرأ بسم ربك الذي خلق كل شيء، الإنس والجن ، الصغير والكبير،العالم بأسره،فما من شيء إلا وهو مخلوق لله عزّ وجل،وبعد أن أطلق الخلق؛خص تعالى هذا المخلوق العظيم من بين مخلوقاته إنَّه الإنسان فأي تكريمٍ هذا وتشريف لك أيها الإنسان، امتن الله عليك بإنزال الكتاب السراج المنير،وامتن عليك بنبي الأمة الذي كلفه بالرسالة ليكون لك هادياً إلى الصراط المستقيم، واختصك هنا من بين مخلوقاته ؛وأفردك من بين سائر المخلوقات تفخيماً لشأنك.

---

[1] – انظر: التحرير والتنوير:لابن عاشور، ج٣٠ ، ص ٤٣٧

فمازال السياق عن هذا الإنسان وهاهي الآيات تترابط الواحدة تلو الأخرى لتوضح بجلاء عظيم امتنانه تعالى على هذا الإنسان المخلوق من علق ...

((إشارة إلى ما ينطوي في أصل خَلْق الإِنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطانَ هذا العالم الأرضي))[٢].

ولماذا ذكر الله عزّ وجل هذه المرحلة من مراحل الخلق ولم يذكر ما قبلها من النطفة أو خلق آدم من تراب؟

((ذلك لأن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله، فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به لله، ولم يبدأ من النطفة أو التراب لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه، ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان، فقد تقذف في غير رحم كالمحتلم، وقد تكون فيه، ولا تكون مخلقة)) [١].

((لقد خلق الله هذا الإنسان من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة ،فمن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان الذي يعلم فيتعلم)) [٢] .

وهكذا يبدأ الإنسان صغيراً ثم يكبر، وفي تنقله عبر هذه المراحل العمرية يتعلم المزيد مما هو حوله.

وفي هذا ((إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة وفي ذلك اطمئنان لنفس النبي r بأن عدم معرفته الكتابة لا يحول دون قراءته لأن الله علّم الإنسان ما لم يعلم ، فالذي علّم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة)) [٣].

---

[٢] – المرجع السابق ج٣٠ ، ص٤٣٨.

[١] – الشنقيطي، محمد الأمين الجنكي ،أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تخريج: محمد عبدالعزيز الخالدي، ط٠ الثانية، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) دار الكتب العلمية،بيروت– لبنان،ج٩ ،ص ١٩٦ .

[٢] – سيد قطب، في ظلال القرآن،.ج ٦، ص ٣٩٣٨–٣٩٣٩ .

[٣] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠ ، ص٤٣٨.

إذن اقرأ يا محمد] W V Z X [العلق:٣]. وهنا كرر الأمر بالقراءة ،أقرأ وافعل ما أمرت به و في هذا تمهيد لما سيعقبه فإن ربك هو الأكرم ،ليزيح عنه العذر في قوله (ما أنا بقارئ) وكيف لي أنا أقرأ وأنا أميّ لا أجيد القراءة والكتابة !! فيأتي الجواب ربك الأكرم سيعلمك .

"ومجيء الوصف هنا بالأكرم بدلاً من أي صفة أخرى ، لما في هذه الصفة من تلاؤم للسياق، ما لا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنة،فأولاً:رحمة الخليقة بهذه القراءة التي ربطت العباد بربهم.وكفى.

ثانياً:نعمة الخلق والإيجاد، فهما نعمتان متكاملتان: الإيجاد من العدم بالخلق، والإيجاد الثاني من الجهل إلى العلم، ولا يكون هذا كله إلا من الرب الأكرم سبحانه" [٤].

اقرأ وربك الأكرم، فهو من يجازيك بالثواب على القراءة فوق ما تتصور، وسيُفتح عليك من العلوم كلما تقرأ أكثر ، فالعلم فتوح وعطاءات من الله عز وجل، فهو المعلم الذي أمدك بأداة العلم ،وجعلها معينة لك لتتعلم ،فأرسل لك جبريل الأمين ليقرئك فأصبحت بنعمة منه وفضل قارئاً لكتابه،وأمدك بكتاب للوحيّ،وأراد البارئ عزّ وجل –رغم هذه النعمة التي تفضل بها على رسوله والتي ابتدأت بالقراءة ليبلغ رسالة ربه– أن يكون أمياً لا يكتب صيانة لهذه الرسالة،وفي ذلك معجزة عظمى وقد نوه الله عليها بقوله تعالى] U T Z b a ` _ ^] \ [Z Y X W V [العنكبوت : ٤٨] ،ولم يغفل نبي الأمة شأن القلم ، بل عنى به كل العناية ، وقد ظهر ذلك من خلال اتخاذه كتاباً للوحي، ودعوته ومراسلاته للملوك والأمراء ، وفي سيرته العطرة شواهد عظيمة تدل على تلك العناية التي ما كانت لتتم له إلا بتوفيق وفضل من رب العالمين.

وهاهنا دعوة إلى التعلم دل عليها قوله تعالى:] Z [\ ] ^ _ ` a b Z c [العلق].

[٤] – الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٩،ص ١٩٧ .

فالذي علم بالقلم ، وهيأ لك أسباب العلم ، وجعل في الأمة علماء هم مصابيح الدجى هداة مهتدين ،يأمرك أيها الإنسان باقتفاء أثرهم .فأمدك بوسيلة تعينك على العلم إنها القلم هذه الأداة التي أشاد الله بها في محكم التنزيل،وأقسم بها في قوله تعالى:] Y [ ] \ [Z ^ [القلم].

فهو الذي جعل القلم وسيلة للتعلم، به يحفظ الإنسان ما علم ويبلغه غيره ، فالقلم أفضل وسيلة للحفظ والتعلم.

فالقلم هو الذي كتب ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، والقلم هو الذي يكتب مقادير العام في ليلة القدر،والقلم هو الأداة التي يتناولها المرء فيكتب بها العلوم مما سيفتحها الله عليه.

والقلم نعمة من اللّه تعالى عظيمة ،لولا ذلك لم يقم دين ،ولم يصلح عيش. فدل على كمال كرمه سبحانه ، بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو. فهو واسطة للتفاهم بين الناس كالتعبير باللسان ،وبه دونت العلوم وحفظت،وقيدت الحكم،و ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ،فالقلم أداة انتقال العلوم بين الأمم والشعوب، فتبقى المعلومات، ثم يبنى عليها ويزاد إلى ما شاء اللّه، فتنمو الحضارات، وتسمو الأفكار، وتحفظ الأديان، وتنشر الهداية.

فماذا علم بالقلم؟ علم به مالم يعلمه.فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة،] ^ _ ` a b Z c [العلق].

كما 7 8] µ ¶ ¸ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا Z [النحل: ٧٨] فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

فالله هو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، فهو الذي علمه البيان، وهو الذي أمدنا بالعلوم على تنوعها، حتى كثرت ينابيع المعرفة، واستطاع الإنسان من خلال ذلك تطوير ذاته،وتطوير مجتمعه، فبدون البيان والقلم ما كان لينشأ للإنسان حضارة،فابتدأ أمر ذلك بهذه الأداة العظيمة وأجمل الأمر بعدها ليشمل كل ما تعلمه الإنسان ووصل إليه فهو من فضل الله عزّ وجل ،فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور.

وهنا لابد أن نقف عند هذه المعاني التي تستوجب الشكر إزاء هذه النعم العظيمة، ولابد أن نسعى إلى تحقيق هذا المطلب الذي دُعي إليه رسول الأمة، ونكون بحق أمة اقرأ.

إن الذي يدعو الإنسان إلى مزيد من التعلم ، هو العلم نفسه ، فكلما ازدادت المعرفة ، اتسعت منطقة المجهول، وأدرك الإنسان بحق إنه يجهل الكثير من الأمور] وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ Z [الإسراء: ٨٥] ، مما يستلزم التعلق برب العالمين ليفتح لنا من أنواره ويهب لنا من لدنه علما بنفعنا به .

وها نحن في عصرنا هذا عصر انفجار المعرفة ،وعلى الرغم من هذا هناك من يتنكب عن طريق الحق إمّا لأنه لا يقرأ، أو لا يعرف ماذا سيقرأ، وكيف يقرأ.

والجواب عن هذا قد يطول لكن نختصر ذلك بأن نقول لنجعل لنا من كتاب ربنا دليلا وسبيلا لبلوغ الطريق المستقيم ولنقرأ آيات الكتاب المبين، ونهتدي بآياته البينات.

ومازال السياق مترابطاً مازال الحديث عن الإنسان فابتدأت الآيات به حيث اختار الله واحدا منها ليكون ملتقى نوره الإلهي ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته، فبدأت بـ اقرأ وختمت بالعلم كنتيجة حتمية لهذه القراءة.

و هنا لابد للمرء أن يستشعر ((وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني ويتذوق حلاوة هذا الشعور ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال .. وهو يتصور كلمات اللّه ، تتجاوب بها جنبات الوجود كله))[1].

وهنا سوالٌ يتراود في ذهني من حين الوقوف على أول آية فيها وهو : ما العلاقة بين الخلق والقراءة؟ولماذا ربط القراءة بالخلق؟فوجدت الإجابة على هذا السؤال من خلال تسلسل هذه الآيات العظيمة التي وضحت بجلاء نعمته المتمثلة في إيجاده للإنسان وخلقه، ومن ثمّ تعليمه وإيصاله إلى المراتب العليا التي ترقى به وأنه لم يخلق عبثا، فاقرأ يا أيها الإنسان وتعلم واستعن على ذلك بربك ومولاك الذي خلقك وأوجدك لغاية عظيمة لتتعلم ما ينفعك وتتفقه في دينك وتحقق بذلك العبودية للّه عزّ وجل ، وتتحرر من الظلمة والقيود وعبادة الأوثان إلى عبادة ربك الديّان – واللّه تعالى أعلم–.

المطلب الثاني: انحراف النفس الإنسانية عن المنهج القويم،ومجاوزتها لذلك بالطغيان الأثيم"الآيات: ٦–٧"

المقطع الثاني: انحراف النفس الإنسانية عن المنهج القويم، ومجاوزتها لذلك بالطغيان الأثيم.

قوله تعالى:] e d f g h i j k l Z [العلق].

كان من المناسب أن تقابل هذه النعمة بالشكر والعرفان؛ إلاّ إن هناك صنفاً من الناس ينحرف عن المنهج ويقابل العرفان بالجحود والطغيان ، فبعد أن ذكر اللّه عزّ جلّ عظيم نعمه وامتنانه على هذا الإنسان الذي كرمه،واختصه من بين مخلوقاته، وأكرمه بالعلم والتعلم، وزوده بآلة تعينه على ذلك، وعلمه ما لم يكن يعلمه،فإنه ينسى كل ذلك ويتجبر ويتكبر ،وما ذلك إلاّ لأن الإنسان من حيث هو إنسان من طبيعته الطغيان.

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٣٧ .

ترابطت آيات المرحلة الأولى والتي كان السياق فيها عن الإنسان وامتنان الله تعالى عليه بالخَلق والعلم،ومن المعلوم أن النعم تستوجب الشكر ،فهل يدرك ذلك كل من أنعم الله عليه وأغدق عليه نعمه؟ فهناك من بني البشر من يطغى ويتجبر ظنّاً منه أنه قد استغنى عن خالقه ورازقه ؛وأنّى له ذلك ، وهو المخلوق الضعيف المخلوق من علق،لكنه بسبب جبروته وانحرافه عن الطريق الحق ينسى ذلك،ويستمر في عناده وجحوده وهذا هو محور المرحلة الثانية.

Z h g f e d [8 7 [العلق].

((وفي الآية ربط لطيف بأول السورة ، إذا كان خلق الإنسان من علق ، وهي أحوج ما يكون إلى لطف الله وعنايته ورحمته في رحم أمه ، فإذا بها مضغة ثم عظام ، ثم تكسى لحما ، ثم تنشأ خلقا آخر ، ثم يأتي إلى الدنيا طفلا رضيعا لا يملك إلا البكاء ، فيجري الله له نهرين من لبن أمه ، ثم ينبت له الأسنان ، ويفتق له الأمعاء ، ثم يشب ويصير غلاما يافعا ، فإذا ما ابتلاه ربه بشيء من المال أو العافية ، فإذا هو ينسى كل ما تقدم ، وينسى حتى ربه ويطغى ويتجاوز حده حتى مع الله خالقه ورازقه))[1].

((Z d [ردع لمن كفر من جنس الإنسان بنعمة اللّه تعالى عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه ،وذلك لأن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الإنسان، فإذا قيل كَلَّا كان ردعا للإنسان الذي قابل تلك النعم الجلائل بالكفران وبالطغيان ، وكذلك التعليل بقوله تعالى Z h g f e [أي ليتجاوز الحد في المعصية وإتباع هوى النفس ويستكبر على ربه عز وجل))[2].

فالإنسان يفرح ويطغى إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله،لأنه من طبيعته الطغيان والتمرد متى رأى نفسه في غنى.

---

[1] – الشنقيطي،أضواء البيان،ج ٩، ص٢٠٨ .

[2] – الألوسي ،روح المعاني ،ج ٣٠، ص ٥٦١ .

((ومما في الآية من لطف التعبير قوله تعالى : أن رآه استغنى ، أي أن الطغيان الذي وقع فيه عن وهم ، تراءى له أنه استغنى سواء بماله أو بقوته ؛ لأن حقيقة المال ولو كان جبالا ، ليس له منه إلا ما أكل ولبس وأنفق)) [1].

فإن رأى الإنسان نفسه استغنى طغى وتجاوز الحد.

فإذا رأى نفسه استغنى بالصحة نسي المرض،وإذا استغنى بالشبع نسي الجوع، وإذا توفرت له حاجياته نسي الله الصمد الذي نصمد إليه في الحوائج، ونفتقر إليه،وهكذا يتمرد الإنسان ويطغى ظنّاً منه أنه قد استغنى عن خالقه ومولاه،ولكن هل يستطيع الإنسان إذا توفرت له حاجياته واغتنى وتوفرت له الأموال والثروة فأخذ الله عافيته؛هل يستطيع التنعم بهذه الثروة إلا بنعمة الله عليه؟وإن سُلب نعمة واحدة من نعم الله عليه التي بها قوام حياته ما الذي سيحدث له ؟ فكيف لو سلب البصر،أو سلب السمع،أو تعطلت لديه عملية الإخراج كيف سيكون حاله بفقده لهذه النعم وهكذا دواليك؟

إذن فما سبب هذا الطغيان والتمرد؟ إنّها الغفلة وإيثار الدنيا الزائلة،والاشتغال بجمع المال والثروة.

وقد حكم على الإنسان باعتبار الأعم الأغلب في أفراده فيخرج من هذا العموم ،المؤمن الذي يدرك تمام الإدراك احتياجه لرب العالمين وأنه الفقير إليه،فهو لا يستغني عن ربه طرفة عين،ويسأل ربه دائماً ألا يكله إلى نفسه العاجزة الضعيفة،وهناك من الأغنياء الأتقياء الذي يدركون أن هذه النعمة هي من فضل الله وأنها لولاه لما فتحت لهم أبواب الرزق فاغتنوا وصاروا بنعمته أغنياء ،فسخروا أموالهم هذه فيما يعود عليهم بالنفع مع يقينهم بعوزهم وافتقارهم إلى الله، لكن الإنسان من حيث هو إنسان من طبيعته الطغيان والتمرد [87 8 Z لَا جَهُولًا ظَلُومًا كَانَ ۥإِنَّهُ ۖٱلْإِنسَٰنُ وَحَمَلَهَا] [لأحزاب: ٧٢] .

[1] - الشنقيطي،أضواء البيان،ج ٩، ص٢٠٨ .

ومازال السياق عن ذلك الإنسان الذي امتن الله عليه وأكرمه فقابل النعمة بالنقمة، وقابل الإكرام بالطغيان وانحرف عن المنهج القويم، فليحذر هذا الطاغي المتغطرس ،فإن الله موافيه حسابه ،ولا مفر له من الله ،لذلك كان ولابد من وسيلة لعلاج و تعديل هذا السلوك المنحرف

المطلب الثالث: تهديد الإنسان وتحذيره من عاقبة الطغيان؛ مع ذكر بعض أثار الطغيان ووعيد الله عليها" الآيات: ٨-١٨ "

المقطع الثالث: تهديد الانسان وتحذيره من عاقبة الطغيان، مع ذكر بعض أثار الطغيان ووعيد الله عليها.

قوله تعالى:] m n o p q r s t u v w x y z { | } [

~ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ © أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ ´

µ ¶ ¸ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ

وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ Z[العلق] .

وهنا يأتي تهديد الله وتحذيره لهذا الطاغي المنحرف، مع ذكر صورة من صور طغيانه ووعيد الله عليها.

ثم تختم السورة بتهذيب النفس الإنسانية من خلال إرشادها إلى طريق الجادة عوداً على ما بدأت به من الحث على القراءة والتعلم للوصول إلى أعلى المراتب وهاهي تختم بالتقرب إلى الله بالطاعة للوصول إلى أعلى الدرجات.

لقد كان السياق في المرحلة الثانية يتحدث ((عن طبع ذميم في الإنسان وهو أنه ذو فرح وأشر، وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله. لذا هدده اللّه وتوعده ووعظه

ليضبط طغيانه ويوقف تهوره بإخباره بأنّه إلى اللّه المصير والمرجع، وسيحاسب كل إنسان على ماله، من أين جمعه، وفيم صرفه وأنفقه))[1].

Z q p o n m [8 7 [العلق].

فالمرجع والمصير في الآخرة إلى الله عزّ وجلّ ، وهاهنا تحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان، فالإنسان مهما طغى واستكبر واستعلى فإن مرجعه إلى الله عز وجل،فلا مفر من الله إلا إليه،وإليه المرجع في الأمور كلها.

أيها الإنسان قد كنت ضعيفا مخلوقاً من شيء مهين ثم من علقة ما هي إلا قطعة دم،فكبرت وترعرعت ونسيت إكرام الله عليك ،فأخذت تطغى وتتجبر،أتظن أنك تسير على هواك بدون مرجع سيؤول مصيرك إليه! فلتحذر من الغفلة والنسيان،فمهما طال عمرك وزاد جبروتك فإن هناك مصيرٌ ينتظرك ،وسترجع إلى مولاك فأمرك بيديه وحده وهو من سيحاسبك ويجازيك على عملك.

ثم ينتقل السياق إلى ذكر بعض أثار الطغيان مع ما في ذلك من تهديدٍ ووعيد للطغاة.

فقال تعالى:] Z y x w v u t s r [العلق].

أخبرني عن حال هذا الرجل،وتعجب من حاله وهو ينهى عبداً عن الصلاة،ففي الآية ناه ٍومنهٍ،وهذه صورة من صور الطغيان أن يمنع الطاغي العباد من تأدية الواجبات .

فما بالك بهذا المتمرد الذي يقف عثرة في طريق هذا المطيع ليمنعه من تأدية الصلاة..وها نحن في عصرٍ تهدم فيه المساجد ويحال بينها وبين المصلين الذين يقصدونها لأداء العبادة فيتجرعون أشد التعذيب من أجل ذلك ، أرأيت فعل هؤلاء الطغاة الذين يترصدون المسلمين في الجمعة والجماعات ويمنعونهم من تأدية الفروض والنوافل .

أليس نهيه، من أعظم المحادة للّه، والمحاربة للحق؟ إنه الطاغي المعتدي الذي تجاوز الحدود فصرفه طغيانه عن البصيرة ،فظلم وتجبر وطغى.

---

[1] – الزحيلي ،التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج،ج ٣٠، ص ٣٢٠ .

] z } | { ~ ﴿١١﴾ Z [العلق]. فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله،] أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ Z بقوله فهو حريصٌ على صلاح غيره، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته؛] أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ © Z أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ الناهي بالحق وأدبر عنه، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟

ولهذا قال:] أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ Z [العلق]. أي أعجب من هذا ألا يعلم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، فهو العالم بالأمور كلها ، وهو العالم بالظواهر والخفيات، لايخفى عنه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة،فيعلم الناهي والمنهي، ويعلم من صلى وسجد ، ومن طغى وتجبر،وسيجازي كل إنسان بعمله.أفلا يخاف الله ويخشى عقابه؟

ثم قال تعالى متوعدًا ومتهددًا:] كَلَّا لَئِن لَّمْ ´ µ ¶ ¸ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ Z العلق: ١٥ - ١٨ أي: لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد، فينته هذا الإنسان عن طغيانه وعن ظنه أنه استغنى عن خالقه، وعن النهي عن الصلاة] µ ¶ ¸ Z ((لنأخذنّ بمقدم رأسه، فلنضمنه ولنُذلنه؛أو لنسوّدنّ وجهه، فاكتفى بذكر الناصية من الوجه كله، إذ كانت الناصية في مقدم الوجه. أو لنأخذنّ بناصيته إلى النار))[1].

ثم قال:] نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ Z ((ناصية كاذبة في مقالها خاطئة في فعَالها))[2].

((ألا إن تلك الناصية لكاذبة لغرورها بقوتها ، مع أنها في قبضة خالقها ، فهي تزعم ما لا حقيقة له ، وإنها لخاطئة ، لأنها طغت وتجاوزت حدها ، وعتت عن أمر ربها.ونسبة

---

[1] – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن ،تحقيق : أحمد محمد شاكر، ط . الأولى،(١٤٢٠، هـ – ٢٠٠٠ م)،مؤسسة الرسالة،ج ٢٤،ص ٥٢٥ .

[2] – السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط. الأولى(١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م)، مؤسسة الرسالة. ص ٩٣٠ .

الكذب والخطيئة إلى الناصية ، والكاذب والمخطئ صاحبها ، من قبل أنها مصدر الغرور والكبرياء) [٣].

] فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ Z وهنا يأمر هذا الطاغي على ضرب من التهكم والتوبيخ بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوي النجدة والبطش لينقذوه مما سيحل به .

فيتحداه الله عزّ وجل فلتدع قومك وعشيرتك ، لتدع أهل مجلسك وأصحابك ومن هم حولك ؛لتسنصر بهم ليعينوك على ما نزل بك ، فهل سينفعونك وإن جاءوا بعددهم وعتادهم فإذا جاءك عقاب الله وحل عليك غضبه مالك من الله من ناصر ،ليجتمع ذلك الطاغية العاتي بمن هم أمثاله ممن يؤذون المسلمين ، فيمنعونهم من تأدية الصلاة،ويحاربون حدود الله ، ويتجرءون على الله] سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ Z إن كنت ستدعو أهل مجلسك وأنصارك سندعو لك خزنة جهنم، لأخذك وعقوبتك ، فلتنظر أي: الفريقين أقوى وأقدر؟

فهذه هي عاقبة الطغاة والمستكبرين عن منهج الله القويم،فليتنبه كل غافل ينحرف عن منهج الله الذي أنزله ليحفظ به الإنسان والإنسانية،بأ ن الله له بالمرصاد،وليعلم أهل الطغيان والعصاة المتمردين بأن الله فوقهم وأن الله سينصر عباده ولو بعد حين، وليحذروا من غضبه وعقابه ،فإن العقوبة ستحل بهم لا محالة في الدنيا ، أو في الدارين معا .

وها نحن نلمس في كل عصرٍ من العصور جبابرة اغتروا وعتوا وأفسدوا فنسفهم الله ومحاهم من الوجود فأين المعتبر،وأين المتدبر لآيات الله أم أنهم يخرون عليها صماً وعميانا.

وهكذا تترابط هذه السلسلة؛ وتتناسق مقاطع السورة كلها، وهي تعطي صورة عن ذلك الإنسان من حيث المنشأ والخلقة، ثم ترقى به نحو العلم والتعلم،ثم تذكر طبعاً من طبائعه النفسية عندما يسلك الخط المنحرف وينعوج عن الطريق المستقيم، فيأتي تهديد الله ووعيده ليضبط هذه النفس الإنسانية ويهذبها،فهاهي تهذب بالعلم، وتهذب بتحذيراته ووعوده، ويأتي المقطع الأخير منها ليرسم صورة من صور التهذيب .

المرحلة الخاتمة:تهذيب النفس الإنسانية من خلال إرشادها إلى طريق الجادة"الآية ١٩".

---

[٣] — المراغي، تفسير المراغي،ج ٣٠،ص ٢٠٤ .

ختمت سورة العلق بقوله تعالى:] كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ Z.

كان الحديث في الآيات السابقة عن صورة من صور الطغيان التي كان من آثارها النهي عن الطاعة،مع ما توعد الله به ذلك الطاغي من العقوبة، وجاء في هذه الآية الحديث عن حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغى إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين،فلا تطع المتكبر العاتي،واعبد ربك وتقرب إليه بامتثال أوامره فأدم السجود لله عزّ وجل لتزدد فتحا وعلما.

فتختم السورة بتهذيب النفس من خلال الأمر بالسجود والتقرب إلى الله تعالى،كما بدأت بما يهذب النفس من خلال الأمر بالقراءة فما بالك وأنت تقرأ القرآن الكريم فما أعظمه من كتاب يعتنى بقراءته وتلاوته !.

<u>وهذه المقاطع الثلاثة المترابطة تتحد لتشكل موضوعاً واحدا إنّه الإنسان من حيث الطبيعة المادية والنفسية وطريقة تهذيبه–والله تعالى أعلم– .</u>

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث المتواضع أحمده سبحانه وأشكره على ما يسره لي من إنجاز هذا البحث وهداني إليه ، هذا وقد خلصت في هذا البحث إلى الآتي:

أهمية دراسة الوحدة الموضوعية للسورة لإبراز الخصائص الإعجازية في القرآن والوقف على بعض أسراره .

هنالك تناسق وتناسب وتعانق عجيب بين آيات سورة العلق ، وموضوع السورة الرئيس .وقد تضمنت السورة ثلاثة محاور خادمة للموضوع الرئيس وهي: المرحلة الأولى:امتنان الله على الإنسان بالخلق والتعليم" الآيات :١ –٥"،المرحلة الثانية:انحراف النفس الإنسانية عن المنهج القويم ، ومجاوزتها لذلك بالطغيان الأثيم" الآيات:٦– ٧"،المرحلة الثالثة: تهديد الإنسان وتحذيره من عاقبة الطغيان ؛ مع ذكر بعض أثار الطغيان ووعيد الله عليها" الآيات :"٨–١٨"، وقد جاءت هذه المحاور متعانقة مع محورها الرئيس في صورة تمثل وحدة متكاملة لا تقبل الانفصال .

تميزت سورة العلق بأنها جمعت صوراً متعددة للإنسان من حيث طبيعته المادية فتكلمت عن نشأته، وطبيعته النفسية فميزت بين إنسان الخير وهو صاحب العلم ،وإنسان الشر وهو صاحب الدنيا الذي يتمادى في الطغيان.

ختمت سورة العلق بتهذيب النفس من خلال الأمر بالسجود والتقرب إلى الله تعالى، كما بدأت بما يهذب النفس من خلال الأمر بالقراءة.

إنّ في إدامة النظر والتأمل في كتاب الله لذة روحانية تشعر المرء بعظمة هذا الكتاب، مما يتطلب مزيداً من العناية والاهتمام بتدبره.

إن تفسير السورة في ضوء وحدتها الموضوعية لا غنى عنه لعلوم الآلة التي تخدم موضوع السورة.ولا عن التفسير التحليلي الذي يساعد في فهم الألفاظ، ومعرفة معاني ألفاظها.

ومن خلال النتائج السابقة أوصي بعدد من التوصيات من أهمها :

أن تحظى سورة العلق بمزيد عناية حتى ترسخ معانيها في قلوب الأمة ويكشف المزيد من مكنونها .

عقد ندوة عالمية للتأصيل في موضوع الوحدة الموضوعية بصورة تضبط مسارات البحث في هذا العلم ، لاسيما مع ضعف المعالم التي تقوم عليها الدراسة .

وأخيراً .. أسأل الله أن تكون هذه الدراسة على خير ما أرجو لها من الوفاء بالغرض ، مع علمي بأن بينها وبين الكمال بونا شاسعا،فأنى لمبتدئ مثلي أن يدرك التأمل ، فهذا جهد المقل ، ونتاج المبتدئ ، فإن كنت قد عجزت ، فحسبي أنني لم أبخل بالجهد .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .،،،

دليل المراجع والمصادر

- الألوسي ،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني،لأبي الفضل محمود ،تحقيق: محمد أحمد الأمد، عمر عبد السلام السلامي، ط٠ الأولى(١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان٠
- **البقاعي ، إبراهيم بن عمر ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م)،دار الكتب العلمية ، بيروت.**
- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى ، (١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م)،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي ،التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ط. الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)،مؤسسة التاريخ العربي، بيروت — لبنان.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط.الأولى (١٤١٧ هـ/١٩٩٧ م)،دار السلام،الرياض.
- الحاكم ، محمد بن عبد الله النيسابوري ،المستدرك على الصحيحي، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا،ط. الأولى، (١٤١١ هـ / ١٩٩٠م)، دار الكتب العلمية ،بيروت.
- الداني ،عثمان بن سعيد الأموي ،البيان في عد آي القرآن ، تحقيق : غانم قدوري الحمد، ط. الأولى(١٤١٤ هـ/١٩٩٤)،مركز المخطوطات والتراث ، الكويت .
- الدغامين،زياد خليل، التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه،(١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧م)،دار عمار–عمَّان،ص ٢٠٥ .
- الرومي،فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، دراسات في علوم القرآن، ط٠العاشرة(١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)،مكتبة الرشد، الرياض.

- الزحيلي، وهبة بن مصطفى ، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ،ط. الثانية (١٤١٨ هـ)، ،دار الفكر المعاصر ، دمشق.
- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط. الأولى(١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م)، مؤسسة الرسالة.
- سيد قطب،إبراهيم، في ظلال القرآن،(بدون تاريخ)، دار الشروق ـ القاهرة.
- السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن ،الإتقان في علوم القرآن ، تقديم: محمد شريف سكر، راجعه: مصطفى القصّاص، ط٠الثانية(١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، دار إحياء العلوم،بيروت، مكتبة المعارف،الرياض٠
- السيوطي،تناسق الدرر في مناسبات السور (أسرار ترتيب القرآن)،تحقيق:جميل عبدالله عويضة.
- الشنقيطي، محمد الأمين الجنكي ،أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تخريج: محمد عبد العزيز الخالدي، ط٠ الثانية، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) دار الكتب العلمية،بيروت- لبنان.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي ، جامع البيان في تأويل القرآن ،تحقيق : أحمد محمد شاكر، ط . الأولى،(١٤٢٠، هـ - ٢٠٠٠ م)،مؤسسة الرسالة.
- الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز،(١٣٨٤ هـ /١٩٥٧ م)،القاهرة.
- المراغي،أحمد مصطفى، تفسير المراغي ، (بدون تاريخ)،دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.
- مسلم، لأبي الحسين ابن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم،(١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م)،بيت الأفكار الدولية.

تقييد الجواز في البيوع
دراسة إجرائية على مسألة البيع من الوالد لولده

د. عبد الولي بن عبد الواحد لطف الشلفي
أستاذ الفقه المساعد بكلية الحقوق بجامعة تعز

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن من موارد النظر والبحث مسألة بيع المورث لمستحق الوراثة منه، وأظهر صورها وقوعاً بيع الأب أو الأم للابن المستحق للميراث، وهذه من المسائل التي أفرزت بإشكالاتها منازعات تفصح عنها سجلات المحاكم، ويدرك ضرورة التفقه بها القضاة والمتصدرون للمرافعات أو فض الخصومات.

ومعلوم أن المال في قانون المواريث منتقل بمقادير ثابتة من المورث للوارث، _ نِسب لا يجوز الخروج عليها_ وصدور تصرف الوالد لولده بالبيع أو الهبة أو نذور القربى مظنة تهمة، ومعلوم بالمقابل أن البيع إذا استوفى أركانه وشروط صحته كان نافذاً مرتبا لآثاره.

في ضوء تلك الأوليات تتوارد أسئلة عن أسباب توالي المنازعات في تصرفات المورث لبعض ورثته واستمرار دورتها في أروقة القضاء، وتزاحم الدعاوى من الوارثين لإبطال هذا البيع الذي يرونه سبباً في إزاحة جزء من التركة لوارث دون غيره؟

وعلم الفقه معني بالجواب عن العلاقة بين محررات الفقهاء في عقد البيع وإشكالات الواقع، وإلى أي مدى أثر التمسك بالشكل والصورة في إطلاق القول بصحة البيع للولد ما دامت الشروط والأركان صحيحة، وهل الحكم بصحة البيع من الوالد لولده عملاً بأصل الجواز لا يقبل التغيير، أم أن حديات الاستدلال تسمح باجتهاد يقيد حرية المورث في التصرف لوارثه؟

هل في ثنايا التحرير الفقهي ما يساعد في تماهي القول بتقييد حرية المورث في التصرف لوارثه في بنية الاجتهاد المنتظم في مدار النظر الرشيد؟

تُسهم هذه الورقات في عرض المسألة عرضاً تطبيقيا يهدف إلى فحص الأنساق التي حكمت القول في المسألة وما يمكن ترددة من الإلزامات في كل مذهب بناءً على طريقته في النظر والاستدلال.

وتسهم من وجه آخر في تحفيز التحقق بنوافذ القيود التي تفرض تحول الحكم من الجواز إلى ضده؛ لأجل ذلك نُظم البحث في هذه الطليعة، ومدخل ماهد ومبحثين:

خُصص المبحث الأول لنقل صورة المسألة من كتب المذاهب الفقهية الأربعة.

وخُصص المبحث الثاني للموازنة والترجيح في خلال نوافذ تقييد جواز البيع من الوالد لولده.

والبحث بالجملة مؤسس على اختزال المعاني واختصار الاقتباس والنقل والإيجاز في الترجمة والعزو واستخلاص التوصيات، كل ذلك في حدود المنهج الفقهي عرضا ومناقشة وترجيحا، معرضاً عن أشكال المقدمات المسهبة في الرسوم التي يغلب حضورها في البحوث ويحسن

الإيجاز في عرضها.

خطة البحث:

مقدمة

- **مدخل ماهد**

وفيه:

- **المصطلحات الرئيسة**
- **التقييد**
- **الجواز**
- **البيع**
- **الوالد**
- **الولد**

المبحث الأول: البيع من الوالد للولد في المدونة الفقهية

المبحث الثاني: معاقد تقييد جواز البيع من الوالد لولده

خاتمة

مدخل ماهد

المصطلحات الرئيسة

التقييد

التقييد مصدر قيد، ومن معانيه: جعل القيد في الرّجل، والقيد آلة الحبس، يقال: قيدته أقيده تقييدا أي حبست حركته، وفرس قيد الأوابد، أي كأن الوحش من سرعة إدراكه لها مقيدة[١].

وكل ما حُدت حركته من المحسوسات أو المعاني فهو مقيد؛ فقيد المحسوس محسوس وقيد المعنى معنى مثله،

والتقييد في الاصطلاح الأصولي: اشتراط يحد من إطلاق الدلالات[٢]

ويطلق أيضا باعتبارين الأول: ما كان من الألفاظ الدالة على مدلول معين، كزيد وعمرو، والثاني: ما كان من الألفاظ دالا على وصف مدلوله المطلق بصفة زائدة عليه[٣].

الجواز

الجواز في اللغة: النفاذ يقال أجزته: أنفذته، ومنه التجوز ومن معانيه الاحتمال ورفع المؤاخذة، والقبول، يقال: تجوز الدراهم: قبلها على ما فيها[٤].

وجواز الأمر حله تقول: يجوز كذا بمعنى يسوغ ويحل كما تقول يجوز للمسافر أن يفطر[٥]، وللسياق بإضاءاته سلطة ضبط المعنى المراد[٦] .

ويستعمل الفقهاء لفظ الجواز في سياقات معينة ليقابل معنى اللزوم كقولهم الوكالة عقد جائز، بمعنى أنه يصح فسخه من أحد طرفيه، والبيع عقد لازم بعكس ذلك.

وفي العقليات يعبر بالجواز عن إمكان الحدوث والتصور في مقابلة المستحيل الذي لا يتصور وقوعه؛ فالجائز يتميز عن المستحيل بانتفاء وجوه الاستحالة[٧].

والجواز من جهة المعنى التكليفي عند الأصوليين: (ما لا عقاب على فعله)[٨].

والمعنى المراد في هذا الدرس تعريف الجواز بأنه (ما وافق الشريعة؛ فإذا قلنا: صلاة جائزة، وصوم جائز وبيع جائز، فإنما نريد أنه موافق للشريعة)[٩].

---

(١) ينظر: المقاييس في اللغة، ابن فارس، ٤٤/٥.
(٢) ينظر: المستصفى، الغزالي، ٢/ ١٩٠.
(٣) ينظر: الإحكام، الآمدي، ٤/٣.
(٤) تاج العروس، الزبيدي، ٧٥/١٥، ٧٨
(٥) ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ، ٣١٥/١.
(٦) فيكون المعنى في الحديث (كنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز) أي التساهل والتسامح في البيع والاقتضاء، ويكون في قوله **r** في حديث نكاح البكر (فإن صمتت فهو إذنها، وإن أبت فلا جواز عليها) أي: لا ولاية عليها مع الامتناع، ينظر: النهاية في غريب الحديث، ٣١٥/١.
(٧) التلخيص، الجويني، ٣/ ٢٩٦.
(٨) المستصفى، ١/ ١٤٢.
(٩) العدة، أبو يعلى، ١٦٨/١.

تقييد الجواز في البيوع

تأسيساً على ما تقدم من تعريف التقييد وتعريف الجواز، يمكن بيان المراد بتقييد الجواز بأنه: وضع يحول دون اكتساب العقد وصف الصحة المرتبة لآثاره، وإذا خُص بالبيع فذات المعنى، وخلاصة التعريف: أن البيع المقيد بوصف أو شرط بيع لا تتوافر له مكنة ترتيب الآثار تجاه المتعاقدين أو الغير.

البيع

البيع لغة: مصدر باع، يقال باع يبيع بيعا، وهو اسم للمبادلة والمقابلة والمعاوضة والمعاطاة، ولفظ البيع من الأضداد يطلق على البيع والشراء معا [١].

ونقل صاحب مواهب الجليل : (أن لغة قريش استعمال باع إذا أخرج واشترى إذا أدخل، قال: وهي أفصح، وعلى ذلك اصطلح العلماء تقريبا للفهم)[٢].

وفي الاصطلاح عرفه الحنفية بأنه: (مبادلة شيء مرغوب فيه بمثله، على وجه مخصوص)[٣].

وعرفه بعض المالكية فقالوا: (عقد معاوضة على غير منافع ولا متعة لذة)[٤].

وعرفه الشافعية بأنه: (مقابلة مال بمال قابلين للتصرف بإيجاب وقبول على الوجه المأذون فيه)[٥].

وقال الحنابلة: (البيع معاوضة المال بالمال لغرض التملك)[٦].

وكلها تعريفات دراسية تهدف للتحقق بالتصور النظري لعقد البيع؛ فحده غني عن التعريف؛ لذلك قيل: (حقيقة البيع معروفة لكل أحد؛ فلا تحتاج إلى حد)[٧].

الوالد والولد

الوالد: الأب، والوالدان الأب والأم تغليبا، ويقال للأم والد بغير هاء، على خلاف الأصل، ووالده، بالهاء على الأصل[٨].

والولد محركة أو مضمومة كالعَرَب والعُرب، اسم للواحد والجمع والذكر أو الأنثى من الذرية[٩].

وغاية النظر في هذا البحث تحرير حكم الشرع في تصرف الأب أو الأم بالمال المملوك لهما ملكا تاما تصرفاً ناقلاً للملك إلى الابن المستحق للوراثة ذكراً كان أو أنثى.

---

(١) تاج العروس، ٣٦٥/٢٠.
(٢) مواهب الجليل، الحطاب، ٢٢٢/٤.
(٣) الدر المختار، الحصكفي (مع حاشية رد المحتار) ابن عابدين، ٤/ ٥٠٣.
(٤) مواهب الجليل، ٢٢٥/٤.
خرج بهذا التعريف: الإجارة والكراء والنكاح، ودخل فيه الصرف والمراطلة والسلم، والمبادلة والإقالة والتولية والشركة في الشيء المشترى، والقسمة على القول بأنها بيع كالشركة في الأموال.
(٥) كفاية الأخيار، الحصيني، ٢٣٢.
(٦) العدة شرح العمدة، المقدسي، ٢٣٩.
(٧) مواهب الجليل، ٤/ ٢٢٢.
(٨) تاج العروس، ٣٢٩/٩.
(٩) ينظر: المصدر السابق، ٣٢١/٩؛ الكليات، الكفوي، ٩٤٤.

المبحث الأول

البيع من الوالد للولد في المدونة الفقهية

تحرير المسألة

يخرج عن رسم هذا البحث بيع الابن للأب أو الأم، وبيع الأب مال ابنه الصغير بالولاية الشرعية، وصورته عند الفقهاء... اشترى فلان من فلان وهو القائم في بيع ما سيأتي ذكره على ولده لصلبه فلان الطفل الصغير الذي هو في حجره وولايته بالأبوة شرعا لما رأى له في ذلك من الحظ والمصلحة والغبطة[١].

ويخرج كذلك بيع الأب لابنه الذي لا وارث له سواه؛ لانتفاء التهمة وبقاء البيع على أصل الصحة.

وبيع الأب لابنه في مرض الموت؛ لأن التصرف في مرض الموت محكوم بحيثيات أخرى، ومحل مسألة البحث هنا بيع الأب أو الأم كاملي الأهلية في حال الصحة لولد _ ذكراً كان أو أنثى _، حيث يكون للولد شركاء في الميراث[٢].

حكم بيع الوالد للولد في تحريرات الفقهاء

بحث الفقهاء شروط المال المبيع وشروط الصيغة وشروط العاقدين _ البائع والمشتري _ وخلاصة ما حرروا في شرط العاقد أن يكون أهلاً لإبرام العقد، ولازم الأهلية الرشد، وهو أن يبلغ مصلحا لدينه، وماله فلا يصح عقد الصبي المجنون ومن بلغ غير مصلح لدينه وماله، ولا المكره ولا من لا يملك العين ملكا صحيحا[٣].

وليس من شروط العاقد ألا يكون أباً للمنتفع بالعقد، وليس في هذه الصورة نص، هذا هو سقف المدخل المقصود لمعرفة مدروس مسألة بيع الأب أو الأم للابن أو الابنة؛ لأنها فيما وقف عليه الدرس لم تُبحث مفردة في مصادر المذاهب الفقهية المعتمدة، ولو كانت متاحة على هذا النحو

---

(١) ينظر: جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، المنهاجي،٨٤/١.

(٢) رأى أبو حنيفة أن بيع المريض غير المدين ماله لوارث موقوف على إجازة باقي الورثة، فإن أجازوه نفذ، وإن ردوه بطل، وهو الراجح في المذهب، وبه قال أبو الخطاب من الحنابلة.
ورأى أبو يوسف ومحمد بن الحسن وابن أبي ليلى صحة البيع ونفاذه إذا كان بمثل القيمة أو بما يتغابن الناس بمثله؛ لأنه ليس فيه إبطال لحق الورثة، وذهب المالكية إلى جواز البيع ونفاذه إذا سلم من المحاباة، ويبطل البيع بالمحاباة بقدرها في الثمن، ويصح وينفذ فيما سواها، أما إذا حابى المريض وارثه في عين المبيع، كأن يقصد إلى خيار ما يملكه فيبيعه من ولده، ففي هذه الحالة يكون لورثته نقض ذلك البيع، ولو كان بثمن المثل أو أكثر، وقال الشافعية بصحة بيع المريض لوارثه ونفاذه إذا كان البيع بمثل القيمة أو بما يتغابن الناس بمثله، أما إذا كان في البدل محاباة لوارث، فحكم هذه المحاباة حكم الوصية للوارث وهو الوقف على إجازة الورثة، ويبطل البيع بقدر المحاباة، قال الشافعي : (وإذا باع الرجل المريض بيعا من بعض ورثته بمثل قيمته، أو بما يتغابن الناس به، ثم مات فالبيع جائز، والصحيح من المذهب عند الحنابلة أن البيع جائز، قال في الإنصاف:(ويحتمل أن لا يصح لوارث؛ لأنه خصه بعين المال، وهو لأبي الخطاب في الهداية في الوصية، قال في الفروع: وعنه تصح مع وارث بإجازة، واختاره في الانتصار).
ينظر: رد المحتار، ابن عابدين، ١١٢/٥؛ شرح الخرشي، ٣٠٥/٥؛ الأم، الشافعي، ١١٢/٧؛ المهذب، الشيرازي، ٢١٦/٣؛ الإنصاف، المرداوي، ١٧٢/٧.

(٣) ينظر: رد المحتار، ٤/ ٥٠٤؛ حاشية قليوبي وعميرة، ٢/ ١٩٥

لكان تحصيل الجواب فيها يسيرا، حيث يمكن جمع ما قيل فيها، ووزنه لترجيح ما يغلب في الظن قوته، وموقف المذاهب من صورية العقود ودور الباعث في الحكم عليها صحة وبطلانا لا يخلو من غموض.

وخارطة المسألة تُرسم من زاوية القيود التي يسمح وضعها بتحول الحكم من الجواز إلى الوقف أو المنع، ومن هذه القيود علاقة شكل العقد بالباعث (ظاهر العقد ونوايا العاقدين) وهذه تستدعي بحثاً مستقلا نكتفي منه بفرض المناسبة وسياق الترجيح.

ودور مبدأ سد الذرائع، وهذا بحث آخر لن يأرز البحث إلى زاويته كفاية بالإشارة إلى أثره بإيجاز، وحفظ حق الغير المنضوي في مسألة العطية لبعض الولد، في فرض كون البيع للولد هبة في صورة البيع، ودور الدلالات التعاضدية للنصوص والمبادئ المشاركة في تخليص المفاهيم وتنقيتها.

بمجموع هذه القيود تتشكل قاعدة المعطيات الموضوعية متشابكة في عرض الأقوال المنقولة واللمحات الرامزة للمستخلص منها، مفتتحها شذرات من المذاهب الفقهية الكبرى في المسألة.

البيع من الوالد لولده في محررات الفقه

الحنفية

ليس لمسألة الدرس هنا عنوان بارز يفردها بالقراءة؛ فمتعلقاتها منثورة في تلافيف مسائل متعددة، وعطفاً على ما تقدم في نواظم النظر في المسألة يمكن ترتيب فقهها في المذاهب الفقهية من خلال محاور تُسهم في بنائها والبداية من الحنفية على النحو الآتي:

جاء في الأشباه والنظائر: (ينصب القاضي وصيا في مواضع: إذا كان على الميت دين أو له، أو لتنفيذ وصيته، وفيما إذا كان للميت ولد صغير، وفيما إذا اشترى من مورثه شيئا وأراد رده بعيب بعد موته)[(١)].

يضع هذا النقل فرضيات لتعيين الوصي قضائيا، منها (إذا اشترى من مورثه شيئا) المفهوم من هذا الكلام أن الأصل في بيع الأب أو الأم للولد هو الصحة؛ لذلك قالوا في العاقدين شرطهما الأهلية[(٢)]، ولم يلتفتوا _ بالتفصيل _ إلى صفة القربى بين البائع والمشتري.

وقرروا في بيع المرابحة أنه (إذا اشترى الرجل من أبيه أو أمه أو مكاتبه أو عبده أو عبد من مواليه أو مكاتب من مواليه متاعاً بثمن قد قام على البائع بأقل من ذلك فليس للمشتري أن يبيعه مرابحة إلا بالذي قام على البائع للتهمة، وليس هذا كالشراء من الأجنبي ولا من الأخ ولا من العم)[(٣)].

يدل هذا النقل على اعتبار شكل العقد عند الحنفية، اعتبارا تصح به المعاملة بيعاً وشراءً بين الأب وابنه جرياً على أصل حل البيع ما صحت الأركان والشروط.

وفي باب الهبة (ولو نحل ابنه الصغير شيئا جاز، ويصير قابضا له مع العقد كما إذا باع ماله

(١) الأشباه والنظائر، ابن نجيم، ١٩٢.
(٢) ينظر: رد المحتار، ٤/ ٥٠٤.
(٣) الأصل، محمد بن الحسن، ٤٨٤/٢.

منه)[١].

هذا مؤكد إضافي على استقرار معنى المسألة على هذا الأصل، وكل محاولة لإعادة النظر فيها تبدأ من هذا التقرير.

المالكية

لاحظ الفقه المالكي أثر التصرف في واقع الناس، واستصحب ظلامات بعض الأبناء الواقعة بهم من آبائهم؛ لذلك وسعوا النظر في العقود التي صورتها البيع ويغلب أن تكون إيثارا.

واعتبر المالكية سلامة التصرف من تهمة المحاباة شرطا لصحة البيع، وعدوا التهمة مانعاً من صحة العقد، وفي هذا قالوا: (ومُنع للتهمة ما كثر قصده، كبيع وسلف، وسلف بمنفعة)[٢].

وجاء في المدونة: (أرأيت المقارض إذا باع سلعة، فظهر عليه بعيب فحط من الثمن أكثر من قيمة العيب أو أقل، أو اشترى من أبيه أو من ولده، أيجوز هذا على المال القراض؟ قال: لم أسمع من مالك فيه شيئا، ولكن إنما ينظر في هذا؛ فكل شيء فعله من هذا على وجه النظر وليس فيه محاباة فأراه جائزا)[٣].

يُفهم من هذا ابتداءً أن بيع الأب للابن غير صحيح لمظنة التهمة؛ فهي عندهم وصف مؤثر في الحكم، ويمكن تنفيذ موجبات قولهم هذا بمراعاة اختلاف الزمان والحال؛ فقولهم ما كثر قصده ضابط واضح، لكنه متغير بحسب العادات والأحوال.

الشافعية

تحدث فقهاء المذهب عن بيع الأب لابنه، وضربوا به الأمثال على أصل صحته شكلاً بما استوفى من الأركان والشروط، جاء في الروضة: (لو اشتراه بغبن، لزم الإخبار به على الأصح عند الأكثرين، واختار الإمام والغزالي[٤]: أنه لا يلزم، ولو اشترى من ابنه الطفل، وجب الإخبار به؛ لأن الغالب في مثله الزيادة، نظرا للطفل، ودفعا للتهمة، ولو اشترى من أبيه أو ابنه الرشيد، لم يجب الإخبار به على الأصح باتفاقهم، كالشراء من زوجته ومكاتبه)[٥].

وفي فتح العزيز (...لو اشترى من مورثه شيئا ومات المورث قبل التسليم فله بيعه سواء كان على المورث دين أو لم يكن)[٦].

هذا النقل يُفهم منه أن الأصل في بيع المورث لمستحق الميراث صحيح في أصله عندهم.

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني، ١٢٧/٦.
(٢) مختصر خليل، ١٥٠.
(٣) المدونة، الإمام مالك، ٦٥٧/٣.
(٤) محمد بن محمد بن محمد الغزالي، الطوسي، أصولي، فقيه، فيلسوف، من أئمة الشافعية، من مصنفاته: المستصفى والمنخول في أصول الفقه توفي (٥٠٥هـ).
ينظر: طبقات الشافعية، السبكي ٦/ ١٩١-٣٨٩، وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٣/ ٣٥٣.
(٥) روضة الطالبين، النووي، ٥٣٤/٣.
(٦) فتح العزيز، الرافعي، ٤٢٣/٨.

الحنابلة

بيع الأب لابنه المستحق للوراثة صحيح عند الحنابلة إذا انتفت التهمة؛ ومن أمثلة هذا التصرف عندهم قوله في الشرح الممتع: (رجل اشترى من أبيه سلعة بمائة، ثم باعها على آخر برأس مالها، ثم تبين للمشتري أن الذي باع عليه قد اشترى من والده، فيقول المؤلف: له الخيار، وظاهر كلامه أن له الخيار سواء غبن أم لم يغبن؛ بناءً على أن العادة أن الإنسان لا يستقصي فيما إذا اشترى ممن لا تقبل شهادته له)[١].

الذي يعني البحث في هذا النقل هو بناء القول على أن البيع من الوالد لولده صحيح في أصله، وهذا حد كاف في التمهيد للتعرف بحكم هذا التصرف بعد اكتمال التصور في بقية المحاور.

ابن حزم

يتعجب ابن حزم من قول من يخالفه في إجراء العقود على ظواهرها، قال رحمه الله: (... وأما قولهم: إنها دراهم بأكثر منها؟ فعجب لا نظير له جدا، وقد قلت لبعضهم: ما تقولون فيمن باع سلعة إلى أجل بدينار ثم اشتراها بنقد بدينارين؟ فقال: حلال: فقلت له: ومن أين وجب أن يكون إذا باعه بدينارين واشتراه بدينار ربا ..... وهل في الهوس أعظم من أن يبيع زيد من عمرو دينارا بدينارين فيكون ربا، ويبيع منه دينارين بدينار فلا يكون ربا، ليت شعري في أي دين وجدتم هذا؟ أم في أي عقل؟ فما أتى بفرق، ولا يأتون به أبدا.

وأما قولهم: إنهما أرادا الربا كما ذكرنا فتحيلا بهذا العمل؟ فجوابهم أنهما إن كانا أرادا الربا كما ذكرتم فتحيلا بهذا العمل، فبارك الله فيهما، فقد أحسنا ما شاءا إذ هربا من الربا الحرام إلى البيع الحلال، وفرا من معصية الله - تعالى - إلى ما أحل، ولقد أساء ما شاء من أنكر هذا عليهما، وأثم مرتين لإنكاره إحسانهما، ثم لظنه بهما ما لعلهما لم يخطر ببالهما)[٢].

ولا يرى ابن حزم للتهمة أثرا في التصرفات، فيذهب إلى جواز شهادة الأب لابنه والعكس، يقول في الرد على من يرجح المنع للتهمة: (... وأما نحن فنصححهما، ونقول: ليس فيهما منع من قبول شهادة الابن لأبويه، ولا من قبول الأبوين له - وإن كان هو وماله لهما - فكان ماذا؟

ونحن كلنا لله تعالى، وأموالنا وقد أمرنا بأن نشهد له عز وجل، فقال عز وجل:M % &

' L النساء:١٣٥ [٣].

والنتيجة عنده وفاقاً لطريقته أن الاعتداد بظاهر المعاملات أصل لا تنقضه التهمة، وتمام كلامه في شهادة الأقارب : (...وبالضرورة ندري أن من حملته قرابة أبويه وبنيه وامرأته على أن يشهد لهم بالباطل فمضمون منعه قطعا أن يشهد لمن يرشوه من الأباعد لا فرق، وليس للتهمة في الإسلام مدخل)[٤].

(١) الشرح الممتع، ابن عثيمين، ٣٣٧/٨.
(٢) المحلى، ابن حزم، ٥٢/٩.
(٣) المحلى، ٥٠٦/٨.
(٤) المصدر السابق، ٥٠٩/٨.

المبحث الثاني

معاقد تقييد جواز البيع من الوالد لولده

لتقييد الجواز تطبيقات فروعية كثيرة كالنهي عن سب معبودات الكفار، قال تعالىM | { ~ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ L الأنعام: ١٠٨ في الآية نهي عن سبّ معبوداتهم لئلا يدعوهم ذلك إلى سب الله سبحانه؛ (...فهذا كالتنبيه على منع الجائز لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز)[١].

ومنها النهي المؤقت عن ادخار لحوم الأضاحي لتنشيط التكافل الاجتماعي، وترشيد استهلاك المباحات عند الضرورة، والتسعير إذا دعت الحاجة، وتقرير حق الضيف في القِرى، وفرض الدية على العاقلة، والمنع من الجلوس في الطرقات، ومنع تناجي اثنين بينهما ثالث، وأمثال ذلك.

ولتقييد الجواز معاقد حاكمة اعتبرها الشرع منها حفظ حق الغير، ودفع فوات الفرائض، ودفع المفاسد، وسد الذرائع، ومراعاة البواعث، والانقياد لمقاصد الشرع، وهذه أهم المناطات الشرعية لتقييد المباح الذي ..(يتغير بمراعاة غيره فيصير واجبا إذا كان في تركه الهلاك، ويصير محرما إذا كان في فعله فوات فريضة أو حصول مفسدة كالبيع وقت النداء، ويصير مكروها إذا اقترنت به نية مكروه، ويصير مندوبا إذا قصد به العون على الطاعة)[٢].

وإذا أردنا تنفيذ مجريات التقييد على مسألة البحث يمكن القول إن البيع للولد الوارث مشروع بأصله ما دام تصرفاً صادراً من ذي أهلية صحيح الملك على وفق شروط وأركان عقد البيع المعروفة في فقه المعاملات؛ ولهذا كانت تحريرات الفقهاء في الحديث عن بيع الوالد للولد عملاً بأصل صحة العقد بصحة أركانه وشروطه.

لكن هذا التصرف قد يكون ممنوعا بوصفه أو بمآله، وهذا يفرض إرجاع النظر في الوصف المؤثر الذي ينقل هذا التصرف من الجواز إلى ترجيح الحظر، وبصيغة مرادفة معرفة المعاقد النظرية لتقييد جواز البيع للولد المستحق للوراثة وهي المبينة في السرد الآتي:

١_ التقييد باعتبار الباعث (ظاهر العقد ونوايا العاقدين)

في الفقه الحنفي

الظاهر أن الاستناد إلى موقف واضح للحنفية من علاقة شكل العقد بالمقصد منه لا يبدو منضبطاً؛ فهم في مواضع يحكمون على العقود بمقاصدها ويحكمون على شكلها في أخرى[٣].

يدل على ذلك اختلافهم داخل المذهب في بيع (الأمانة) أو ما يطلق عليه (بيع الوفاء)، وهو أن يقول بعت منك على أن تبيعه مني متى جئت بالثمن، فإذا كان الاعتبار بحقيقة البيع والمقصد منه فهو رهن، وإن كان الاعتبار بشكل العقد وظاهره فهو بيع، وفي هذا التكييف اختلف الحنفية

(١) شرح التلقين، المازري، ٣١٨/٢.
(٢) البحر المحيط، الزركشي، ٣٦٥/١.
(٣) ربما كان ذلك التردد (في بعض الصور) بفرض التفرقة بين حال الفتوى وحال القضاء.

إلى أكثر من قول.
فقال فريق هذا رهن؛ لأن المتعاقدين وإن سمياه بيعا ولكن غرضهما الرهن [١] .
وقال آخرون بل هو بيع (... ذكر في مجموع النوازل اتفق مشايخنا في هذا الزمان على صحته بيعا على ما كان عليه بعض السلف؛ لأنهما تلفظا بلفظ البيع من غير ذكر شرط فيه والعبرة للملفوظ نصا دون المقصود)[٢].
وكذلك قالوا في بيع التلجئة؛ فالثمن (...هو المذكور في السر ويصير كأنهما هزلا في الزيادة وروى أبو يوسف - رحمه الله تعالى - أن الثمن هو المذكور في الظاهر)[٣].
ومع ما اشتهر عنهم من التوسع في الحيل الجائزة والتمسك بشكلية العقود لا تخلو مصنفاتهم من عكس ذلك، فهم يقررون في مواضع أن العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني، لا الألفاظ والمباني[٤]، في حين يرى بعضهم العكس، ويقرر أن (...العبرة للملفوظ نصا دون المقصود).[٥]
وللتهمة عندهم تأثير في الحكم، وقرر أبو حنيفة بطلان بيع المريض من أبيه؛ لأنه بيع لوارث له حكم الوصية، والمقرر شريعة أنه لا وصية لوارث[٦].
وهذا البطلان الذي قرره أبو حنيفة مبني على أسس منها قياس الفرع على شبيهه؛ حيث عد البيع الصوري للوارث مثل الوصية له، فسوى بينهما في الحكم، وللمرض منزع آخر هو (التهمة).

في الفقه المالكي

لمراعاة مقاصد العقود ومآلاتها ظهور في الفقه المالكي؛ فهم في الحكم على العقود ينظرون إلى الاعتبار (بالصورة الظاهرة ومظنة التهمة)[٧]، وفي الوسائل يقررون أن (ما أدى إلى الحرام حرام)[٨].

---

(١) يترجم ذلك الخلاف الحوار التالي: (وقال السيد الإمام: قلت: للإمام الحسن الماتريدي: قد فشا هذا البيع بين الناس، وفيه مفسدة عظيمة، وفتواك أنه رهن وأنا أيضا على ذلك فالصواب أن نجمع الأئمة ونتفق على هذا ونظهره بين الناس، فقال المعتبر اليوم فتوانا، وقد ظهر ذلك بين الناس فمن خالفنا فليبرز نفسه وليقم دليله).
ينظر: رد المحتار، ٢٧٦/٥.
(٢) درر الحكام، ملا خسرو، ٢٠٧/٢.
(٣) الفتاوى الهندية، ٢٠٩/٣.
(٤) من قواعد الفقه في التصرفات والعقود، من معانيها.. ما يشمل المقاصد التي تعينها القرائن اللفظية التي توجد في عقد فتكسبه حكم عقد آخر، كانعقاد الكفالة بلفظ الحوالة، وانعقاد الحوالة بلفظ الكفالة، إذا اشترط فيها براءة المديون عن المطالبة، أو عدم براءته، وما يشمل المقاصد العرفية المرادة في التخاطب.
ومن تطبيقاتها: بيع الوفاء هل بيع أم رهن، والهبة بشرط العوض أبيع أم هبة؟
ينظر: شرح القواعد الفقهية، الزرقا، ٥٦.
(٥) درر الحكام، ٢٠٧/٢.
(٦) ينظر: المبسوط، السرخسي، ٧٣/١٤.
(٧) قالها السبكي عن موقف المالكية من الاعتداد بمقصد العقد واعتبار مآله، في تكملة المجموع، ١٦٢/١٠.
(٨) شرح الخرشي على خليل، ١٤٧/٤.

وعليه فتصرفات الوالدين إذا أفضت إلى قطع المودات وشحن القلوب بالبغضاء وظلم بعض الولد والحيلة على أنصباء الورثة حكم عليها بالبطلان؛ لأنها أدت إلى حرام.

في الفقه الشافعي

يظهر اهتمام الفقه الشافعي بشكل العقد في فروع متعددة، ومسألة البيع من الوالد لولده المستحق للميراث تُبنى في القول بصحة التصرف على الجانب الشكلي للعقد، وينزع الشافعية إلى تعميد الثقة بالعقود واستقرار المعاملات بها؛ قال الشافعي: (ومن سلف في طعام إلى أجل فعجله قبل أن يحل الأجل طيبة به نفسه مثل طعامه أو شرا منه فلا بأس، ولست أجعل للتهمة أبدا موضعا في الحكم إنما أقضي على الظاهر)[١].

وفي المنثور تقسيم للحكم من جهة المؤاخذة به في الظاهر (قضاءً) والباطن (ديانة) جعل عقود التصرفات المالية من النوع المؤاخذ به (...في الباطن دون الظاهر، كما لو باع المال الزكوي فرارا من الزكاة يسقط عنه في الظاهر، وهو مطالب فيما بينه وبين الله تعالى)[٢].

ولما كان البيع للابن مظنة التهمة ويشبه بيع المال الزكوي بيعاً صوريا تحيلاً على الزكاة، ويشبه طلاق المريض فرارا من الإرث، ومثله الإقرار للوارث لحرمان الباقي، فإن هذه الفروع تدخل على وفق التصنيف المذكور في الذي يصح بصحة ظاهره في القضاء، وتُترك تبعات النية لمعايير المؤاخذة ديانة[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الشافعي **t** يجري العقود على ظاهر الأمر بها من غير سؤال المعاقد عن مقصوده)[٤].

ولا تخلو القضية في النظر الشافعي من إشكال يحول دون الجزم باتفاقهم على هذه النتيجة، قال في طرح التثريب: (...الذي نص عليه الشافعي وقطع به جمهور أصحابه كراهة إزالة ملكه للفرار من الزكاة كراهة تنزيه، وجعل بعض أصحاب الشافعي الكراهة للتحريم كقول مالك وعليه يدل كلام الغزالي في قوله إثم، وكذلك عندهم البيع بالعينة، والاستحلال إذا لم يشترط في العقد، والتحيل لإسقاط الشفعة محمول على الكراهة لا على التحريم....)[٥].

هذا يعني أن القول بكراهة التحريم للتصرفات المشتملة على الحيل يجعل قول بعض الشافعية هذا كقول المالكية، لكنه ليس المشتهر الذي يُعامل على أنه المذهب، وذكر هذا القول مفيد في التعريف بالتجاذب الذهني للمسألة، وفي هذا حافز للتخفف من المتابعة.

---

(١) الأم، ٧٤/٣.

(٢) المنثور في القواعد، الزركشي، ٦٧/٢.
هذا التقسيم مفيد في التفرقة بين الفتوى والقضاء، غير أن دراستنا للمسألة من جهة القضاء لا الفتوى، فالمؤاخذة قضاءً هي مقصود البحث.

(٣) ينظر إلى الموقف الشافعي على أنه من قبيل التمسك بالصورية وعدم المؤاخذة بالبواعث والنوايا، ولعل ذلك ما دفع البعض لاعتبار هذا التوجه من تطبيقات الحيل، قال في طرح التثريب، ٢٠/٢: (ورأيت في كلام بعض أصحاب الشافعي ممن صنف في الألغاز أن الحيل ليس فيها منافاة للشريعة بل قد ورد الشرع بتعاطي الحيل).

(٤) الفتاوى الكبرى، ٦/ ٩٨.

(٥) طرح التثريب، الحافظ العراقي، ٢٠/٢.

في الفقه الحنبلي

يرى الحنابلة أن العقود لها مقاصد وغايات تؤثر في الحكم عليها، ومن تطبيقات هذا التقرير قولهم في الرجل يشتري شيئا، ويقول لك الخيار إلى كذا، فإذا كان قصد المشتري أن يقرض المبلغ ويأخذ منه المبيع لاستغلاله كان حيلة، وعليه يُحكم ببطلان التصرف استناداً إلى هذا التوصيف.

وفي ذلك قالوا: (إذا شرط الخيار حيلة على الانتفاع بالقرض، ليأخذ غلة المبيع ونفعه في مدة انتفاع المقترض بالثمن، ثم يرد المبيع بالخيار عند رد الثمن، فلا خير فيه؛ لأنه من الحيل)[١].

هذا مثال لعقد بيع افترض استجماعه لشروط الصحة، وأُدرج فيه شرط الخيار، والخيار كما البيع كلاهما مشروع، غير أن ما يظهر من المشروعية مقيد إطلاق حكمه بالنية والقصد.

على ذلك أكد شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] بقوله: (إذا كان قصد الطالب أخذ دراهم بأكثر منها إلى أجل والمعطي يقصد إعطاءه ذلك، فهذا ربا لا ريب في تحريمه وإن تحيلا على ذلك بأي طريق كان؛ فإنما الأعمال بالنيات)[٣].

وقال ابن القيم[٤]: (من نوى بالبيع عقد الربا حصل له الربا، ولا يعصمه من ذلك صورة البيع، وأن من نوى بعقد النكاح التحليل كان محللا، ولا يخرجه من ذلك صورة عقد النكاح؛ لأنه قد نوى ذلك، ..... فإذا نوى بالعصر حصول الخمر كان له ما نواه؛ ولذلك استحق اللعنة)[٥].

ويقررون بوضوح وبعبارات قواعدية محكمة علاقة الوسائل والأسباب بالمقصد، وأثر تلك العلاقة في الحكم.

قال ابن القيم: (لما كانت المقاصد لا يُتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها؛ فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطاتها بها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غايتها؛ فوسيلة المقصود تابعة للمقصود)[٦].

وقال أيضا: (وقاعدة الشريعة التي لا يجوز هدمها أن المقاصد والاعتقادات معتبرة في التصرفات والعبارات كما هي معتبرة في التقربات والعبادات؛ فالقصد والنية والاعتقاد يجعل الشيء حلالا أو حراما، وصحيحا أو فاسدا، وطاعة أو معصية، كما أن القصد في العبادة

---

(١) المغني، ابن قدامة، ٤٧/٦.

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، بن تيمية، شيخ الإسلام، مجتهد من أئمة المعرفة والإصلاح، توفي سنة (٧٢٨هـ) ينظر: ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب، ٤٩١/٤.

(٣) مجموع الفتاوى، ٤٣٩/٢٩.

(٤) محمد بن أبي بكر بن أيوب، الزرعي الدمشقي، الحنبلي، المعروف بابن قيم الجوزية، أصولي، فقيه، مفسر، مجتهد، تصانيفه مشهورة، برع في كثير من فنون العلم، توفي سنة (٧٥١) هـ.
ينظر: البداية والنهاية في التاريخ، ابن كثير، ١٨ / ٥٢٣؛ ذيل طبقات الحنابلة، ٥ /١٧٠.

(٥) إعلام الموقعين، ابن القيم، ٩١/٣.

(٦) المصدر السابق، ١٠٨/٣.

يجعلها واجبة أو مستحبة أو محرمة أو صحيحة أو فاسدة)[١].
نبلغ بما تقدم إلى القول إن بيع الوالد للولد صحيح شكلاً عند الحنابلة، غير أن قرينة التهمة محل نظر واسع في الحكم بصحة البيع أو فساده، وبهذا أفتى بعض الحنابلة المعاصرين[٢].
ولغلبة الوقوع عندهم دور في تأثير التهمة على تحقيق الحكم في العقد تصحيحاً أو إبطالا، جاء في المغني: (...الأصل حل البيع ، وإنما حرم في مسألة العينة بالأثر الوارد فيه ، وليس هذا في معناه؛ ولأن التوسل بذلك أكثر ، فلا يلتحق به ما دونه)[٣]

رأي ابن حزم[٤]

لابن حزم موقف يوافق ظاهريته في الاستدلال؛ فهو يرى أن العبرة بظاهر العقد، فإذا صح الظاهر بالأركان والشروط أنتج أثراً صحيحا، ولا يُنظر بعد ذلك إلى الباعث والقصد، ولا المآل، فيرى _ مثالا _ جواز أن يشتري الشيء إلى أجل ثم يبيعه من الذي اشتراه منه بأقل من الثمن.

٢ _ التقييد بإعمال سد الذرائع[٥]

في الفقه الحنفي

للحنفية اعتماد في بعض الفروع على أصل (سد الذرائع)، كقولهم في بعض مسائل الربا (ولو تبايعا فضة بفضة ..... فإن كان مما لا قيمة له كالتراب مثلا لا يجوز البيع؛ لأن الزيادة لم يقابلها عوض فتحقق الربا وإن كانت قيمته تبلغ الفضة كثوب يساوي خمسة جاز بلا كراهة، وإن لم تبلغ فهو جائز مع الكراهة ككف من زبيب أو جوزة أو بيضة، والكراهة إما لأنه احتيال

(١) المصدر السابق نفسه، ٧٩/٣.
(٢) نص السؤال وجوابه كما يلي: (أنا أعول أسرة كبيرة ولي أخوة ثلاثة، ولكن أبي قد باع مزارعه على إخوتي الثلاثة، ولعجزي عن شراء شيء منها فلم أحصل على شيء، فهل فعل والدي هذا صحيح أم أنه يحق لي المطالبة بحقي بدون شراء ولا بيع؟
الجواب: إذا كان والدك قد باع هذه المزارع على إخوتك بيعًا صحيحًا ليس فيه احتيال ولا تلجئة وإنما باعها عليهم، كما يبيعها على غيرهم بثمن كامل، ولم يترك لهم شيئًا منه، بل استوفاه فلا حرج عليه في ذلك، وليس لك حق الاعتراض؛ لأن هذا ليس فيه محاباة، وليس فيه تخصيصهم بشيء من المال دونك، أما إذا كان خلاف ذلك، بأن كان بيع حيلة، قد تسامح معهم فيه وحاباهم به فهذا لا يجوز؛ لأنه جور، لأنه يجب على الوالد أن يسوي بين أولاده بالهبة والعطية، ولا يجوز له أن يخص بعضهم دون الآخر، ...فالحاصل: أنه إذا كان البيع مستوفيًا لشروطه، ولم يحابهم بالثمن، ولم يتنازل لهم عن شيء منه، فهو بيع صحيح، وليس لك حق الاعتراض، وإن كان خلاف ذلك فهذا لا يجوز له، ويجب عليه أن يسوي بين أولاده والله تعالى أعلم).
مجموع فتاوى الفوزان، ٢/ ٥٩٤.
(٣) المغني، ٢٦٣/٦.
(٤) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، عالم موسوعي أشهر المذهب الظاهري، من تصانيفه: المحلى، توفي (٤٥٦هـ) .
ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٣/ ٢٢٧.
(٥) عُرفت الذرائع باعتبار ذاتها بأنها (ما ظاهره مباح، ويتوصل به إلى محرم)، وعُرفت بالنظر إلى أثرها بأنها (منع الجائز، لئلا يتوسل به إلى الممنوع)، ومعنى سدها: المنع من فعلها لتحريمه.
ينظر بالترتيب: شرح الكوكب المنير، ابن النجار، ٤٣٤/٤؛ الموافقات، الشاطبي، ٥٦٤/٣.

لسقوط الربا فيصير كبيع العينة في أخذ الزيادة بالحيلة، وإما لأنه يفضي إلى أن يألف الناس فيستعملوا ذلك فيما لا يجوز)[١].

غير أن سد الذرائع عندهم يعمل في أُطر يصح أن توصف بالضيق عندهم خلافاً للمالكية، ومعلوم دور سد الذرائع في الترجيح هنا؛ فمن لاحظ تجاوزات الآباء في الحيل على فرائض الميراث، وتمزيق أواصر القرابة بالبيوع لبعض الولد دون بعض رجح سد الذريعة وأبطل البيع بناءً على ذلك.

في الفقه المالكي

للمالكية ترجيح من وجه سد الذريعة واعتبار المآل أيضاً، جاء في سياق حديثهم عن بيوع الآجال أن منها ما يُحكم بفساده مع صحة ظاهره؛ (لتطرق التهمة بأنهما قصدا إلى ظاهر جائز ليتوصلا به إلى باطل ممنوع حسما للذريعة)[٢].

وتطبيقاً لذلك قالوا: كل البيوع التي (...ظاهرها الجواز ويتوصل بها إلى ممنوع فمنعها أهل المذهب وأجازها غيرهم، ويسميها أهل المذهب ببيوع الآجال)[٣].

وفي تبصرة الحكام: (.. يُمنع المسلمون من بيع آلة الحرب يعني من الحربيين، ويلحق بذلك بيع الخشبة لمن يعمل منها صليبا، وبيع الدار لمن يعملها كنيسة والعنب لمن يعصره خمرا، ... ويؤدب من يبيع آلات اللهو، ويفسخ البيع ويكسر، ويؤدب أهل ذلك، وكذلك الصور المنهي عن اتخاذها إذا كان ما فيها تبعا لها، فإن كانت تبعا كالتي في الثياب والبسط جاز)[٤].

وفسروا اعتبار حسم الذريعة من قبل المجتهد إذا وجد (...فعلًا من الأفعال يقع على وجه واحد لا يختلف إلا بالنية من فاعله، وظاهره واحد، ولم يكن لنا طريق إلى تمييز مقاصد الناس ولا إلى تفصل أغراضهم، وجب حسم الباب وقطع التطرق إليه؛ فهذا وجه بنائها على الذريعة)[٥].

وكل تصرف كان فيه وجه الاحتيال فحكمه البطلان؛ لأن (...التحيل على الأحكام الشرعية باطل على الجملة نظرا إلى المآل)[٦].

وجاء في طرح التثريب من شرح حديث (إنما الأعمال بالنيات)... (فيه حجة لمالك ومن وافقه في إسقاط الحيل، كمن ملَّك ولده أو غيره مالا له قبل الحول، أو باعه أو أتلفه أو بادل به فرارا من الزكاة، أو باع بالعينة المشهورة، أو تزوج المرأة ليحلها لزوجها، وإن لم يشترط ذلك في نفس العقد، أو ملك الدار لغير الشريك لإسقاط الشفعة، أو أوقع عقد الدار التي فيها الشفعة بثمن فيه ما تجهل قيمته كفص ونحوه، أو زاد في ثمنها وعوضه عن عشرة آلاف دينار مثلا، ونحو ذلك من الحيل المسقطة للحقوق أو الموقعة في المناهي) [٧].

في الفقه الشافعي

---

(١) العناية شرح الهداية، البابرتي، ١٤٨/٧.
(٢) جامع الأمهات، ابن الحاجب، ٣٥٢.
(٣) مواهب الجليل، ٣٨٩/٤.
(٤) تبصرة الحكام، ابن فرحون، ٢٠٠/٢.
(٥) المعونة، القاضي عبد الوهاب، ١/ ١٠٠٣.
(٦) الموافقات، ١٨٨/٥.
(٧) طرح التثريب، ٢٠/٢.

ما اشتهر عن الشافعية من إمضاء العقود على ظاهرها لا يلغي العمل بسد الذرائع عندهم، ولا يعني عدم اعتبار المآلات بإطلاق؛ فلهم فروع أقاموا الحكم فيها على اعتبار المآل وعلى سد الذريعة.

قال في الأم (... وفي منع الماء ليمنع به الكلأ الذي هو من رحمة الله عام يحتمل معنيين: أحدهما أن ما كان ذريعة إلى منع ما أحل الله لم يحل، وكذلك ما كان ذريعة إلى إحلال ما حرم الله تعالى، قال الشافعي: فإن كان هذا هكذا ففي هذا ما يثبت أن الذرائع إلى الحلال والحرام تشبه معاني الحلال والحرام، ويحتمل أن يكون منع الماء إنما يحرم؛ لأنه في معنى تلف على ما لا غنى به لذوي الأرواح والآدميين وغيرهم؛ فإذا منعوا فضل الماء منعوا فضل الكلأ، والمعنى الأول أشبه)[١].

وقال في حكم الهدايا للولاة: (..إذا أهدى واحد من القوم للوالي هدية، فإن كانت لشيء ينال به منه حقا، أو باطلا، أو لشيء ينال منه حق، أو باطل، فحرام على الوالي أن يأخذها)[٢].

في ضوء هذا لو أن فقيها شافعيا نزل هذا المبدأ على مسألة البيع من الوالد لولده؛ وقال هذا البيع وسيلة إلى حرام وما كان كذلك فهو حرام، فقطع أواصر القربى حرام، لم يكن خارجاً عن سبيل المذهب.

في الفقه الحنبلي

وفاقاً لمنهج العمل بسد الذرائع بضوابط وحدود مرسومة يذهب الحنابلة إلى أن التصرف قد يكون صحيحا في ظاهره ويحكم ببطلانه إذا كان مفضياً إلى محرم ويجمعون شواهد وتطبيقات تؤيد مذهبهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيما ورد من نهي النبي **r** عن بيع فضل الماء ليمنع به الكلأ، إنما نُهي عنه لحرمة القصد منه؛ فالشيء (...الذي هو نفسه غير محرم إذا قصد به أمر محرم صار محرما)[٣].

(وإذا نوى بالفعل التحيل على ما حرمه الله ورسوله كان له ما نواه؛ فإنه قصد المحرم وفعل مقدوره في تحصيله، ولا فرق في التحيل على المحرم بين الفعل الموضوع له وبين الفعل الموضوع لغيره إذا جعل ذريعة له، لا في عقل ولا في شرع؛ ..... فإن اليهود لم ينفعهم إزالة اسم الشحوم عنها بإذابتها فإنها بعد الإذابة يفارقها الاسم وتنتقل إلى اسم الودك، فلما تحيلوا على استحلالها بإزالة الاسم لم ينفعهم ذلك)[٤].

(١) الأم، ٥١/٤.
(٢) الأم، ٦٣/٢.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ١٨٦/٦.
(٤) إعلام الموقعين، ٩١/٣.

خب ٣_ التقييد لحفظ حق الغير

في الفقه الحنفي

إذا كان بيع الوالد لولده صوريا فهو في حقيقته هبة، وتجري عليه أحكام الهبة؛ والموقف منها ينسحب ضرورة على البيع الذي يصدر من الوالد لولده، والجامع لكل ذلك طريقة الشرع في حفظ حق الغير؛ فللوارث حق في مال مورثه يستحقه بشروطه بعد موت المورث.

ولا يخالف الحنفية في جواز الهبة للولد، ومن مقرراتهم بشأنها أن الأب (...لو نحل ابنه الصغير شيئا جاز، ويصير قابضا له مع العقد)[١]، وأما جواز العطية لبعض دون بعض فلهم فيها تفصيل:

يرى **أبو حنيفة** وجوب التسوية بين الأولاد في العطية، لكن يستثني فيرى جواز التفضيل بين الأولاد لزيادة الفضل في الدين.

ويرى **أبو يوسف:** أن العدل في ذلك أن يسوي بينهم في العطية، ولا يفضل الذكر على الأنثى.

وقال **محمد:** العدل بينهم أن يعطيهم على سبيل الترتيب في المواريث للذكر مثل حظ الأنثيين، كذا ذكر القاضي الاختلاف بينهما في شرح مختصر الطحاوي، وذكر محمد في الموطأ ينبغي للرجل أن يسوي بين ولده في النحل ولا يفضل بعضهم على بعض) [٢].

والمعتمد عندهم كما ورد في بدائع الصنائع أن الأب (..لو نحل بعضا وحرم بعضا **جاز من طريق الحكم**؛ لأنه تصرف في خالص ملكه، لا حق لأحد فيه، إلا أنه لا يكون عدلا سواء كان المحروم فقيها تقيا أو جاهلا فاسقا على قول المتقدمين من مشايخنا وأما على قول المتأخرين منهم لا بأس أن يعطي المتأدبين والمتفقهين دون الفسقة الفجرة.) [٣].

وهذا يعني أنهم يجرون العقد على ظاهره فيصح قضاءً وإن أثم الوالد ديانة، وبه يترجح موافقتهم الاتجاه الذي يتمسك بصورة العقد ولا يؤاخذ بمقاصد العاقدين ولا بمآلات التصرف.

ولو نُزل على مسألة البحث لكان مرجحاً من جهة الحنفية لجواز بيع الوالد لولده ما صحت أركان البيع وشروطه.

وهنا وازن الحنفية بين وجوب صيانة إجراءات التقاضي وصحة الفتوى، وربما انتقد عليهم هذا؛ فالفتوى إن لم يكن لها أثر في الأحكام فقدت قيمتها، وموارد النظر الفقهي تهتم بما يصلح المعاملات كما تهتم بما يصلح أمر الآخرة.

في الفقه المالكي

يرى المالكية أن العطية للولد جائزة ابتداءً ..(إذا وهب لولده هبة فإنه يجوز له أن يعتصرها منه مطلقا أي سواء كان الولد صغيرا أو كبيرا ذكرا أو أنثى غنيا أو فقيرا حيزت الهبة أم لا)[٤].

أما التفضيل بينهم فمكروه (ويُكره له أن يحرم الإناث ويعطي الذكور؛ فإن فعل جاز فعله؛ لأنه

(١) بدائع الصنائع، ١٢٧/٦.
(٢) بدائع الصنائع، ١٢٧/٦؛ وينظر: رد المحتار، ٤٤٦/٤.
(٣) بدائع الصنائع، ١٢٧/٦.
(٤) شرح الخرشي على خليل، ١١٤/٧.

ماله، يفعل فيه في صحته ما أحب، والأولى به التسوية بين ولده في العطايا كلها كما يسره أن يكونوا له في البر سواء، .. قال مالك ومن حبس وشرط أن من تزوج من بناته فلا حق لها إلا أن يردها راد نُقض ذلك حتى يرد إلى الصواب، قال مالك وفيه اختلاف، والقضاة عندنا يجيزونه ونقضه أحب إلي)[١].

يؤخذ على هذا الاجتهاد أنه لم ينفذ موجبات سد الذريعة الذي يتوسع فيه المالكية، مع أن البيع من الوالد لولده كثير الوقوع وتصدق عليه العبارة المالكية (ما كثر قصده)، كما أن هذا الرأي لم يلتفت إلى مآلات التفضيل وهي من الواضحات؛ فمما لا ريب فيه أن تفضيل بعض الولد على بعض يورث الضغائن.

وبهذا يبدو أن قول المالكية بجواز تفضيل بعض الولد في العطاء لا ينسجم مع مذهبهم في حكم البيع، ولا مع اعتبار سد الذريعة.

في الفقه الشافعي

العطية للولد جائزة عند الشافعية، وتفضيل بعضهم على بعض جائز مع الكراهة، جاء في البيان :(فإن وهب لبعض أولاده دون بعض، أو فاضل بينهم.. صح ذلك، ولم يأثم به، غير أنه قد فعل مكروها، وخالف السنة)[٢].

الكراهة هنا مدخل لإمكان بلوغ التحريم؛ فدواعيه قائمة لا سيما والتفضيل مخالف للسنة كما أكدوا؛ وربما كان وقوفهم عند مستوى القول بالكراهة لمعطيات أخرى، منها استقرار المعاملات، والثقة بالعقود والإذعان لأصول التقاضي، وهذه مقبولة لكن قابلة لإعادة النظر؛ حتى لا يُترك لأجلها ما لعله أهم منها.

في الفقه الحنبلي

لا يخالف الحنابلة بقية المذاهب في جواز العطية للولد؛ فهي جائزة بناءً على أصل حرية الأب في التصرف بماله، ويشددون في أنه (... يجب على الإنسان التسوية بين أولاده في العطية، ... فإن خص بعضهم بعطيته، أو فاضل بينهم فيها أثم، ووجبت عليه التسوية بأحد أمرين:

إما رد ما فضل به البعض، وإما إتمام نصيب الآخر) [٣]، أما عن طريقة التسوية بين الأولاد فيرون أن (...التسوية المستحبة أن يقسم بينهم على حسب قسمة الله تعالى الميراث؛ فيجعل للذكر مثل حظ الأنثيين) [٤].

يمكن أن يُقال تعقيبا على هذا: إذا كانت التسوية واجبة استناداً إلى جملة صالحة من النصوص والقواعد فكيف يصح نقضها بالبيع الصوري، فإن قيل: لا يحكم ببطلان البيع إلا بالتهمة؟

أمكن الجواب بأن مظنة التهمة غالبة في هذا النوع من التصرفات، وهذا كاف للقول بأن بيع

---

(١) الكافي في فقه أهل المدينة، ابن عبد البر، ١٠١٧/٢.

(٢) البيان، العمراني، ١١١/٨؛ وينظر: الحاوي الكبير، الماوردي، ١٣٦٣/٧.

(٣) المغني، ٢٥٦/٨.

(٤) المصدر السابق، ٢٥٩/٨، بهذا قال عطاء ، وشريح ، وإسحاق، ومحمد بن الحسن، قال شريح لرجل قسم ماله بين ولده : اردهم إلى سهام الله تعالى وفرائضه، وقال عطاء : ما كانوا يقسمون إلا على كتاب الله تعالى.
ينظر: المصدر السابق نفسه، ٢٥٩/٨.

الوالد للولد _ في الحد الأدنى _ موقوف على إجازة الورثة.

رأي ابن حزم

يرى ابن حزم جواز العطية للولد بشرط التساوي بينهم...(ولا يحل لأحد أن يهب، ولا أن يتصدق على أحد من ولده إلا حتى يعطي أو يتصدق على كل واحد منهم بمثل ذلك، ولا يحل أن يفضل ذكرا على أنثى، ولا أنثى على ذكر، فإن فعل فهو مفسوخ مردود أبدا ولا بد)[1].

ذهب ابن حزم إلى أن التفضيل مردود مفسوخ ولا بد، ثم قضى منهجه بصحة العقد المتضمن للتفضيل في صورة البيع عملاً بالظاهر.

يصل بنا هذا الموجز إلى أن المذاهب الفقهية تُجمع على جواز البيع، وتحكم له بالصحة إذا استوفى الأركان والشروط، وليس فيها ما يدل على حكم خاص بتصرفات ذوي القربى فيما بينهم لذاته، وإنما رعيت مؤثرات خارجة عن ذات البيع تباينت في تنفيذها مذاهب الفقه.

في مسألة (البيع من الوالد لولده) إذا نص الأب أو الأم على أن البيع الصادر منهما رعاية لعرف أو عادة أو خشية انتقال مال العائلة بالوراثة إلى آخرين بالمصاهرة وما أشبه ذلك، فلا شك أن هذا البيع باطل عند الجميع، وربما استثنينا ابن حزم لتوسعه في العمل بظاهر العقد.

وهذه صورة مفترضة، لكن الواقع في حياة الناس صحة البيع في الظاهر مع خفاء القصد منه، وفي هذه الصورة ذهب المالكية إلى حسم الذريعة وعد البيع باطلاً، واقترب منهم الحنابلة لكنهم علقوا البطلان بتحقق التهمة، فهم يفسحون المجال للنظر في القرائن المثبتة أو النافية للتهمة.

وذهب الحنفية والشافعية إلى صحة البيع ابتداءً، غير أنهم راعوا جانب التهمة على صورة أضيق من الحنابلة، ولعل ذلك من جهتهم حفظاً لاستقرار المعاملات وتحقيق الثقة بالعقود.

وذهب ابن حزم الظاهري إلى أن النظر يكون لظاهر التصرف لا للباعث والنية والقصد، فمهما كان القصد فلا عبرة به ولا أثر له.

السؤال بعد هذا العرض، ما الأقرب لتحقيق مقاصد الشرع والأسعد بالدليل والتعليل؛ هل يحكم بصحة البيع الصادر من الوالد للولد، وتُغلق نوافذ المقصد والباعث والنية، ولا يُنظر إلى المآل، ولا يركن إلى الذرائع والوسائل، ولا تنفذ موجبات العموم التعاضدي لنصوص لا تخلو دلالاتها من مرجح معتبر، فقط لاعتبار استقرار العقود؟

أم تُقرأ المسألة في ضوء كل تلك الاعتبارات؟ هذا ما يسعى الدرس إلى الإجابة عنه في مساق العرض الآتي:

(١) المحلى، ٩٨/٨.

٤_ التقييد بالدلالات التعاضدية للنصوص

مفهوم الدلالة التعاضدية

غاية النص الشرعي في باب الأحكام أن يدل على مراد الشرع تصريحاً أو تلميحا، بمنطوقه أحيانا وبمفهومه أخرى، ومن المقطوع به أن نصوص الشرع تتكامل دلالاتها ولا تتناقض؛ وكل اجتهاد في تفسير النص أو تأويله يجب أن ينسجم مع دلالات النصوص الأخرى وما تدل عليه.

قال ابن القيم: (وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح، والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الفاسد، ولا فرق بين باب الخبر والأمر في ذلك)[١].

وفي هذا بيان التعاضد العضوي بين النصوص الشرعية، وهو ما يجب على المجتهد بالتأويل الإذعان لموجباته؛ فكل تأويل يناقض مخرجات نص وإن في سياق مختلف فهو تأويل باطل لا اعتبار له، وهذا من أدق ضوابط التأويل.

والدلالة التعاضدية ثمرة تكامل نصوص متعددة لتثبيت معنى معين، أو هي الفهم المستخرج من ظواهر النصوص وخفاياها وإن اختلفت موضوعاتها، وهذا ما عبر عنه الشوكاني[٢] _كأنموذج _ في مضمار شرحه لحديث معاذ رضي الله عنه بقوله: (أجتهد رأيي، بعد عدم وجوده لذلك الحكم في الكتاب والسنة، وما دلت عليه النصوص الخفية)[٣].

قد تكون الدلالة التعاضدية مباشرة يحكم بها من تكرر معنى مشترك في أكثر من نص، وهذه عبر عنها الفقهاء بتوافق مجموع النصوص.

مثال ذلك قول الشوكاني في حكم المني _ من جهة غسله أو فركه _ بعد أن نظر في نص يُفهم منه غسله من الثوب وآخر يُفهم منه الكفاية بفركه (فقد بان من مجموع النصوص جواز الأمرين)[٤].

فقوله: جواز الأمرين، حكم مستفاد من دلالتين في الظاهر، الأولى قالت بالغسل والثانية قالت بالفرك، فهما دلالتان مشتركتان في محل واحد، جُمع بينهما لإنتاج الحكم.

وقد تكون الدلالة التعاضدية غير مباشرة، فتستخرج دلالة من نص لتفسر نصا آخر، مثاله قول الشافعي: (ودل النبي على ما يكون منه الوضوء، وما يكون منه الغسل، ودل على أن الكعبين والمرفقين مما يغسل؛ لأن الآية تحتمل أن يكونا حدين للغسل، وأن يكونا داخلين في الغسل. ولما قال رسول الله (ويل للأعقاب من النار[٥]) دلَّ على أنه غسل لا مسح)[٦].

---

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم، ١/ ١٨٧.

(٢) محمد بن علي الشوكاني، نسبة إلى هجرة شوكان باليمن، برع في تحصيل العلوم، وتحققت فيه شروط الاجتهاد، من مصنفاته: نيل الأوطار، توفي بصنعاء سنة (١٢٥٠) هـ.
ينظر: البدر الطالع، الشوكاني، ٢/ ٢١٤؛ التاج المكلل، القنوجي، ٤٤٣.

(٣) إرشاد الفحول، ١٠٠/٢.

(٤) نيل الأوطار، ١/ ٧٤.

(٥) الحديث أصله في البخاري، برقم (١٦٣)؛ وفي صحيح مسلم، برقم (٢٥).

(٦) الرسالة، الشافعي، ٢٨.

نص القرآن فهم منه غسل الرجلين إلى الكعبين وغسل اليدين إلى المرفقين، ثم بالجمع بين هذا المقرر وبين قوله (ويل للأعقاب من النار)، فُهم دخولهما في الغسل لا كونهما حدين غير مشمولين بالغسل، وأن الفرض غسل لا مسح.

والدلالات المجتمعة للنصوص تصوغ تصورا عن تصرفات الشرع التي تُعرف بالاستقراء؛ فيحكم لأمر بالجواز أو الحظر بناءً على ذلك.

قال الغزالي: (فكل مصلحة لا ترجع إلى حفظ مقصود فُهم من الكتاب والسنة والإجماع وكانت من المصالح الغريبة التي لا تلائم تصرفات الشرع فهي باطلة مطرحة)[١].

يضاف إلى ذلك ما قرره الفقهاء من معاملة المكلف بنقيض قصده، وهو نظر يرد في سياق مراعاة تصرفات الشرع ومقاصده، قال الغزالي: (المطلقة ثلاثا في مرض الموت ترث؛ لأن الزوج قصد الفرار من ميراثها فيعارض بنقيض قصده)[٢].

فلما كان الفعل توسلا بتصرف يحول دون ثبوت الحكم بالوراثة أبقى الاجتهاد حكم الميراث المستفاد من نصوص القرآن وألغى التصرف بالطلاق مراعاة لتصرفات الشرع في العدل والإنصاف وحفظ الحقوق.

وإذا قرر الشرع ما يطلق عليه بلغة العصر مبدأ من المبادئ وجب التوفيق بينه وبين ظواهر النصوص التي تحكم قضايا مشابهة حتى لا تتعارض الدلالات؛ لأن تعارضها عبث، (والعبث في تصرفات الشارع ممتنع)[٣].

يرد هذا التقرير من وجه آخر مندرجاً في الوصف المناسب المرعي في نوط الحكم به، قال الغزالي: (وإلى مثل هذا، ترجع تصرفات الصحابة **y** إذا سبرت مسائلهم؛ فقد تكلموا في مسألة الجد مع الأخ، وليس فيها نص؛ واحتمل التقديم، واحتمل التشريك، فعلموا أن الشارع في الترجيح والتسوية يلاحظ مراتب القرب، فقالوا: الجد أب الأب، والأخ ابن الأب؛ فكل واحد يدلي بواسطة واحدة، والواسطة الأب؛ فاستويا: فيشركان،.....وكل ذلك عُرف من عادة الشرع اعتبارها، وملاحظة جنسها. وإنما تترجح جهة الاعتبار على جهة التعطيل والإهمال، بملاحظة العادة المألوفة؛ وليس ذلك إلا بالملاءمة)[٤].

كانت هذه إطلالة تشير إلى ما يهدف للكفاية بمطلب النظر في موضوع الدلالة التعاضدية للنصوص والتنبيه على تأثيرها في الفتوى بما يناسب الحال والمقال.

وهذه نماذج تنفيذية لشذرات من النصوص ذات البعد الدلالي في موضوع الدرس، يمكن الترجيح بها.

١ _ لتكن البداية من تهمة حرمان بعض الورثة من المال فهي من الأوصاف المؤثرة في تحرير حكم بيع الوالد لولده، وهنا يمكن إعمال النصوص المحرمة للحيل، وعدها دليلا على ترجيح القول بمنع بيع الوالد لولده إلا في أحوال استثنائية.

---

(١) المستصفى، ١٧٩.
(٢) المصدر السابق، ٣١٢.
(٣) الإحكام، الآمدي، ٤/ ١٩٨ .
(٤) شفاء الغليل، الغزالي، ١٩٢.

من هذه النصوص قوله r : (لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة)[١]، وقوله r : (لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها، فباعوها)[٢].

في الحديث الأول نهي صريح عن التوسل بالجمع أو التفريق لتفويت قدر النصاب في الزكاة، وهو نفس المعنى في التوسل بالعقد لجمع المال لأحد الوارثين دون الباقين.

وفي الحديث الثاني تقبيح لفعل اليهود لما احتالوا على حرمة أكل الشحوم بجمعها وبيعها وأكل ثمنها؛ وهي وسيلة صورتها الصحة وباطنها يفضي لفعل المحرم؛ فلا فرق بين أكل الشحم أو أكل ثمنه في الانتفاع.

٢_النصوص الواردة بتحريم تفضيل بعض الولد على بعض في العطايا[٣] تنجز بمجموعها دليلاً قويا يترجح به القول ببطلان بيع المورث لوارثه إذا لم تنتف التهمة.

قال الشوكاني: (الأدلة القاضية بتحريم تخصيص بعض الأولاد بشيء دون البعض الآخر أوضح من شمس النهار، فمن ذلك أنه r في هبة بشير لولده النعمان[٤] دون سائر أولاده قال: (له إخوة؟)، قال: نعم قال: (فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته؟)، قال: لا قال: (فليس يصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق)، ..... وفيه التصريح بأن ذلك لا يصلح في الشريعة المطهرة وهو معنى بطلانه وفيه أيضا التصريح بأنه غير حق، وغير الحق باطل.

وفي لفظ عند أحمد من هذا الحديث أنه r قال: (لا تشهدني على جور)، فسماه جورا، والجور باطل، وهذه الألفاظ هي في حديث جابر الذي حكى فيه قصة هبة النعمان من أبيه بشير، وفي الصحيحين ..... من حديث النعمان نفسه قال إن أباه أتى به رسول الله r فقال إني نحلت ابني هذا غلاما كان لي فقال رسول الله r : (أكل ولدك نحلته مثل هذا؟) قال: لا، قال: (فأرجعه).

ففي هذا الأمر بإرجاع الهبة، وليس على هذا زيادة،... والحاصل أنه ليس في المقام ما يدفع ما ذكرناه من الروايات الدالة على تحريم التخصيص وأنه باطل مردود غير حق)[٥].

٣_ النصوص الآمرة بصلة الرحم والقريب، وهي نصوص وافرة استعمل الفقهاء دلالتها بالمجموع لترجيح القول ببطلان التصرفات المالية للوارثين، وفي هذا قرر بعض الفقهاء في معرض مناقشة مسألة العطية لبعض الولد أن (..إعطاء بعضهم دون بعض يؤدى إلى قطع الرحم والعقوق، **فيجب أن يكون محرمًا ممنوعًا منه**؛ لأنه لا يجوز عليه r أن يحث على صلة الرحم ويجيز ما يؤدى إلى قطعها)[٦].

---

(١) صحيح البخاري، برقم (١٤٥٠).

(٢) صحيح البخاري، برقم (٣٤٦٠)؛ صحيح مسلم، برقم (١٥٨٢).

(٣) اختلف العلماء في الرجل ينحل بعض ولده دون البعض؛ فمذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة، والليث وَالثَّوْرِيُّ وداوود أنه مكروه، وحرمه طاووس، وقال: لا يجوز، ولا رغيف محرق، وهو قول عروة، ومجاهد، وبه قال أحمد وإسحاق، ينظر:التمهيد، ابن عبد البر، ٢٢٥/٧؛ شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٩٨/٧؛ شرح النووي على صحيح مسلم، ٦٦/١١.

(٤) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة، الأنصاري، الخزرجي، أول مولود في الإسلام من الأنصار، عاش في الشام والكوفة، وقتل بحمص سنة (٦٥هـ).
ينظر: الإصابة، ابن حجر، ٣٤٦/٦.

(٥) السيل الجرار، الشوكاني، ٦٣١/١.

(٦) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٩٩/٧.

وتطبيقاً للثابت في أصول المنهج الفقهي أن ما أدى إلى الحرام كان حراما قرر الفقهاء أن (قطع الرحم والعقوق محرمان؛ فما يؤدي إليهما يكون محرما، والتفضيل مما يؤدي إليهما)[١].

٤_ النصوص الناهية عن التباغض والتدابر، ووجه المناسبة أن عاقبة التصرفات المالية للوارث قد تفضي إلى تعاظم السخائم في القلوب بين الأقربين، وفي ذلك قالوا:(...التفضيل يؤدي إلى الإيحاش والتباغض، وعدم البر من الولد لوالده)[٢].

والتباغض يعزز في النفوس القطيعة والتدابر، وهو ما أشار إليه البعض فعد رد هذا التصرف سببه ما (... جبل الله النفوس عليه من الغضب عند أثرة الآباء بعض بنيهم دون بعض)[٣].

٥_ النصوص الآمرة بالعدل، وهي كثيرة ووجه دلالتها أن البيع الصوري للولد يعارض ما أمر الله به من العدل ويفضي إلى تعطيل النصوص الآمرة به، كقوله تعالى: Mوَإِذَا حَكَمْتُم ´ µ ¶ ¸ بِٱلْعَدْلِ L النساء: ٥٨، وقوله سبحانه: M [^ _ ` a b c d e f g h i j k l m n o p q r s L { z y x v u t النحل: ٧٦.

وقوله جل جلاله: M K L M N L النحل: ٩٠، وقوله سبحانه: Mوَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ © ٱلْمُقْسِطِينَ L الحجرات: ٩.

وإذا كان الشرع يؤسس لعدل لا يشوبه حيف فإن القول بمشروعية بيع الوالد للولد لا يخلو في الأغلب من ظلم، ومهما كانت صور الظلم ومراتبه فهو محرم، والوسائل إليه محرمة.

(..عن أنس، قال: كان مع رسول الله r رجل، فجاء ابن له، فقبله وأجلسه على فخذه، ثم جاءت ابنة له، فأجلسها إلى جنبه، قال: (فهلا عدلت بينهما)، أفلا ترى رسول الله r أراد منه التعديل بين البنت والابن، وألا يفضل أحدهما على الآخر)[٤]، فإذا كان العدل مطلب في أقل الأمور فكيف بأجلها؟

٦_ النصوص المحرمة للظلم الدالة على ما ينتظر الظالمين من العقوبة، قال تعالى: M u v w x y z { | } ~ ٱلظَّٰلِمِينَ L الأعراف: ٤١؛ وقال سبحانه: M© ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ L إبراهيم: ٢٢؛ وقال M k l m n o p q r L مريم:

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٢١٤/٥.
(٢) إحكام الأحكام، ابن دقيق العيد، ١٥٤/٢.
(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ١٠٠/٧.
(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ١٠٠/٧؛ والحديث في: معجم ابن الأعرابي، برقم (١٨٤٤)؛ شعب الإيمان، البيهقي برقم (٨٧٠٠)؛ وشرح معاني الآثار، للطحاوي، برقم (٥٤٠٧)؛ وقال الألباني: حسن الإسناد.

٧٢؛ وقال سبحانه:M وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ´ µ ¶ L الشورى: ٢١

وما وجب عليهم من الطرد من رحمة الله، قال سبحانه: M 7 8 9 : ; < = > L الأعراف: ٤٤؛ وقال تبارك وتعالى:M A B C D E F G H L غافر: ٥٢

وما نزل بهم من الحرمان من الهداية، قال جل جلاله:M وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ L التوبة: ١٩؛ وقال سبحانه:M I J K L إبراهيم: ٢٧، وأمثالها من النصوص كثير.

٧_ ثمت نصوص أخرى تعارض فروضها ومخرجاتها القول بجواز بيع الوالد للولد مع قرائن التهمة، تلك نصوص الميراث؛ فالقول بجواز هذا التصرف مطلقاً قد يؤسس لنقض قانون الميراث بالحيلة والخروج عليه بما تعدد من الوسيلة، ويمكن أن يفضي إلى نسف أقضية الميراث القطعية؛ فعوض أن يكون لكل وارث نسبة ثابتة يصبح تجاوز تلك النسبة ممكناً بالبيع أو الهبة أو النذور بالأموال.

ونصوص الوراثة حدود لا يجوز تجاوزها لا صراحة ولا بالحيل، قال تعالى بعد ضبط نسب الوراثة: M تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ´ µ ¶ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ L النساء: ١٣.

٨_ قوله r: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث)[1].

وجه الاستدلال بهذا النص هنا اتفاق علتي المنع في الفرعين، والقول بصحة بيع الوالد للولد بإطلاق دون تفصيل يعارض دلالة المنع في الوصية للوارث.

وحاصل ما تقدم أن ما ورد في الكتاب والسنة من النصوص الآمرة بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنصوص الآمرة بصلة الأرحام، والنصوص المحرمة للظلم بكل صوره، والنصوص التي تندب إلى مكارم المعاملات وتنهى عن التدابر والتباغض، والنصوص المحددة لأنصباء الورثة، وما ورد في منع الوصية للوارث، ومنع تفضيل بعض الولد على بعض في العطاء، وما لاحظ الفقه من آثار التهمة في التصرفات.

كلها في دلالتها التعاضدية ترجح القول بحرمة بيع الوالد للولد مع قيام القرينة على صورية البيع، أو المحاباة فيه، وتقوي وجهة القول بفرض قيود على بيع الوالد لولده لعسر إثبات الصورية.

تجتمع هذه الشواهد لتثبت مقاصد الشرع في وجوب العدل ورفع الظلم وردم فجوات التباغض والتدابر والتقاطع، ووجوب صون المودة في القربى، وقطعية مقادير الميراث ونسبها، وحكمة

(١) سنن أبي داوود، برقم (٢٨٧٠)؛ سنن الترمذي، برقم (٢١٢٠)؛ سنن ابن ماجه (٢٧١٣).

الله في تقسيمها، وحرمة الحيل المفضية إلى المحرمات، وحرمة الوصية للوارث والبيع الصوري للوارث وصية في صورة بيع، كل هذه الثوابت تنتج دلالة تقول بيع الوالد للولد لا يصح إذا كان صوريا، وينبغي أن يقيد بشروط تنفي عنه التهمة.

وتماماً على ذلك فمن باع لوارث دون سائر الورثة بقصد إيثاره بالمال، أو جرياً على عادة أو طريقة تحول دون انتقال المال إلى بعض الوارثين، أو لوازع من الهوى فقد اقترف عظيمة من الإثم، وخالف الشرع واستوجب العقوبة، قال في الموافقات: (قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقا لقصده في التشريع، والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة؛ إذ قد مر أنها موضوعة لمصالح العباد على الإطلاق والعموم، والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، وأن لا يقصد خلاف ما قصد الشارع؛ ولأن المكلف خلق لعبادة الله، وذلك راجع إلى العمل على وفق القصد في وضع الشريعة -هذا محصول العبادة-؛ فينال بذلك الجزاء في الدنيا والآخرة)[1].

ولا ريب أن تصريف المال لوارث دون شركائه يقطع المودات ويجرح الأفئدة، ويفسد حياة الأقربين بالضغائن، وليس بعد هذا فساد، ومن مقررات الشرع درء الفساد، وتحقيق الصلاح، ومن اقترف حيلة ثبت بها المفاسد فقد خالف الشريعة (...فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له؛ فعمله باطل، ...فإن المشروعات إنما وضعت لتحصيل المصالح ودرء المفاسد، فإذا خولفت لم يكن في تلك الأفعال التي خولف بها جلب مصلحة ولا درء مفسدة)[2].

زد على ذلك أن من قواعد الموازنة والترجيح قاعدة (إذا تعارض المانع والمقتضي يقدم المانع)[3].

وهي قاعدة معللة بالمعهود من تصرفات الشرع فاعتناؤه بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات، ومقتضى التصرف بالبيع قائم مستند إلى أصل حل البيع ويد المالك صحيح الملك على ماله، والمانع هو جملة المستخرجات الدلالية آنفة السرد.

وتقديم المانع هنا يؤكد بطلان البيع الصادر من الوالد لولده، غير أن ثمت معنى يحول دون العمل بهذا الإطلاق، هو أن المانع مظنون، فالمعلوم بالعادة أن الحاجة ربما دعت لإبرام عقد بيع من الأب للابن بيعاً صحيحاً لا تهمة فيه.

من صوره أب نزل به غُرم فتحمله أحد الأبناء وتخاذل البقية لفقر أو إهمال، وأراد الأب إنصاف ولده فخصه بمبيع تم فيه تقييم ما قدمه ووزنه بثمن الزمان والمكان، واكتملت فيه

(١) الموافقات، الشاطبي، ٢٣/٣.
(٢) المصدر السابق، ٢٨/٣.
(٣) من قواعد الترجيح ومن تطبيقاتها: لو استشهد الجنب فالأصح أنه لا يغسل، ومنها لو استاك الصائم لتغير فمه بسبب غير الصوم لا يكره، والقياس من هذه القاعدة الكراهة، ولو ضاق الوقت أو الماء عن سنن الطهارة: حرم فعلها، ومنها: ما لو ضم ما لا يحل بيعه كالخنزير إلى ما يحل في صفقة واحدة يفسد البيع، ومنها: منع المؤجر عن التصرف في العين المأجورة بما يمس حق المستأجر، تقديما للمانع وهو حق المستأجر.
ينظر: المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي، ٣٤٨/١؛ الأشباه والنظائر، السيوطي، ١١٥؛ شرح القواعد الفقهية، الزرقا، ٢٤٤.

شروط صحة البيع.
الوجه الحقيقي لهذا المثال يوجه القول بصحة البيع لانتفاء التهمة، وقيام المقتضي في مقابلة مانع ظني، لكن يبقى سؤال: ألا يمكن أن تكون هذه الصورة وأشباهها مداخل حيلة لجمع المال لوارث وحرمان شركائه؟
للخروج من هذا الإشكال يقضي النظر الموافق لأصول الدليل أن يحكم بصحة البيع مقيداً بقيدين:
الأول: ظهور ضرورة للشراء من جهة الابن كأن يكون المبيع في أملاكه الخاصة له ويضره أن يصرف بالبيع لغيره كأرض أو بناء له به ارتفاق أو جوار، أو داخلاً في مهنته كآلات مصنع لمحترف الصناعة ومكتبة لمشتغل بالعلم وما في حكم ذلك، على أن لا يشركه في الضرورة أحد من شركائه في الميراث.
الثاني: شهود الورثة للبيع وإقرارهم بتقديم المشتري لمسوغ البيع المذكور في العقد.
بهذين القيدين يسد باب الحيلة في عقود البيع وتُدفع التهمة ويُنزع فتيل التقاطع والتدابر، ويبقى التيسير في التصرف مفتوحا للأب فإن احتاج للبيع فحاجته مقضية بقبض الثمن ولا يهمه بعد ذلك أن الثمن دفعه ابنه فلان أو اشترك فيه أبناؤه كلهم فأسعدوه بالانتفاع بالثمن وسعدوا هم ببقاء المودات بينهم.
وليس للأبناء معارضة البيع الخاص لأحدهم فيما إذا كان المبيع لصيق بحاجته دونهم وبثمن المثل وبشهودهم له، هذا إضافة إلى شرط خلو العقد من قوادح الصحة المعروفة في سائر العقود.
ولا ينبغي ترك الحكم في هذه المسألة للسلطة التقديرية للقاضي لتحري وقوع التهمة؛ فهذا باب مفسدة أخرى، بها يطول التقاضي، ويتبارى الخصوم لتزيين القرائن كل بحسبه، ويقضي النظر الصحيح أن ينص على قيود عقد البيع من الوالد لولده، وعلى القاضي تنفيذها[1].
والحكم في المسألة بهذه القيود نظم من مشكاة الشريعة يحقق مقاصدها ويحفظ الحقوق ويقيم العدل ويحول دون ظلم القطيعة، ويحمي حوزة الجماعة، ويرفع الحرج عن المفتي والقاضي إذا صرح بتقييد بيوع الوالدين بهذين القيدين.

خاتمة

تتفق المذاهب الفقهية الكبرى على صحة البيع الصادر من كل ذي أهلية صحيح الملك، ولا تشرط انتفاء القرابة بين البائع والمشتري؛ عملاً بأصل حل البيع وحرية تصرف المالك بالمال.
غير أن حكم الأصل في ذاته يختلف عنه في مآله وآثاره، كما تؤثر فيه الوسائل والمقاصد، ولما كان البيع للولد الوارث محل تهمة ووسيلة للخروج عن قانون الميراث وناقضاً لمقاصد الديانة بأكثر من وجه وجب التحري في إطلاق القول بجوازه.
لأجل ذلك كان تحرير موقف الفقه من أثر الباعث والتهمة والمآل من جهة، وسد الذرائع وحفظ

(١) يكون هذا في أنظمة تقنن أحكام الشريعة، وتحول مخرجات الفقه إلى صيغ قانونية يلزم بها القاضي، وفي حال القضاء ذي المصدرية المباشرة من مدونة الفقه على القاضي التحقق بالرأي الذي يجمع دلالات النصوص ويحقق مقاصد الشرع، وحينها سيكون اجتهاده شرعيا لا قادح فيه.

حق الغير من جهة أخرى حاكماً في تحرير القول في المسألة.
ومع اتفاق الفقهاء على أثر الباعث والمآل في الحكم إلا أنهم اختلفوا في تنزيل أثرهما في جانب التطبيق؛ فرأى الشافعية وابن حزم صحة العقود إذا استكملت شروطها مهما تكن المقاصد منها، وتردد الشافعية في مآل العقد.
ولازم ذلك أن البيع من الوالد لولده صحيح ابتداءً؛ ومع هذا بقيت مسالك النظر في التهمة مفتوحة تضيق عند فريق وتتسع عند آخر.
ورأى المالكية أن حسم الذريعة أولى لحفظ الحقوق ومنع الحيل، ولازم قولهم أن البيع من الوالد لا يصح لأنه مظنة التهمة.
ووافق الشافعية ما عليه الحنفية بالجملة، فصححوا العقد ابتداءً ولم ينكروا أثر التهمة على البيع، لكنهم علقوا ذلك بتحققها لا الكفاية بالظن بها.
وذهب الحنابلة إلى ما ذهب إليه الشافعية في صحة العقد وخالفوهم في إبطاله بالتهمة فتوسعوا في ذلك من جهة التوسع في توصيف التهمة بحسب ما يغلب اشتماله على الحيلة من التصرفات.
ولابن حزم طريقة تنسجم مع ظاهريته؛ فهو يرى أن العقد يحكم بصحته بناءً على ظاهره، من غير بحث في النوايا والبواعث.
تفتح دلالة تقييد الجواز مسلكا ترجيحيا يستحضر قدرا مساعدا من المعطيات المشتركة الكاشفة لوجوه من المعنى، كما تساعد على السبر والتقوية والتضعيف والموازنة والترجيح، وبها يمكن ترجمة المجملات في الكتابة الفقهية، وتظهير المسكوت عنه.
من قيود الجواز الدلالات التعاضدية للنصوص العاملة حال كون النص المعتمد عليه ظني الدلالة يتسرب إليه الاحتمال، والتحرير المبعوث من منصة الدلالات المتعاضدة في مسألة بيع الوالدين للأبناء يتيح للباحث وضع قيود على عقد البيع من الوالد لولده المستحق للوراثة، تلتحم بالفتوى ولا تُفصل عنها، وهي مورد صحيح لتقنين الحكم الشرعي في الأنظمة القضائية المسيرة بآلة تقنين الأحكام الشرعية، وتقدم ورقة فقهية تساعد القاضي والمفتي في التصور التفصيلي لأبنية القول في المسألة في الأنظمة القضائية ذات النزع المباشر من مدونات الفقه.
ولا يصح في النظر أن يبادر القانون لفصل المنازعات في المعاملات بمواد مقننة قطعية المراد ويعزل الفقه عن ذلك اكتفاء بسلطة القاضي التي تفتح بابا واسعاً لإطالة التقاضي وفي ذلك ما فيه من المشقة والعنت L X W V U T S RM المائدة: ٦.

ثبت المراجع

- إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، توفي،(٧٠٢ ه)، مطبعة السنة المحمدية، ط.د، ت.د.

- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن أبي علي، الآمدي، توفي (٦٣١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط.د،ت.د.

- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي، الشوكاني، توفي (١٢٥٠هـ)، تحقيق: أحمد عزو عناية، دمشق، دار الكتاب العربي، ط. الأولى، ت/ ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

- الْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِيْ حَنِيْفَةَ، زين الدين بن إبراهيم، المعروف بابن نجيم، توفي (٩٧٠هـ)، وضع حواشيه زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ت/ ١٤١٩ هـ = ١٩٩٩ م.

- الأشباه والنظائر، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، السيوطي، توفي (٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، ط: الأولى، ت/ ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.

- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، توفي (٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ت/ ١٤١٥ هـ.

- الأصْلُ، محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، توفي (١٨٩ هـ)، تحقيق: د/ محمَّد بوينوكالن، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ت/ ١٤٣٣ هـ = ٢٠١٢ م.

- إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

- الأم، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، المطلبي، توفي (٢٠٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط.د،ت/ ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.

- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، توفي (٧٧٤هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط، الأولى، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد، الكاساني، الحنفي، توفي (٥٨٧هـ)، دار الكتب العلمية، ط: الثانية، ت/ ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، توفي (١٢٥٠هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط.د،ت.د.

- البيان في مذهب الإمام الشافعي، أبو الحسين، يحيى بن أبي الخير بن سالم، العمراني، اليمني الشافعي، توفي (٥٥٨هـ)، تحقيق: قاسم النوري، دار المنهاج، جدة، ط: الأولى، ت/ ١٤٢١ هـ= ٢٠٠٠ م.

- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، توفي (١٢٠٥هـ)، تحقيق مشترك، دار الهداية، ط.د،ت.د.

- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، أبو الطيب محمد صديق خان، توفي(١٣٠٧هـ)، وزارة الأوقاف، قطر، ط. الأولى، ت/ ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧ م.

- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين، اليعمري، توفي (٧٩٩هـ)، مكتبة الكليات الأزهرية، ط: الأولى، ت/ ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

- تذكرة الحفاظ، شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، الذهبي، توفي (٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ت/ ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م.
- التلخيص في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، الجويني، أبو المعالي، الملقب بإمام الحرمين، توفي (٤٧٨هـ) تحقيق: عبد الله النبالي وبشير العمري، دار البشائر، بيروت، ط.د،ت.د.

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر، يوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، توفي (٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى العلوي، وزارة الأوقاف، المغرب، ط.د،ت/ ١٣٨٧ هـ.

- جامع الأمهات، عثمان بن عمر، جمال الدين ابن الحاجب، الكردي، توفي (٦٤٦هـ)، تحقيق: أبو عبد الرحمن الأخضري، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية، ت/ ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله **r** وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل، البخاري، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ت: ١٤٢٢هـ.

- جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، محمد بن أحمد، المنهاجي،توفي (٨٨٠هـ)، تحقيق: مسعد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.الأولى، ت/ ١٤١٧ هـ

= ١٩٩٦ م.

- حاشيتا قليوبي وعميرة، أحمد سلامة القليوبي، وأحمد البرلسي عميرة، دار الفكر، بيروت، ط.د،ت/ ١٤١٥هـ=١٩٩٥م.

- الحاوى الكبير، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، البغدادي، الشهير بالماوردي، توفي (٤٥٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ط.د،ت.د.

- ذيل طبقات الحنابلة، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، توفي (٧٩٥هـ)، تحقيق: د/ عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط.الأولى، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٥ م.

- رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز، ابن عابدين، توفي (١٢٥٢هـ)، دار الفكر،بيروت، ط: الثانية، ت/ ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

- الرسالة، محمد بن إدريس، الشافعي، توفي (٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، ط.د،ت.د.

- روضة الطالبين وعمدة المفتين، محيي الدين، يحيى بن شرف النووي، توفي (٦٧٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط.د، ت/ ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، توفي (٢٧٣هـ)، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط.د، ت.د.

- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير، السِّجِسْتاني، توفي (٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط:الأولى، ت/ ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩ م.

- سنن الترمذي (الجامع)، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى، الترمذي، توفي (٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨ م.

- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، محمد بن علي، الشوكاني، توفي (١٢٥٠هـ)، دار ابن حزم، ط: الأولى، ت.د.

- شرح التلقين، محمد بن علي بن عمر، التَّمِيمي، المازري، المالكي، توفي (٥٣٦هـ)، تحقيق: محمَّد المختار السّلامي، دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى، ت/ ٢٠٠٨ م.

- شرح القواعد الفقهية، أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، توفي (١٣٥٧هـ)، صححه وعلق عليه: مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم، دمشق، ط: الثانية، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

- شرح الكوكب المنير، محمد بن أحمد بن عبد العزيز، الفتوحي، ابن النجار، الحنبلي، توفي (٩٧٢هـ)، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط: الثانية، ت/ ١٤١٨هـ = ١٩٩٧ مـ.

- الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، توفي (١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، ط: الأولى، ت/ ١٤٢٢ = ١٤٢٨ هـ.

- شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف، ابن بطال، توفي (٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم، ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط: الثانية،ت/ ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.

- شرح مختصر خليل، محمد بن عبد الله الخرشي، المالكي، أبو عبد الله، توفي (١١٠١هـ)، دار الفكر، بيروت، ط.د، ت.د.

- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، توفي (٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ.

- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، توفي (٧٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناحي، و عبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، ط.الثانية، ت/ ١٤١٣هـ.

- طرح التثريب في شرح التقريب زين الدين، عبد الرحيم بن الحسين العراقي، توفي (٨٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي)، ت.د.

- العدة شرح العمدة، عبد الرحمن بن إبراهيم ، المقدسي، توفي (٦٢٤هـ)، دار الحديث، القاهرة، ط. د، ت/ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣ م.
- العدة في أصول الفقه، القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء، توفي (٤٥٨هـ)، تحقيق: أحمد بن علي بن سير المباركي،ط: الثانية، ت/ ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م.

- فتح العزيز بشرح الوجيز، (الشرح الكبير)، عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، توفي (٦٢٣هـ)، .: دار الفكر، ط.د،ت.د.

- كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن الحصني، توفي

(٨٢٩هـ)، تحقيق: علي عبد الحميد بلطجي ومحمد وهبي سليمان، دار الخير، دمشق، ط، الأولى، ت: ١٩٩٤م.

- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى، الكفوي، أبو البقاء، الحنفي، توفي (١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط.د،ت.د.

- المبسوط، محمد بن أحمد بن أبي سهل، شمس الأئمة، السرخسي، توفي (٤٨٣هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط.د، ت.د ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، توفي (٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة النبوية، السعودية، ط.د،ت/ ١٤١٦هـ=١٩٩٥م.

- المحلى بالآثار، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الأندلسي، القرطبي، توفي (٤٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت، ط.د، ت.د.

- مختصر خليل، خليل بن إسحاق بن موسى، الجندي، المالكي، توفي (٧٧٦هـ)، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى، ت/ ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥مـ.

- المدونة، مالك بن أنس بن مالك بن عامر، الأصبحي، توفي (١٧٩هـ)، دار الكتب العلمية، ط: الأولى، ت/ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- المستصفى، محمد بن محمد، الغزالي، توفي (٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ت/ ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله r ، مسلم بن الحجاج النيسابوري، توفي(٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط.د،ت.د.

- المعونة على مذهب عالم المدينة، عبد الوهاب بن علي بن نصر، توفي (٤٢٢هـ)، تحقيق: حميش عبد الحقّ، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة، ط. د، ت.د.

- المغني، عبد الله بن أحمد، ابن قدامة، المقدسي، توفي (٦٢٠هـ)، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، وعبد الفتاح الحلو، ط: عالم الكتب، الرياض، ط: الثالثة، ت/ ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- المقاييس في اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، القزويني الرازي، أبو الحسين، توفي (٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط.د،ت/ ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

- المنثور في القواعد الفقهية، بدر الدين، محمد بن عبد الله بن بهادر، الزركشي، توفي (٧٩٤هـ)، وزارة الأوقاف الكويتية، ط: الثانية، ت/ ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، توفي (٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثانية، ت/ ١٣٩٢ه.

- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد، اللخمي، الغرناطي، الشهير بالشاطبي، توفي (٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، ط: الأولى، ت/ ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن، المعروف بالحطاب، توفي (٩٥٤هـ)، دار الفكر، ط: الثالثة، ت/ ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد بن محمد الشيباني، ابن الأثير، توفي (٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية،بيروت،ط.د،ت/١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

- نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، توفي (١٢٥٠هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، ط. الأولى، ت/ ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد، ابن خلكان، توفي (٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط.د،ت.د.

حديث المُحْرِم الذي وقصته ناقته فمات
دراسة حديثية فقهية

د. مشعل بن حميد اللهيبي

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى جميع صحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعدُ:

فإن السنة النبوية محل اهتمام العلماء وطلبة العلم والمسلمين عامة ، كونها صادرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم الأمين الذي لا ينطق عن الهوى ، ومصدر ثانٍ لتشريع الأحكام بعد كتاب الله عز وجل ، وقد برز هذا الاهتمام في حرص المسلمين عامة وعلمائهم خاصة على حفظها وكتابتها وفهمها ، ومدارسة ما في أحاديثها من الفقه والعلم .

فقد خص الله نبيه صلى الله عليه وسلم بجملة من الخصائص ، من أهمها ، أنه أوتي جوامع الكلم وخواتمه وفواتحه ، واختصر له الكلام اختصاراً ، فجمع الله له المعاني الكثيرة في ألفاظ يسيرة ، وجعل ذلك من أدلة نبوته ، وأعلام رسالته ، ليسهل على السامعين حفظه ، ولا يشق عليهم حمله وتبليغه ، وكل هذا من الحفظ الذي تكفّل الله به لهذا الدين .

ومن هذه الأحاديث: حديث المحرم الذي وقصته ناقته فمات، فقد اشتمل على أحكام عديدة، أحكام في الحياة، وأحكام في الموت، قال الشيخ ابن عثيمين-رحمه الله- في " الشرح الممتع"[1] : " ويستدل بهذا الحديث على مسائل عديدة، وهو من آيات الله ـ عزّ وجل ـ أن تقع حادثة لواحد من الصحابة، تؤخذ منها أحكام عديدة، أحكام في الحياة، وأحكام في الموت، وهذا من بركته صلّى الله عليه وسلّم أن الله يبارك في علمه، وقد أخذ ابن القيم من هذا الحديث اثنتي عشرة مسألة، وفيه أكثر مما ذكر عند التأمل.

وفيه دليل على حكمته ـ عزّ وجل ـ وأن قدره الذي يكون مصيبة، قد يكون نعمة ومنحة من ناحية أخرى، فهذا الذي وقصته راحلته أصيب بمصيبة لكن حصل منها من الفوائد ما لا يعلمه إلا الله ـ عزّ وجل " .

فأردت أن أتناول هذا الحديث بالبحث والدراسة من الناحية الحديثية والفقهية، وقد أسميته" حديث المحرم الذي وقصته ناقته فمات، دراسة حديثية وفقهية" .

---

(١) (١٣٨/٧) .

وجاءت خطة البحث كما يلي :

المقدمة

المبحث الأول: المسائل الحديثية، وتحته ستة مطالب:
المطلب الأول: نص الحديث وتخريجه
المطلب الثاني: الاختلاف بين الروايات
المطلب الثالث: شرح غريب الحديث
المطلب الرابع: المبهم في الحديث
المطلب الخامس: تبويبات المحدثين على الحديث
المطلب السادس: شرح الحديث
المبحث الثاني: المسائل الفقهية، وفيه ستة مطالب:
المطلب الأول: غَسْلُ الميِّت
المطلب الثاني: تكفين الميت
المطلب الثالث: الحَنُوط للميت
المطلب الرابع: حكم تغطية وجه المحرم
المطلب الخامس: هل الإحرام يبطل بالموت ؟
المطلب السادس: المحرم إذا مات هل يُقضى عنه ما بقي من نسكه ؟
المبحث الثالث: مسائل عامة، وفيه ستة مطالب:
المطلب الأول: شجرة السدر، وفوائدها
المطلب الثاني: الأحاديث الواردة في النهي عن قطع شجر السدر
المطلب الثالث: الإمام البرزالي وحديث الذي وقصته ناقته وهو محرم فمات
المطلب الرابع: دفع التعارض بين هذا الحديث وحديث " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً
المطلب الخامس: كل إنسان يُبعَثُ على ما مات عليه
المطلب السادس: الفوائد المستنبطة من الحديث
الخاتمة: واشتملت على أهم النتائج .

الفهارس: واشتملت على ثبت المراجع وفهرس الموضوعات .

وقد اتبعت المنهج التالي في كتابة البحث :

- عزو الآيات ببيان اسم السورة ورقم الآية .
- تخريج الحديث مدار الدراسة، بتوسع بذكر من أخرجه من الأئمة وذكر رقم الجزء والصفحة ورقم الحديث .
- ترتيب من أخرج الحديث من الأئمة على حسب تقدم الوفاة .
- تخريج الأحاديث الواردة في الدراسة تخريجاً مختصراً .
- توثيق النقول من مصادرها.
- تحليل ألفاظ الحديث واستنباط المسائل الحديثية والفقهية والمسائل العامة .
- شرح غريب الحديث .
- دراسة الاختلاف بين روايات الحديث .
- قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث، واشتمل كل مبحث على ست مسائل .
- ختمت البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج .
- وضعت فهارس اشتملت على ثبت المراجع، وفهرس الموضوعات .

هذا وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم، وأن ينفعني به، وأن ينفع به المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

المبحث الأول : المسائل الحديثية

المطلب الأول: تخريج الحديث

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : ((بَيْنَمَا رَجُلٌ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ ، إِذْ وَقَعَ عَنْ رَاحِلَتِهِ ، فَوَقَصَتْهُ - أَوْ قَالَ : فَأَوْقَصَتْهُ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْهِ . وَلا تُحَنِّطُوهُ ، وَلا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ . فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّياً)) . وَفِي رِوَايَةٍ : ((وَلا تُخَمِّرُوا وَجْهَهُ وَلا رَأْسَهُ)) .

لم يروي هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم غير عبدالله بن عباس-رضي الله عنهما.

والحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في "مسنده" (٣٤٩/٤رقم٢٧٤٥)، والحميدي في " مسنده" (٤٢٦/١رقم٤٧١) ، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٠٣/٣رقم١٤٤٣٠،١٤٤٢٩) ، وأحمد في "مسنده" (٣٩٥/٣رقم١٩١٤)،(٢٢٤/٤رقم٢٣٩٤)،(٣٥٧/٤رقم٢٥٩١)، والدارمي في "سننه" (١١٧٤/٢رقم١٨٩٤)، البخاري في "صحيحه" ((٧٥/٢رقم١٢٦٦،١٢٦٥، ١٢٦٧، ١٢٦٨) ، (١٥/٣رقم١٨٣٩، ١٨٤، ١٨٥٠، ١٨٥١)

، ومسلم في "صحيحه" (٨٦٥/٢رقم٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٠٠) ، وأبو داود في " سننه" (٢١٩/٣رقم٣٢٤١) ، والترمذي في "سننه" ٢٧٧/٣رقم٩٥١) ، والنسائي في "سننه الكبرى" (٤١٣/٢رقم٢٠٤٢) ، (٩١/٤رقم ٣٨٢٢، ٣٨٢٣، ٣٨٢٤، ٣٨٢٥، ٣٨٢٧) ، وفي "سننه الصغرى" له (٣٩/٤رقم١٩٠٤)، (١٩٥/٥رقم٢٨٥٣، ٢٨٥٤، ٢٨٥٥، ٢٨٥٦، ٢٨٥٨) ، وأبو عوانة في "مستخرجه" (٢٦٩/٢رقم٣٠٩٣، ٣٠٩٦، ٣١٠٠)، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٢٣٤/١رقم٢٥٧)، وابن حبان في "صحيحه" (٢٧١/٩رقم٣٩٥٨ ، ٣٩٥٩) ، والطبراني في" المعجم الكبير" (٨٠/١٢رقم١٢٥٣٩)، وفي " المعجم الأوسط" له (٣٠٦/٤رقم٤٢٧٧)،وفي "المعجم الصغير" له(١٤٢/١رقم٢١٥)،وابن المقرئ في "معجمه" (ص٤٢رقم٣٦) ، والدارقطني في "سننه" (٣٦٧/٣رقم٢٧٧١، ٢٧٧١، ٢٧٧٤، ٢٧٧٧) ، وأبو نعيم في" حلية الأولياء" (٢٩٩/٤) ، وابن بشران في " أماليه " (ص٣٢٨رقم٧٦٤) ، وابن حزم في" حجة الوداع" (ص١٧٤رقم١٠٢ ، ١٠٣) ، والبيهقي في " السنن الكبرى " (٥٤٨/٣رقم٦٦٣٧، ٦٦٣٨، ٦٦٣٩، ٦٦٤١، ٦٦٤٨) ، وفي " السنن الصغير" له (١٥٧/٢رقم١٥٤٨) ، وفي " معرفة السنن والآثار" له (٢٢٦/٥رقم٧٣٤١) ، وابن عرفة في " جزئه " (ص٥٠رقم١٦) ،وابن المنذر في " الأوسط " (٥/ ٣٤٣رقم ٢٩٥٣) جميعهم من طرق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به دون زيادة (ولا تخمروا وجهه ولا رأسه) .

وأما زيادة (ولا تخمروا وجهه ولا رأسه) فقد أخرجها مسلم في" صحيحه" (٨٦٦/٢رقم٩٨، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣) ، وابن ماجه في "سننه" (١٠٣٠/٢ رقم٣٠٨٤) ،والنسائي في " سننه الكبرى" (٣٨/٤رقم٣٦٧٩، ٣٦٨٠) ،وفي "سننه الصغرى" له (١٤٤/٥رقم٢٧١٣ ،٢٧١٤) ، وأبو عوانة في " مستخرجه" (٢٧١/٢رقم ٣١٠٣، ٣١٠٤، ٣١٠٩ ، ٣١١٣) ، وابن الأعرابي في " معجمه" (٩٥٨/٣رقم٢٠٣٨) ، وابن حبان في "صحيحه" (٢٧٣/٩رقم٣٩٦٠) ، والطبراني في " المعجم الكبير" (٧٦/١٢رقم١٢٥٢٤)، وفي "المعجم الأوسط" له (١٤١/٥رقم٤٨٩٦) ،والدارقطني في "سننه" (٣٦٥/٣رقم٢٧٦٥، ٢٧٦٩) ، وابن حزم في "حجة الوداع" (ص١٧٥رقم١٠٥) ، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٥٥٣/٣رقم٦٦٤٧) ،وابن المنذر في "الأوسط" (٣٤٦/٥رقم٢٩٥٩) .

المطلب الثاني: الاختلاف بين الروايات

هذا الحديث له ألفاظ متقاربة، ومداره على سعيد بن جبير ويرويه عنه اثنا عشر راوياً ، ويمكن تقسيم الروايات الواردة إلى ثلاث مجموعات :

أولاً : الروايات التي بدون زيادة " ولا تخمروا وجهه " وهي الأكثر

١ – رواية إبراهيم بن أبي حرة:

أخرجها أحمد عن سفيان بن عيينة عنه[١].

٢- رواية أيوب السختياني:

أخرجها البخاري[٢] حدثنا أبو النعمان عن حماد عن أيوب، وأخرجه النسائي[٣] عن قتيبة عن حماد، وبمثل طريق النسائي أخرجها البخاري[٤] بسنده ومتنه سواء، وأخرجها أحمد[٥] عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب وليس فيها ذكر الوجه، وكذلك أخرجها أحمد[٦] عن محمد بن جعفر عن سعيد بن أبي عروبة عن أيوب.

٣ - رواية الحكم بن عتيبة:

أخرجها البخاري[٧] عن قتيبة عن جرير عن منصور عن الحكم، ورواها النسائي[٨] أخبرنا محمد بن قدامة عن جرير به وليس فيها ذكر الوجه، وكذا رواها أبو داود[٩] عن عثمان بن أبي شيبة عن جرير.

٤ - رواية عبد الكريم الجزري:

أخرجها أحمد[١٠] حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزري، وكذا رواية عبيد الله بن عمرو عن الجزري عند الطبراني في " المعجم الكبير" [١١].

٥ - رواية قتادة بن دعامة:

أخرجها أحمد[١٢] عن محمد بن جعفر عن سعيد عن قتادة وأيوب عن سعيد بن جبير به، وقتادة لم يسمع من سعيد في قول يحي بن معين وأحمد لكنه هنا مقرون فرجع الحديث إلى أيوب.

٦ - رواية عطاء بن السائب:

---

١) (٣/٣٩٦رقم١٩١٥) .
٢) (٢/٧٥رقم١٢٦٥) .
٣) (٥/١٩٦رقم٢٨٥٥) .
٤) (٢/٧٦رقم١٢٦٦) .
٥) (٥) (٥/١٩٨رقم٣٠٧٦) .
٦) (٦) (٤/٣٥٧رقم٢٥٩١) .
٧) (٧) (٣/١٥رقم١٨٣٩) .
٨) (٨) (٥/١٩٦رقم١٨٥٦) .
٩) (٩) (٣/٢١٣رقم٣٢٤٣) .
١٠) (٥/١٩٩رقم٣٠٧٧) .
١١) (١٢/٨٠رقم١٢٥٣٩) .
١٢) (٤/٣٥٧رقم٢٥٩١) .

أخرجها الطبراني في "المعجم الكبير"[١] من طريقه عنه عن سعيد.

٧ - رواية فضيل بن عمرو:

أخرجها الطبراني في "المعجم الكبير"[٢] من طريق شريك عن سعيد بن صالح

٨ - رواية سالم الأفطس:

أخرجها الطبراني في "المعجم الكبير"[٣] عن سعيد دون ذكر الوجه وفيها قيس بن الربيع وفيه كلام.

ثانياً : الروايات التي فيها زيادة " ولا تخمروا وجهه " وهي الأقل

٩ - رواية أبي الزبير:

أخرجها مسلم[٤] عن هارون بن عبد الله عن أسود بن عامر عن زهير عنه وفيه ذكر الوجه ولفظه «وأن يكشفوا وجهه حسبته قال: ورأسه» قال البيهقي في " السنن الكبرى"[٥]: "ذكر الوجه على شك فيه في متنه ورواية الجماعة الذين لم يشكوا وساقوا المتن أحسن سياقة أولى أن تكون محفوظة".

١٠ - رواية مطر الوراق:

أخرجها الطبراني في " المعجم الكبير"[٦] من طريق فضيل بن عياض عن هشام بن حسان عنه وفيها ذكر الوجه، وكذا أخرجها أبو عوانة في " مستخرجه"[٧] ومطر ضعيف.

ثالثاً : الروايات التي اختلف فيها بذكر الزيادة تارة وبعدم ذكرها تارة

١١ - رواية أبي بشر

واختلف عليه في ذكر الوجه فيرويه عن أبي بشر:

أ - شعبة:

١) (١٢/ ٧٩رقم١٢٥٣٦) .
٢) (١٢/٧٩رقم١٢٥٣٤) .
٣) (١١/٤٣٦رقم ١٢٢٣٩) .
٤) (٢/٨٦٧رقم١٢٠٦) .
٥) (٣/٣٩٣رقم ٦٨٨٩) .
٦) (١٢/٨٠رقم١٢٥٤١) .
٧) (٤/١٦٠رقم٢٤٩٠) .

أخرجها مسلم[١] عن محمد بن بشار وأبي بكر بن نافع كلاهما عن محمد بن جعفر عن شعبة عن أبي بشر بذكر الوجه، وعن محمد بن جعفر أخرجه أحمد[٢] بذكر الوجه، وأخرجه النسائي[٣] عن محمد بن عبد الأعلى عن خالد الحذاء عن شعبة بذكر الوجه، وأخرجه ابن ماجه[٤] حدثنا علي بن محمد عن وكيع عن شعبة بذكر الوجه، ورواه ابن حبان[٥] من طريق أبي أسامة عن شعبة بذكر الوجه.

فهؤلاء أربعة يروونه عن شعبة بذكر الوجه: محمد بن جعفر - وهو من أثبت الناس فيه - ووكيع، وخالد الحذاء، وأبو أسامة.

ب - هشيم:

أخرجه النسائي[٦] والبخاري[٧] كلاهما عن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم به دون ذكر الوجه، وأخرجه مسلم[٨] عن محمد بن الصباح ويحيى بن يحيى كلاهما عن هشيم به دون ذكر الوجه، وأخرجه أحمد[٩] عن هشيم به دون ذكر الوجه.

جـ - خلف بن خليفة:

أخرجه النسائي[١٠] حدثنا محمد بن معاوية عن خلف بن خليفة عن أبي بشر وفيه ذكر الوجه.

د - أبو عوانه:

أخرجه مسلم[١١] حدثنا أبو كامل الجحدري عن أبي عوانة به دون ذكر الوجه، وأخرجه البخاري[١٢] حدثنا أبو النعمان أخبرنا أبو عوانة به دون ذكر الوجه.

١٢ - رواية عمرو بن دينار:

واختلف عليه في ذكرها كثيرًا فالحديث يرويه عن عمرو أكثر من راو.

---

١) (٢/٨٦٧رقم ١٢٠٦) .
٢) (٤/٣٦٢رقم٢٦٠٠) .
٣) (٥/١٩٦رقم٢٨٥٤) .
٤) (٢/١٠٣٠رقم٣٠٨٤) .
٥) (٩/٢٧٣رقم٣٩٦٠) .
٦) (٥/١٩٦رقم٢٨٥٣) .
٧) (٣/١٧رقم ١٨٥١) .
٨) (٢/٨٦٦رقم١٢٠٦) .
٩) (٣/٣٥٠رقم١٨٥٠) .
١٠) (٥/١٩٧رقم ٢٨٥٧) .
١١) (٢/٨٦٦رقم١٢٠٦) .
١٢) (٢/٧٦رقم١٢٦٧) .

أ - الثوري:

أخرجه مسلم[١] عن أبي كريب عن وكيع، وأخرجه ابن ماجه[٢] عن علي بن محمد الطنافسي كلاهما (الطنافسي وأبو كريب) عن وكيع عن الثوري عن عمرو بذكر الوجه، وتابع وكيعاً أبو داود الحفري: أخرجه النسائي[٣] عن عبدة بن عبد الله الصفار وعن الحفري عن سفيان وفيها ذكر الوجه، ورواه محمد بن كثير عند أبي داود[٤]، والبيهقي[٥] عن الثوري بدون ذكر الوجه.

ب - ابن عيينة:

روى الحديث عنه أربعة أحمد في المسند[٦]،والحميدي في مسنده[٧]،وابن أبي شيبة عند مسلم[٨] ، وابن أبي عمر عند الترمذي[٩] وليس في شيء من ذلك ذكر الوجه.

جـ - يونس بن نافع:

أخرجه النسائي[١٠] أخبرنا عتبة بن عبد الله حدثنا يونس وليس فيها ذكر الوجه.

د - ابن جريح:

أخرجه أحمد[١١] عن يحيى عنه وليس فيها ذكر الوجه وكذلك أخرجه النسائي[١٢] أخبرنا عمران بن يزيد حدثنا شعيب بن إسحاق أخبرنا ابن جريج وليس فيها ذكر الوجه.

هـ - عمرو بن الحارث:

أخرجه ابن حبان[١] أخبرنا ابن سلم عن حرملة عن ابن وهب عن عمرو وليس فيها ذكر الوجه.

---

١) (٨٦٦/٢رقم١٢٠٦) .
٢) (١٠٣٠/٢رقم٣٠٨٤) .

٣) (١٤٥/٥رقم ٢٧١٤) .
٤) (٢١٣/٣رقم٣٢٤٠) .
٥) (٣٩١/٣رقم ٦٨٧٩) .
٦) (٣٩٥/٣رقم١٩١٤) .
٧) (٢٢١/١رقم٤٦٦) .
٨) (٨٦٥/٢رقم١٢٠٦)
٩) (٢٨٦/٣رقم٩٥١) .
١٠) (٢٩/٤رقم١٩٠٤) .
١١) (٢٨٧/٥رقم٣٢٣٠) .
١٢) (١٩٧/٥رقم٢٨٥٨) .

و - حماد بن زيد:

أخرجه مسلم[٢]، حدثنا أبو الربيع الزهراني قال: حدثنا حماد عن عمرو بن دينار، وأخرجه البخاري[٣]،حدثنا سليمان بن حرب ح وحدثنا مسدد[٤] كلاهما (سليمان ومسدد) عن حماد عن عمرو وليس فيها ذكر الوجه.

ز - سَلِيم بن حيان

أخرجه الطبراني في "المعجم الصغير"[٥] وليس فيها ذكر الوجه.

ورواها - أعني بذكر الوجه - عن عمرو كلًا من: عبد الله بن علي الأزرق، وأبان العطار، وأشعث بن سوار، وأبان بن صالح، وابن أبي ليلى، وأبو مريم، وعمر بن عامر.

وكل رواياتهم عنه عند الطبراني[٦]، ورواية عمر بن عامر أخرجها كذلك الدارقطني[٧] .

خلاصة الأمر :

هذا الحديث له ألفاظ متقاربة، ومداره على سعيد بن جبير ويرويه عنه اثنا عشر راوياً، ثمانية منهم ليس في رواياتهم زيادة " ولا تخمروا وجهه " وهم إبراهيم بن أبي حرة، أيوب السختياني، الحكم بن عتيبة، عبد الكريم الجزري، قتادة بن دعامة، عطاء بن السائب، فضيل بن عمرو، سالم الأفطس .

وإما الروايات التي فيها زيادة " ولا تخمروا وجهه " فهي من طريق أبي الزبير عن سعيد وقد وقع فيها الشك أخرجها مسلم ، وقد اضطرب حفظ أبي الزبير لها فحفظ الوجه وشك في الرأس مع أن الرأس لا خلاف في ذكره، فهذا مما يدل على أنه لم يحفظ كما ينبغي.

والطريق الثاني التي فيه الزيادة من مطر الوراق وهو ضعيف[٨] .

وأما الروايات التي اختلف فيها بذكر الزيادة تارة وبعدم ذكرها تارة :

فهي من طريق عمرو بن دينار عن سعيد:

---

١) (٢٧١/٩رقم٣٩٥٨) .
٢) (٨٦٥/٢رقم١٢٠٦)
٣) (١٧/٣رقم١٨٤٩) .
٤) (٧٦/٢رقم١٢٦٨) .
٥) (١٨٨/٢رقم١٠٠٤) .
٦) (٧٦/١٢رقم١٢٥٢٤فما بعدها) .
٧) (٢٩٥/٢رقم٢٦٨) .
٨) ينظر : تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٥٣٤) .

(أ) من طريق الثوري ذكرها وكيع عنه واختلف عليه، فذكرها الطنافسي وأبو كريب، ولا يذكرها عن الثوري عبد الله بن الوليد، ولا محمد بن كثير ويذكرها أبو داود الحفري فكونها محفوظة في طريق الثوري محل نظر.

(ب) ورواها عن عمرو من تقدم ذكرهم وأما سائر أصحاب عمرو من كبار الحفاظ كابن عيينة وحماد وابن جريج ويونس وعمرو بن الحارث وقيس بن سعد لا يذكرونها أصلًا، فهي منكرة من طريق عمرو.

وكذلك من طريق أبي بشر عن سعيد:

(أ) الزيادة من هذا الطريق رواها عن شعبة: وكيع، ومحمد بن جعفر، وخالد الحذاء، وأبو أسامة.

(ب) طريق خلف بن خليفة جاءت من طريق واحد عند النسائي أخرجها عن محمد بن معاوية عن خليفة، وأما سائر أصحاب أبي بشر كهشيم وأبي عوانة فلا يذكرونها، وكونها محفوظة عن أبي بشر إنما هذا من ناحية التحمل عنه، لكن من جهة حفظه إياها فمحل نظر، فسائر الرواة عن سعيد كأيوب وإبراهيم بن أبي حرة وعبد الكريم الجزري فلا يذكرونها أصلًا، إذًا شعبة برئ من العهدة والحمل في ذلك على أبي بشر في ذكرها، ومما يدل على ذلك أن هشيمًا وأبا عوانة لا يذكرون الزيادة وهما من هما، قال علي بن حجر: " هشيم في أبي بشر مثل ابن عيينة في الزهري سبق الناس هشيم في أبي بشر"[(١)]، وقال ابن المبارك: " من غير الدهر حفظه فلم يغير حفظ هشيم"[(٢)]، وقال ابن مهدي: "حفظ هشيم أثبت من حفظ أبي عوانة وكتاب أبي عوانة أثبت من حفظ هشيم"[(٣)].

والحقيقة أن القول بأنها محفوظة في الحديث قول فيه بُعد، مع أن مسلمًا - رحمه الله - أخرج الحديث عن أصحاب عمرو كـ: سفيان بن عيينة، وحماد، وابن جريج، ثم جعل طريق الثوري عن عمرو آخر ما ذكر، ثم أخرج مسلم الحديث عن أصحاب أبي بشر فبدأ برواية هشيم ثم أبي عوانة ثم جعل طريق شعبة عن أبي بشر آخر ما ذكر.

ثم أخرج في آخر الباب حديث أبي الزبير عن سعيد، والمتتبع لطريقة مسلم في كتابه الصحيح يجده يقدم الأصح أولًا في الأغلب ثم يردفه بما دونه كما في مقدمته لصحيحه.

(١)تهذيب الكمال للحافظ المزي (٣-/٢٨٢) .
(٢)المصدر السابق .
(٣)المصدر السابق .

قال الإمام البيهقي -رحمه الله تعالى- في "السنن الكبرى"[١] : "رواه البخاري في الصحيح عن قتيبة وهذا هو الصحيح ، منصور عن الحكم عن سعيد وفي متنه (ولا تغطوا رأسه) ورواية الجماعة في الرأس وحده وذكر الوجه فيه غريب".

وبعض العلماء يقول : إنها ثابتة فلماذا تُغلط وهي في صحيح مسلم ؟ وهذه الزيادة زيادة ثقة والقاعدة عند المحدثين [أن زيادة الثقة مقبولة ما لم يخالف من هو أوثق منه] وهنا ليست فيها مخالفة وقد صححها الألباني[٢] -رحمه الله- أي صحح لفظة (ولا تخمروا وجهه) وكذا يصححها ابن باز[٣] -رحمه الله- .

المطلب الثالث: شرح غريب الحديث

وَاقِفٌ: أي راكب ، وفيه إطلاقُ لفظِ الواقفِ على الراكبِ[٤] .

فَوَقَصَتْهُ: الواو والقاف والصاد: كلمة تدل على كسر شيء. منه الوقص: دق العنق، وقصت عنقه فهي موقوصة. وَالِاسْم مِنْهُ الوقص كَأَنَّهُ وقص فَدخل عُنُقه فِي جِسْمه[٥] .

أو قال فأوقصته: شكّ من الرّاوي، والمعروف عند أهل اللّغة الأوّل ، والذي بالهمز شاذّ[٦].

وفي رواية "فأقصعته ": أي هشّمته ، يقال: أقصع القملة إذا هشّمها، وقيل: هو خاصّ بكسر العظم، ولو سلم فلا مانع أن يستعار لكسر الرّقبة. وفي رواية مسلم بتقديم العين على الصّاد، والقعص القتل في الحال ، ومنه قعاص الغنم وهو موتها[٧].

وكُلّ هذا شَكّ مِن الرَّاوي . ولا يَضُرّ لأن المَعْنِى واحد .

سِدْرٍ:-بكسر السين وسكون الدال المهملة آخره راء-:هو شجر النبق،واحده: "سدرة" [٨].

ثوبيه: مثنى "ثوب"، والمراد بهما: ثوبي الإحرام اللذين عليه، وهما: الإزار والرداء.

وَلا تُحَنِّطُوهُ: بتشديد النون المكسورة-؛ أي: لا تجعلوا في شيء من غسلاته، أو في كفنه حنوطًا.

(١) (٣٩٣/٣) .
(٢) ينظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته (ص١٩٦رقم١٩٥٩) .
(٣) ينظر: مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز (١١٧/١٧) .
(٤) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٤٤٨/٤) .
(٥) ينظر: مقاييس اللغة (١٣٣/٦) ، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢٩٣/٢) .
(٦) فتح الباري لابن حجر (١٣٦/٣) .
(٧) المصدر السابق (١٣٧/٣) .
(٨) لسان العرب (٣٥٤/٤) .

والحَنوط -بفتح الحاء المهملة-: وَهُوَ مَا يخلط من الطّيب للموتى خَاصَّة [1] .

وَلا تُخَمِّرُوا: -بالخاء المعجمة-؛ أي: لا تغطوا (رأسه)، بل أبقوا له أثر إحرامه؛ من منع ستر رأس الرجل، ومنعه المخيط، ووجه المرأة[2] .

مُلَبِّياً: بصفة الملبين، بنسكه الذي مات فيه من حج، أو عمرة، أو هما، قائلًا: "لبيك اللهم لبيك"[1].

وفي رواية " ملبداً " : بدالٍ بدل التّحتانيّة، والتّلبيد: جمع الشّعر بصمغ أو غيره ليخف شعثه، وكانت عادتهم في الإحرام أن يصنعوا ذلك[2] .

المطلب الرابع: المبهم في الحديث

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري" : " ولم أقف في شيء من طرق هذا الحديث على تسمية المُحرِم المذكور.

وقد وهِمَ بعض المتأخّرين ، فزعم أنّ اسمه واقد بن عبد الله ، وعزاه لابن قتيبة في ترجمة عمر من كتاب " المغازي ".

وسبب الوهم. أنّ ابن قتيبة لمّا ذكر ترجمة عمر ، ذكر أولاده ومنهم عبد الله بن عمر، ثمّ ذكر أولاد عبد الله بن عمر ، فذكر فيهم واقد بن عبد الله بن عمر ، فقال: وقع عن بعيره وهو محرم فهلك، فظنّ هذا المتأخّر أنّ لواقد بن عبد الله بن عمر صحبةً ، وأنّه صاحب القصّة التي وقعت في زمن النّبيّ - صلى الله عليه وسلم -، وليس كما ظنّ ، فإنّ واقداً المذكور لا صحبة له ، فإنّ أمّه صفيّة بنت أبي عبيد إنّما تزوّجها أبوه في خلافة أبيه عمر. واختلف في صحبتها، وذكرها العجليّ وغيره في التّابعين.

ووجدت في الصّحابة واقد بن عبد الله آخر ، لكن لم أر في شيء من الأخبار أنّه وقع عن بعيره فهلك، بل ذكر غير واحد منهم ابن سعد ، أنّه مات في خلافة عمر، فبطل تفسير المبهم بأنّه واقد بن عبد الله من كلّ وجه "

(١) ينظر : غريب الحديث لابن الجوزي (٢٤٧/١) .
(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣٨٩/٢) .
(٣) ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٥٥/١٩) .
(٤) فتح الباري (٥٥/٤) .

المطلب الخامس: تبوييات المحدثين على الحديث

تنوعت تبوييات المحدثين على الحديث ، ويرجع ذلك إلى اختلاف فهم واستنباط المحدثين من الحديث، والغرض من ذكرها هنا للتنبيه على أهمية ما يستنبطه العلماء من الحديث الشريف ليكون كالمعين لفقه الحديث .

أولاً :الإمام ابن أبي شيبة في " المصنف" كتاب الحج، في المحرم يموت يُغَطَّى رأسه .

ثانياً :الإمام الدارمي في " سننه" كتاب المناسك، باب في المحرم إذا مات ما يصنع به .

ثالثاً :الإمام البخاري في " صحيحه" أخرجه في خمسة مواضع، وهي على النحو الآتي:

أ / كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين .

ب/ كتاب الجنائز، باب الحنوط للميت .

ج/ كتاب الجنائز، باب كيف يكفن المحرم .

د/ كتاب جزاء الصيد، باب ما يُنْهى من الطيب للمحرم والمحرمة .

ه/ كتاب جزاء الصيد، باب المحرم يموت بعرفة ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤدى عنه بقية الحج .

رابعاً :الإمام مسلم في " صحيحه" أخرجه في كتاب الحج، وبوب عليه النووي باب ما يفعل بالمحرم إذا مات .

خامساً: الإمام أبو داود في "سننه" أخرجه في كتاب الجنائز، باب المحرم يموت كيف يصنع به.

سادساً : الإمام الترمذي في "سننه" أخرجه في أبوب الحج، باب ما جاء في المحرم يموت في إحرامه .

سابعاً : الإمام النسائي في " سننه الكبرى" أخرجه في أربعة مواضع، وهي على النحو الآتي:

أ/ كتاب الجنائز، باب كيف يكفن المحرم إذا مات .

ب/ كتاب المناسك ، باب غسل المحرم بالسدر إذا مات .

ج/ كتاب المناسك ، باب في كم يكفن المحرم إذا مات .

د/ كتاب المناسك ، النهي عن أن يُحنط المحرم إذا مات .

وأخرجه في " سننه الصغرى" بنفس التراجم السابقة ، وزاد ترجمة خامسة في كتاب المناسك ، باب النهي عن تخمير رأس المحرم إذا مات .

ثامناً : الإمام ابن ماجه في "سننه" أخرجه في كتاب المناسك ، باب المحرم يموت .

تاسعاً : الإمام أبو عوانة في " مستخرجه" أخرجه في كتاب الحج ، باب صفة الكفن إذا مات وغسله وحظر تخمير وجهه ورأسه، وتطييبه، وتحنيطه والأمر يكشف وجهه .

عاشراً : الإمام الطحاوي في " شرح مشكل الآثار" باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من صدقة جارية، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له " .

الحادي عشر : الإمام ابن حبان في " صحيحه" أخرجه في ثلاثة مواضع، وهي على النحو الآتي:
أ/ كتاب الحج، باب ذكر الزجر عن لبس المحرم المصبوغ من الثياب .
ب/ كتاب الحج، باب ذكر العلة التي من أجلها أمر بهذا الأمر .
ج/ كتاب الحج ، باب ذكر البيان بأن قوله صلى الله عليه وسلم :" ألبسوه ثوبين" أراد به الثوبين اللذين كان قد أحرم فيهما.
الثاني عشر : الإمام الدارقطني في "سننه" أخرجه في كتاب الحج، باب المواقيت .
الثالث عشر : الإمام البيهقي في " السنن الكبرى" أخرجه في ثلاثة مواضع، وهي على النحو الآتي:
أ/ جماع أبواب غسل الميت، باب المحرم يموت .
ب/ جماع أبواب غسل الميت، باب الحنوط للميت .
ج/ جماع أبواب ما يجتنبه المحرم ، باب لا يغطي المحرم رأسه ، وله أن يغطي وجهه .
وفي "السنن الصغرى" في كتاب المناسك ، باب المحرم يموت .
وفي " معرفة السنن والآثار" في كتاب الجنائز، باب المحرم يموت .
الرابع عشر : الإمام ابن المنذر في "الأوسط" أخرجه في موضعين، وهي النحو التالي :
أ/ كتاب الجنائز، ذكر ما يفعل بالمحرم إذا مات .
ب/ كتاب الجنائز، ذكر تكفين الميت في ثوبين .

المطلب السادس: شرح الحديث[1]

في حجةِ الوداع ، بينما كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم واقفاً بعرفةٍ عند الصخرات ، كان رجلٌ مُحرمٌ بالحج يركب ناقته ويقف بجواره صلى الله عليه وسلم فوقعَ الرجلُ عن راحلته و مات .

كانت الحادثة الأولى لميتٍ مُحرمٍ يقف بعرفةٍ أمام الرسول صلى الله عليه و سلم و كان لابد أن يُعلمَ أصحابه ما ينبغي في مثل هذه الحالة . كيف يُغسلونه ؟ و كيف يُحنطونه ؟ و كيف يُكفنونه ؟ و ما مصير مُحرمات الإحرام ؟ .

عَلمَ الرسولُ الكريمُ أصحابه الذى لا ينطقُ عن الهوى ، إنْ هو إلا وحىٌ يُوحى ، قال لهم : اغسلوه بماءٍ و سدرٍ كما تغسلون موتاكم وكفنوه في ثيابه التي كان يلبسها وقت إحرامه و قبل

(١) نقلا عن كتاب: "المنهل الحديث في شرح الحديث"، للأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين مع حذف لبعض كلامه

موته وأبقوا مظاهر الإحرام و محرماته، لا تُحنطوه امتنعوا عن تطييبه وأبقوا رأسه مكشوفا لا تغطوه بكفنه فإنه يُبْعثُ يوم القيامةِ مُحرماً يقول لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك .

" اغسلوه بماءٍ و سِدر " السدرُ ورق شجر النبق وكان يُوضع في ماءِ الغُسل لإعطاءِ الماءِ رائحة طيبة و مادته الزيتية تكون مقام الصابون و إذا وضع السدر في الماء خرجت له رغوة كالصابون .

" و لا تُحَنطوه " أي لا تُطيبوا كفنه ولا جسمه بالحنوطِ و هو كل شيء يُخلط مِن الطيبِ للميتِ خاصة .

" و لا تُخمروا رأسه " أي لا تُغطوا رأسه .. " فإنه يُبْعثُ يوم القيامةِ مُلبياً " أي مُحرماً كحالته التي مات عليها أي السبب في عدمِ تحنيطه و عدم تخمير رأسه بقاء حالة الإحرام .

المبحث الثاني: المسائل الفقهية

المطلب الأول: غَسْلُ الميِّت

إذا مات المسلم؛ وجب على طائفة من الناس أن يبادروا إلى غَسله، وهو فرض كفاية؛ إذا قام به البعض؛ سقط عن جميع المكلَّفين.

وأمّا وجوب الغَسْل؛ فلأمره - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بذلك في قوله : " اغسلوه بماء وسدر" ، ولا يصح تغسيل الميت بغير الماء، فلو غُسل بماء ورد فإنه لا يكفي، بل لا بد من أن يغسل بالماء لقوله صلى الله عليه وسلم :" اغسلوه بماء " .

فإذا لم يوجد الماء أو خيف أن يتفسخ الميت بغسله بالماء فهل يُيَمَّم ؟

قال الشيخ ابن عثيمين : " هذا ينبني على : هل تغسيله تطهير له، أو تغسيله عبادة ؟

إن قلنا بالأول فلا يُيَمَّم، وإن قلنا بالثاني فإنه يُيَمَّم ، والأظهر- والله أعلم- أنه للعبادة أقرب؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " اغسلوه"، ولم يسأل: هل كان بدنه نظيفا ، أو غير نظيف "[1]

واختلف الفقهاء المسلمون في عدد المرات الواجبة في غسل الميت على قولين :

القول الأول : يجب ألا يقل غسل الميت عن غسلة واحدة، تستوعب بدن الميت بعد إزالة النجاسة عنه، وما زاد عن ذلك يعتبر مستحباً .

(١) التعليق على صحيح مسلم (١٠٩/٦-١١٠) .

وهذا قول الحنفية[١] والمالكية[٢] والشافعية[٣]، وهو قول الحنابلة[٤]، لكنهم اشترطوا ألا يزيد عدد الغسلات عن سبع؛ لأن الزيادة عن ذلك إسراف، ودليلهم حديث ابن عباس –رضي الله عنهما- قال: " إن رجلاً كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقصته ناقته، وهو محرم، فمات، فقال صلى الله عليه وسلم : " اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً " .

وجه الدلالة في الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بغسل الميت وتكفينه، وهو محرم ولم يقيد ذلك بعدد، فكان الواجب الأقل ، وهو المرة الواحدة .

القول الثاني: يجب غسل الميت ثلاث مرات، يغسل جميع جسده ورأسه بماء يوضع فيه شيء من سدر، وأن أحبوا الزيادة فعلى الوتر أبداً إما ثلاث مرات، وإما خمس مرات، وأما سبع مرات، وهذا قول الظاهرية[٥] .

ودليلهم : حديث أم عطية – رضي الله عنها- وقد جاء فيه:" اغسلنها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر "[٦] .

وجه الدلالة في الحديث : أن قوله صلى الله عليه وسلم : " اغسلنها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثر من ذلك " يفيد وجوب التخيير في الغسل بين ثلاث مرات، أو خمس مرات ، أو سبع مرات، أو أكثر من ذلك، وأقل ذلك ثلاث مرات، وقد ورد بصيغة الأمر الدالة على الوجوب .

وجمعا بين الدليل الذي استدل به الجمهور والدليل الذي استدل به الظاهرية، يحمل الأمر بالغسل ثلاثاً ، أو خمساً، أو أكثر من ذلك على الاستحباب لا الوجوب، ويحمل أقل الواجب في غسل الميت على مرة واحدة .

(١) ينظر : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني (٣٠٠/١)، ورد المحتار على الدر المختار لابن عابدين (٨٩/٣) .
(٢) ينظر : المدونة للإمام مالك بن أنس (٢٦٠/١)، والقوانين الفقهية لابن جزي (ص٦٣) .
(٣) ينظر : منهاج الطالبين للنووي (٤٥٤/١)، ونهاية المحتاج للرملي (٤٤٢/٢) .
(٤) ينظر : الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٤٦٩/٢)، والإقناع لطالب الانتفاع للحجاوي (٧١٩/٢) .
(٥) ينظر : المحلى لابن حزم (٣٤٣/٣) .
(٦) متفق عليه، رواه البخاري في "صحيحه"، في كتاب الجنائز، باب هل تكفن المرأة في إزار الرجل (٧٤/٢رقم١٢٥٧)، ومسلم في " صحيحه" في كتاب الجنائز، باب غسل الميت (٦٤٧/٢رقم٩٣٩) .

المطلب الثاني: تكفين الميت

أجمع العلماء على أن تكفين الميت بما يستره فرض كفاية، وقد دلَّت النصوص على ذلك:

١ - فعن ابن عباس أن رجلاً وقصه بعيره ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو محرم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اغسلوه بماء وسدر، وكفِّنوه في ثوبين، ولا تُمسَّوه طِيبًا، ولا تخمروا رأسه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا».

٢ - وفي حديث خباب بن الأرت قال: «هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا منهم مصعب بن عمير -ومنا من أينعت له ثمرته فهو يُهْدِبها- قُتل يوم أُحد فلم نجد ما نكفِّنه إلا بردة إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه، فأمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه وأن نجعل على رجليه من الإذخر»[١].

٣ - وعن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب يومًا فذكر رجلاً من أصحابه قُبِضَ فكُفِّن في كفن غير طائل، وقُبر ليلاً، فزجر النبي صلى الله عليه وسلم أن يُقْبَر الرجل بالليل حتى يُصلى عليه إلا أن يضطر إنسان إلى ذلك، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا كفَّن أحدكم أخاه فليحسن كفنه»[٢].

على من تكون تكاليف الكفن[٣] ؟

ذهب أكثر أهل العلم إلى أن قيمة الكفن وتكاليف الغسل والدفن من رأس مال الميت، واستدلَّ بعضهم بحديث عبد الرحمن بن عوف «أنه أُتي يومًا بطعامه فقال: قتل مصعب بن عمير وكان خيرا مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، وقتل حمزة - أو رجل آخر - خير مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي»[٤].

وقال أكثرهم: يُبدأ بالكفن ثم بالدَّين ثم بالوصية لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الرجل الذي وقصه بعيره: «وكفنوه في ثوبين» ولم يستفصل هل عليه دين أم لا؟ فدلَّ على تقديم الكفن على الدين، فليس لغرمائه ولا لورثته منع ذلك، فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمهم

(١) متفق عليه، رواه البخاري في "صحيحه"، في كتاب الجنائز، باب إذا لم يجد كفنا إلا ما يواري رأسه، أو قدميه غطى رأسه (٧٧/٢رقم١٢٦٧)، ومسلم في " صحيحه" في كتاب الجنائز، باب غسل الميت (٦٤٩/٢رقم٩٤٠) .

(٢) رواه مسلم في "صحيحه" في كتاب الجنائز، باب في تحسين كفن الميت (٦٥١/٢رقم٩٤٣) .

(٣) ينظر : «الأم» للشافعي (١/ ٢٣٦)، و «المجموع» للنووي (٥/ ١٨٨)، و «المحلى» لابن حزم (٥/ ١٢١).

(٤) رواه البخاري في "صحيحه"، في كتاب الجنائز، باب الكفن من جميع المال (٧٧/٢رقم١٢٧٤) .

نفقته فإن لم يكن ففي بيت المال فإن لم يكن وجب على المسلمين يوزعه الإمام على أهل اليسار وعلى من يراه .

صفة الكفن:

أن يكون من جنس ما يجوز له لبسه في حال الحياة، فيكفن في الجائز من اللباس، فلا يجوز تكفين الرجل بالحرير بل يحرم ذلك، أما المرأة فقد اختلف الفقهاء في ذلك؛ فالجمهور على جوازه مع الكراهة؛ لأن فيه سَرَفًا ويشبه إضاعة المال، بخلاف لبسها في الحياة فإنه مباح شرعًا.

أما الحنابلة[١] فيحرم عندهم تكفين المرأة في الحرير عند عدم الضرورة؛ لأنه إنما أبيح للمرأة حال الحياة؛ لأنه محل لزينتها وقد زال بموتها.

وذهب الحنفية[٢] والمالكية[٣] والحنابلة[٤] إلى تحسين الكفن، بمعنى أن يكون في ملبوس مثلِه في الجمع والأعياد، ما لم يوص بأدنى من ذلك؛ وذلك لأمر الشارع بتحسينه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر -رضي الله عنه- عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه"[٥].

وذهب الشافعية[٦] إلى أن الكفن يكون من جنس ما كان يلبسه حال حياته، فإن كان من الجيَادِ كان من جيَادِ الثياب، وإن كان من أوسطها فأوسطها، وإن كان مقلًا فخشنها.

ويشترط في الكفن أن يكون ساترًا، ويستحب أن يكون أبيض نظيفا، سواء كان جديدًا وهو الأفضل أو غسيلاً.

ومقدار الكفن الواجب ثوب يستر جميع الميت، والمستحب تكفين الرجل في ثلاث لفائف، وتكفين المرأة في خمسة أثواب؛ إزار وخمار وقميص ولفافتين، ويكفن الصغير في ثوب واحد، ويباح في ثلاثة أثواب، وتكفن الصغيرة في قميص ولفافتين، ويستحب تجمير الأكفان بالبخور بعد رشها بماء الورد ونحوه؛ لتعلق بها رائحة البخور.

ويتم تكفين الرجل بأن تبسط اللفائف الثلاث على بعضها فوق بعض، ثم يؤتى بالميت مستورًا وجوبا بثوب ونحوه ويوضع فوق اللفائف مستلقيان ثم يؤتى بالحنوط وهو الطيب ويجعل منه

(١) ينظر : كشاف القناع (٢/ ١٠٤).
(٢) ينظر : بدائع الصنائع (١/ ٣٠٧).
(٣) ينظر : الشرح الصغير (١/ ٧٤٩).
(٤) ينظر : كشاف القناع (٢/ ١٠٣).
(٥) رواه مسلم في "صحيحه" في كتاب الجنائز، باب في تحسين كفن الميت (٢/٦٥١رقم٩٤٣) .
(٦) ينظر : روضة الطالبين (١/ ١٠٩).

في قطن بين أليتي الميت، ويشد فوقه خرقة، ثم يجعل باقي القطن المطيب على عينيه ومنخريه وفمه وأذنيه وعلى مواضع سجوده: جبهته وأنفه، وركبتيه، وأطراف قدميه، ومغابن البدن: الإبطين وطي الركبتين وسرته، ويجعل من الطيب بين الأكفان وفي رأس الميت، ثم يرد طرف اللفافة العليا من الجانب الأيسر على شقه الأيمن، ثم طرفها الأيمن على شقه الأيسر، ثم الثانية كذلك ثم الثالثة كذلك، ويكون الفاضل من طول اللفائف عند رأسه أكثر مما عند رجليه، ثم يجمع الفاضل عند رأسه ويرد على وجهه، ويجمع الفاضل عند رجليه فيرد على رجليه، ثم يعقد على اللفائف أحزمة؛ لئلا تنتشر وتحل العقد في القبر.

وأما المرأة؛ فتكفن في خمسة أثواب: إزار تؤزر به، ثم تلبس قميصا، ثم تخمر بخمار على رأسها، ثم تلف بلفافتين[1].

صفة تكفين المحرم:

المحرم إذا مات يكفن في ثوبيه الذي مات فيهما، ولا يُمس طيباً، ولا يُغطى رأسه ولا وجهه إن كان رجلاً، فإن كان امرأة كشف وجهها إلا إن كانت بحضرة رجال أجانب فيغطيه.

لحديث ابن عباس-رضي الله عنهما- أن رجلاً وقصه بعيره ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو محرم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اغسلوه بماء وسدر، وكفِّنوه في ثوبين، ولا تُمسَّوه طِيبًا، ولا تخمروا رأسه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا» .

المطلب الثالث: الحَنُوط للميت

الحديث دليل على مشروعية تحنيط الميت، والحَنوط -بفتح الحاء المهملة-: وهو ما يخلط من الطّيب للموتى خَاصَّة[2].

ووجه الاستدلال : أن نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن تحنيط المحرم دليل على أن تحنيط الميت أمر متبع .

وقد ثبت في الصحيحين عن أم عطية، قالت: توفيت إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «اغسلنها ثلاثا، أو خمسا أو أكثر من ذلك، إن رأيتن بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافورا - أو شيئا من كافور - فإذا فرغتن، فآذنني» قالت: فلما فرغنا آذناه، فألقى إلينا حقوه، فقال: «أشعرنها إياه»[3] .

١) ينظر : الملخص الفقهي للشيخ صالح الفوزان (٣٠٦/١) .
٢) ينظر : غريب الحديث لابن الجوزي (٢٤٧/١) .

(١) رواه البخاري في "صحيحه" في كتاب الجنائز، باب يجعل الكافور في آخره (٧٤/٢رقم١٢٥٨) ، ومسلم في " صحيحه" في كتاب الجنائز، باب في غسل الميت (٦٤٦/٢رقم٩٣٩) .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " : " قيل الحكمة في الكافور مع كونه يطيب رائحة الموضع لأجل من يحضر من الملائكة وغيرهم، أن فيه تجفيفا وتبريدا وقوة نفوذ وخاصية في تصليب بدن الميت، وطرد الهوام عنه، وردع ما يتحلل من الفضلات، ومنع إسراع الفساد إليه، وهو أقوى الأراييح الطيبة في ذلك، وهذا هو السر في جعله في الأخيرة إذ لو كان في الأولى مثلا لأذهبه الماء، وهل يقوم المسك مثلا مقام الكافور؟ إن نظر إلى مجرد التطيب فنعم، وإلا فلا، وقد يقال إذا عدم الكافور قام غيره مقامه ولو بخاصية واحدة مثلا "[1] .

وقال النووي في " شرح صحيح مسلم " : " فيه استحباب شيء من الكافور في الأخيرة، وهو متفق عليه عندنا، وبه قال مالك وأحمد وجمهور العلماء، وقال أبو حنيفة لا يستحب، وحجة الجمهور هذا الحديث، ولأنه يطيب الميت، ويصلب بدنه ويبرده، ويمنع إسراع فساده، أو يتضمن إكرامه [2]"

<u>وأما مواضع الحنوط خمس:</u>

أحدها: أن يجعل على ظاهر جسد الميت.

الثاني: يجعل فيما بين أكفانه ولا يجعل على ظاهر الكفن.

الثالث: أن يجعل على المساجد السبعة وهي الجبهة والأنف والكفان مع الأصابع والركبتان وأطراف أصابع الرجلين.

الرابع: أن يجعل على منافذ الوجه السبعة المتقدم ذكرها.

الخامس: أن يجعل على الأرفاغ وهي مغابن الجسد خلف أذنيه وتحت حلقه وتحت إبطيه وفي سرته وما بين فخذيه وأسافل ركبتيه وقعر قدميه، وذلك بحسب ما يكون معه من الطيب، فإن قل عن استيعاب ذلك فليقتصر على الأرفاغ والمساجد السبعة المتقدم ذكرها[3].

(٢) (١٢٩/٣) .
(٣) (٣/٧) .
(٤) ينظر : المدخل لابن الحاج (٣/ ٢٤١) .

المطلب الرابع: حكم تغطية وجه المحرم

اختلف أهل العلم في حكم تغطية المحُرم وجهه على ثلاثة أقوال :

القول الأول : يحرم على المحُرم تغطية وجهه به قال الحنيفة[١]، وهو قول عند المالكية[٢] ، وعند الحنابلة[٣]، واختاره من المعاصرين الشيخ عبدالعزيز بن باز[٤]، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي[٥]، استدلالاً برواية : " ولا تخمروا رأسه ولا وجهه" .

القول الثاني : يكره للمُحرم تغطية وجهه، وهو قول عند المالكية[٦] .

القول الثالث : يباح للمُحرم تغطية وجهه، وهو قول الشافعية[٧]، وقول عند الحنابلة[٨] .

وسبب الخلاف يرجع إلى اختلاف العلماء في صحة هذه اللفظة : " ولا تخمروا وجهه" فمن صحَّحها أخذ بها ، ومن ضعَّفها وقال : إنها غير محفوظة ، قال : يجوز للمُحرم أن يغطي وجهه، وأن يغطي أنفه، وأن يلبس الكمامة المعروفة التي تغطي الفم والأنف، "لأن المحرم ممنوع من تغطية رأسه دون وجهه، ولأن الحاجة تدعو لذلك، لا سيما مع وجود الأمراض المعدية وكثرة الزحام[٩] ".

وهناك قول شاذ : إن كان حيا، فله تغطية وجهه، وإن كان ميتا، لم يجز تغطية وجهه، قاله ابن حزم، وهو اللائق بظاهريته[١٠] .

المطلب الخامس: هل الإحرام يبطل بالموت ؟

اختلف أهل العلم في بطلان الإحرام بالموت على قولين :

القول الأول : أن الإحرام يبطل بالموت، وهو مذهب الحنفية[١١]، والمالكية[١]، وقد استدلوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٢].

(١) ينظر : البحر الرائق (٣٤٩/٢)، وبدائع الصنائع (١٨٥/٢) .
(٢) ينظر : الشرح الكبير (٤٩/٢) ، وشرح منح الجليل (٥٠٥/١) .
(٣) ينظر : الانصاف (٤٦٤/٣) ، والمغني (١٥٣/٥) .
(٤) الفتاوى (١١٧/١٧) .
(٥) أضواء البيان (٣٥٨/٥) .
(٦) ينظر : المنتقى (٢٤٨/٢) .
(٧) ينظر : الأم (٢٤١/٧) ، والمجموع (٣٦٨/٧) .
(٨) ينظر : الانصاف (٣٦٣/٣) ، وكشاف القناع (٤٢٥/٢).
(٩) الفِقهُ الميَسَّر (١٥٤/٩) .
(١٠) ينظر : زاد المعاد (٢٢٥/٢) .
١) ينظر : بدائع الصنائع (٣٠٢/١) ، و اللباب في الجمع بين السنة والكتاب (٤٥/١) .

وجه الاستدلال : قالوا: هذا حصر في الأعمال التي تستمر بعد الموت .

وقالوا: لا دليل في حديث الّذي وقصته راحلته، لأنّه خاصّ به، فالرسول صلى الله عليه وسلم حكم له بذلك لأنّ الله أطلعه أنّ حجّه صحيح مقبول.

القول الثاني : أن الإحرام لا يبطل بالموت وهو مذهب الشافعية[٣]، والحنابلة[٤]، ، وقد استدلوا بحديث ابن عباس –رضي الله عنهما- قال: " إن رجلاً كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقصته ناقته، وهو محرم، فمات، فقال صلى الله عليه وسلم : " اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً" .

وجه الاستدلال : أنه نص في بقاء الإحرام بعد موته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم أن يقربوه طيباً أو يغطوا رأسه، وقال : " إنه يبعث يوم القامة ملبياً " ، معناه أنه باق على إحرامه، وأن إحرامه لم ينقطع بالموت، فيبقى محرماً وهو ميت إلى أن يبعث يوم القيامة .

وأجاب أصحاب القول الثاني عن أدلة أصحاب القول الأول بما يلي :

أولاً : أن حديث "إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ " لا يُعارض هذا الحديث، لأنّ العدد لا مفهوم له، فإذا ثبت الدّليل على زيادة شيءٍ قيل به، ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصَى.

ثانياً: إنّ دعوى التّخصيص بمن وقصته النّاقة على خلاف الأصل، فلا تقبل، وقوله في الحديث: " فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلَبِّياً " إشارة إلى العلّة، فلو كان مختصّا به لم يُشِر إلى العلّة.

وقال ابن الملقن في " الإعلام بفوائد عمدة الأحكام " : " والأصل أن ما ثبت لشخص في زمنه - عليه الصلاة والسلام - ثابت لغيره حتى يدل الدليل على خلافه، ولم يثبت خلافه كيف، وقد ثبت أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: "يبعث المرء على ما مات عليه"[٥]، وهذا عام في كل صورة ومعنى. فاقتضى ذلك تعلق هذا الحكم لأجل الإحرام حيث مات محرمًا، فيعم كل محرم كيف والتلبية من لوازم الإحرام، والعمل بالحديث مقدم على القياس وهو متعين"[٦].

---

٢) ينظر : الإشراف على نكت مسائل الخلاف (٣٥٣/١) .
٣) رواه مسلم في " صحيحه" في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته،(١٢٥٥/٣رقم١٦٣١) .
٤) ينظر : الحاوي الكبير (١٤/٣) .
٥) ينظر : الكافي في فقه الإمام أحمد (٣٦١/١) .
٦) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٢٠٦/٤رقم٢٨٧٨) بلفظ " يبعث كل عبد على ما مات عليه " .
(١) (٤٥٣/٤) .

والراجح: هو القول بأن الإحرام لا يبطل بالموت لصحة دليلهم وصراحته في موضع النزاع .

وثمرة الخلاف : بناء على القول بعدم بطلان الإحرام فإنه يُغطَّى رأسه ويُطيَّب، وعلى القول الثاني فإنه يجنب محظورات الإحرام كالطيب وتغطية الرأس .

المطلب السادس: المحرم إذا مات هل يُقضى عنه ما بقي من نسكه ؟

الحديث دليل على أن المحرم بحج أو عمرة إذا مات قبل إتمام نسكه أنه لا يكمل عنه ولو كان فرضاً ؛ وذلك لأمرين[١]:

أولاً؛ أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- لم يأمر بإتمام نسكه عنه، ولا قضائه.

ثانيًا: أنَّ الميت أبقي على هيئة إحرامه بكشف رأسه، وتجنبه محظورات الإحرام، مما يدل على بقاء إحرامه، ولو كان يُقْضى عنه، لأمكن قضاؤه بعد ساعات من سقوطه، ولأمكن تكفينه وتطييبه، ولكنه أخبر أنَّ هذه الحالة ستكون معه حتى يبعث عليها.

و الحديث بوب عليه البخاري في "صحيحه"[٢]: باب المحرم يموت بعرفة، ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤدى عنه بقية الحج.

وقال الحسين بن مسعود البغوي في "شرح السنة"[٣] بعدما ذكر الحديث: "وفي الحديث دليل على أن المحرم لا يؤدى عنه بقية الحج؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يأمر بذلك ".

قال الشيخ عبدالله بن صالح الفوزان في " منحة العلام شرح بلوغ المرام "[٤] : " وقد ذهب الجمهور إلى القول بعموم الحديث لكل من مات محرماً ، وهو قول عثمان وعلي وابن عباس وغيرهم رضي الله عنهم ، وهو مذهب أحمد والشافعي وإسحاق .

وذهب أبو حنيفة ومالك والأوزاعي إلى أن هذا الحديث خاص بذلك الرجل لقوله : " فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً "، ولم يقل : فإن المحرم ، وإما غيره فإن إحرامه ينقطع بموته ، ويصنع به كما يصنع بالحلال؛ لأنه بالموت انقطع التكليف .

وأجاب الجمهور بأن العلة هي الإحرام، وهي عامة لكل محرم ،والتلبية شعار الإحرام، ولو كان مختصاً بذلك الرجل لم يُشر إلى العلة، ولا سيما إن قيل : لا يصح التعليل بالعلة

(٢) ينظر : توضيح الأحكام من بلوغ المرام (١٦٤/٣) .
(٣) (١٧/٣) .
(٤) (٣٢٣ /٥) .
(٥) (٢٥٧/٤) .

القاصرة، والأصل أن ما ثبت لشخص في زمنه صلى الله عليه وسلم فهو ثابت لغيره إلا بدليل يدل على تخصيصه به " .

المبحث الثالث: مسائل عامة

المطلب الأول: شجرة السدر، وفوائدها

"السدرة" شجرة كثيفة الأوراق، عميقة الجذور، متعددة الفروع، ذات جذع قوي يصل ارتفاعها إلى أكثر من اثني عشر مترا، أزهارها خضراء مصغرة، وقد نالت من الله الخالق سبحانه وتعالى مكانة تكاد تنفرد بها بين النباتات جميعا.

- عُرف السدر من آلاف السنين فهو قديم قدم الإنسان وله عدة أسماء منها، النبق، والغسل، والأردج، والزفزوف، والعرج، ويطلق على ثمارها أسماء النبق والعبري والجنا، والموطن الأصلي للسدر بلاد العرب وتنتشر في الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام، وعرف في الشرق العربي من أقدم العصور حيث تنمو بشكل طبيعي، وتستخدم جميعها قشورها وأوراقها وثمارها وبذورها[1].

والسدر يطلق عليها أيضا النبات المقدس، نبات شجيري شائك، بري وزراعي ينبت في الجبال والرمال وهو ذو ورق وثمر عظيمين، شوكه قليل لا ينثر أوراقه وتعيش الشجرة حوالي ١٢٠ عاما، ظلالها وارفة، وتكثر زراعتها للزينة والظل في الحدائق والشوارع، كما تزرع كمصدات للرياح وحماية التربة من الانجراف، خشبها قوي جيد متعدد الاستعمالات.

ويؤكد المتخصصون وخبراء الزراعة أن أشجار السدر تعد من أفضل الأشجار المثمرة من الناحية الاقتصادية فهي لا تكلف أصحاب البساتين أي جهد، مثل الجهود التي يبذلونها في زراعة الحمضيات وغيرها من الأشجار أو الفواكه، بالإضافة إلى قدرتها على التكيف مع التغيرات الجوية والتقلبات المناخية، وشجرة السدر يمكن أن تزرع في أي وقت من السنة أو في أي فصل من الفصول، عدا مدة قصيرة وهي اشتداد البرد في فصل الشتاء، والأهم من ذلك أنها تعطي ثمارها مرتين في السنة، مع أواخر الشتاء وبداية الربيع، وفي الصيف.

وشجرة السدر غير متعبة للمزارعين ولا تحتاج إلى نفقات فهي لا تريد إلا الماء والتقليم وبعض السماد .

وتختلف ثمار شجرة السدر عن بعضها البعض من حيث الحجم والشكل واللون والمذاق، فهناك النوع المعروف باسم "التفاحي" للشبه الكبير بينه وبين التفاح، وهناك الزيتوني لشبهه

(١) ينظر : ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

بالزيتون ويتميز بحجمه الكبير الذي يكون أحيانا أكبر من الزيتون بالإضافة إلى العديد من الأنواع وتحظى كلها بإقبال شديد لحلاوة مذاقها ورائحتها ونكهتها الطيبة.

السدر في القرآن

وقد ورد ذكر "السدر" في القرآن الكريم أربع مرات، فهي من أشجار الجنة يتفيأ تحتها أهل اليمين حيث قال تعالى: (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ. وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)[١]، وقال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ)[٢]، وقال سبحانه: (عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى. عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)[٣].

وقال المفسرون إن السدر هي شجرة النبق، والمخضود أي الذي قطع شوكه ويستظل به، فجعل ذلك مثلا لظل الجنة ونعيمها، وعن ابن عباس أن المخضود هو الموقر بالثمر والذي لا شوك فيه، فإذا كان سدر الدنيا فيه شوك، فإن سدر الآخرة على العكس من هذا فهو بدون شوك، كثير الثمر[٤].

وقال الأزهري: السدر نوعان بري لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول ولا يؤكل ثمره، وهو الذي يسمى الضال والثاني ينبت على الماء واشجار البوادي لا تسمى "جنة ولا بستانا"[٥].

فوائد السدر

شجرة السدر لها فوائد كثيرة ومتعددة حيث يغلى ورقها في ماء ويشرب لقتل الديدان في الأمعاء وتنقية الدم كما يستخدم ورق السدر المطحون والمخلوط مع الماء في جبر كسور العظام وتنقية بشرة الجلد وطرد البلغم. تستعمل أوراق السدر في تنظيف فروة الرأس وتعقيمها، وتجعل الشعر أكثر نعومة وتكسبه لونا بهيجا، وقد أثبتت التجارب أن خلاصة ورق السدر تعالج فطريات الرأس[٦].

وثمر النبق نافع للمعدة، فاتح للشهية، ينقي الأمعاء والدم، ويعيد الحيوية والنشاط للجسم، ويعالج الأمراض الجلدية والتهابات الحلق والقصبة الهوائية.

(١) (سورة الواقعة: ٢٧-٣٠)
(٢) (سورة سبأ: ١٥- ١٦)
(٣) (سورة النجم ١٤ - ١٦)
(٤) ينظر : زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٤٩٥/٣)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٤/١٧)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠١/٢٧) .
(٥) تهذيب اللغة (٢٤٧/١٢) .
(٦) ينظر : ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

وقال ابن القيم: "إن السدر ينفع من الإسهال ويُسكن الصفراء ويطرد البلغم، ويقوي الأحشاء، ويفيد في حالات الصدر والتنفس"[١].

وأشار الأطباء إلى فوائد السدر للمرأة الحامل لما يحتويه من عناصر غذائية ضرورية من سكريات وغيرها.

المطلب الثاني: الأحاديث الواردة في النهي عن قطع شجر السدر

ورد النهي عن قطع شجر السدر في أحاديث فيها كلام من حيث إسنادها، وصححها بعض أهل العلم، قال ابن القيم-رحمه الله-: " ومن هذا: أحاديث مدح العزوبة، كلها باطلة، ومن ذلك: أحاديث النهي عن قطع السدر، قال العقيلي: لا يصح في قطع السدر شيء، وقال أحمد: ليس فيه حديث صحيح"[٢].

أولاً : حديث عبد الله بن حبشي-رضي الله عنه- :

أخرجه يعقوب بن سفيان في "المعرفة والتاريخ"[٣]، وأبو داود في "سننه"[٤] ومن طريقه:

البيهقي في " السنن الكبرى "[٥] ، والنسائي في " السنن الكبرى "[٦]، والطحاوي في " مشكل الآثار "[٧] ، وأبو مسلم الكشي في " سننه " كما في " رفع الخدر عن قطع السدر " للسيوطي[٨]، وعنه: الطبراني في " المعجم الأوسط "[٩] واللفظ له _ ومن طريقه: الضياء المقدسي في " الأحاديث المختارة "[١٠] ، والمزي في " تهذيب الكمال "[١١] من طرق عن ابن جريج، عن عثمان بن أبي سليمان، عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، عن عبد الله بن حبشي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قطع سدرة؛ صوب الله رأسه في النار " _ يعني: من سدر الحرم _.

قال الهيثمي في " مجمع الزوائد "[١٢]: " رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات ".

---

(١) ينظر : زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم: (٣٦٧/٤) .
(٢) ينظر : المنار المنيف في الصحيح والضعيف : (ص١٢٧) .
(٣) (١/ ٢٦٧) .
(٤) (٢٦١/٤رقم٥٢٣٩) .
(٥) (٦/ ١٣٩ رقم ١١٥٣٨) .
(٦) (٥/ ١٨٢ رقم٨٦١١) .
(٧) (٤/ ١١٩ _ ١٢٠) .
(٨) (٢/ ٥٤ _ ضمن الحاوي للفتاوي) .
(٩) (٣/ ٥٠ رقم٢٤٤١) .
(١٠) (٩/ ٢٣٧رقم٢١٥) .
(١١) (١١/ ٤٤) ، (١٤/ ٤٠٥) .
(١) (٣/ ٣٤٨ رقم٥٦٩٨) .

قلت: إسناده ضعيف؛ ابن جريج مدلّس ولم يصرّح بالتحديث، وسعيد بن محمَّد لم يوثقه غير ابن حبّان، وقال الذهبي في "الميزان"[١]: "فيه جهالة، فليحرّر حاله" .

و قال البيهقي في "معرفة السنن والآثار"[٢]: روي موصولاً ومسنداً، وأسانيده مضطربة معلولة. وقد استبعد الطحاوي أيضاً سماع سعيد بن محمَّد من عبد الله بن حُبْشي، وشكك البيهقي في سماعه كذلك.

ثانياً: حديث علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-:

أخرجه الطحاوي في "شرح مشكل الآثار"[٣]،والطبراني في" المعجم الأوسط"[٤] كلاهما من طريق هشام بن سليمان، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن الحسن بن محمد بن علي، عن أبيه، عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اخرج ناد في الناس: من الله لا من رسوله، لعن الله قاطع السدر».

قلت: إسناده ضعيف؛ منقطع، قال الطحاوي في" شرح مشكل الآثار"[٥]: " الحسن بن محمد لم يسمع من علي ولم يولد في زمنه" .

وقال الطبراني في " المعجم الأوسط "[٦] : "لم يرو هذا الحديث عن عمرو بن دينار، عن الحسن بن محمد إلا إبراهيم بن يزيد، ولا عن إبراهيم إلا هشام بن سليمان ".

ثالثاً : حديث أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها-:

أخرجه الطحاوي في "شرح مشكل الآثار"[٧] والطبراني في "المعجم الأوسط"[٨] ، والخطيب في " موضح أوهام الجمع والتفريق "[٩] ثلاثتهم من طريق مَليح بن وكيع بن الجرّاح عن أبيه عن محمد بن شَريك عن عمرو بن دينار عن عروة عن عائشة مرفوعًا: "إنّ الذين يقطعون السّدر يُصبُّون في النَّار على رؤوسهم صبًّا".

قلت : الصواب أنّه مرسلٌ فقد أعله الطحاوي والبيهقي بالإرسال، ونقل البيهقيُّ عن أبي علي النيسابوري أنّه قال: ما أراه حَفِظه عن وكيع، وقد تكلّموا فيه -يعني: القاسم-، والمحفوظ

(٢) (١٥٧/٢) .
(٣) (٣٤٩/٨رقم١٢١٦١) .
(٤) (٤٣٠/٧رقم٢٩٨١) .
(٥) (١٨٦/٤رقم٣٩٣٢) .
(٦) (٤٣٠/٧) .
(٧) (١٨٦/٤رقم٣٩٣٢) .
(٨) (٤٢٤/٧رقم٢٩٧٦) .
(٩) (٣٧٩/٥رقم٥٦١٥) .
(١٠) (٤٦/١) .

رواية أبي أحمد الزُّبيري ومَنْ تابعه على روايته عن محمد بن شريك عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس عن عروة مرسلًا.

وصوّب الدارقطني في "العلل"[١] أنه من قول عروة بن الزبير.

رابعاً : حديث عمرو بن أوس الثقفي-رضي الله عنه-:

رواه الطبراني في " المعجم الكبير"[٢] من طريق الحسن بن عنبسة، ثنا علي بن هاشم، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، وسليمان الأحول، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن عمرو بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قطع السدر إلا من الزرع بنى الله له بيتا في النار» .

قلت : إسناده ضعيف؛ الحسن بن عنبسة، ضعيف، قال الهيثمي في " مجمع الزوائد "[٣] : " رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن عنبسة؛ ضعفه ابن قانع".

خامساً : حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده :

رواه تمّام في "فوائده"[٤] ، والبيهقي في " السنن الكبرى"[٥] كلاهما من طريق محمد بن نوح الْجُنْدِيسَابُورِيُّ، ثنا عبد القدوس بن محمد بن عبد الكبير بن شعيب بن الحبحاب، حدثني عمي عبد القاهر بن شعيب، ثنا بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قاطع السدر يصوب الله رأسه في النار»

قلت: إسناده حسن؛ محمد بن نوح ثقة مأمون. قاله الدارقطني كما في "تاريخ الخطيب"[٦] ، والباقون معروفون من رجال "التهذيب".

وحسن إسناده الشيخ الألباني في " سلسلة الأحاديث الصحيحة"[٧] حيث قال: " وهذا إسناد حسن، كما هو المعروف في إسناد بهز بن حكيم عن أبيه عن جده".

وكذلك حسن إسناده الشيخ الأرنؤوط كما في تحقيقه " لجامع الأصول"[٨] .

(١) (١٤/ ٢١٦) .
(٢) (١٧/٤١رقم ٨٦) .
(٣) (٤/٦٩رقم٦٢٧٥) .
(٤) (٢/٤٢رقم١٠٩٠) .
(٥) (٦/٢٣٢رقم١١٧٦٨) .
(٦) (٣/ ٣٢٤) .
(٧) (٢/١٧٥رقم٦١٥) .
(١) (١١/٧٤٥) .

وبهذا يتضح أن طرق الحديث لا يثبتُ منها شيء سوى حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه فهو حديث حسن، والله أعلم.

أن أحاديث النهي عن قطع السدر تحمل على أحد معنيين:

الأول: قطع السدر الذي يستظل به الناس عبثاً من غير حاجة ولا مصلحة.

الثاني: قطع شجر السدر الذي يكون في الحرم .

قال الشيخ الألباني في" سلسلة الأحاديث الصحيحة"[1]:" تأوله أبو داود بقوله " هذا الحديث مختصر، يعني: " من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها: صوب الله رأسه في النار ".

وذهب الطحاوي إلى أنه منسوخ، واحتج بأن عروة بن الزبير - وهو أحد رواة الحديث - قد ورد عنه أنه قطع السدر ...

قلت: وأولى من ذلك كله عندي أن الحديث محمول على قطع سدر الحرم، كما أفادته زيادة الطبراني في حديث عبد الله بن حبشي - والزيادة هي " يعني: من سدر الحرم " -، وبذلك يزول الإشكال، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات".

المطلب الثالث: الإمام البرزالي وحديث الذي وقصته ناقته وهو محرم فمات

كان الإمام البرزالي[2]- رحمه الله- شديد التأثر إذا قرأ حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- في قصة الرجل الذي كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فوقصته ناقته وهو محرم فمات فكان إذا قرأه يبكي، ويرق قلبه، قال ابن ناصر الدمشقي- رحمه الله – في كتابه " الرد الوافر "[3] :

"ولقد حكى بعض المشايخ أنه كان إذا قرأ الحديث، ومر به حديث ابن عباس في قصة الرجل الذي كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فوقصته ناقته وهو محرم فمات.... الحديث، وفيه: "فإنه يُبعث يوم القيامة ملبياً"، فكان إذا قرأه يبكي، ويرق قلبه، فمات محرما بخليص".

(٢) (١٧٥/٢رقم٦١٥) .
(٣) القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد ابن أبي يدّاس البرزالي الإشبيلي ثم الدمشقيّ، أبو محمد، عَلَم الدين: محدّث مؤرخ. أصله من إشبيلية، ومولده بدمشق، زار مصر والحجاز، وتوفي محرماً في خليص في ثالث ذي الحجة، سنة ٧٣٨هـ . ينظر : "تذكرة الحفاظ" (٢٨٣/٤)،و الأعلام لخير الدين الزركلي (١٨٢/٥).
(٤) (ص١١٩-١٢٠) .

فقد مات الحافظ البرزالي صاحب التاريخ والمعجم الكبير بخُليص[1] محرماً في ثالث ذي الحجة، سنة ٧٣٨هـ .

فهذه من حسن الخاتمة للحافظ البرزالي أن يموت محرماً ، فالمسلم إذا كان ملازمًا لطاعة الله مستقيمًا على طاعته فإنه حريّ أن يختم له بالخير، وأن يموت على ما عاش عليه من الطاعة والتوحيد ومحبة الحديث النبوي .

المطلب الرابع: دفع التعارض بين هذا الحديث وحديث " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً "[2]

قال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله- [3]: " الحديث ليس ظاهره أنه يكون بإزار ورداء، الحديث يقول: يلبي، ولم يقل: فإنه يبعث يوم القيامة بإزاره وردائه.

هل في الحديث أنه قال: يبعث بإزاره وردائه؟ لا.

إذاً: كيف نفرض أنه بإزاره وردائه، فإذاً ما قاله وعندنا أحاديث عامة أن الناس يبعثون حفاةً عراةً غرلاً فهو يحشر كما يحشر الناس، ولهذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يدفن الشهداء بثيابهم ولكنه قال: "يأتون يوم القيامة وجروحهم تثعب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك"[4].

والمحرم يحشر حافياً عارياً ملبياً، وليس هناك ما يمنع ذلك، وأول من يكسى في الموقف إبراهيم عليه السلام .

المطلب الخامس: كل إنسان يُبعَثُ على ما مات عليه:

ويدل على ذلك: حديث جابر- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه"[5].

قال النوَوي-رحمه الله-: "قال العلماء: معناه: يبعث على الحالة التي مات عليها"[1].

---

(١) واد كثير الماء والزرع، يقع شمال مكة على مسافة مائة كيل عنده مسجد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ينظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة لمحمد شُرَّاب (ص١٠٩) .

(٢) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق، باب الحشر (١٠٩/٨رقم٦٥٢٧)، ومسلم في "صحيحه" كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢١٩٤/٤رقم٢٨٥٩) .

(٣) دروس الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١٨٤/١١) دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية .

(٤) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله (١٨/٤رقم٢٨٠٣)، ومسلم في " صحيحه" كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٤٩٥/٣رقم١٨٧٦) .

(٥) رواه مسلم في "صحيحه" كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٢٠٦/٤رقم٢٨٧٨).

وقال ابن القَيِّم-رحمه الله- : "الرجل يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه"[٢]، ولهذا المعنى أدلّة وشواهد؛ منها:

١- المحرم إذا مات بُعث يوم القيامة ملبِّيًا: لحديث ابن عباس في الصحيحَيْن في الرجل الذي وَقَصَتْه ناقته وهو مُحْرِمٌ مع النبي في حجة الوداع، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اغسلوه بماء وسدر، وكفِّنوه في ثوبين، ولا تُحَنِّطُوه، ولا تُخَمِّروا رأسَه؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة مُلَبِّيًا ".

٢- الشهيد يُبْعَث يوم القيامة وجُرحه يثعب دمًا: اللون لون الدم، والرِّيح ريح المسك؛ دلَّ عليه حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - المتفق عليه: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال:" لا يُكْلَم أحدٌ في سبيل الله - والله أعلم بمن يُكْلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجُرحه يَثْعَبُ دمًا، اللون لون دم، والرِّيح ريح مِسْك ".

٣- الغالُّ من الغنيمة، يأتي يوم القيامة بما غلَّ: لقوله - تعالى -: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)[٣].

قال القرطبي-رحمه الله-: "(وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؛ أي: يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته، معذبًا بحمْله وثقله، ومرعوبًا بصَوْته، ومُوَبخًا بإظهار خيانته على رُؤُوس الأشهاد"[٤].

٤- آكل الرِّبا: يبعث يوم القيامة على حال مُعَينة استحَقَّها لأكلِه الربا، فإنه يُبعث يوم القيامة كالمجنون الذي أصابَه المسّ؛ لقوله - تعالى -: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)[٥].

قال ابن كثير-رحمه الله- : "أي: لا يقومون مِن قُبُورهم يوم القيامة، إلا كما يقوم المصْرُوع حال صرعه، وتخبُّط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا، وقال ابن عباس: آكلُ الرِّبا يُبْعَثُ يومَ القيامة مجنونًا يُخْنَقُ"؛ رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبير، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان نحو ذلك"[٦].

٥- الغادر: فإنه يوم القيامة تُرفَع له راية تُبَيِّن غدرته، لا سيما مَن كانتْ له ولاية عامة؛ بأن كان سُلطانًا على عامَّة الناس؛ لأنه إذا غدر فغدرته يتَعَدَّى ضررُها إلى خلْقٍ كبيرٍ؛ ويدل

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٢١٠/١٧) .
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٧٩) .
(٣) سورة آل عمران آية (١٦١) .
(٤) تفسير القرطبي (٢٥٦/٤) .
(٥) سورة البقرة آية (٢٧٥)
(٦) تفسير ابن كثير (٤٥٦/١) .

على ذلك حديث ابن عمر - المتَّفق عليه - قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يُرْفَعُ لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان"[١]، وفي رواية لمسلم من حديث أبي سعيد - رضي الله عنه -: "ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير على عامَّة"[٢].

فالغالُّ وآكلُ الربا والغادر، كلُّها أعمالٌ استمرَّ عليها أصحابها حتى ماتوا؛ فيُبعَثُون يوم القيامة على حالٍ تُنَاسِبُ ما ماتوا عليه؛ لأنهم لو تابوا قبل الموت لتابَ الله عليهم، وما تقدَّم بعض الشواهد التي دلَّت عليها النصوص وتبقى عمومُ الأعمال تدخل تحت قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " يُبعَث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه "[٣] ؛ ولذا ينبغي على المسلم أن يحسنَ العمَل؛ لتحسن الخاتمة، فيحسن الحال التي يبعث عليها.

قال ابنُ القَيِّم-رحمه الله-: "وهذا من أعظم الفقه أن يخافَ الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنة"[٤].

المطلب السادس: الفوائد المستنبطة من الحديث

هذا الحديث من الأحاديث العظيمة، مع قلة كلماته، فقد اشتمل على مسائل عديدة وأحكام كثيرة، فمنها أحكام في الحياة ، وأحكام في الموت ، قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله- في كتابه " الشرح الممتع"[٥] : "ويستدلُّ بهذا الحديث على مسائل عديدة، وهو من آيات الله - عز وجل - أن تقع حادثة لواحد من الصَّحابة، تؤخذ منها أحكام عديدة، أحكام في الحياة، وأحكام في الموت، وهذا من بركته صلى الله عليه وسلم أن الله يبارك في علمه، وقد أخذ ابن القيم من هذا الحديث اثنتي عشرة مسألة، وفيه أكثر مما ذكر عند التأمل" .

وقد استنبط ابن القيم من هذا الحديث اثنتي عشرة مسألة، وابن الملقن أكثر من عشرين مسألة، وابن عثيمين أكثر من ثلاثين مسألة .

الفوائد والمسائل المستنبطة من الحديث ما يلي[٦] :

(١) رواه البخاري في " صحيحه" في الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم (٤١/٨رقم٦١٧٧) ، ومسلم في" صحيحه" في كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (١٣٥٩/٣رقم١٧٣٥) .
(٢) رواه مسلم في" صحيحه" في كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (١٣٦١/٣رقم١٧٣٨) .
(٣) رواه مسلم في "صحيحه" كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت(٢٢٠٦/٤رقم٢٨٧٨).
(٤) الداء والدواء (ص١٦٧) .
(٥) (١٣٨/٧) .
(٦) معظم هذه الفوائد والمسائل مستفادة من كلام ابن القيم في كتابه " زاد المعاد" (٢٢٠/٢-٢٢٨)، وابن الملقن في كتابه "الإعلام بفوائد عمدة الأحكام " (٤٤٧/٤-٤٥٨)، وابن عثيمين في كتابه "فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوم المرام "(٣٩٧/٥-٤٠٥) .

١- جواز استفتاء العالم في وقت الوقوف بعرفة: لأن هؤلاء استفتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة، فلا يقال: إن هذا اليوم يوم دعاء فلا ينبغي أن يُستفتى عن الشيء .
٢- أن العلم أفضل من الذكر والدعاء المجرد: لأن النبي صلى الله عليه وسلم تشاغل عن دعائه بإجابتهم وإفتائهم .
٣- أن حوادث المركوبات موجودة حتى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .
٤- وجوب تغسيل الميت: لقوله : " اغسلوه" .
٥- أنه يتعين الماء في تغسيل الميت: لقوله: "اغسلوه بماء" .
٦- أن الماء المتغير بالطاهر لا ينتقل عن الطهورية : لقوله: " اغسلوه بماء وسدر " .
٧- مشروعية الجمع بين الماء والسدر : لقوله: " اغسلوه بماء وسدر" .
٨- جواز الاغتسال للمحرم: لقوله: " اغسلوه" فهذا اغتسال .
٩- جواز استعمال المحرم للسدر، والمنظفات كلها ما عدا المطيب، لقوله: " بماء وسدر ".
١٠- وجوب التكفين: لقوله: "كفنوه في ثوبيه" .
١١- أن تغسيل الميت وتكفينه فرض كفاية وليس فرض عين: ووجهه أنه لم يأمر جميع الناس أن يغسلوه، ولا هو أيضاً باشر غسله ولا تكفينه فهو إذا فرض كفاية .
١٢- أنه يشترط أن يكون الغاسل مكلفاً: أي: بالغاً عاقلاً، وذلك لأن توجيه الخطاب على سبيل الوجوب لا يكون إلا للبالغين، إذ إن غير البالغ قد رفع عنه القلم .
١٣- جواز تغسيل المحرم للميت: ووجهه أن جميع هؤلاء محرمون، إذ يبعد أن أحداً مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحرم .
١٤- أن الكفن مقدم على الدَّين : وذلك من قوله : "كفنوه في ثوبيه" ، ولم يستفصل هل عليه دين أم لا ؟ .
١٥- أن المشروع في المحُرِم أن يكفن في ثوبي إحرامه: لقوله:" في ثوبيه" .
١٦- أنه إذا كان للميت تركة فلا ينبغي أن يجهز إلا منها: لقوله: " في ثوبيه" .
١٧- وجوب الرجوع إلى العالم .
١٨- جواز الوقوف على الراحلة في عرفة .
١٩- أنه إذا مات المحرم لا يُكمَّل نسكه، ولو كان فريضة: وجه ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمرهم بإتمام نسكه.
٢٠- مشروعية تحنيط الميت: لأنه قال : " ولا تحنطوه"، فدل هذا أن من عادتهم التحنيط، وإلا لم يكن للنهي عنه فائدة .
٢١- وجوب اجتناب الطيب للمحرم: لقوله " ولا تحنطوه"، وعلَّل ذلك بأنه يبعث يوم القيامة ملبيًّا .
٢٢- أنه لا يجوز للمحرم أن يغطي رأسه: لقوله: " ولا تخمروا رأسه" .
٢٣- جواز استظلال المحرم بالشمسية ونحوها: لأن النهي عن التغطية لا عن التظليل .
٢٤- إثبات البعث: لقوله: " بأنه يبعث يوم القيامة ملبيًّا " .

٢٥- جواز الاقتصار في الكفن على ثوبين: لقوله: " في ثوبيه " .
٢٦- أنه لو أغمي على المحرم فإنه لا ينقطع إحرامه .
٢٧- أنه يجوز للمحرم أن يتجرد من ثياب إحرامه: لقوله : " اغسلوه " .
٢٨- أن الناس يتكلمون في يوم القيامة: لقوله: " بأنه يبعث يوم القيامة ملبيًا " .
٢٩- ثبوت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه أخبر عن أمر غيبي لا يُدرك بالعقل .
٣٠- قدرة الله عزَّ وجلَّ حيث يبعث هذا الإنسان على ما مات عليه .
٣١- الحديث دليل على أن الإحرام لا يبطل بالموت؛ لأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم أن يقربوه طيباً أو يغطوا رأسه، وقال : " بأنه يبعث يوم القيامة ملبيًا " .
٣٢- أن من شرع في عمل طاعة ثم حال بينه وبين إتمامه الموت رُجى له أن يكتبه في الآخرة من أهل ذلك العمل، والله تعالى أعلم .
٣٢- أن الميت المحرم يُجنَّب ما يُجنَّبه الحي المحرم من محظورات الإحرام .
٣٣- فيه استحباب دوام التلبية إلى أن ينتهي الإحرام .
٣٤- جواز التكفين في الثياب الملبوسة، وذلك من قوله : "كفنوه في ثوبيه" .
٣٥- فيه التنبيه والتحريض على لقاء الله تعالى بحالة تناسب العبودية لتكون شاهداً لصاحبها يوم القيامة .
٣٦- استنبط الإمام الشافعي من هذا الحديث جواز قطع شجر السدر ، لقوله : " اغسلوه بماء وسدر" .
٣٧- استحباب التلبيد للمحرم، لقوله في الرواية الأخرى " ملبداً " .
٣٨- أنّ المحرم ممنوع من الطّيب، لقوله : " ولا تمسُّوه بطيب " .
٣٩- أنَّ من مات على عمل صالِح بُعِث على ما مات عليه ، ورُجِي له الخير .
٤٠- السِّدْر ليس من جنس الطِّيب ، وإن وُجدت له رائحة طيبة .
٤١- المحرم يُباين الشَّهيد بأنه يُغسَّل ويُصَلَّى عليه، ويشتركان في التَّكفين في الثِّياب التي ماتوا فيها .
٤٢- أنَّ المحرم لا يكفن إلا في مثل لباسه غير مخيط.
٤٣- فضل الموت في الحج .
٤٤- من عقيدة أهل السنة الإيمان بالبعث.
٤٥- الطيب لفظة عامة ، فكل ما سمي طيباً فهو محظور على المحرم .
٤٦- مشروعية التلبية بالحج .
٤٧- فضل التلبية لقوله : "يبعث ملبيا" .
٤٨- إثبات اسم من أسماء الآخرة وهو يوم القيامة .
٤٩- الجزاء من جنس العمل ، فكما جاء ملبياً فإنه يبعث ملبياً .
٥٠- أن الوقوف بعرفة من مشاعر الحج ، بل ركن الحج الأعظم .
٥١- جواز الوقوف بعرفة واقفاً .

٥٢- أن هذا الحكم مختص بالرجل دون المرأة .
٥٣- أن المرء لا يدري بأي أرض يموت .
٥٤- الشهادة لمن شهد له الرسول بحسن الخاتمة .
٥٥- أن الواجب في تغسيل الميت مرة واحدة .
٥٦- حرص الصحابة في نقل حجة رسول الله .
٥٧- استحباب الإســـراع بتجهيز الميت .
٥٨- رواية مسلم استَدلَّ بها مَن يقول: إنَّ تغطية المحرمِ وجهَه محظورٌ من محظورات الإحرام.
٥٩- الحديث فيه دَلالةٌ على أنَّ المراد بالوقوفِ في عرفة هو التعبُّد لله تعالى هناك لا ذات القِيام.
٦٠- الاعتناء بنظافة الميت وتنقيته، إذ أمرهم أن يجعلوا مع الماء سدراً.
٦١- جواز الاقتصار في الكفن على الإزار والرداء.
٦٢- فيه: إطلاقُ لفظِ الواقفِ على الراكبِ بعرفة.
٦٣- فيه دليل على أنّ غير المحرم يحنّط كما يخمّر رأسه .
٦٤- أن المحرم لا يحرم عليه مباشرة الأشياء المنقية، التي ليس فيها طيب، من سدرٍ، وأشنانٍ، وصابونٍ، وغيرها.
٦٥- أن الوتر في الكفن ليس بشرط في الصحّة، بل هو مستحبّ لغير المحرم، وهو قول الجمهور .
٦٦- الأصل أن ما ثبت لشخص في زمنه - صلى اللّه عليه وسلم - ثابت لغيره حتى يدلّ الدليل على خلافه، ولم يثبت خلافه .
٦٧- يجوز للمحرم وضع الكمام على فمه وأنفه سواء كان ذلك لحاجة أو لغير حاجة لأنه يجوز على الصحيح من قولي أهل العلم أن يغطي المحرم وجهه .
٦٨- عدم الاجتهاد في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وإنما يرد الحكم إليه .
٦٩- أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب .
٧٠- المحرمة إذا ماتت في حال إحرامها فإنها تكفن في ثيابها التي أحرمت بها.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث أحمد الله -سبحانه وتعالى- على ما منّ به عليّ من إتمامه، وقد ظهر لي من خلال هذا البحث النتائج التالية :

- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته حيث أرشدها وبلغها ما يكون به سبب فلاحها في الدين والآخرة .
- أن كثيراً من الأحاديث تحتاج إلى بسط وافر في شرحها لما تضمنته ألفاظها من حكم وأحكام .
- أن من واجب المختصين تقريب السنة إلى عموم الأمة .

- آية من آيات الله ـ عزّ وجل ـ أن تقع حادثة لواحد من الصحابة، تؤخذ منها أحكام عديدة، أحكام في الحياة، وأحكام في الموت .
- أن حديث المحرم الذي وقصته ناقته فمات كثر إخراجه في دواوين السنة النبوية؛ لأهميته وكثرة فوائده .
- هذا الحديث له ألفاظ متقاربة، ومداره على سعيد بن جبير ويرويه عنه اثنا عشر راوياً، ثمانية منهم ليس في رواياتهم زيادة " ولا تخمروا وجهه " .
- رواية الجماعة في الرأس وحده، وذكر الوجه غريب .
- بعض أهل العلم يرى أن زيادة " ولا تخمروا وجهه " ثابتة ، وهي من زيادة الثقة .
- لم يذكر في شيء من طرق هذا الحديث تسمية المُحرِم الذي وقصته ناقته فمات .
- تنوعت تبويبات المحدثين على الحديث ، ويرجع ذلك إلى اختلاف فهم واستنباط المحدثين من الحديث .
- جاء في الحديث جملة من الأحكام المتعلقة بالحياة والموت .
- أن الكمام الذي يوضع على الوجه ليس من جنس المخيط الذي نهى عنه، والمحرم غير ممنوع من تغطية وجهه على القول الراجح .
- أن الإحرام لا يبطل بالموت .
- أن المحرم بحج أو عمرة إذا مات قبل إتمام نسكه أنه لا يكمل عنه ولو كان فرضاً .
- أن أحاديث النهي عن قطع السدر لا يثبتُ منها شيء سوى حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه فهو حديث حسن .
- كل إنسان يبعث على مات عليه .
- كثرة الفوائد المستنبطة من الحديث، وهذا من بركته صلى الله عليه وسلم أن يبارك الله – عز وجل – في كلامه وعلمه .

هذا ما تيسر طرحه في هذا البحث، وأسأل الله- تبارك وتعالى- أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمين .

فهرس المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.
٢- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ،مطبعة المدني- مصر.
٣- الإعلام بفوائد عمدة الأحكام : عمر بن علي بن أحمد الأنصاري، المعروف ابن الملقن، تحقيق: عبدالعزيز بن أحمد المشيقح، دار العاصمة، الطبعة الأولى،١٤١٧ هـ .
٤- الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل: شرف الدين موسى بن أحمد بن موسى أبو النجا الحجاوي ،المحقق :
٥- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي، الناشر : دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .
٦- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: علاء الدين الكاساني، الناشر دار الكتاب العربي، الناشر: دار الكتاب العربي، سنة النشر ١٩٨٢م .
٧- التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور،دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م.
٨- تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ .
٩- التعليق على صحيح مسلم : محمد بن صالح العثيمين، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ هـ .
١٠- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، عماد الدين ، تصحيح: نخبة من العلماء - نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١١- تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد. سوريا ، الطبعة الأولى١٤٠٦هـ.
١٢- تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ط١/١٩٨٤م.
١٣- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٩٨٠م .
١٤- جامع الأصول في أحاديث الرسول: المبارك بن محمد بن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط - نشر مكتبة دار البيان، بيروت وغيرها، ١٣٩٢هـ.
١٥- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ .
١٦- حجة النبي صلى الله عليه وسلم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، تحقيق: ممدوح حقي - نشر دار اليقظة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٦٦م.

١٧- حلية الأولياء : أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، دار الكتاب العربي ، ط ٤ عام ١٤٠٥هـ.
١٨- الداء والدواء: ابن القيم، تحقيق: محمد جميل غازي - نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٩٨هـ.
١٩- ذخيرة العقبى في شرح المجتبى: محمد بن علي بن آدم بن موسى الإثيوبي، الناشر: دار المعراج الدولية للنشر.
٢٠- زاد المسير في علم التفسير: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت .
٢١- زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط - نشر مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار، ط٣، ١٤٠٦هـ.
٢٢- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.
٢٣- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني ،المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .
٢٤- سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ط/١٩٩٤م .
٢٥- سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث.
٢٦- سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، نشر دار الفكر، بيروت.
٢٧- سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدار مي، تحقيق فواز أ حمد وخالد السبع، دارا لكتاب العربي بيروت ،ط١عام ١٤٠٧ هـ.
٢٨- السنن الصغرى: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار، المدينة المنورة الطبعة الأولى عام ١٤١٠ هـ.
٢٩- السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي. دار الكتب العلمية، تحقيق د. عبد الغفار سليمان وسيد كسروي، بيروت ط ١ عام ١٤١١ هـ .
٣٠- سنن النسائي (المجتبى): أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. مكتبة المطبوعات الإسلامية. حلب الطبعة الثانية عام ١٤٠٦ هـ.
٣١-شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٣٢- الشرح الممتع على زاد المستقنع: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار النشر : دار ابن الجوزي، الطبعة : الأولى،١٤٢٢ هـ .
٣٣- شرح صحيح مسلم: يحيى بن شرف النووي الشافعي ، تحقيق: خليل الميس، ط. الأولى، عام ١٤٠٧ هـ، دار القلم، بيروت.
٣٤- شرح مشكل الآثار: أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة، سنة النشر ١٤٠٨هـ .

٣٥- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ .
٣٦- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط١٩٨٧/٣م .
٣٧- صحيح الجامع الصغير وزياداته: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي.
٣٨- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ،الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ .
٣٩- طريق الهجرتين وباب السعادتين: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ،الناشر : دار ابن القيم – الدمام، تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ .
٤٠- غريب الحديث: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي الجوزي، تحقيق : د. عبدالمعطي أمين قلعجي، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م.
٤١- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الناشر: دار المعرفة ، ١٣٧٩ هـ .
٤٢- فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام: محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولى،١٤٣٠هـ .
٤٣- الفوائد: تمام بن محمد بن عبد الله الرازي ،المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ .
٤٤- لسان العرب، ابن منظور المصري، دار صادر، بيروت .
٤٥- المدخل: محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، الناشر دار الفكر، سنة النشر ١٤٠١هـ.
٤٦- المدونة الكبرى: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني ،المحقق : زكريا عميرات، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .
٤٧- المدونة الكبرى: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني ،المحقق : زكريا عميرات، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .
٤٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل:أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
٤٩- مسند الحميدي: عبدالله بن الزبير أبو بكر الحميدي، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر : دار الكتب.

٥٠- مسند الطيالسي: سليمان بن داود الطيالسي، المحقق: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ .
٥١- مشارق الأنوار على صحاح الآثار: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي، دار النشر : المكتبة العتيقة ودار التراث .
٥٢- المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي ،المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ .
٥٣- معجم ابن الأعرابي: أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد البصري، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ .
٥٤- المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني ، دار الحرمين. القاهرة ١٤١٥ هـ.
٥٥- المعجم الصغير سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب الإسلامي ، بيروت ط ١ عام ١٤٠٥ هـ.
٥٦- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني ، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة الزهراء. الموصل ١٤٠٤ هـ. ط ٢.
٥٧- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق : عبد السلام محمد هارون، الناشر : دار الفكر .
٥٨- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، الناشر : دار الفكر – بيروت .
٥٩- الملخص الفقهي: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الناشر : دار العاصمة، الرياض، الطبعة : الأولى، ١٤٢٣هـ.
٦٠- المنار المنيف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق: د. عبد الفتاح أبو غدة، ط. الثانية، عام ١٤٠٢ هـ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
٦١- منحة العلام في شرح بلوغ المرام :عبدالله بن صالح الفوزان، دار الجوزي، الطبعة الثالثة، ١٤٣٢ هـ .
٦٢- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: محيي الدين يحيى بن شرف النووي ،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ هـ .

آليات نَحْو النص في شروح الشواهد النحوية

د. يوسف حسن حسن العجيلي

أستاذ النحو والصرف المساعد

بكلية التربية بالحديدة-جامعة الحديدة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـدُ....

فقد لجأ النحاة إلى اقتطاع الشاهد الشعري من نصه؛ فيكتفون ببيت أو بشطر أو بجزء من البيت؛ ويعود ذلك إلى أن اهتمامهم كان منصبا على القاعدة والمعيارية. واهتمامهم هذا خط لهم منهجا معينا في تعاملهم مع الشواهد النحوية الشعرية.

ولكن حينما نذهب إلى كتب شروح الشواهد النحوية نجد الاهتمام مختلفا؛ فالشارح ينصب اهتمامه على فهم هذه الأبيات وتفسيرها والكشف عن معانيها، ولتحقيق ذلك اتبع آلياتٍ متنوعة يمكن أن تدرج فيما يسمى الآن بـــ(نحو النص Text grammar).

وقد صار معلوما أن نحو النص اتجاه حديث في اللسانيات المعاصرة، يتعامل مع النص باعتباره وحدة التحليل الكبرى؛ فيقف منه على جوانب تماسكه وترابطه، وسياقه، وما يتعلق بمنتجه ومتلقيه، وعلى كل ما يؤدي إلى فهم أعمق وأرحب للمعنى المراد من النص.

ولذا، يهدف هذا البحث إلى الكشف عن آليات ذات ارتباط وثيق بنحو النص وقضاياه اتبعها شراح الشواهد النحوية بغية فهم الشاهد الشعري وتفسيره وإدراك معناه إدراكا صحيحا.

وبذلك تتجلى أهمية هذا البحث في كونه يمثل توجها علميا في إثبات أن التراث العربي لم يخلُ من إسهامات جليلة تقع في إطار نحو النص.

وقد اعتمد الباحث في تحقيق هدفه هذا على المنهج الوصفي القائم على الاستقراء والتحليل من خلال خطة تمثلت في خطة بدأت بمقدمة وانتهت بخاتمة، وبينهما أربعة مباحث هي:

- **المبحث الأول: آلية إعادة الشاهد إلى مكانه من النص.**
- **المبحث الثاني: آلية الوقوف على علاقات سبك النص وحبكه.**
- **المبحث الثالث: آلية المقبولية في مواجهة القصدية.**
- **المبحث الرابع: آلية الاستعانة بسياق الموقف والتناص.**

المبحث الأول: آلية إعادة الشاهد إلى مكانه من النص

لجأ شراح الشواهد النحوية إلى إعادة البيت المفرد أو الجزء من البيت إلى مكانه من نص القصيدة التي ينتمي إليها، وذلك بذكر أبيات سابقة عليه أو لاحقة له، وهم بعملهم هذا يدركون أن الفهم الصحيح لمعنى الشاهد لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال التعامل مع النص بوصفه وحدة كلية؛ فالأبيات السابقة أو اللاحقة تحتضن إشارات كاشفة للمعنى الذي يحمله البيت الشاهد. وهذه النظرة الكلية إلى النص بوصفه وحدة التحليل الكبرى هي أهم ما يميز نحو النص عن نحو الجملة، ويوضح ذلك ما يلي:

- جاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

يَحْسَبُه الجاهِلُ ما لم يَعْلَمَا
شَيْخًا على كُرْسِيِّهِ مُعَمَّمَا

وقد استشهد به على دخول نون التوكيد الخفيفة على الفعل المضارع المجزوم بـ(لم) تشبيهًا لها بـلا الناهية[(١)]. وهو في غايته هذه يكفيه هذا الجزء من النص.

وحينما أراد ابن السيرافي أن يشرح معنى هذا الشاهد لجأ إلى ذكر أبيات سابقة، أي أنه أعاد الشاهد إلى مكانه من النص، حتى يستطيع تفسير معناه تفسيرا صائبا، فذكر الأبيات التالية:

وحَلَبوها وابلاً وِدِيَما
فَأَغْدَرَتْ منها وطابًا زُمَّما
وقِمَعًا يُكْسَى ثُمالاً قَشْعَما
(يَحْسَبُهُ الجاهلُ ما لم يَعْلَما)
شيخًا على كرسِيِّهِ مُعَمَّما

وقد دفعه إلى ذلك أنه أراد تفسير العنصر الإحالي في (يحسبه) في البيت الشاهد بالعودة إلى العنصر الإشاري (وطابا) في البيت الثاني، وبفعله هذا استطاع أن يصل إلى المعنى الصحيح للشاهد، وهو أن الراجز أراد أن يبين أن اللبن الذي حلبوه كثير وأن رغوته كبيرة إلى درجة أن الجاهل يحسب الوطاب وعليه القمع برغوته الكبيرة شيخا قد لبس عمامة بيضاء[(٢)].

ولكن الشنتمري لم يفعل ما فعل ابن السيرافي، حيث ترك الشاهد منفردا كما جاء في كتاب سيبويه؛ ولم يستعن بأبيات سابقة في تفسيره؛ ولذا أخطأ في تفسيره وشرح معناه[(٣)]؛

(١) انظر: كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٢م، ٥١٦/٣.
(٢) انظر: شرح أبيات سيبويه، لابن السيرافي، تحقيق: محمد علي سلطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٦م ٢٦٦/٢، ٢٦٧. والوطاب: جمع وطب وهو زق اللبن، والزمم: جمع زام وهو الممتلئ الشديد الامتلاء، والثمال: مثل الرغوة، والقمع: الذي يصب فيه اللبن حتى يصل إلى الوطب، والقشعم: الكبير.
(٣) انظر: تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، للأعلم الشنتمري، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص٥٢٣. وقد نقل عبد السلام

يقول البغدادي:[١] "ولم يصب الأعلم في قوله: وصف جبلاً قد عمه الخصب وحفه النبات وعلاه، فجعله كشيخ مزمل في ثيابه معصب بعمامته وخص الشيخ لوقارته في مجلسه وحاجته إلى الاستكثار من الناس. هذا كلامه وكأنه لم يقف على هذه الأبيات"؛ فالبغدادي في خزانته أورد الأرجوزة كاملة، ووضع الشاهد في مكانه منها[٢]، وبذلك استطاع أن يدرك معنى الشاهد إدراكا صحيحا، وليس هذا فحسب، بل مكنته هذه الآلية من أن يعيب على الشنتمري؛ لأنه أخطأ في تفسيره نتيجة إهماله الوقوف على أبيات الأرجوزة لفهم معنى الشاهد.

- وجاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

وأنتَ امرؤٌ من أهل نَجْدٍ وأهلُنا تَهامٍ فما النَّجْدىُّ والمتغوّرُ

وقد استشهد به على رفع (المتغور) عطفا على (النجدي) مع ما في (الواو) من معنى (مع)[٣].

ولم يوفق ابن السيرافي في شرحه وتفسير معناه؛ لأنه تركه منفردا ولم يرجعه إلى مكانه من النص؛ حيث قال[٤]: "أنت امرؤ مخالف لنا في المكان الذي تسكنه من الأرض، أنت من أهل نجد ونحن من أهل تهامة، والموضعان مختلفان، فنحن لا نتفق، ويبعد ما بيننا كبعد بلادي من بلادك". وذلك أعطى الفرصة للأسود الغندجاني أن يعيب عليه تفسيره؛ فقد أعاد الأسودُ الغندجاني الشاهدَ إلى مكانه من النص، فذكر ستة عشر بيتا من قصيدة الشاهد، احتل الشاهد فيها البيت الرابع عشر، ونكتفي هنا بذكر تسعة أبيات منها، وهي[٥]:

وما زلتَ في إعمالِ طرفكَ نحوَنا بعينيكَ حتى كاد سرُّكَ يظهـرُ
لأهليَ حتى لامني كلُّ ناصـــحٍ شفيقٍ له قربى لديَّ وأيْصَـرُ
وقطَّعني فيكَ الصديقُ ملامـــةً وإني لأعْصي نَهْيَهُم حين أزْجَـرُ
وما قلتُ هذا – فاعلمنَّ- لصرمنا لحبلٍ، ولا هذا بساعة أقْصِـرُ
ولكنني أهلـــي فداؤكَ أتقـي عليكَ عيونَ الكاشحين وأحْذَرُ
وأخشى بني عمي عليكَ وربما يخافُ ويُتْقى عرضُهُ المتفكِّـرُ
وأنت امرؤٌ من أهل نجدٍ وأهلُنا تهامٍ، فما النجديُّ والمتغـوِّرُ
غريبٌ إذا ما جئتَ طالبَ حاجةٍ وحوليَ أعداءٌ وأنتَ مُشَهَّـرُ

هارون تفسير الشنتمري في هامشه الذي خصصه للشاهد دون تعليق على هذا التفسير، انظر: كتاب سيبويه٣/٥١٦.

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧م، ١١/٤١٤.

(٢) خزانة الأدب ١١/٤١٠.

(٣) انظر: كتاب سيبويه١/٢٩٩.

(٤) شرح أبيات سيبويه، لابن السيرافي١/٤٠٠، ٤٠١.

(٥) انظر الأبيات في: فرحة الأديب في الرد على ابن السيرافي في شرح أبيات سيبويه، للأسود الغندجاني، تحقيق: محمد علي سلطاني، دار الكتاب، دمشق، ١٩٨١م ، ص١٨٣، ١٨٤.

فقلتُ لها: أوصيتِ يا بثْنُ كافياً وكلُّ امرئ لم يرْعَهُ اللهُ مُعْورُ

وتعاملُ الغندجاني مع النص بوصفه كيانا واحدا جعله يصل إلى المعنى الصحيح للشاهد؛ حيث قال:(١) "ومعنى البيت – وهو لجميل- أن أهلي يرتابون بك إذا وجدوك عندهم؛ لأنك غريب بعيد الدار منهم، فينكرون كونك بين ظهرانيهم، فيجب أن تتجنب وتعرض. تحدّره بني عمها".

المبحث الثاني: آلية الوقوف على علاقات سبك النص وحبكه

السبك(Cohesion) والحبك(Coherence)(٢) هما أهم معيارين من معايير النصية التي وضعها العالم اللغوي دي بوجراند؛ وترجع أهميتهما إلى كونهما المعيارين اللذين يتصلان بالنص في ذاته؛ فالأول منهما يختص بالأدوات والوسائل الملفوظ بها التي نلمسها على سطح النص، بينما يختص الآخر بالعلاقات الملحوظة التي تدرك بالعقل بين أجزاء النص وجمله(٣). وهما بذلك يمثلان التماسك النصي الذي هو أهم موضوعات نحو النص، ليس هذا فحسب، بل يمنحان النص صفة الاستمرارية التي هي أهم صفة أساسية له، وهذه الصفة تعني أن في كل مرحلة من مراحل الخطاب نقاط اتصال بالسابقة عليها(٤).

ومحلل النص أو متلقيه لا يستطيع أن يسبر غور المعنى الذي يتضمنه النص، إلا من خلال وقوفه على وسائل سبك النص، وإدراكه وتتبعه علاقات حبكه.

وقد كان شراح الشواهد النحوية يقفون على هذه الوسائل والعلاقات من أجل تفسير الشاهد والكشف عن معناه، ويتضح هذا فيما يلي:

- جاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

تَعَلَّمَنْ ها لَعَمْرُ اللهِ ذا قسَمًا فاقْصِدْ بذَرْعِكَ وَانْظُرْ أيْنَ تَنْسَلِكُ

(١) المصدر السابق، ص١٨٣.

(٢) يفضل الباحث ترجمة د سعد مصلوح لهذين المصطلحين (Coherence – Cohesion) بالسبك والحبك من بين ترجمات مختلفة، انظر في ترجمة هذين المصطلحين المصادر التالية: نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول، المجلد العاشر، العددان: الأول والثاني، يوليو وأغسطس١٩٩١م، ص١٥٤. النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٨م، ص١٠٣. لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، د. محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط ٢، ٢٠٠٦م، ص٥، ١١. علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص١٤٥. نسيج النص: بحث فيما يكون الملفوظ به نصا، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص١٥. مدخل إلى علم لغة النص: تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٩٩م، ص: ١١، ٢٥، ٢٦.

(٣) انظر معايير النصية السبعة في:

- النص والخطاب والإجراء، ص:١٠٣: ١٠٧.

- Introduction to text linguistics, Beaugrande, R.A. and Wolfgang Dressler, London and New York, 1983, P: 3: 10.

(٤) انظر:

Cohesion in English, Halliday and Ruquaa Hasan, Longman, London, 1976, P:299.

وقد استشهد به علي الفصل بين (ها) التي للتنبيه وبين (ذا) الإشارية بـ(لعمر الله)[١].

وحينما أراد ابن السيرافي أن يشرح معني هذا الشاهد عالجه معالجة نصية تمثلت في معالجته الإحالة باسم الإشارة (ذا). ومن خلال معالجته تبين لنا أنه يمكن اعتبار هذه الإحالة **إحاله قبلية** حيث يقول عن (ذا): إنها "إشارة إلي خبر وكلام قد تقدم للمتكلم، فإذا فرغ من كلامه قال للمخاطب: تعلم والله للأمر هذا، أي: للأمر هذا الذي أخبرتك به"[٢].

ويمكن كذلك اعتبارها **إحالة بعدية**؛ حيث يقول:[٣] "ويجوز أن تكون الإشارة إلي أمر يذكره المتكلم في كلام يتلو كلامه هذا، كأنه يقول: والله للأمر هذا الذي أذكره لك بعد كلامي هذا".

ولم يكتف ابن السيرافي بذلك بل رجح أن تكون إحالة بعدية، حيث يقول[٤] :" وبيت زهير منه (أي من القول الثاني) لأنه قال بعده:

لَئِنْ حَلَلتَ بجَوٍّ في بَني أسَدٍ في دين عَمرِو وحَالَتْ بَينَنَا فدَكُ
لَيَأتِيَنَّكَ مِنِّي مَنطِقٌ قذَعٌ باقٍ كَمـا دَنَّسَ القُبطِيَّةَ الوَدَكُ

فالإشارة واقعة إلي ما يريد أن يفعله " ثم ذكر سياقا خارجيا يعينه علي فهم معني البيت، حيث قال:" والمخاطب بهذا الكلام الحارث بن ورقاء الصيداوي، وكان قد أغار على غطفان وأخذ راعي زهير يسارا وإبله".

- وجاء في كتاب سيبويه البيتان التاليان:

يا مَىَّ لا يُعْجِزُ الأيّامَ ذو حِيَدٍ فى حَوْمةِ الموتِ رَزّامٌ وفُرَّاسُ
يَحمى الصَّريمةَ أحدانُ الرِّجالِ له صَيْدٌ ومُجْتَرِئٌ بالليل هَمَّاسُ

وقد استشهد بهما علي جري الصفات على ما قبلها مع ما فيها من معنى التعظيم، ولو نصبت لجاز[٥].

وحينما تناوله ابن السيرافي والشنتمري بالشرح[٦] صححا خطأ سيبويه في إنشاد البيت الأول معتمدَين في ذلك على **المصاحبة المعجمية**، فصار البيت الأول بعد تصحيحهما:

يا مَىَّ لن يُعْجِزَ الأيّامَ مُبْتَرِكٌ فى حَوْمةِ الموتِ رَزّامٌ وفُرَّاسُ

حيث وضحا أن (ذو حيد) من وصف الوعل؛ فحِيَدُهُ نتوءٌ في قرنه، وهو لا يتناسب في المعنى مع الألفاظ التي جاءت صفات بعده، مثل: رزام وفراس، وهماس، أحدان الرجال له صيد، فالرزام الذي يصرع فريسته، والفراس الذي يدق الأعناق، والهماس من الهمس وهو المشي في خفاء، وكل هذه الصفات تكون للأسد؛ ولذا فهي تتصاحب معجميا مع (مبترك)

(١) كتاب سيبويه٣/٥٠٠.
(٢) شرح أبيات سيبويه، لابن السيرافي٢/٢٤٦.
(٣) السابق٢/٢٤٦.
(٤) السابق٢/٢٤٦.
(٥) كتاب سيبويه٢/٦٧، ٦٨.
(٦) انظر: تحصيل عين الذهب، ص٢٦٤. شرح أبيات سيبويه، لابن السيرافي١/٤٩٨.

التي تعني الأسد، ويستقيم معنى البيتين بهذه المصاحبة. ووضحا أيضا أن ما وقع فيه سيبويه كان نتيجة لأنه ألف صدر بيت إلى عجز بيت آخر، وصحة ما أنشده سيبويه كالتالي:

يا مَيَّ لا يُعْجِزُ الأيامَ ذو حِيَدٍ بمُشْمَخِرٍّ به الظَّيَانُ والآسُ

وهذا البيت يأتي في نص القصيدة قبل البيتين الشاهدين بأبيات، و(ذو حيد) تتناسب فيه تماما مع : مشمخر، والظيان والآس؛ فالمشمخر: الجبل العالي وهو موطن الوعل، والظيان: ياسمين البر وهو ما يأكله الوعل، والآس: نقط العسل.

- وأورد ابن السيرافي في كتابه لذي الرمة البيتين التاليين:

أفي مريةٍ عيناكَ إذْ أنتَ واقفٌ بحزوى منَ الأظعانِ أمْ تستبينُها

فقالَ أراها يحسِرُ الآلُ مرَّةً فتبدو وأخرى يكتسي الآلَ دونُها

مقدما لهما بقوله:[1] "قال سيبويه في الظروف: وقد يكون في (دونها) الرفع[2]. يريد أنه يجوز فيه التمكن، ووقع بعد هذا في الكتاب بيتان، وقيل: إنهما ليسا من الكتاب". وقد أتى بهما على اعتبار أن الثاني منهما شاهد على الرفع في (دونها).

وحينما تناول البيت الثاني بالشرح قال في آخر كلامه:[3] "وقوله: (أخرى) في موضع نصب على الظرف وهو ظرف من الزمان. والمعنى: ومرة أخرى يكتسي الآلَ دونُها، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه". ونلاحظ في كلامه أنه أعطى كلمة (أخرى) التي في الشطر الثاني ما يُعطى لكلمة (مرة) التي في الشطر الأول من إعراب، وهو بذلك يقف على ما نسميه في نحو النص **بالعلاقة الاستبدالية**، فهي هنا واقعة بين كلمة (أخرى) وكلمة (مرة)، ودليل ذلك أنه قدّر كلمة (مرة) بوصفها موصوفا محذوفا لوجود دليل عليها.

- وجاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

أهْوَى لها أسْفَعُ الخَدَّيْنِ مُطَّرِقٌ ريشَ القَوَادِمِ لم تُنصَبْ له الشَّبَكُ

وقد استشهد به علي نصب (ريش) بالصفة المشبهة (مطرق) تشبيها باسم الفاعل[4].

وحينما تناوله ابن السيرافي والشنتمري بالشرح وقفا على علاقة الحبك المعنوية التي تربط آخر جملة في البيت بما قبلها من كلام؛ فقالا: وقوله: (لم تنصب له الشبك) أي هو صقر وحشي غير متربب؛ فلم يُصَدْ ويذلل باليد؛ وذلك أشد له وأسرع لطيرانه[5].

ويتضح من كلامهما أن العلاقة **علاقة توضيح وبيان وتكامل**؛ فالكلام السابق على هذه الجملة احتوى صفات جسدية للصقر (أسفع الخدين، مطرق ريش القوادم)، وهذه الجملة تضمنت صفة معنوية، وبذلك تكاملت الصفات الجسدية للصقر مع الصفات المعنوية في

(١) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي١٥٤/١.
(٢) هذه العبارة التي نسبها ابن السيرافي لسيبويه ليست في طبعة الكتاب التي بأيدينا، وكذلك بيتا ذي الرمة.
(٣) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي١٥٥/١.
(٤) كتاب سيبويه١٩٥/١.
(٥) انظر: تحصيل عين الذهب، ص١٦١. شرح أبيات سيبويه، لابن السيرافي٧٧/١.

سرعته وقوته وشراسته. ويمكن أن تكون العلاقة **علاقة سببية؛** فالصقر مطرق ريش القوادم؛ لأنه وحشي لم يعبث بريشه شبكُ الصياد ولا أيدي الناس.

- وجاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

أو مُعْبَرُ الظَهْرِ يُنْبي عن وَلِيَّتِهِ ما حَجَّ رَبَّهُ في الدنيا ولا اعْتَمَرا

وقد استشهد به على أنه أراد (ربهو) فحذف الواو التي هي صلة الضمير ضرورة(١).

وحينما تناوله ابن السيرافي بالشرح وقف على علاقة الحبك المعنوية التي تربط بين ما جاء من كلام في الشطر الثاني وبين الكلام الذي في الشطر الأول؛ فقال(٢): "وقوله: ما حج ربه في الدنيا ولا اعتمرا: يريد أن صاحبه (أي: صاحب الجمل الذي يصفه البيت) لو كان حج أو اعتمر لاحتاج إلى النظر في إصلاح بعيره والقيام عليه وجز وبره، حتى تقع الولية عليه والرحل وقوعا جيدا متمكنا ، فيتمكن الراكب عليه".

ويتضح من كلامه أن العلاقة بين ما جاء في الشطر الأول وما جاء في الشطر الثاني **علاقة سببية؛** فالشطر الثاني سبب في الشطر الأول؛ فالجمل كَثُر وبره حتى صارت تنبو عنه وليته؛ وذلك لأن صاحب الجمل لم يحج ولم يعتمر، فلو كان حج أو اعتمر لاحتاج إلى إصلاح جمله وجز وبره حتى تثبت عليه وليته.

المبحث الثالث: آلية المقبولية في مواجهة القصدية

القصدية(Intentionality) والمقبولية(Acceptability) هما معياران من معايير النصية التي وضعها العالم اللغوي (روبرت آلان دي بوجراند)، وتكمن أهميتهما في كونهما مرتبطين باستعمال النص إنتاجا واستقبالا؛ فالقصدية معيار " يتضمن موقف منشئ النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالسبك والالتحام(٣) وأن مثل هذا النص وسيلةINSTRUMENT من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها"(٤). والمقبولية معيار "يتضمن موقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام"(٥).

وانطلاقا من هذين المفهومين؛ فقد مارس شراح الشواهد النحوية بوصفهم متلقيا للنص المقبولية في مواجهة قصدية منتج النص. ويوضح ذلك ما يلي:

(١) كتاب سيبويه١/٣٠.
(٢) شرح أبيات سيبويه، لابن السيرافي١/٤٢٢.
(٣) الالتحام هو ترجمة الدكتور تمام حسان لمصطلح الـ(Coherence) والمقصود به الحبك بناء على ترجمة الدكتور سعد مصلوح. انظر: النص والخطاب والإجراء، ص١٠٣ وما بعدها. ونحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، ص١٥٤.
(٤) النص والخطاب والإجراء، ص١٠٣.
(٥) السابق: ص١٠٤.

- أورد الشنتمري في كتابه (تحصيل عين الذهب) الشاهد التالي:

وَما مِثْلُهُ في الناس إلا مُمَلَّكًا أبو أمِّهِ حَيٌّ أبوهُ يُقارِبُهْ

وقد أشار إلى أنه من أبيات الكتاب التي زادها الأخفش، وفسره قائلا:(١) "أراد وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا، أبو أم هذا المملك أبو هذا الممدوح، وأراد بالمملك الخليفة هشام بن عبد الملك، وخاله الذي أبوه أبو أمه إبراهيم بن هشام المخزومي".

ولم يكتف الأعلم ببيان معنى البيت، بل اتخذ موقفا رافضا لبنية النص تركيبا ودلالة؛ حيث يقول:(٢) "وهذا المعنى مع سخفه أمثل مما عبر به عنه من لفظه؛ لأنه فرق بين النعت والمنعوت في قوله: (حي يقاربه) بخبر المبتدأ، وهو قوله: (أبوه)، وفرق بين المبتدأ الذي هو (أبو أمه) وبين خبره بقوله: (حي)، فأحال اللفظ حتى عمي المعنى السخيف، فازداد قبحا إلى سخفه".

ويؤيد موقف الشنتمري أن عبد القاهر الجرجاني اتخذ موقفا رافضا أيضا من هذا البيت وحكم عليه بفساد النظم(٣)، ويُرجع الحموي فساد هذا النظم إلى اضطرار الوزن؛ حيث يقول:(٤) "فإن اضطرار الوزن حمله على رداءة السبك فحصل في الكلام تعقيد يمنع من فهم معناه بسرعة".

- وجاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

تُصْغِي إذا شَدَّها بالرَّحْلِ جانحةً حتَّى إذا ما اسْتَوَى في غَرْزِها تَثِبُ

وقد استشهد به على أنه لم يجزم الفعل في جواب (إذا)؛ لأنها تدل على وقت بعينه، أما حرف الشرط فمبني على الإبهام في الأوقات وغيرها(٥).

وحينما تناوله ابن السيرافي بالشرح ذكر معناه قائلا:(٦) "وأراد أن راكبها (يعني الناقة) إذا وضع رجله اليسرى في الغرز، وثبت من قبل أن يستوي على ظهرها، عنى بذلك أنها نشيطة حديدة الفؤاد".

ولكنه لم يكتف بذكر المعنى فقط، بل ذكر أن هذا المعنى لم يُقبل من الشاعر؛ حيث قال:(٧) "وقد عيب عليه هذا المعنى؛ وزعموا أن أعرابيا سمعه ينشد القصيدة، فلما انتهى إلى

(١) انظر: تحصيل عين الذهب، ص٧٠. وقد أشار ابن جني إلى أن الشاهد من أبيات الكتاب، انظر: الخصائص لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ١٩٩٩م ٣٣٠/١.

(٢) تحصيل عين الذهب، ص٧٠.

(٣) دلائل الإعجاز، للجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م، ص٨٣.

(٤) خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ٤٤٣/٢.

(٥) انظر: كتاب سيبويه٦٠/٣.

(٦) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي١٢٠/٢.

(٧) المصدر السابق١٢٠/٢.

قوله: (حتى إذا ما استوى في غرزها تثب)، قال: سقط والله الرجل"؛ لأن سرعة وثوبها في لحظة ركوبها صفة سيئة لا حسنة.

ومعنى إيراد ابن السيرافي هذا الرفض دون التعليق عليه أنه يتبناه ويوافق عليه.

وفي رواية أخرى لهذه القصة يدافع الشاعر عن قصده؛ فحينما قيل له: ألا قلت كما قال الراعي:

ولا تُعْجِل المرءَ قبلَ الوُرو كِ وَهْيَ بركبَتِهِ أبْصَـرُ
وهِيَّ إذا قـامَ في غَرْزِها كمثلِ السفينـةِ إذ تُوقـر
ومُصْغِية خَدَّها بالزِّمـا م فالرأس منها لَهُ أصغَر
حتى إذا ما اسْتَوَى طبَّقَتْ كما طبَّقَ المِسحَلُ الأعْبَرُ

فأجاب قائلا: إن الراعي وصف ناقة مَلِكٍ، أما أنا فقد وصفتُ ناقة سوقة[١]. والشاعر برده هذا يبين قصده حتى يحظى بالقبول من المتلقي.

- وجاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

ألا لَيْتَ شِعْري هَلْ يَرى النَّاسُ ما أرَى مِنَ الأمْرِ أو يَبْدو لَهُمْ ما بَدا لِيا

وقد استشهد به على دخول (أو) العاطفة بعد الاستفهام[٢].

وحينما تناوله الشنتمري بالشرح لجأ إلى ذكر البيت الذي يتلو هذا الشاهد، وهو:

بَدَا لِيَ أنَّ النَّاسَ تَفْنَى نُفُوسُهُمْ وَأَمْوالُهُمْ ولا أرى الدّهْرَ فانِيَا

ليقف بذلك على الترابط بين البيتين من خلال سبك متمثل في تكرار (بدا لي) وحبك متمثل في علاقة معنوية ملحوظة؛ فالبيت الثاني تفصيل للإجمال في البيت الأول.

ولكنه لم يكتف بذلك، بل اتخذ موقفا رافضا لما قصده الشاعر من معنى في الجملة الأخيرة من البيت الثاني؛ حيث قال معلقا على الشاعر[٣]: "وكذب، لا بد من فناء الدهر".

وحين نفتش عن تلك الخلفية التي انطلق منها الشنتمري في عدم قبوله هذا المعنى نجدها تتمثل في عقيدته الإسلامية؛ ففي نص القرآن ما يخالف هذا المعنى، يقول الله تعالىM L Z Y X W V U T S R Q P O[٤]، ويبدو أن الشاعر معذور؛ فهو لم يتوافر له من العقيدة الإسلامية ما توافر للشارح.

(١) انظر رواية هذه القصة في كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت،ط٢، ٤١/١٨.
(٢) انظر: كتاب سيبويه١٧٧/٣.
(٣) تحصيل عين الذهب، ص٤٤٩.
(٤) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

وقد ذكر البغدادي توجيها لهذا المعنى فيه مخرج للشاعر، ونص هذا التوجيه هو: "يقال: إن الدهر هو الله جل وعز ثناؤه، وإنما يراد بذلك أن الذي يحدثه الدهر إنما هو من تقدير الله، فلا ينبغي أن يسب الدهر؛ لأنه يرجع إلى سب ما قدر الله"(١).

ورفض الشنتمري لهذا المعنى الذي أتى به الشاعر والتوجيه المذكور في خزانة البغدادي للمعنى يؤكدان ذاتية كل من القصدية والمقبولية؛ فالأولى تقوم على النسق الثقافي الذي يتحلى به منتج النص، والأخرى تقوم على النسق الثقافي الذي يتحلى به متلقي النص.

المبحث الرابع: آلية الاستعانة بسياق الموقف والتناص

أولا: سياق الموقف

سياق الموقف(Situationality) من أهم معايير النصية التي وضعها العالم اللغوي روبرت دي بوجراند، والمقصود به السياق الخارجي؛ لأن السياق الداخلي يقوم به معياران آخران هما السبك والحبك، وسياق الموقف يتضمن "العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه"(٢). ومحلل النص يجب عليه أن يستحضر ما يرتبط بالنص من أحداث سواء أكانت سببا في إنتاج النص أم مصاحبة له؛ حتى يستطيع فهم المعنى المراد من النص فهما وافيا؛ فكثيرٌ من الوحدات اللغوية داخل النص لا نستطيع إدراكها إلا بالعودة إلى هذا السياق. وفي هذا السياق يقول براون ويول(٣): "يتحتم على محلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي ورد فيه مقطع ما من الخطاب".

والسؤال الآن هل اعتمد شراح الشواهد النحوية على سياق الموقف في تفسيرهم الشاهد والكشف عن معناه؟

يعد ذكر قصة النص من أهم جوانب السياق التي تجعلنا نفهم النص فهما واعيا، وقد اهتم شراح الشواهد النحوية بهذا الجانب، فكانوا يستعينون بذكر قصة النص الذي ينتمي إليه الشاهد، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- جاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

خُذوا حظَّكم يا آلَ عكرمَ واذكروا أواصرَنا والرِّحْم بالغيبِ تُذْكَرُ

وقد استشهد به على ترخيم (عكرمة) وهو غير منادى اضطرارا(٤).

وحينما تناوله ابن السيرافي بالشرح استعان في تفسير معناه بذكر قصة القصيدة التي منها هذا الشاهد؛ حيث يقول:(٥) "وبلغ زهيرا (الشاعر) أن هوازن وبني سليم (وهم آل

(١) خزانة الأدب، للبغدادي، ٤٩٤/٨.
(٢) انظر: النص والخطاب والإجراء، ص١٠٤.
(٣) تحليل الخطاب، ج. ب. براون وج. يول، ترجمة: د.محمد لطفي الزليطي ود.منير التريكي، جامعة الملك سعود، ١٩٩٧م. ص٣٥.
(٤) انظر: كتاب سيبويه٢٧١/٢.
(٥) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي٤٦٣/١.

عكرمة) يريدون غزو غطفان فذكّرهم ما بين غطفان وبينهم من الرحم، وأنهم يجتمعون في النسب إلى قيس".

- وجاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

احْكُمْ كحُكْمِ فُتاةِ الحَيِّ إذْ نظرتْ إلى حَمَامٍ شِراعٍ واردِ الثَّمَدِ

وقد استشهد به على إضافة (وارد) إلى (الثمد) إضافة غير محضة على نية التنوين والنصب، ولذلك نعتت به النكرة مع إضافته إلى المعرفة(١).

وحينما تناوله أبو جعفر النحاس بالشرح أشار في تفسيره (فتاة الحي) إلى قصة قديمة؛ حيث قال:(٢) "وفتاة الحي هي المرأة التي كانت باليمامة فنظرت إلى حمام فقالت: هي كذا وكذا، فكانت كما قالت". ونجد تفصيلا أكثر لهذه القصة عند ابن السيرافي؛ فيقول(٣): "وفتاة الحي هي الزرقاء التي كانت باليمامة"، وواصل كلامه قائلا:(٤) "وكانت الزرقاء فيما زعموا نظرت إلى قطا يطير بين جبلين، فقالت:

لَيْتَ الحَمامَ لِيَهْ إلى حمامَتِيَهْ
ونِصْفَه قدِيَهْ تَمَّ الحمامُ مايهْ

فاتُّبِعَ القَطا إلى أن ورد الماء، فَعُدَّ فإذا هو ست وستون. يقول النابغة للنعمان: أصِبْ في تأملك أمري، حتى تقف على صحة ما ذكرته، كما أصابت هذه الجارية".

ومن جوانب السياق التي تفتح أمامنا آفاق معنى النص ذكرُ السبب الذي أنشئت القصيدة لأجله، وقد نال هذا الجانب اهتماما عند شراح الشواهد النحوية. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- جاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

ليتَ شعريْ وأينَ منّيَ ليتُ إنّ ليتاً وإنَّ لوًّا عناءُ

وقد استشهد به على تضعيف (لو) حين جُعلت اسما؛ لأن الاسم المفرد المتمكن لا يكون على أقل من حرفين متحركين؛ فضوعفت الواو لتحتمل بالتضعيف الحركة(٥).

وحينما تناوله ابن السيرافي بالشرح ذكر بيتا تاليا له، هو:

أيُّ ساعٍ سعى ليقطعَ شِربي حين لاحتْ للشاربِ الجوزاءُ

واستعان في تفسيرهما بذكر السبب الذي قيلت من أجله القصيدة؛ حيث قال:(٦) "وسبب هذا الشعر أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما قدم الكوفة أخذ الجنينة من ربيع الطائي، ودفعها إلى أبي زبيد، ثم عُزل الوليد بسعيد بن العاصي، فلما قدم سعيد انتزع الجنينة من أبي زبيد

(١) انظر: كتاب سيبويه١٦٨/١.
(٢) شرح أبيات سيبويه، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص٨٢.
(٣) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي٣٤/١.
(٤) المصدر السابق٣٤/١.
(٥) انظر: كتاب سيبويه٢٦١/٣.
(٦) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي٢١١/٢.

وأخرجه منها؛ فقال أبو زبيد: ليت شعري أيُّ ساعٍ سعى في أمري حتى أُخِذت الجنينة مني. وجعل أخذ الجنينة منه بمنزلة انقطاع الماء عنه في أشد الأوقات التي يحتاج فيها إلى الماء".

- وجاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

وَأَحْضَرْتُ عُذْري عليهِ الشُّهُو دُ إنْ عاذِرًا لي وإن تاركا

وقد استشهد به على نصب (عاذرا) و(تاركا)؛ لأن الشاعر قصد توجيه الكلام للأمير المخاطب، والتقدير: إن كنتَ عاذرا وإن كنتَ تاركا[١].

وحينما تناوله ابن السيرافي بالشرح ذكر بيتا تاليا له، هو:

وقدْ شَهِدَ النـاسُ عند الإما م أني عَدُوٌّ لأعْدَائكا

واستعان في تفسيرهما بذكر السبب الذي قيلت من أجله القصيدة التي منها البيتان؛ حيث قال:[٢] "وسبب هذا الشعر أن عبيد الله بن زياد غضب على عبد الله بن همام فهرب منه ومضى إلى يزيد بن معاوية، وأقام عنده حتى آمنه، وكتب له إلى عبد الله بن زياد".

ويدخل ضمن الاعتماد على السياق في تفسير النص رجوع محلل النص إلى الوقوف على ما كان سائدا من اعتقادات في بيئة إنتاج النص، وقد مارس شراح الشواهد النحوية هذا اللون من التحليل؛ حيث جاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

مِمَّنْ حَمَلْنَ بهِ وَهُنَّ عَواقِدٌ حُبُكَ النِّطاق فعاشَ غَيرَ مُهَبَّلِ

وقد استشهد به على إعمال النصب في (حبك) بـ(عواقد)؛ لأنه جمع عاقدة[٣]. وحينما تناوله الأعلم الشنتمري لجأ إلى ذكر اعتقاد كان سائدا عند العرب؛ حيث قال:[٤] "وصف رجلا شهم الفؤاد ماضيا في الرجال، فذكر أنه ممن حملت به النساء مكرهات، فغلب عليه شبه الآباء، وخرج مذكّرا، وكانت العرب تفعل ذلك، يغضب الرجل منهم المرأة ويعجلها حل نطاقها ويقع بها فيغلب ماؤه على مائها فينزع الولد إليه في الشبه".

ونختم حديثنا عن السياق بإيراد نصين رائعين للغندجاني يبين فيهما أهمية السياق ودوره في الكشف عن معنى النص، فيقول:[٥] "ومن فسّر أيضا مثل هذا الشعر، ولم يتقن ثلاثة أنواع من العلم: النسب، وأيام العرب، ومحالها ومنازلها، كثرت سقطاته". ويقول في موضع آخر:[٦] "كنت ذكرت لك في غير موضع من هذا الكتاب أن من شرع في تفسير مثل هذا من الشعر، فيما يتعلق بنسب أو قصة، من غير أن يكون قد أتقن هذين العلمين كان

(١) انظر: كتاب سيبويه١/٢٦٢.
(٢) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي١/٢٩٩.
(٣) انظر: كتاب سيبويه١/١٠٩.
(٤) تحصيل عين الذهب، ص١١٠.
(٥) فرحة الأديب، ص٥٢.
(٦) المصدر السابق، ص١٢٣.

بعرض الافتضاح. فلو قرن بهذا الشعر كتاب سيبويه وحدود الفراء، ما كان ليعرف معناه إلا بمعرفة قصته".

ثانيا: التناص

التناص(Intertextuality) أحد معايير النصية التي وضعها العالم اللغوي بوجراند، وهو يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بواسطة أم بغير واسطة[١]. ويعرف د. محمد مفتاح التناص بأنه " تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة"[٢]. والتناص عند رولان بارت شرط أساسي لإدخال النص في إطار اللذة، فيقول:[٣] "وما لم يجتمع هذا النص بنص متعة آخر؛ فإنه يقع خارج اللذة وخارج النقد".

ولكن المهم الآن كيف يسهم التناص في تفسير النص والكشف عن معناه؟ يعمل التناص على ربط النص بنصوص أخرى، و"مجموعة النصوص التي يذكرنا بها هذا النص تنطوي على مجموعة من الإشارات والشفرات تسهم - بلا شك- في حل شفرات هذا النص وتفسير إشاراته التي يصعب فهمها بمعزل عن النصوص الأخرى"[٤].

والسؤال الآن هل وقف شراح الشواهد النحوية على التناص في تفسيرهم الشاهد وفي الكشف عن معناه؟ وجواب هذا السؤال نجده فيما يلي:

- جاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

ضَخْمٌ يُحِبُّ الخُلْقَ الأَضْخَمَّا

وقد استشهد به على تشديد الميم في الوصل ضرورة؛ تشبيها بما يشدد في الوقف[٥].

وحينما تناوله الأعلم الشنتمري بالشرح استعان في تفسيره بذكر النص القرآني الذي تعالق مع هذا النص؛ فقال:[٦] "وصف رجلا بشرف الهمة وعظم الخليقة؛ فنسبه إلى الضِخَم إشارة إلى ذلك، ولم يرد ضِخَمَ الجثة، وقال الله عز وجل: L o n m l k M [٧] والعِظَمُ والضِخَمُ سواء".

- وجاء في كتاب سيبويه الشاهد التالي:

أَعَلاقةً أمَّ الوليّدِ بعد ما أفْنانُ رأسِكَ كالثَّغامِ المُخْلِسِ

(١) انظر: النص والخطاب والإجراء، ص١٠٤.
(٢) تحليل الخطاب الشعري: استرتيجية التناص، د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٢١.
(٣) لذة النص، رولان بارت، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط١، ١٩٩٢م، ص:٤٩.
(٤) معايير النصية: دراسة في نحو النص، محمد أشرف عبد العال، رسالة ماجستير، ٢٠٠٣م، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ص٤٧٩.
(٥) انظر: كتاب سيبويه٢٩/١.
(٦) تحصيل عين الذهب، ص٦٤.
(٧) سورة القلم، الآية: ٤.

وقد استشهد به على نصب (أم) بـ(علاقة)؛ لأنها بدل من لفظ (نَعْلق) فعملت عمله[١].

وحينما تناوله الأعلم الشنتمري بالشرح استعان في تفسيره بذكر مَثَلٍ عربي تعالق مع هذا النص؛ فقال:[٢] "وصف كِبَرَه وأن الشيب قد شمله؛ فلا يليق به الصِّبا واللهو. وأفنان الرأس: خصل شعره، وأصل الفنن الغصن. والثغام: شجر إذا يبس أبيض، ويقال هو نبت له نَورٌ أبيض، فشبه بياض الشيب في سواد الشعر ببياض النّور في خضرة النبت، والمخلس: ما اختلط فيه البياض بالسواد، يقال: أخلس الشعر والنبت إذا كان فيه لونان. والعلاقة والعَلَق: أن يعلق الحب بالقلب، ومنه: (نَظْرَةٌ مِنْ ذي عَلَق[٣])".

الخاتمة

يمكن أن نلخص ما توصل إليه البحث من نتائج في النقاط التالية:

- استطاع هذا البحث أن يقدم موازنة بين نحو الجملة المتمثل في معيارية القاعدة في كتب التقعيد النحوي وبين نحو النص المتمثل في كتب شروح الشواهد النحوية من خلال تناول الشاهد الشعري؛ فاختلاف الهدف أدى إلى اختلاف المنهج؛ فالشاهد في كتب التقعيد النحوي مقتطع من نصه، وغالبا ما يكون بيتا مفردا؛ لأن الاهتمام متمركز حول موطن الاستشهاد وصولا إلى معيارية القاعدة التي يتوخاها النحاة، أما في كتب شروح الشواهد النحوية فقد كان الهدف هو تفسير الشاهد والوصول إلى معناه؛ ولذا قدمت هذه الشروح معالجات نصية متنوعة للوصول إلى هذا المعنى.
- أثبت البحث أن علماءنا القدماء قدموا من خلال شروحهم الشواهد النحوية إسهامات جليلة فيما يسمى الآن بنحو النص؛ فتعاملوا مع النص بوصفه الوحدة الكلية للتحليل، فأعادوا الشاهد إلى مكانه من نص القصيدة التي ينتمي إليها، ووقفوا في تحليلهم النص على جوانب التماسك النصي سبكا وحبكا، واستعانوا بالسياق الخارجي والعلاقات بين النصوص، وليس هذا فحسب، بل كان لهم ما يسمى الآن بالمقبولية في مواجهة قصدية منتج القصيدة التي ينتمي إليها الشاهد.
- أثبت البحث أن مواقع الخطأ في تفسير معنى الشاهد التي كان يقع فيها أحد الشراح في بعض الأحيان تعود إلى إهماله معالجات نحوية نصية كان ينبغي له أن يعتمد عليها، وحينما استعان بها شارح آخر وقع على خطأ صاحبه، ووصل إلى المعنى الصحيح.

(١) انظر: كتاب سيبويه١/١١٦.
(٢) تحصيل عين الذهب، ص١١٩.
(٣) هذا مثل يضرب للرجل يحب الشيء فيجتزئ من معرفته بالقليل؛ انظر: جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٨م، ٢/٣٠٨.

المصادر والمراجع

أولا: العربية

- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية.
- تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، للأعلم الشنتمري، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.
- تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٦م.
- جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٨م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧م
- الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ١٩٩٩م.
- دلائل الإعجاز، الجرجاني: تحقيق: محمود محمد شاكر،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م.
- شرح أبيات سيبويه، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
- شرح أبيات سيبويه، لابن السيرافي، تحقيق: محمد علي سلطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٦م.
- علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- فرحة الأديب في الرد على ابن السيرافي في شرح أبيات سيبويه، للأسود الغندجاني، تحقيق: محمد علي سلطاني، دار الكتاب، دمشق، ١٩٨١م.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٢م.
- لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، د. محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
- مدخل إلى علم لغة النص: تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر، د.إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩م.
- معايير النصية: دراسة في نحو النص، محمد أشرف عبد العال، رسالة ماجستير، ٢٠٠٣م، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

- نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول، المجلد العاشر، العددان: الأول والثاني، يوليو وأغسطس١٩٩١م.
- نسيج النص: بحث فيما يكون الملفوظ به نصا، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ثانيا: المترجمة

- تحليل الخطاب، ج. ب. براون وج. يول، ترجمة: د.محمد لطفي الزليطي ود.منير التريكي، جامعة الملك سعود، ١٩٩٧م.
- لذة النص، رولان بارت، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط١، ١٩٩٢م.
- النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٨م.

ثالثا: الأجنبية

- Cohesion in English, M.A.K. Halliday and Ruqaiya Hasan, Longman, London, 1976.
- Introduction to text linguistics, Beaugrande, R.A. and Wolfgang Dressler, London and New York, 1983.

نشأة القهوة العربية وانتشار زراعة البن في اليمن
ما بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلادي

د. عبدالودود قاسم حسن مقشر
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
بكلية الآداب - جامعة الحديدة

ارتبط ظهور اسم القهوة في العالم باليمن في العصر الحديث وأصبح مصطلحاً مرادفاً له، فالقهوة اكتشاف يمني عربي خالص رفدت به الحضارة العربية البشرية فأصبح مشروبها المفضل خلال التاريخ الحديث والمعاصر، ونتج عن ذلك ازدهار اقتصادي لليمن، وأصبح ضرورة معرفة البدايات الأولى لانتشار شجرة البن في اليمن واصطناع القهوة حتّمية وهو ما سيبحثه هذا البحث.

- أصل كلمة القهوة.

تورد المعاجم اللغوية العربية كلمة القهوة بمعانٍ متعددة، فـ" قها : أقهى عن الطعام واقتهى : ارتدّت شهوته عنه من غير مرض مثل أقهم ، يقال للرجل القليل الطعم : قد أقهى وقد أقهم، وقيل : هو أن يقدر على الطعام فلا يأكله وإن كان مشتهياً له"[١]، فالقهوة هي التي " تقهي صاحبها عن الطعام.، يقال: أقهى عن الطعام وأقهم عنه، إذا رجعتْ نفسه منه" [٢].

اختلف في أصل كلمة القهوة اختلافاً بيّناً وإن كان الأصل العربي واضح الدلالة، وذا عمق لغوي قديم، ويشير إلى إحدى مسميات الخمرة عند العرب في الجاهلية والإسلام، واعتبرت الكلمة عربية الأصل، فالقهوة في اللغة تطلق على الخَمْر، واختلف في سبب التسميّة على النحو التالي:-

أ- سميت قهوةً لأنّها تُقهي الإنسانَ أي: تُشْبِعُه [٣]، وتذهب بشهوة الطّعام[٤].

ب- قيلً سُمِّيتْ قهوة؛ لأن شاربها يُقْهي عن الطعام: أي يكرهه ويأجَمُه[٥].

---

١ - ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ١٩٩٧، مادة (ق .هـ .ا) ، جـ١٥، صـ٢٠٦.

٢ - الشجري، هبة الله بن علي ابو السعادات العلوي، مختارات شعراء العرب، تحقيق علي بن محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٢م، صـ ٣٦٦.

٣ - الفراهيدي، ابو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو، كتاب العين، باب الهاء والقاف (ق.هـ.و.)، تحقيق مهدي المخزومي، وابراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال – القاهرة، جـ٤، صـ ٦٤.

٤ - الرازي، زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الحنفي، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية – بيروت، ط٥، ١٩٩٩م، مادة (ق. هـ. ا) ، صـ ٢٦١.

٥ - الازهري، ابي منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ومحمود فرج العقدة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب - القاهرة،١٩٦٤م ، باب الهاء والقاف (قهى) ج٦ ، صـ ٣٤٢. ؛ ابن سيده، أبي الحسن علي بن اسماعيل الاندلسي، المخصص، مطبعة

ت- وَقيل سُمِّيَتْ بقهوة : لِأَنَّهَا تُقْهِي عَنِ الطَّعَامِ، أَيْ : يُقْطَعُ شَهْوَتُهُ[1].

لكن الصاحب بن عباد صاحب كتاب المحيط في اللغة يرى سبباً مغايراً في التسمية لما سبق، فيرى أن القهوة تعني" طِيْبُ الرِّيح أيْضاً، وفلانة طيِّبَة قَهْوَة الفَم. والمَحضُ من اللَّبن والحليب. وكذلك القَهَة"[2] ، وهذا المعنى هو ما حذا ببعض العلماء إلى القول بأن اشتقاقها جاء من " طيب الرائحة فنقلها الصالحون إلى شراب البن والقشر"[3].

تؤكد دائرة المعارف الاسلامية رأياً آخر يرى أن الكلمة ذات أصلٍ حبشي غير عربي، فتقول:- إن بعض العلماء يرون أن أصل كلمة قهوة افريقي حبشي، وتعود الكلمة إلى قافا – كافا kaffa إحدى الاقاليم الاثيوبية والموطن الاصلي لشجرة البن [4]، وهو رأي أوردته المراجع العثمانية قبل ذلك، فيذهب الكاتب العثماني بسيم عمر في كتابه (مكيفات ومسكرات) إلى أن المنشأ والوطن الاصلي للبن هو الحبشة وخصوصاً قافا في اطراف ولاية مصر، ومنه اشتقت تسمية القهوة[5].

تعتقد الباحثة المختصة بدراسة تاريخ القهوة اليزابيت مونرو:- "أن أصل هذه الكلمة غامض، فالبعض يقولون أنها مشتقة من كلمة قافا وهي منطقة زراعية في اثيوبيا، وأخرون وقد يكونون اكثر دقة يقولون بأنها تتصل بكلمة (كيف) العربية أي الشيء المنشط أو المثير."[6]، لكن هذا الرأي يفتقر إلى الدلائل وهو ما يثبته هذا البحث، ويؤكد أن أصل الكلمة ومعناها عربية صرفة.

- **استخدام مدلول القهوة عند العرب.**

استخدمت كلمة القهوة في الأدبيات الكلاسيكية العربية بمعنى الخمرة، فقد ورد في تفسير

بولاق - القاهرة، ١٣١٦هـ، ج ١١، صـ ٧٤.

١- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، كتاب الحاوي الكبير، تحقيق محمد معوض وعادل احمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ج١٣، صـ٤٠٠.

٢ - ابن عباد، الصاحب اسماعيل، المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الاولى ، ١٩٩٤م، ج٤، صـ١٨ ، مادة (ق.هـ.و).

٣ - الحداد، أحمد بن حسن بن عبدالله بن علوي، سفينة الارباح ونزهة الأرواح، مخطوط بمكتبة الاحقاف للمخطوطات في تريم – حضرموت، رقم المخطوط ٢٠٦٧ ، ورقة ٦.

4، - ARENDONK, C. VAN, KAHWA , THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM, EDITED BY E. VAN DONZEL, B. LEWIS AND CH. PELLAT,1997, E. J. BRILL, LEIDEN, VOLUME IV, p.449.

٥ - عمر، دوقتور يوزباشي بسيم، مكيفات ومسكرات دن آفيون، قهوة، جاي، اسرار، محمود بك مطبعة سي -استانبول، ١٣٠٥،صـ٤٩.

٦ - مونرو، اليزابيت، تاريخ القهوة العربية، مجلة الفيصل، العدد الربع – السنة الاولى، شوال ١٣٩٧هـ - سبتمبر ١٩٧٧م، صـ ١٢١.

قوله تعالى:- (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)[١]، عَنْ كَعْبٍ الأحبار تـ(٣٢هـ/ ٦٥٢م) انه قَالَ:- " والله إني لأجد صفة المنافقين في التوراة: شرابين للقهوات، تباعين للشهوات، لعانين للكعبات، رقادين عَنِ العتمات، مفرطين في الغدوات، تراكين للصلوات، تراكين للجمعات"[٢].

ذُكرت القهوة بمعنى الخمرة في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي حتى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في أغلب الكتابات والأشعار، فقال الشاعر الجاهلي عبيد بن الابرص الاسدي:-

وقهوة كرفات المسك طال بها في دنها كرٌّ حولٍ بعد أحوال[٣]

وقالا لبيد بن ربيعة بن مالك العامري وعمرو بن عامر الاطنابة وكليهما من شعراء الجاهلية:-

قد بت مالكها وشارب قهوة درياقة أرويت منها وأغلى[٤]

ويقول حسان بن ثابت:-

وكأنّي، حينَ أذْكُرُهَا مِنْ حُمَيّا قَهْوَةٍ شَارِبُ

ويقول ايضاً:-

فقمتُ بكأسٍ قهوةٍ، فشننتها بذي رونقٍ منْ ماء زمزمَ فاترِ[٥]

ويقول الاخطل:-

أعاذلَ ما عليكِ بأنْ تريني أُباكِرُ قَهْوَةً فيها احْمرارُ

ويقول في قصيدة أخرى:-

من قهوة نفحت، كأن سطيعها مسك تضوع في غداة شمال[٦].

---

١ - سورة مريم، الآية ٥٩.

٢ - ابن أبي حاتم ، أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن ادريس الرازي ، تفسير القران العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين المعروف بتفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة – الرياض، الطبعة الاولى، ١٩٩٧م، ج٧، صـ ٢٤١٢.؛ الثعلبي، أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري، الكشف والبيان عن تفسير القران، تحقيق ابي محمد علي بن عاشور، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠٢م، ج ٦، صـ ٢٢١.؛ ابن كثير، ابو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القران العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامه، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩م، ج ٥، صـ ٢٤٥.

٣ - الشجري، المصدر السابق.

٤- الخالديين، أبي بكر وأبي عثمان سعيد ابني هاشم، الاشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، حقق وعلق عليه السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٦٦، ج١، صـ ١٩ – ٢٠.

٥ - الانصاري، حسان بن ثابت ، شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري، وضعه وضبط الديوان وصححه عبدالرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٧هـ، ١٩٢٩م، صـ ٣٥، و صـ ٢٠٨.

٦ - الاخطل، غياث بن غوث، ديوان الاخطل، شرحه وصنف قوافيه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، صـ ١٢١.؛ صـ ٢٧٦.

ويقول الوليد بن يزيد بن معاوية:-

من قهوة زانها تقادمها فهي عجوز تعلو على الحقب[١].

ويقول ابو نواس:-

يا خاطبَ القهوة الصّهباءِ ، يا مَهُرها بالرّطل يأخذ منها مِلأه ذهبا.

وفي موضع أخر:-

نازعْتُهُ القهْوَةَ في فتيةٍ كلُّهُمْ زَيْنٌ لجُلاّسِهِ[٢].

ويقول الامير العباسي عبدالله بن المعتز:-

أشهى َ من القَهوَةِ والكاس على نسيمِ الوردِ والآس.

ويقول ايضاً:-

وقهوةٍ كشعاع الشمس صافيةٍ كأنّ أقداحَها قد عُمنَ بالزَّبَدِ[٣].

وينقل عنه الصولي في كتابه اشعار اولاد الخلفاء:-

رُبَّ يَوْمٍ عامر الْكأس ظلْنا نَفْرَعُ الْقَهْوَةَ فيه بماء[٤].

ويقول البحتري:-

مِنْ قَهْوَةٍ تُنْسي الهُمومَ وَتبعَثُ ال شّوْقَ الّذي قدْ ضَلّ في الأحْشَاءِ[٥].

ويقول ابن الرومي:-

يا قمر الموكب والمجلس أفْطِر على القهوةِ والنرجس[٦].

وفي القرن الخامس الهجري قال الشاعر ابو القاسم مدرك بن محمد الشيباني:-

بحق تقريبك في الآحاد ... وشربك القهوة كالفرصاد[٧].

تستمر اطلاق القهوة على الخمر حتى القرن السابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي حيث ذكر الشاعر الصوفي الشهير صفي الدين الحلي في اشعاره ذلك، فيقول:-

---

١ - ابن أبي سفيان، الوليد بن يزيد، ديوان الوليد بن يزيد، جمع وترتيب المستشرق الايطالي ف. جبربالى، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٧م، صـ ٣٥.

٢ - ابو نواس، الحسن بن هاني الحكمي، ديوان أبو نواس الحسن بن هاني الحكمي، تحقيق إيفالد فاغنر و غريغور شولر، المعهد الالماني للأبحاث الشرقية في بيروت، مطبعة مؤسسة البيان – بيروت، الطبعة الثانية ، ٢٠٠١م، ج٣، ١٣٦ ؛ ج٥، ٢١٤.

٣ - العباسي، عبدالله بن محمد المعتز، ديوان اشعار الامير أبي العباس عبدالله بن محمد المعتز بالله الخليفة العباسي، دراسة وتحقيق محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧، ج ١، صـ ١٣٦؛ ج٢، صـ ٢٤٥.

٤ - الصولي، أبي بكر محمد بن يحيى، اشعار اولاد الخلفاء واخبارهم، ناشره ج . هيورث. دن، مطبعة الصاوي – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م، صـ ١١٩.

٥ - الطائي، ابو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري، ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ج١، صـ ٦.

٦ - ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م، ج٣، صـ ١١٨٢.

٧ - التنوخي، ابي علي المحسن بن علي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي المحامي، دار صادر للطباعة والنشر– بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٩٥م، ج ٤، صـ ٢٧٣.

بحَقّ تَقريبِكَ في الآحادِ ، ** وشربكَ القهوةَ كالفرصاد.

ويقول ايضاً:-

فاسقني القهوةَ التي قيلَ عنها ** إنّها من شرائطِ الشّيطانِ[١].

- **موطن شجرة البن.**

شجرة البن من أنواع المحاصيل النقدية، وهي شجيرة تختلف في الطول من منطقة لأخرى ومن صنف لآخر إلا أن معظم الأصناف اليمنية لا يتعدى طولها ٤,٥ – ٦ أمتار، وللشجرة جذور عميقة تصل إلى ٣ أمتار وأوراقها ناعمة، دائمة الخضرة، زوجية، وساقها خشبي، والثمرة عبارة عن علبة لحمية صغيرة يتحول لونها من الأخضر إلى البني أو القرموزي وبداخلها بذرتان ومحاطة بقشر، وينتمي البن لجنس coffea ويحتوي على اكثر من ٢٥ نوعاً [٢].

انساق أغلب الكُتّاب على فكرة أن موطن البن هو الحبشة ومنه انتقل إلى اليمن مباشرة فـ" الحبشة هي الموطن الأصلي لشجرة البن ونشأت في مدينة تدعى كافا kaffa" [٣]، و" منبت البن الاصلي بلاد الحبش "[٤]، فـ" من المؤكد أن أصل شجرة البن هو كافا café إحدى المحافظات في الحبشة"[٥]، وتقدم اليزابيت مونرو طريقة لاستخدامه وأكله عند الأحباش قديماً قبل اكتشاف القهوة، حيث تقول:- " كان يستعملها سكان جنوب غربي أثيوبيا التي خرجت منها وكانوا يستعملون منقوع أوراقه بالزبد كي يمضغ، أو يصنعون منه الكعك المضغوط الذي يتغذى عليه المسافرون، ويقال أن افراد الجيوش والقوافل كانوا يتغذون عليها، إذ هي تشفي من البلادة وتنشط الطاقة"[٦]، لكن هناك من يرى أن موطن البن هو اليمن وليس الحبشة ومنهم الرحالة الفرنسي جان دي لاروك الذي وصل إلى اليمن سنة ١١٢١هـ / ١٧٠٩م وقال:- " اقتناع عرب اليمن، لا بل أهل المشرق جميعاً بأن شجرة

---

١ - الحلي، صفي الدين ابو المحاسن عبدالعزيز بن سرايا ابن ابي القاسم التنبسي، ديوان صفي الدين، مطبعة الآداب – ولاية بيروت، ١٣٠٧ هـ / ١٨٩٢م، صـ ١٠١، وصـ ٢٣٤.

٢ - المجاهد، عبدالله محمد، أسس زراعة وإنتاج المحاصيل الحقلية في الأراضي اليمنية، عالم الكتب – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٨٠م، صـ ٣٣١.؛ السعدي، عباس فاضل، البن في اليمن دراسة جغرافية، مركز الدراسات والبحوث اليمني – صنعاء، الطبعة الاولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، صـ ٥.

3 - Coffee Extensive Information and Statistics. Government Printing Office. Washington, published by the international bureau of the American Republics, 1902.p.7.

٤ - البن، مجلة المقتطف، الجزء السابع السنة الخامسة كانون الاول سنة ١٨٨٠م، صـ ١٨٤.

5 - The nature and cultivation of coffee. New Work State college of Agriculture At Cornell University.1924. p 1 – 2

٦ - مونرو، المرجع السابق، صـ ١٢٢.

القهوة لا تنمو في أي أرض من العالم إلا في أرضهم"[١]، ويورد ذي لاروك تقريراً للأب اليسوعي البرتغالي تليز في سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٤م يبرر هذا الرأي فيقول:- " ان صح التقدير بأن سكان الحبشة أتوا من بلاد العرب منذ أقدم الأزمان ..فمن المحتمل أنهم أدخلوا معهم إليها شجرة القهوة"[٢]، وتؤكد أول دراسة اكاديمية يمنية عن البن للباحثة أروى الخطابي أن موطن البن الاصلي هو اليمن[٣]، وهناك أراء أخرى تؤكد انتقال البن من الحبشة إلى فارس ومنه إلى بلاد العرب فقال صاحب (كتاب التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية) إن "البن أصله من جنوبي بلاد الحبش...اتصل إلى بلاد العجم ٢٦٢هـ / ٨٧٥م ومن العجم إلى بلاد العرب أو الشرق."[٤]، وهو رأي يتردد عند نور الدين صالح في دراسة له عن البن في مجلة المقتطف المصرية في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، فـ"قد اكتشف البن أولاً في بلاد الحبشة العليا ثم أكتشفه الأعجام"[٥]، وأكدّ السيد أحمد أفندي الرشيدي وجمال الدين القاسمي الدمشقي أنه " من المحقق عند الاوربيين أنه كان مستعملاً ببلاد فارس سنة ٢٦١هـ / ٨٧٥م"[٦].

- أنواع القهوة.

تعددت أنواع القهوة في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وهو القرن الذي انتشرت فيه القهوة في أغلب المنطقة العربية، وكانت أنواعها - حينذاك - على النحو التالي:-

١- القهوة القشرية.
٢- القهوة البّنية.
٣- القهوة المحكّمة الاستواء.
٤- القهوة القاتية.

---

١ - دي لاروك، جان، أول رحلة فرنسية إلى العربية السعيدة ١٧٠٨ – ١٧١٠م و١٧١١ – ١٧١٣م، ترجمة منير عربش، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة – صنعاء، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، ٢٠٠٤م، صـ ١٦٣.

٢- دي لاروك، المصدر السابق، صـ ١٦٤.

٣ - الخطابي، أروى أحمد أحمد عبدالله، تجارة البن اليمني (ق١١هـ - ١٣هـ/ ١٧م – ١٩م) دراسة تاريخية، المتحدة للطباعة – صنعاء، الطبعة الاولى، ٢٠١٣م، صـ١٧ – ١٨.

٤ - جاويش، سليمان خليل بطرس، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، المكتبة العمومية – بيروت، ١٨٨٧م، ج٣، صـ٦٤.

٥ - نور الدين، صالح، البن وزراعته، مجلة المقتطف، الجزء التاسع من السنة الرابعة عشرة، ١ حزيران (يونيو) ١٨٩٠م الموافق ١٣ شوال ١٣٠٧هـ، صـ٦٣٤.

٦- الرشيدي، السيد أحمد، عمدة المحتاج في علمي الادوية والعلاج، دار الطباعة الخديوية ببولاق – القاهرة ،١٢٨٢هـ، ج ٢، صـ٣٤٢.؛ القاسمي، جمال الدين، رسالة في الشاي والقهوة والدخان، طبع ببيروت ١٣٢٢ هـ، بدون معلومات نشر، صـ ١٥.

ذكر عبدالقادر الجزيري - وهو من أوائل من وثّق نشأة القهوة - عن هذه الأنواع:- " اعلم أن القهوة هي النوع المتخذ من قشر البن أو منه مع المُحَجّم - بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الحاء المهملة المفتوحة ايضاً - أي المقلي وصفتها أن يوضع القشر إمّا وحده وهي القشرية، أو مع البن المحجم المدقوق وهي البنية في ماء، ثم يغلى عليه حتى يخرج خاصّيته، ومنهم من يجد غاية اعتدال استوائها بطعم مذاقها إلى المرارة وتسمى في اصطلاح ذوي معرفتها المحكمة الاستواء بتشديد الكاف وتركه ثم تشرب"[١].

اما القهوة القاتية المتخذة من شجرة القات فهي الممهد لاكتشاف القهوة ولتحول من شجرة القات إلى شجرة البن، فقد ذكر الجزيري ما يؤكد ذلك بقوله:- " كانت - أي القهوة - قبلُ من الكفتة أعني الورق المسمى بالقات لا من البن ولا من قشرة"[٢].

٥- القهوة المعنوية، تحدث الصوفية عن هذا النوع الخامس في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وقصدوا بها قهوة معنوية روحية لا ترتبط بالمذاق المادي ولكن ترتبط بالمذاق الروحي الصوفي، فالقهوة ارتبطت بالتصوف وكان اكتشافها على يدّي أحد رجالها، ولم تكتشف إلا لغاية تعزيز التصوف والصوفية في نفوس البشر:- " ولعل أقوى من ناصر القهوة في هذا الصراع مشايخ الصوفية في كل البقاع الإسلامية، أحبوا الذات الالهية وفنوا فيها وتغزلوا وشببوا بها؛ وكأن الغزل لا يحلو إلا بالصهباء، والتشبيب لا يكون إلا مع بنت الحان، فاتخذوا من القهوة خمرهم ومن فناجينها كؤوسهم، وذكروها وأكثروا ذكرها في اشعارهم"[٣]، فـ"قهوة الصوفية هي عبارة عن ما يجده أهل الله من الذوق عند الاطلاع على أسرار الغيب وحصول المكاشفات العجيبة ونيل الفتوحات العظيمة"[٤]، بل ويغالي بعض الصوفية في ذلك لإيجاد سند مقدس ودليل قرآني، فقد قال " الشيخ عبدالرحمن بن علي[٥] كنت انا وابن عمي أبوبكر العيدروس ونحن صغار في المكتب فلما وصلت في لوحي إلى قوله تعالى:- (أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا)[٦] الآية، قال لي الشيخ أتدري ما تلك الغرفة ؟ هي قهوة الصوفية"[٧].

---

١ - الجزيري، عبدالقادر بن محمد الانصاري، عمدة الصفوة في حل القهوة، ضمن كتاب الانيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور، دار الطباعة الجمهورية في باريس ١٢١٤ هجرية/ ١٧٩٩م، صـ ١٧٧- ١٧٨.

٢ - الجزيري، المصدر السابق، صـ ١٨٩ ــ ١٩٠.

٣ - زكي، أحمد، القهوة، مجلة الرسالة، العدد السابع، السنة الاولى، السبت ٢٠ ذي الحجة ١٣٥١هـ/ ١٥ ابريل ١٩٣٣م، صـ ٣١.

٤- العيدروس، عبدالقادر بن شيخ، صفوة الصفوة في حكم القهوة الملقب بالسر المكنون المودع في قهوة البون، صورة مخطوط لدى الباحث ، ورقة رقم ٣.

٥ - عبدالرحمن بن علي بن أبي بكر باعلوي (٨٥٥ - ٩٢٣هـ / ١٤٥١- ١٥١٧م) عالم ومتصوف، ولد وتوفي بتريم، ترجم له:- العيدروسي، محي الدين عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية ــ بيروت، الطبعة الاولى، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، صـ ١٠٥.

٦ - سورة الفرقان، الآية ٧٥.

٧ - مجهول، هذه فوايد عظيمة في خواص القات والبن عن اكابر الصوفية وغيرهم نفع الله بهم، مخطوط بدار المخطوطات في صنعاء برقم ٣٢٥٢ مجاميع ، ورقة رقم ١٨٢.

الاتجاهات العامة لنشأة القهوة العربية

- الاتجاه الميثولوجي (الاسطوري).

يقوم هذا الاتجاه على أساس أن القهوة موجودة قبل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بل ويذهب مذاهب شتى في نشأتها إذ يرى أنها موغلة في القدم من غير أدلة تاريخية صريحة أو شواهد تؤكد ما بُني عليه هذا الاتجاه، وتتعدد رؤاه في ذلك على النحو التالي:-

١- بدء الخليقة.

يؤمن اصحاب هذا الرأي أن:- " البن شجرة في الجنة غرسها سبعون الف ملك تسمى شجرة السلوان، فلما أهبط الله آدم هبط بها معه من الجنة للسلوان عما كان عليه من النعيم المقيم ورماها في هذه الأرض وهي أرض زيلع والحبشة.." [١]، وذكر العلامة سليمان بن يوسف البسيوني المزني في منظومته (تحفة الاخوان في استعمال القهوة والدخان) مؤرخاً وجودها :-

بأن أصلها من الجنـــان تسمى لديهم شجرة السلوان
قد أهبطت مع آدم لما نزل فهكذا شيخ مشايخي نقل
غرسها سبعون ألف ملك كما رُوي عن الجنيد وحكى
عن غيره من جملة الحفاظ فكن إلى المروي ذا أيقاظ [٢]

ونقل المؤرخ يحيى بن الحسين بن القاسم المتوفي سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٧م معززاً هذا الرأي فقال أنه:- " وجد عن الشيخ محمد بن سعد الدين الجبرتي قال: سألت الشيخ محمد أبا الحسن الشاذلي هل لها أصل قديم .؟ قال :- نعم.، قلت:- كيف الدليل لذلك.؟ قال الشيخ:- وجدنا في الكتب القديمة بالأسانيد عن الرواة أنهم قالوا:- إن الله سبحانه لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض بعرفات في بطن الوادي المسمى بنعمان، أمر الله آدم أن يحرث في الأرض ويزرع، فحرث وزرع مدة من الزمان، فأصابه في بعض الأيام مرض نزل به، فهبط الأمين جبريل عليه السلام فأعطاه طعمة من البن مقلية، وقال له :- يا آدم كل هذا فأنه

١ - الاجهوري، علي بن محمد، مقدمة في فضل البن، مخطوطة في دار الكتب المصرية ضمن مجموع يحمل رقم ٧٣ مجاميع، ورقة ٤٩. ؛ علوان الحموي، علي بن عطية بن الحسن، السر المكنون في مدح البون، نسخة مخطوطة في دار لكتب المصرية برقم ٧٣٤ علوم طبيعية ورقة ٣،

٢ - المزني، سليمان بن يوسف بن عمر البسيوني، تحفة الاخوان في استعمال القهوة والدخان، مخطوطة لدى الباحث، ورقة رقم ٢.

شفاء لوجع الرأس فأكله فأبراه الله في وقته" [١]، رغم أن المؤرخ نفسه – يحيى بن الحسين بن القاسم – يورد رواية أخرى لنشأة البن وانتشاره في اليمن في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي سيتم ايرادها في هذا البحث.

٢- نبي الله داود عليه السلام.

يعتقد جانب من الكتاب " أن داود النبي عليه السلام هو أول من وقف على خواصّها وربّ زاعم روى أنها أقدم منه عهداً"[٢]، وبعض هؤلاء الكتاب وخاصة النصارى يشيرون إلى أن القهوة وردت في الكتاب المقدس ففي الاصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الثاني والتي تقول:- " قَدَّمُوا فَرْشًا وَطُسُوسًا وَآنِيَةَ خَزَفٍ وَحِنْطَةً وَشَعِيرًا وَدَقِيقًا وَقَرِيكًا وَفُولاً وَعَدَسًا وَحِمِّصًا مَشْوِيًّا "[٣] ، فالحمص المشوي في نظرهم هو القهوة التي نزلت في عهد داود عليه السلام.

٣- نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام.

تبنى هذا الرأي الكثير ممن أرخّ لظهور البن والقهوة وحاولوا إيجاد بُعد تاريخي لتواجدها منذ القدم، فيقول المؤرخ عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الشهير بأبن العماد (١٠٣٢-١٠٨٩هـ/ ١٦٢٣- ١٦٧٨م) :- " إن ابتداء ظهورها كان في زمن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ... فكان سليمان صلى الله عليه وسلم إذا أراد سيراً إلى مكان ركب البساط هو ومن أحب من جماعته وظللتهم الطير وحملتهم الريح، فإذا نزل مدينة خرج إليه أهلها طاعةً له وتبركاً به، فنزل يوماً مدينةً فلم يخرج إليه أحد من أهلها، فأرسل وزيره على الجن الدمرياط، فرأى أهل المدينة يبكون قال: ما يبكيكم؟ قالوا: نزل بنا نبي الله وملك الأرض، ولم نخرج إلى لقائه. قال: ما منعكم من ذلك؟ قالوا: لأن بنا جميعاً الداء الكبير وهو داء من شأنه أن يتطير منه، وتنفر منه الطباع خوف العدوى، فرجع وأخبر سليمان بذلك فدعا ابن خالته آصف بن برخيا الله تعالى باسمه الأعظم أن يعلم سليمان ما يكون سبباً لبرئهم من ذلك، فنزل جبريل على سليمان، وأمره أن يأمر الجن أن تأتيه بثمر البن من بلاد اليمن، وأن يحرقه ويطبخه بالماء ويسقيهم، ففعل ذلك، فشفاهم الله تعالى جميعاً " [٤].

---

١ - ابن القاسم، يحيى بن الحسين، المستخرجات البينات على تحليل الأشياء المستعملات من القهوة والطباق والقات، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، منشورات المدينة – صنعاء، ط ١، ١٩٨٦م، صـ ٩٦ – ٩٧.

٢ - كيك، بطرس، شذرات في أصل القهوة، مجلة المشرق السنة السادسة ١ أساماه ١٩٠٣ العدد ١٥، صـ ٦٨٥.

٣ - الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، الاصحاح ١٧، تصدرها دار الكتاب المقدس في العالم العربي، صـ٥١٢.

٤ - ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، اشرف على تحقيقه وخرج احاديثه عبدالقادر الأرناؤوط وحققه وعلق عليه محمود

أيدّ شيخ الإسلام محمد بن محمد الخليلي هذه الرواية ونقل رواية مشابهة لما سبق، فقال :- " أما القهوة المستعملة الآن، فهي حادثة بالنسبة إلى هذا الزمان، وقديمة بالنسبة إلى زمن وجودها لما حكي أن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام كان إذا أتى إلى بلد خرج إليه أهلها يتبركون به، ويحضرون عنده العلماء والصلحاء وأهل الحاجات منهم، فيقضي حوائجهم، فمّر يوماً على عدن بلد باليمن، فلم يقابله أهلها، فسأل عنهم فأخبر أن أهلها بهم أمراض شديدة شتى، ومنها حبّ الإفرنج وهو أعظمها وكل منهم يستحي أن يقابلك وهو على تلك الحالة، فأتفق أن جبريل عليه السلام نزل عليه في ذلك الوقت، فسأله عن دواء لهم يحصل لهم به الشفاء، فأخبره عن البن أنهم إذا استعملوا قشره مطبوخاً بالبهارات أو حبة مقلوا بالنار مخلوطاً بسمن البقر عافاهم الله تعالى وشفاهم من أمراضهم ففعلوا فشفاهم الله تعالى وصاروا يزرعونه من ذلك الوقت في بلادهم وهو مستمر إلى هذه الأيام."[١].

قدّم المؤرخ اليمني يحيى بن الحسين بن القاسم رواية أخرى عن نشأة شجرة البن باليمن خاصة فذكر:- " أن سليمان عليه السلام لما نزل بوادي سبأ باليمن، جاء أهل اليمن يشكون اليه، ويقولون:- يا نبي الله يا سليمان، إن أولادنا خطفتهم الجان من المضاجع، ولم نعلم ما السبب في ذلك؟، فقال سليمان لوزيره آصف بن برخيا :- صفّ كيف الخبر فيما سمعت من هؤلاء المساكين، قال آصف:- قل لهم يأخذون غصون البن ويعقدوا بها هؤلاء على اطفالهم، فإنها حرز من الشياطين، ففعلوا فحفظهم الله تعالى من ذلك "[٢].

٤- الحكيم لقمان.

هناك رأي يرى أن القهوة تعود إلى زمن لقمان الحكيم فيقول الشاعر ابراهيم بن يوسف المهتار من شعراء القرن الحادي عشر الهجري بالحجاز:-

هاتِها لي قهوةً من ... عهدِ لُقْمانَ الحكيم[٣]

الآرناؤوط، دار ابن كثير دمشق للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، الطبعة الاولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣، جـ١٠، صـ ٥٧- ٥٨.

١ - الخليلي، محمد بن محمد شرف الدين، فتاوى شيخ الاسلام والمسلمين العالم العامل الشيخ محمد الخليلي الشافعي، مطبعة محمد شاهين بالمحروسة القاهرة سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، ج٢، صـ٢٩٧.

٢ - ابن القاسم، المستخرجات، صـ٩٧.

٣ - المحبي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد ، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة،، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ج٤، ضـ٢١٣.؛ ابن معصوم، علي صدر الدين المني بن احمد نظام الدين، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، مطبعة محمد أمين الخانجي المكتبي – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٣٣٤هـ، صـ ٢٤٧.

٥- الاسكندر المقدوني (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)

ذكر العلامة محمد مرتضى الزبيدي في رسالته (تحفة اخوان الزمن في حكم قهوة اليمن) أن القهوة ترجع إلى عصر الاسكندر المقدوني فقال:- " وأصل منشأها من قديم الازمان ....قيل أول من اظهرها الاسكندر المقدوني ذو القرنين بإشارة من شيخه الحكيم أرسطاطاليس حين أذن له بالمسير لليمن"[١]، وهو رأي يشابه رأي بعض الكتاب الاوربيين، فقد " ورد في معجم ميرات ودي لنس إذ قال أن بني اسرائيل واليونان عرفوا خواصها"[٢].

٦- الغزو الحبشي للجزيرة العربية .

يؤكد الكثير من المختصين ان شجرة البن انتقلت إلى اليمن من مرتفعات الحبشة قبل الإسلام إبان الغزو الحبشي لليمن واحتلاله[٣]، وتقول اليزابيت مونرو:- " لقد وصل البن عبر الاحمر إلى عدن واليمن في تاريخ غير محدد، وإن كان من المرجح أن يكون ذلك مع غزو الجزيرة العربية أيام الجاهلية، عندما أرسل قلب اثيوبيا جيشه المسيحي لمقاتلة حمير"[٤].

يقول كاتب غربي آخر:- " شجرة البن ذات أصل افريقي لكنها انتقلت في فترة ما إلى المناطق الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية، لكن الثابت أنها ظهرت وبشكل واقعي واكيد في القرن الرابع عشر الميلادي حسبما ذكرت مخطوطة عربية، فاحتمال أن الشجرة قد زرعت في اليمن عبر نقلها من الحبشة خلال الغزو الحبشي الاول أو الثاني لليمن في المناطق الجبلية المحاذية لشريط البحر الاحمر باليمن، وفي ظل غياب المعلومات التاريخية وعدم ذكر القهوة في القران تسود الاساطير العربية حول ظهور القهوة" [٥].

٧- الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

تعددت الروايات من قبل محبي القهوة التي تريد إثبات أن القهوة كانت معروفة ايام

---

١ - الزبيدي، أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني، تحفة اخوان الزمن في حكم قهوة اليمن، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود قسم المخطوطات برقم ٥٥٩٥، ورقة ٣.

٢ - كيك، المرجع السابق.

3 - Bury. G. Wyman. ARABIA INFELX OR THE TURKS IN YANEN, MACMILLAN AND COM., LIMITED, LONDON, p 114. -

٤ - مونرو، المرجع السابق، صـ ١٢١.

5 - B.E.DAHLGREN, COFFEE , FIELD MUSEUM OF NATURAL HISTORY , CHICAGO , 1938 , PP. 1 - 2

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أو أنه أرشد إليها بوجه أو بآخر، فقد ذكر بعض العلماء المتقدمين أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما حج حجة الوداع، ووصل إلى مكة المكرمة: " جاء إليه أهل اليمن يشكون قالوا يا رسول الله ان بنا علّة، وهو أن الرجل يأخذه رعشة في جسده، ويبزغ الدم بين حلقه فهل لهذا الامر دواء يا رسول الله ؟ قال قل لهم:- هل عندكم شجرة حملها كبعر الغنم؟، قالوا:- نعم.، قال لهم:- خذوا حملها وطبخوه بالماء حتى يفور، ثم تطلع خاصيته، فإن فيه منافع حتى فعلوا ما أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم."[١]، وهناك رواية أخرى ترى:-"أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام لما مرض اتاه الملاك جبريل به شفاءٌ له"[٢]، وإبان الصراع على حلّ أو حرّمة القهوة " بلغ الغضب بنفر من الاتقياء الصالحين البررة الاطهار أن حدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من شرب القهوة يحشر يوم القيامة ووجهه أسود من اسافل أوانيها"[٣].

- الاتجاه التاريخي العقلاني.

تتعدد الروايات الواقعية في الجانب التاريخي عن بدايات نشأة القهوة واكتشافها ومكتشفها وكيفية اكتشافها، وتتداخل الاسطورة في الرؤية التاريخية الواقعية لكن بشكل عام تتلخص أبرز الآراء على النحو التالي:-

١- قصة الراعي أو الدرويش الصوفي.

تعد قصة الراعي أو الدرويش الصوفي المُعول عليه في اكتشاف شجرة البن، ومن ثم ابتكار القهوة من القصص التي يستحضرها الكتاب – وخاصة الغربيون[٤] – في نشأة هذا المشروب، فـ" كان من الطبيعي ان هذا الشراب، الذي ضاع تاريخ وصوله إلى الجزيرة العربية في ظلام الماضي، كان مثار عدد من القصص حول اكتشافه ونوعياته...ولقد كان اشهر هذه القصص اكثرها اثارة، تلك التي تقول:- يحكى ان احد رعاة الماعز في عدن واسمه خالدي لاحظ ان الماعز كلما اكلت براعم وثمار احدى الشجيرات التي تنمو برياً فازدادت نشاطاً ويقظة بعد تناولها، فأخبر الولد مولاه الذي قرر بانها اذا كان لها هذا الاثر على الحيوانات فسيكون اثرها اكبر على الانسان، ومن ثم فهي تساعد على يقظة الدراويش لديه، فيقضون الليل ساهرين، فجرّبها على نفسه وشربها باردة أول الامر، فلم تحدث عليه أثراً، ثم جربها ساخنة فلاحظ ان مشروبها جعله يتصبب عرقاً وأحس بالصفاء الذهني، فدعا

١ - ابن القاسم، المستخرجات، صـ٩٧.
٢ - نور الدين، المرجع السابق، صـ٦٣٤.
٣ - زكي، المرجع السابق، صـ ٣١.
4 - DAHLGREN, lbid. P.7.
-

الناس لتناول هذا الشراب"[١].

تورد رواية أخرى تحكي " أن درويشاً فقيراً لم يكن يملك إلا كوخاً وقطيعاً صغيراً من الماعز، ففي ذات يوم، رجع القطيع من المرعى وهو مضطرب الاعضاء، فبحث الدرويش عن سبب ذلك، فرأى أن القطيع رعى ذلك اليوم من اوراق شجرة صغيرة لم يكن نظرها قبلاً، فأخذ من اوراقها، واثمارها، وصبّ فوقها ماء ساخناً، وشرب الماء، فشعر بلذة وتخدر غير عادي"[٢]، فهكذا كان اكتشاف القهوة "وليد المصادفة، فقد لاحظ أحد رعاة المعز [الماعز] أن الماعز التي في رعايته بعد ان اكلت أوراق شجيرات البن وحبوبها بدا عليها المرح وأخذت تتواثب بهجة وسروراً مما حمل الراعي على تجربة ذلك فتعاطى الحبوب بنفسه... كما تخبرنا الاساطير"[٣] .

يرى البعض – وهو ما سيطرق لاحقاً – أن اكتشاف القهوة قد تمّ على يد مبشر مسيحي عربي فقال عن ذلك:- " ومما يُخبر أن رئيس دير في جزيرة العرب خرج يوماً إلى الصحراء، فرأى قطيعاً من المعزى كان يرعى بعضها شجرة فتنشط بأكملها وتمرح، وكانت الشجرة شجرة القهوة، فاستدل بذلك على ما لحبوبها من القوة"[٤]، ويرى الباحث أن القصص الغربية عن الراعي المسيحي مردها إلى الكاتب مرهج بن نمرون الماروني الذي كان أول من ذكر هذه القصة في كتاب طبعه باللاتينية في روما العظمى سنة ١٠٧٠هـ /١٦٦٠م ومنه أخذوا هذه القصة.

توصل الباحث إلى نص في كتاب طبي مخطوط تحدث صاحبه عن نشأة القهوة واكتشافها وهي تقترب مما سبق ايراده، يذكر صاحب هذا الكتاب:- " أن شيخاً انقطع مع مريديه، في مكان ما، وانقطع عنهم الزاد، فذهب بعض من اتباعه يبحثوا عما يقتاتون به ويسدّون جوعهم به، فوجدوا بذور البن فأكلوه، فعرضوا لحضرة الشيخ القصة، فأمر الشيخ بالتفحيص والتجسس في أطراف الجبال لعله يوجد من بعض الحبوب والثمار، فوجدوا هذه الشجرة وجمعوا من ثمرتها، وجاؤوا بها إلى حضرة الشيخ، فلما رأى في حبها نوع يبوسة أمرهم بطبخه لعله يلين بالطبخ، فطبخه الخادم وبالغ في طبخه، فلم ينضج، ولما رأى صلابته وعدم قبوله النضج بدا له أن يحمصه لعله يتحلل بالتحميص، ويقبل النضج، فحمصّه وطبخه، وجاء به إلى الشيخ فشرب وشربوا وكان اكلهم وشربهم من هذا، وعلى هذا كان دأبهم إلى أن غفل الخادم في وقت من الاوقات عند تحميصه حتى بلغ قريباً من

١ - مونرو، المرجع السابق، صـ١٢١.
٢ - نور الدين، المرجع السابق، صـ٦٣٤.
٣ - ويلي، كاثرين ، القهوة مشروب عالمي، ترجمة عبدالباري نعمت، مجلة الثقافة، العدد ٦٠٤، الاثنين ٩ شوال سنة ١٣٦٩هـ / ٢٤ يوليو ١٩٥٠م، صـ ١٣.
٤ - كيك، المرجع السابق،

الاحتراق – كما يستعمله الناس الآن –، فلما شربه الشيخ استحسن هذا النوع من أنواع طبخه، فكانوا يتغذون ويتعيشون به في تلك العزلة، ولما عرف منه بعض الخواص الممدوحة عند أرباب الرياضة من السهر وانقطاع الشهوتين وغير ذلك أمر الشيخ بجمعه، فجمعوا منه شيئاً وجاؤوا به بعد العزلة إلى البلد واشتهر بين الخلق"[١].

٢- محمد بن سعيد الذبحاني المتوفي ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م.

ذكر الشيخ شهاب الدين أحمد بن موسى بن عبد الغفار المالكي المصري في (رسالة عن القهوة) والمؤرخ عبدالقادر بن محمد الجزيري الأنصاري في (عمدة الصفوة في حل القهوة) في مبدأ اكتشاف القهوة ومكتشفها ما يلي:- " بلغنا أن ظهورها وانتشارها فيه كان على يد المشهور بالعلم والولاية...جمال الدين أبي عبدالله محمد بن سعيد المعروف بالذبحاني وسمعنا إنه - رحمه الله - كان متولياً بوظيفة تصحيح الفتاوى بعدن،وسبب إظهاره لها ما سمعناه أيضاً أنه - رحمه الله - كان عرض له أمر اقتضى له الخروج من عدن إلى بر عجم، فأقام به مدة، فوجد أهله يستعملون القهوة، ولم يعلم لها خاصّية، ثم عرض له لما رجع إلى عدن مرض فتذكرها فشربها فنفعته فيه ووجد فيها من الخواص أنها تذهب النعاس والكسل ويوّرث البدن خفة ونشاطاً فلما سلك طريق التصوف صار هو وغيره من الصوفية بعدن يستعينون بشربها، ثم تتابع الناس بعدن والفقهاء والعوام على شربها للاستعانة بها على مطالعة العلم وغير ذلك من الحرف والصناعات"[٢].

تابع ابن عبدالغفار المالكي طرقه لموضوع القهوة وبحثه عن أصل اكتشافها ومكتشفها فقال:- " ثم إني كتبت لبعض اخواننا في الله تعالى من أهل الدين والعلم بزبيد وهو الفقيه الاجل جمال الدين أبو عبدالله محمد بن الشيخ الامام العالم العلامة عبدالغفار باعلوي وهو من بيت كبير بزبيد مشهور أهله بالعلم والدين أن يبحث لي عمن شربها باليمن ممن يعتد به من أهل العلم والدين وعن أول حدوثها فيه، فكان مما كتبه اليّ في الجواب ما صورته :- " وما ذكره لي سيدي – حفظه الله تعالى – من البحث عمن شربها من أهل اليمن فسأل المملوك جماعة من المعمرين ببلدنا وأسنهم الان عمّ المملوك الفقيه العالم الصالح وجيه الدين عبدالرحمن بن إبراهيم العلوي فانه الآن قد زاد على التسعين

١ - مجهول ، كتاب طب، مخطوط في مكتبة المؤرخ محمد بن عبدالجليل الغزي بزبيد أمدّ الباحث بصورة مما يخص بحثه نجل صاحب المكتبة الباحث أحمد بن محمد عبدالجليل الغزي.

٢ - المالكي، الشيخ شهاب الدين أحمد بن موسى بن عبد الغفار المصري، رسالة القهوة، تحقيق وتقديم إبراهيم محمد السعداوي، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، الطبعة الاولى، ٢٠١٠م ، صـ ٧٩.؛ الجزيري، المصدر السابق، صـ ٦- ٧؛ الحكيم، مدين بن عبدالرحمن الطبيب ، تلخيص عمدة الصفوة في حل القهوة، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، قسم المخطوطات، رقم المخطوط ١/١٢١٣، ورقة ٥- ٦.

فأخبرني – حفظه الله – وأبقاه عن بدء أمر القهوة وذلك أنه قال:- كنت بمدينة عدن فوصل إلينا بعض الفقراء السالكين وكان يعمل القهوة ويشربها، وأنه كان يعمل للشيخ العلامة خاتمة العلماء بثغر عدن الفقيه محمد المعروف بافضل الحضرمي والشّيخ العارف بالله ذي الأحوال السنية محمّد الذبحاني ويشربانها بمحضر من الناس كفى بهما حجة في ذلك...فيحتمل أن يكون الذبحاني أول من ادخلها عدن كما هو المشهور، ويحتمل أن يكون من ادخلها غيره.."[١]، ففي النص احتمالية أنه أول من ادخل القهوة إلى عدن فقط ويحتمل غيره وعدم القطع بذلك لكن الاجابة على سؤال:- من هو مكتشف القهوة.؟ هو ما لم يرد بصراحة.

نقل الجزيري عن فخر الدين أبوبكر بن أبي يزيد المكي في رسالته عن القهوة (إثارة النخوة بحل القهوة) ما لفظه:- " قيل وأول من أنشأها الشيخ الصالح المسلك أبو عبدالله محمد بن سعيد الذبحاني... وأنها كانت قبل من الكفتة أعني الوق المسمى بالقات لا من البن ولا من قشرة فلا زالت تنتقل من بلد إلى اخر حتى وصلت إلى ثغر عدن المحروس فعدمت الكفتة من عدن في زمن سيدنا الشيخ محمد بن سعيد الذبحاني...، وقال لمن يلوذ به وينتمي اليه إن البن يسهر فامتحنوا بنا قهوته فامتحنوها فوجدوها تعمل عمله مع قلة الثمن والمؤنة ثم استمر شربها من منشئها"[٢].

أورد مؤرخ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٨٣١ - ٩٠٢هـ/ ١٤٢٧ - ١٤٩٦م) سيرته فقال عنه:-" محمد بن سعيد بن أحمد الجمال الذبحاني المذحجي اليماني العدني، من صلحاء اليمن هو وأبوه، كان صوفياً مباركاً، تفقه في بدايته واشتغل واجتهد ودرس قليلاً، ثم تصوف وغلب عليه التصوف وطالع كتبه وعمل السماع، وكان منجمعاً قليل الخلطة لا يخرج إلا للجمعة أو لدعوة، كثير الأنس بالغرباء والاستفادة منهم، وللعامة فيه اعتقاد كبير، واقتنى كتباً كثيرة وكتب رسائل في التصوف غير سالمة من الخلل اللفظي، ولا يقبل ممن يرشده إلى الصواب، بل يتكلف لتوجيه ما يبديه، مات في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين." [٣]، ثم ذكر ترجمة لوالده سعيد الذبحاني فقال: " سعيد بن أحمد سابق الدين ...، تفقه بالجمال الخياط وطبقته بتعز واشتغل بزبيد أيضاً وحضر مجالس ابن المقري وسمع على ابن الجزري أشياء من تصانيفه وغيرها، وقدم بعد الأربعين إلى عدن فاستوطنها واقتنى كتباً نفيسة وكان ضنيناً بها وكذا استولى على عدة خزائن فأعدمها ولم يكن بالمحمود مع إقباله على التصوف والمباحثة فيه والتكلف لذلك إلى أن مات في أواخر رجب سنة سبع وثمانين."[٤].

١- المالكي، المصدر السابق، صـ٨١، ؛ الجزيري، المصدر السابق ، صـ ١٨٤ – ١٨٦.
٢ - الجزيري، المصر السابق، صـ ١٨٩ -١٩٠.
٣ - السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل – بيروت، ج ٧، صـ ٢٤٩.
٤ - السخاوي، المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٥٤ – ٢٥٥.

وبالعودة إلى كتب التراجم اليمنية يؤكد الباحث خلوها من ذكر شخصية محمد بن سعيد الذبحاني ووالده عدا ترجمة قصيرة في كتاب (طبقات صلحاء اليمن) للبريهي والذي قال عنه وعن والده ما يلي:-"ومنهم الفقيه بدر الدين سعيد بن أحمد الذبحاني، هو إمام فاضل مجود، مجتهد بطلب العلوم، يتعاطى الفتوى، وقد طعن في السن، ونشأ له ولد يسمى محمد، نجب فأعجب حتى قيل: إنه أدرك من نخب العلوم ما لم يدركه أبوه لجودة فهمه وعلو همته، وهو منقطع في طلب العلم والتدريس، ...وهو في أول عشر الثلاثين وقد يتكلم في علم الحقيقة ولكنه قد يأتي بدعوات من التمكن ما لا يصادق عليه وهما في قيد الحياة عند جمع هذا المجموع"[١].

لكن السخاوي الذي لم يذكر أن الفقيه محمد بن سعيد الذبحاني اكتشف القهوة أو رحل إلى الحبشة أو تولى القضاء، ونفس الكلام يقال على المصدر اليمني الوحيد الذي ترجم له وهو طبقات البريهي، فيؤكد الباحث أن البن والقهوة كانا موجودين في حياة محمد بن سعيد الذبحاني وقبله في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي والدليل أن مسألة حلّ القهوة أو حرمته كانت مثارة قبل مولد[٢] محمد بن سعيد الذبحاني ومجيء والده إلى عدن بعد سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م، وكان قاضي عدن " في أكثر الاوقات" الفقيه محمد بن سعيد بن كبن بن علي الطبري المتوفي سنة ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨م، قد كتب رسالته الشهيرة في تحليل شرب القهوة[٣]، فكيف يستساغ أن يقال أنه مكتشف القهوة وهي موجودة اصلاً قبل أن يوجد.؟

يعتقد الباحث أن ابن عبدالغفار المالكي والجزيري حدث لديهما لبس في الأسماء بسبب بُعد المكان وقلّة معرفتهما باليمن وعلمائها فقصدا الفقيه محمد بن سعيد بن كبن بن علي الطبري والذي تولى القضاء بعدن لأكثر من اربعين سنة[٤]، ودخل الحبشة وأجاد اللغة الحبشية[٥] وكان معتقداً لدى العامة[١]، والذي أحلّ شرب القهوة وأيدها ولم يكتشفها.

---

١ - البريهي، عبدالوهاب بن عبدالرحمن السكسكي، طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الارشاد – صنعاء، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ،١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، صـ ٣٣٥ – ٣٣٦.

٢ - ذكر البريهي أن محمد بن سعيد الذبحاني كان عمره عند تصنيف طبقات صلحاء اليمن قد ناهز الثلاثين عاماً، وانتهي البريهي من تصنيف الطبقات في ٨٧٥ هـ أي في السنة التي توفي فيها محمد بن سعيد، راجع البريهي، المصدر السابق، صـ ٣٣٧ -٣٣٨.

٣ - العيدروس، عبدالرحمن بن محمد بن أحمد، إيناس الصفوة بأنفاس القهوة، مخطوط نقلاً عن باسودان، عبدالله بن أحمد، فيض الاسرار واقتباس الأنوار من معاني منظومة سيدنا الإمام الشيخ عمر بن عبدالرحمن البار، ج٣، صـ١٠٥.نسخة مصورة لدى الباحث.

٤ - ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق محمد عبدالمعين خان، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م، ج٩، صـ ٨٥.

٥- بامخرمه، أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دراسة وتحقيق

٣- ابوبكر بن عبدالله العيدروس المتوفي ٩١٤هـ/ ١٥٠٩م.

انفرد المؤرخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي المتوفي سنة ١٠٦١ هـ/ ١٦٥١م في كتابه (الكواكب السائرة بأعيان المائة التاسعة) بنسبة اكتشاف القهوة إلى الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس[٢]، وأيده ابن العماد الحنبلي في (شذرات الذهب)، فقال الغزي :- " وهو مبتكر القهوة المتخذة من البن من اليمن، وكان أصل اتخاذه لها أنه مرّ في سياحته بشجر البن على عادة الصالحين، فاقتات من ثمره حين رآه متروكاً مع كثرته، فوجد فيه تجفيفاً للدماغ، واجتلاباً للسهر، وتنشيطاً للعبادة، فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً، وأرشد أتباعه إلى ذلك، ثم انتشرت في اليمن، ثم إلى بلاد الحجاز، ثم إلى الشام ومصر، ثم سائر البلاد"[٣]، رغم أن المصادر تتحدث عن شغف الشيخ أبوبكر بن عبدالله العيدروس بالقهوة وحبه لها وتعاطيها مع مريديه وهو ايضاً أحد مريدي الشاذلية بل والقائم على زاوية الشيخ علي بن عمر الشاذلي بالمخا[٤].

٤- عبدالله بن صلاح الجبرتي.

ورد ذكر عبدالله بن صلاح الجبرتي كرجل صوفي صالح من الحبشة في مخطوطة طبية وتحدثت عن كيفية نقل شجرة البن من الغرب الأفريقي إلى شرق أفريقيا، فقال صاحب المخطوطة ما يلي :- " إنه كان رجلاً في بلاد الحبشة من أرباب القلوب اسمه عبدالله بن صلاح وكان يعرض لأطفال تلك البلاد المرض المسمى بأُم الصبيان، فأمر الرجل واحداً من أهل تلك البلاد بأن يأتي من بلاد التكرور بهذه الشجرة، ونعتها له، فجاء بها وزرعت ونبتت، فبمجرد نبتها ارتفعت عن صبيانهم تلك العلّة، فبهذا بوركت

محمد يسلم عبدالنور، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة – صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ج٣، صـ ٣٧٥٠.

١ - السخاوي، المصدر السابق، ج٧، صـ٢٥١.

٢ - فخر الدين أبوبكر بن عبدالله بن أبي بكر بن عبدالرحمن باعلوي المعروف بالعيدروس وينسب بالشاذلي للطريقة الشاذلية(٨٥١ – ٩١٤هـ/ ١٤٤٧ - ١٥٠٩ م) عالم وصوفي كبير، ولد بتريم في حضرموت ودفن بعدن، عاش في عدن وموزع وزيلع، له مجموعة مصنفات اشهر الجزء اللطيف في التحكيم الشريف في ذكر مشائخه وديوان وغيرهما، مراجع ترجمته:- ١) بحرق، محمد بن عمر، مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس، مخطوط لدى الباحث.؛ ٢) بامخرمة ، المصدر السابق، ج٣، صـ ٣٧٠٥.؛ ٣) العيدروسي، المصدر السابق، صـ ٧٧.؛ ٤) الزركلي، خير الدين، الاعلام قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة، مايو ١٩٨٠م، ج٢، صـ ٨٨.

٣ - الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، الكواكب السائرة بأعيان المائة التاسعة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الاولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج١، صـ ١١٥.؛ ابن العماد، المصدر السابق.

٤ - مجهول، هذه فوايد عظيمة في خواص القات والبن. مخطوط.

واشتهرت ونقلت من هناك إلى اليمن"[١]، وقد أشار ايضاً إلى ذلك الجزيري بقوله:- " لأن ظهور القهوة في بر ابن سعد والحبشة والجبرت وغيره من بر العجم لا يعلم متى كان و لا علمنا سببه"[٢]، وقول السقاف :- " وفي الإيعاب شرح العباب للعلامة ابن حجر رحمه الله ما نصه: حدث قبيل هذا القرن العاشر شراب يتخذ من قشر البن نبت يجلب من نواحي زيلع يسمى ذلك الشراب بالقهوة"[٣]، فظهور شجرة البن في شرق افريقيا مجهول الزمن تماماً لكن القهوة معلوم زمن اكتشافها.

٥- علي بن عمر الشاذلي.

عُدّ الشيخ علي بن عمر الشاذلي[٤] (٧٥٥ – ٨٢٨هـ / ١٣٥٤ – ١٤٢٤م) لدى أغلب المؤرخين والكتاب هو المكتشف الحقيقي للقهوة، فقال الجزيري نقلاً عن فخر الدين أبي بكر بن أبي يزيد المكي من كتابه (إثارة النخوة بحل القهوة) :- " والذي بلغنا عن جمع يبلغ حدّ التواتر أن أول من انشأها واظهرها وبأرض اليمن اشاعها واشهرها الشيخ العارف بالله تعالى علي بن عمر الشاذلي أحد تلامذة سيدنا الشيخ العارف بالله تعالى ناصر الدين بن ميلق أحد السادة المشايخ الشاذلية"[٥].

ذكر الشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس في (صفوة الصفوة في بيان حكم القهوة) ما يلي:-" وهو – علي بن عمر الشاذلي – أول من اظهر القهوة، فنسبت اليه، واشتهرت به اشتهاراً عظيماً ...وحكي عنه أنه :- عاد[٦] هذه القهوة تبلغ من المشرق إلى المغرب، فكان كذلك وشاعت في اكثر البلدان حتى وصلت إلى الاقطار البعيدة والامصار النائية، وكان الناس قبل اتخاذه لها انما يستعملون لب القشر وهو البن ويرمون القشر على المزابل، ولا يحتفلون به، فقال الشيخ :- عادهم يحملون القشر إلى اطراف البلاد وتسير به القوافل على أكتاف الرجال ويعزُّ بين الناس، وتغلى قيمته، وتزيد بزته حتي يباع بالذهب والورق فكان كذلك "[٧]، ونقل باسودان عن العيدروس من رسالته (إيناس الصفوة بأنفاس القهوة) قوله:-

---

١ - مجهول ، كتاب طب، مخطوط.
٢- الجزيري، المصدر السابق، صـ ١٨٨- ١٨٩.
٣ - السقاف، السيد علوي بن أحمد، رسالة في قمع الشهوة عن تناول التتباك والكفتة والقات والقهوة، ضمن كتاب مجموعة سبعة كتب مفيدة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر، ١٣٦٥هـ ، صـ ١٣٩.
٤ - ترجم للشيخ علي بن عمر القرشي الشاذلي ما يلي ١) الاهدل، بدر الدين أبي عبدالله الحسين بن عبدالرحمن بن محمد، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الارشاد – صنعاء، الطبعة الاولى، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م، ج٢، صـ ٣٠٧ – ٣٠٨.؛ ٢) البريهي، المصدر السابق، صـ ٢٦١.؛ ٣) السخاوي، المصدر السابق، ج٥، صـ ٢٦٣.
٥ - الجزيري، المصدر السابق، صـ ١٨٩.
٦ - عاد وعادهم من كلمات اللهجة التهامية بمعنى سيصبح وسيكون.
٧ - العيدروس، صفوة الصفوة ، ورقة رقم ١.

" وأول حدوثه أواخر القرن الثامن باليمن المبارك ومنشأه الإمام أبو الحسن علي الشهير بالشاذلي بن عمر...صاحب المخا الغوث الرباني والفرد الصمداني المتوفي سنة ٨٢٨هـ"[١]

وذكر المرتضى الزبيدي:- " واجمعوا على أن أول من نشر صيتها القطب الكامل سيدي أبو الحسن علي بن عمر القرشي الشافعي الشاذلي..، فأظهر منافعها وبيّن خواصها وحثّ تلامذته على شربها في مجلس الأذكار والعبادات، فوجدوا فيها منافع غريبة وخواص عجيبة، فصنفوا فيها الكتب.."[٢].

وبتتبع سيرة حياة الشيخ علي بن عمر الشاذلي من خلال مخطوطة لدى الباحث تناولت حياته بشكل عام، فتحدثت في البداية عن نسبه فهو ابو الحسن علي بن عمر بن إبراهيم من بني دعسين اسرة تهامية شهيرة ينتهي نسبها إلى الصحابي خالد بن اسيد بن ابي العيص بن أمية بن عبد شمس[٣]، ثم أورد صاحب المخطوطة عبدالملك بن عبدالسلام بن دعسين القرشي - وهو من احفاد الشاذلي – معلومات عن مولده ونشأته وتعليمه ورحلته إلى الحجاز والشام فقال:-" وأما مولده ومسقط رأسه فالقرشية السفلى من وادي رمع[٤]..وكانت ولادته سنة ٧٥٥ تقريباً...وولد بعده أخيه موسى، ثم توفي والدهما...، فتولى تربيته عمه الفقيه...جمال الدين محمد...واعتني به غاية الاعتناء..، ولما تم قراءة القران الكريم شرع في قراءة العلوم..، وأول قراءته بالقرشية على الفقيه جمال الدين المذكور وعلى الفقيه العلامة جمال الدين محمد بن هارون الواسطي فحصّل عليهما جانباً من العلوم واستفاد في المنطوق والمفهوم، ثم دخل إلى مدينة زبيد واشتغل على جماعة من علمائها وسمع مجالس من قراءة جامع البيهقي بالجامع بها على الفقيه الإمام العلامة أبي الحسن علي بن محمد بن شداد المقري الحميري، ثم انتقل إلى قرية ذي حَمُود ويقال لها ذي حَمْده وهي من قرى وصاب[٥]..، فاجتمع بجماعة من العلماء بها منهم الفقيه العلامة أبو عبدالله صالح بن محمد بن عمر السوادي الخولاني ...، ولما بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً أحرز العلوم وأتقن الفنون وحقق في تحقيقه لها الظنون، ثم رحل إلى أبيات حسين[٦] المدينة المشهورة من أعمال وادي سُرُدُد[٧]، وحقق بها علم الفرائض والجبر

١ - باسودان، المصدر السابق، ج٣، صأ١٢١.
٢ - الزبيدي، المصدر السابق، ورقة ٣.
٣ - ابن دعسين، عبدالملك بن عبدالسلام بن عبدالحفيظ ، جواهر السلوك المتحلي بها جيد المملوك إلى ملك الملوك بشرح قصيدة ابن بنت الميلق، مخطوطة لدى الباحث.
٤ - وادي رمع جنوب الحديدة ويقع بين بيت الفقيه وزبيد.
٥ - وصاب تقع وصاب أو أصاب كما تسميها المصادر في جنوب غرب ذمار وشرق تهامة وتعتبر من جبالها وتنقسم الآن إلى مديريتين وصاب العالي مركزها (الدن) و وصاب السافل مركزها (الأحد) وتنقسم كل مديرية إلى عزل.
٦ - ابيات حسين مدينة مندثرة تقع شمال مدينة الزيدية الحالية اشتهرت في العصور الوسطى بالتجارة والعلم وبموقعها الاستراتيجي.
٧ - وادي سردود هو أحد أودية اليمن في تهامة التي تصب بالبحر الاحمر ويقع بين وادي سهام ووادي مور.

والمقابلة وكثيراً من الفنون على الفقيه العلامة رضي الدين أبي بكر بن محمد بن عمران ... ثم لما بلغ عمره عشرين سنة ارتحل إلى مكة المشرفة فحج ثم زار النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صار إلى بيت المقدس فأقام به مدة طويلة يقرأ في العلوم من الفروع والأصول وفنون المعقول والمنقول"[1]، ثم تحدث ابن دعسين عن ارتحال الشيخ علي إلى مصر" ارتحل الشيخ علي بن عمر إلى مصر ودخل مدينة غزة...وصحب بغزة اكابر منهم الشيخ الإمام رفيع المقام ابو اسحق إبراهيم بن محمد الغزي ثم سار هو والشيخ محمد الداخلي إلى مصر ودخل على الشيخ ناصر الدين[ابن بنت الميلق][2]، فقابله بالبشاشة والترحيب، وعامله بالأنس والتقريب، واكرمه الإكرام الكلي، وتولى رعايته بحسن النظر الخفي الجلي، وسلكه الطريق الشاذلية، وجذبه وادناه من الحضرة الإلهية، وقربه ولقنه الذكر وفهمه معاني الفكر، وادخله الخلوة، وبشره بالفتح واظهر له من العلوم والمعارف...فأقام بمصر في كنفه ثلاث سنين..وقرأ كثيراً من العلوم على جماعة من علماء مصر منهم الإمام العلامة ابن الملقن الشهير بابن النحوي ..ثم اشتاق إلى الوطن من ارض اليمن، فاستأذن شيخه في السفر فأذن له..."[3].

تحدثت المخطوطة عن رحيله إلى الحبشة وهي رحلة فريدة ونادرة فبـ "إشارة نبوية أُمر بالدخول إلى بر العجم وأرض الحبشة، فأمتثل الإشارة، وأول دخوله إلى قرية بحره وتزوج بها، ودخل يبيلول وبرحيا وندخيه وولد له أولاد كثيرون...وصحبه بتلك البلدان جماعة من أهلها العلماء والصوفية الأعيان...ثم أُمر بالتقدم إلى بلاد السلطان سعد الدين المجاهد، فسار إلى هنالك واجتمع به السلطان مجد الدين وقام بواجبه وخدمه خدمة سنية بقلبه وقالبه.. وتزوج بابنة عم السلطان سعد الدين المذكور واسمها مريم بنت ملاسفج عمر بن علي بن صبر الدين..، ولما تزوجها الشيخ ولد له هنالك ابنيه الجليلين زين العابدين وعبدالرؤوف وخرج بها معه إلى المخا وولدت له ابنا سماه عبدالقادر درج صغيرا وولدت له بنتاً سماها فاطمة ثم ماتت الأم في حياته بالمخا...واستوطنها....ثم رجع إلى المخا...وجد الشيخ موضعاً مواتاً فأحياه وابتنى به بيوتاً وسكن بها واسكن غيره معه ممن وفد إليه....وصار صاحب زوايا وأربطة وأتباع كثيرون وأصحاب مشهورين، وشهر طريق الشاذلية في جميع قطر اليمن...وسافر سفرة إلى تعز لاستدعاء الملك الناصر بن الملك الاشرف له، فأقام بها خمسة اشهر، ثم رجع إلى المخا، واما مدينة عدن فكان يتردد اليها ويقيم بها الايام العديدة والمدد المديدة وله بها رباط يقال له رباط الشاذلية، .. وصارت تسمى بقرية الشاذلية.. ولما نزل الشيخ من تعز لبث بالكثيب من

---

١ - ابن دعسين، المصدر السابق.

٢ - ابن بنت الميلق (٧٣١- ٧٩٧هـ/ ١٣٣١- ١٣٩٩م) محمد بن عبدالدائم بن محمد، ابو المعالي، ناصر الدين ، قاض مصري، كان شافعياً شاذلياً، واعظاً بليغاً، له مصنفات اشهرها قصيدة من ذاق طعم شراب القوم يدريه. الزركلي، المرجع السابق، ج٦، صـ١٨٨.

٣- ابن دعسين، المصدر السابق.

جهة الاوشج اياماً، ثم انتقل منها إلى قرية السمطين ثم انتقل منها إلى المخا التي هي المسكن المعتمد والموطن الذي هو المعهد ولم يزل ..حتى انتقل بالوفاة ضحى يوم السبت أول يوم من شهر صفر الخير سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وكان عمره حينئذ ثلاثة وسبعين عام"[١].

هذه الرحلة في حياة الشيخ علي بن عمر الشاذلي وخاصة في رحلاته وتنقلاته وعلاقاته بالسلطة الحاكمة والنخب العلمية والصوفية وامتلاكه لقدرة ادارية في إقامة أربطة شاذلية صوفية جعلته الأقرب إلى الإجماع أنه المكتشف للقهوة، ولكن كيفية اكتشافه لها ظل هو السؤال، فالرحالة ابن معصوم في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي قدّم الرواية التالية عن رحلته إلى المخا فقال:- " والإجماع على أنه الذي أظهر القهوة المتعارفة في هذا الزمان، التي طبّقت شهرتها العالم ..قيل :- وسبب اهتدائه إليها أنه كانت له لقحة – الناقة الحلوب الغزيرة اللبن – يسرّحها كل يوم للراعي، وكانت ترعى ثمرة هذه الشجرة، فاستطاب لبنها طعماً وخاصية، فتبعها يوماً فرآها ترعى هذه الثمرة، فجنى منها شيئاً وقلاه واستعمله، فأحدث في نفسه نشاطاً وأريحية، فواظب على استعماله، ثم طبخه فرآه أجدى من استعماله مقلياً، فلم يزل الأمر يزيد حتى بلغ هذه الشهرة"[٢]، في حين ذكرت دائرة المعارف الإسلامية عن الرحالة العثماني التركي أوليا جلبي – ويسمى ايضاً حاجي خليفة - (١٠١٧ - ١٠٦٧هـ/ ١٦٠٩ - ١٦٥٧م) انه ساق رواية أخرى فقالت:- " الاسطورة التي قدمها لنا حاجي خليفة تعطينا شخصيتين هما علي بن عمر، وهذا علي هو من اتباع مؤسس الطريقة الشاذلية الشيخ ابو الحسن علي بن عبدالله المتوفي سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ومريده هذا ايضا – علي بن عمر – هو وليُّ المخا، والأخير هو الذي امره أن يستوطن بها فامتثل أمر شيخه الذي ظهر له بعد وفاته وتشييع جثمانه واستقر بالمكان بعد ان امره شيخه بالقدوم إلى المخا، فقام بذلك خير قيام وتحمل عبء المدينة وشاركته في ذلك زوجته ابنة ملك – ملك الحبشة - التي تعبت، فرحل بها إلى داخل البلاد، واستقر بجبال أصاب (وصاب)، فغادر هو واتباعه الذين تبعوه في غربته ايضا، وقيل انه جرب واختبر معهم شرب القهوة المصنوعة من حبات البن الذي في الأخير صنعه بالغلي بالنار واستخلاص القهوة منه، أغلب زواره تم شفائهم من الجرب / الحكة ذاك الوباء المنتشر في المخا وذلك من خلال شرب القهوة وعلى هذا حصل الشيخ علي بن عمر الشاذلي على لقب حامي المخا ووليها ورجلها النبيل الاول"[٣]، بالرجوع إلى المصدر العثماني كاتب

---

١ - ابن دعسين ، المصدر نفسه ، بتصرف شديد.

٢ - ابن معصوم المدني، السيد علي صدر الدين تـ(١١٢٠هـ)، رحلة ابن معصوم المدني أو سلوة الغريب وأسوة الأريب، تحقيق شاكر هادي شكر، الدار العربية للموسوعات – بيروت، الطبعة الاولى ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م، صـ ٨٩.

٣ - Ibid. Pp 450 – 451.

- ARENDONK ،

جلبي في كتابه وصف العالم (جهاننما)[1] تجد الرواية منقولة عن الكتابات العربية ولكن بشكل موسع دون النظر إلى تأريخية وفاة الشيخ ابو الحسن الشاذلي الذي توفي في ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م[2] في حين كانت وفاة الشيخ علي بن عمر الشاذلي في ٨٢٨ هـ/ ١٤٢٤م، والرواية العربية التي اوردها مؤرخ اليمن في نفس الفترة – القرن ١١هـ - يحيى بن الحسين بن القاسم والذي أورد ما يلي:- " قال الشيخ عز الدين القرشي المقبور ببندر المخا المنسوب إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي قال:- خدمت أبا الحسن الشاذلي ثلاثين سنة، فلم أره نائماً ليلة من الليالي كان نهارها صائماً وليلها قائماً، وكان كثير المرض، شديد الخوف، فإذا رأيته تقول هذه الساعة طلع من القبور، قال علي بن عمر الشاذلي: جئت مع الشيخ في خدمته إلى جزيرة من جزائر الحبشة، فقال لي :- يا علي نقيم بهذه الجزيرة، ونبني بها بيتاً وأنا وإياك سواء، فكثر علينا المطر فبنى بيتاً، فكانت تأتي إلينا بعض رجال الحبشة، ويقولون:- يا شيخ ان عندنا شجرة، حملها كبعر الغنم، إذا طبخناها وشربناها؛ تعيننا على قيام الليل، فهل لك يا شيخ منها بشيء؟، قال:- نعم، فجاؤوا إليه بشيء منها، فطبخ الشيخ وشرب منها، فرآها عظيماً فقال لي :- يا علي هذه اسمها القهوة لأن تسميتها مجرد ومجوفة، ومن عادة المجوف فيه سر عظيم، ثم بعد ذلك رجع الشيخ إلى المغرب لبلده، وأخذ عنه القهوة الشيخ علي بن عمر القرشي .. وهذه الجزيرة تسمى جزيرة سواكن الشاذلي"[3].

أوردت الكتابات الصوفية الحضرمية رواية ترتبط بنمط التصوف الحضرمي، فتذكر الرواية:- " أن الشيخ علي بن عمر الشاذلي...كثرت في وقته أذية الجن للإنس، فشكا ذلك إلى الخضر وقال لِمَ لم تحصل هذه الأذية إلا في نوبتي؟ فقال له الخضر:- نأتيك بعودين من شجر البن من أرض الحبش تغرسهما تحت الميزاب الذي تتوضأ فيه، فأتى بهما الخضر وغرسهما الشيخ، فلما أثمر أخذوا عودي ثمرهما، وطبخوه في القدور، وشربوه، فرفع الله عنهم أذية الجن، وبعد ذلك أخذوا عودي الشجرة المذكورة وغرسوهما بالجبل المشهور بالعدين[4] ونسبوا اليه البن، وحذفت العامة الواو وأصل العدين العودين."[5].

١- جلبي، كاتب (حاجي خليفة) المتوفي ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م، جهاننما ، دار الطباعة العامرة- قسطنطنية ، ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢م، صـ ٥٣٥. نسخة مطبوعة طباعة حجر موجودة بمكتبة اتاتورك – اسطنبول لدى الباحث صورة منها.

٢ - أبو الحسن الشاذلى هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف (٥٩١ - ٦٥٦ هـ/ ١١٩٥ - ١٢٥٨ م) صوفي مغربي، توفي بالاسكندرية، مؤسس الطريقة الشاذلية، وصاحب الاوراد المسماة "حزب الشاذلي" . الزركلي، المرجع السابق، ج٤، صـ٣٠٥.

٣ - ابن القاسم، المصدر السابق.

٤ - العدين إحدى مدن محافظة إب في وسط اليمن وهي مديرية ايضاً تقع في الجزء الجنوبي الغربي من إب وتبعد عنها بحوالي ٤٠كم.

٥- الحبشي، أبي بكر العطاس بن عبدالله بن علوي بن زين، تذكير الناس بما وجد من المسائل الفقهية وما تعلق بها في مجموع كلام سيدنا الحبيب الإمام شهاب الدين أحمد بن حسن بن عبدالله العطاس، مطبعة

وذكر الرحالة المغربي أبو سالم عبدالله بن محمد العياشي " أن أول من أحدثها - القهوة -وأخرجها من أرض اليمن الشيخ الولي الصالح المتفق على ولايته سيدي علي بن عمر الشاذلي اليمني، وأمر اصحابه بشربها ليستعينوا بذلك على السهر في العبادة ، ثم لم يزل أمرها يفشوا شيئاً فشيئاً، ومن بلد إلى بلد، إلى أن آل ما آل بحيث عممت البلاد المشرقية وكثيراً من المغربية"[١].

أما الرحالة الاوربيين، فيُكتفى بما نقله كارستن نيبور والذي كان مع أول رحلة أوربية علمية استكشافية للجزيرة العربية سنة ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م، حيث ذكر أنه من :- " المؤكد أن المخا من المدن الجديدة في تهامة وأن عمرها لا يتعدى ٤٠٠ عام، ويقال إنه في ذاك الوقت كان يعيش في المنطقة رجل وحيد شهير يدعى الشيخ الشاذلي، ويعتبر مؤسس المدينة، وقد اشتهر بزهده وتقواه، فأخذت الجموع تؤم المكان للاستماع لتعاليمه، ورووا لي قصة عنه تقول:- إن مركباً قادماً من الهند ومتجهاً إلى جده، رسا في الجوار، رأى البحارة كوخاً منفرداً في هذه الصحراء، فدفعهم الفضول إلى النزول إلى اليابسة، واستقبل الشيخ زواره أحسن استقبال، وقدم لهم القهوة، وهي شراب يحبه كثيراً ويعزو اليه منافع عديدة، واعتبر الهنود الذين لم يألفوا القهوة هذا الشراب الساخن علاجاً، وظنوا أنه سيساعد على شفاء التاجر صاحب مركبهم، وأكد لهم الشيخ الشاذلي أن هذا الشراب وصلاته لن يشفيا المريض بل سيؤمنان له ربحاً عظيماً إن أنزل بضائعه، وتنبأ في اليوم نفسه، أن مدينة تجارية ستبنى يوماً ما في هذا المكان، وأن الهنود سيقصدونها لبيع كثير من بضائعهم وبدا هذا الكلام فريداً بالنسبة للتاجر الذي أراد أن ينقل في اليوم التالي إلى اليابسة كي يرى بنفسه هذا الرجل المميز ويتحدث معه، وفي اليوم نفسه زار الكثير من العرب هذا الزاهد لسماع اقواله، وكان التاجر قد شرب القهوة التي حضّرها له الشيخ وأحسّ بتحسن، ومن بين الوفود التي زارت الشيخ العديد من التجار الذين اشتروا حمولة المركب كلها، فعاد التاجر إلى الهند سعيداً، وذاع صيت الشيخ بين مواطنيه وبُني قرب كوخ الشيخ العديد من الأكواخ الأخرى وازداد عدد التجار الذين يقصدون المكان عبر البر وعدد المراكب التي ترسو قربه فتكونت قرية ثم تحولت إلى مدينة المخا التجارية المعروفة"[٢].

أكدت أغلب الكتابات - وخاصة المخطوطات - التي رجع اليها الباحث ان الشيخ علي بن

معهد حريضة – بوقور اندونيسيا ، ١٩٧٩م، صـ ٥٢. ؛ العطاس، علي بن حسين بن محمد بن جسين بن جعفر العطاس، تاج الاعراس على مناقب الحبيب القطب صالح بن عبدالله العطاس، مطبعة منارة قدس – اندونيسيا، الطبعة الاولى ١٩٧٩م، ج١، ١٤٥ – ١٤٦.

١ - العياشي، أبو سالم عبدالله بن محمد، الرحلة العياشية، حققها وقدم لها سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع – أبوظبي، الطبعة الاولى، ٢٠٠٦م، ج١، صـ٢٣٨.

٢- نيبور، كارستن، رحلة الى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ترجمة عبير المنذر، مؤسسة الانتشار العربي – بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧م، ج١، صـ ٣٤٧.

عمر الشاذلي هو مكتشف القهوة بل تعتبره بعض الكتابات انه " لا يرجع إلى علي بن عمر الفضل في إنشاء المدينة فحسب، بل يرجع إليه الفضل أيضاً، وفي الوقت نفسه في نشر استعمال البن وتأسيس تجارته وإبراز قيمته داخل اليمن وخارجها الامر الذي ادى إلى اعتباره حامي المقاهي"[١].

أورد كاتب غربي أن المكتشف للقهوة هو علي بن عمر الشاذلي صاحب المخا لكنه يقع في خطأ تقدير التواريخ، فقال:- " هناك روايتان لنشأة القهوة :-

الاولى:- " تقول اسطورة أن أحد الاولياء الدراويش ويدعى الحاج علي [بن]عمر هو الذي أعلن عن اكتشافه للناس في المخا في سنة ١٢٨٥م [٦٨٤هـ] ففي هذا العام كاد أن يهلك من مرض أصابه في البرية خارج المخا وجلس منهكاً تحت شجرة البن وجمع بعض البذور البرية من غابة قريبة منه وقام بتحميصه من غير قصد منه وبالصدفة أسقطت في ماء مغلي معدّ للشرب وهو لم يلاحظ ذلك وتعاطاها عندما فعل ذلك تعجب..! انظر...فقد أدرك انه أكتشف القهوة، لبس شاله وغطى رأسه ورجع إلى المخا، وأعلن اكتشافه، والمخائيون عرفوا قيمة هذا الاكتشاف جيداً ، وينسبون هذا الإنجاز إلى هذا الولي الصالح والذي جعلوه ولياً لهم فوراً.

الثانية:- تنسب هذا الاكتشاف إلى ولي آخر في تكية صوفية اكتشف لأول مرة كيفية استعمال القهوة واستخدامها، هذا الولي وجد صعوبة كبيرة في جعل اتباعه من الصوفية ومريدة في حالة يقظة مستمرة وسهر خلال العبادة وقيام الليل، وظل في هذه المشكلة إلى أن أخبره أحد رعاة الماعز أن ماعزه تتناول بذور شجرة البن فتزداد نشاطاً ولها تأثير مثير، فقرر تجريب ذلك بنفسه عليهم فوجد النتائج باهرة وممتازة، وهكذا تم اكتشاف أقوى منشط ومنبّه وهو القهوة والذي اصبح وعُدّ : الطريق الاكثر شعبية عالمياً لمشروب واسع الامتداد"[٢].

ذكر بطرس كيك في دراسة له عن نشأة القهوة أن مرهج بن نمرون الماروني في كتاب طبعه باللاتينية في روما العظمى سنة ١٦٦٠م ذهب إلى أن أول من اطّلع على خواص القهوة راهبان نصرانيان يدعوهما (Sciadli) و (Aidrus) يريد الشاذلي وحيدر"[٣]، ثم قال كيك:-" إلا أن هذا الكاتب قد وهم في قوله أنهما راهبان لأن الشاذلي هو ابو الحسن علي الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية المتوفي سنة ٦٥٦ للهجرة / ١٢٥٨م، وحيدر هو شيخ الشيوخ حيدر الصوفي صاحب الطريقة الحيدرية الذي اشاع استعمال نبات القنب أي

١ - الصايدي، أحمد قايد، المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن، دار الفكر المعاصر – بيروت، دار الفكر – دمشق، الطبعة الاولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، صـ ٢١١ – ٢١٢.

٢ - Coffee Extensive Information and Statistics. Pp. 6 -7

٣ - كيك ، المرجع السابق صـ ٩٨٥ – ٩٨٦.

الحشيشة بين الفقراء"[١]، والحقيقة أن بطرس كيك وقع في أخطاء جسيمه، فأبو الحسن علي الشاذلي هذا والمتوفي في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م لم يكتشف القهوة ولكنه أبو الحسن علي بن عمر الشاذلي المتوفي سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٥م، أما (Aidrus) فترجمتها ليس بحيدر ولكن العيدروس أحد من قيل انه اكتشف القهوة، وذهبت دائرة المعارف الاسلامية أي أن القهوة تسمى في كثير من الدول والبلدان بالشاذلية أو الشاذلي ومنها الجزائر وشبه جزيرة سيناء وبلاد الشام واليمن وكثير من بلدان شبه الجزيرة العربية[٢]، وعلى سبيل الطرافة ففي النبك عاصمة جبل القلمون بدمشق " يصبّ من البكر – ابريق القهوة – قليلاً في الفنجان ويحركه حتى يتلوث داخله منها، ويصب ما فيه في الفنجان الثاني ويعمل به كما عمل بالأول، ويرمى ما فيه على الأرض، وهذه يسمونها حصة الشاذلي لاعتقادهم أن الشاذلي هو الذي ابتدع شرب القهوة أو أول من شربها، وأنهم اذا لم يرموا هذه من الفنجان إلى الأرض ينقلب الابريق وتراق القهوة حتماً "[٣]، فأعتبر الشاذلي رمزاً للقهوة والتي لها طقوس معينة في شربها لا تتم إلا بها، ومنها ما " قاله الحبيب عبدالله بن ابي بكر...كان الوالد رضي الله عنه اذا استيقظ من النوم في النصف الأخير من الليل وصلي وتوضأ ركعتين خفيفتين، ثم أخذ في طبخ قهوة البن بنفسه، واذا صبها في الفناجين أي قداح الشرب رتب ثلاث فواتح:-

الاولى:- إلى روح النبي صلى الله عليه وسلم وسيدنا أحمد بن عيسى المهاجر إلى الله وسيدنا الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي وأصولهم وفروعهم.

الثانية:- إلى أرواح مشايخ القهوة الشيخ علي بن عمر الشاذلي والشيخ أبي الحسن الشاذلي الاكبر وعبدالهادي السودي[٤] .

الثالثة:- بنّية صلاح أمور المسلمين قضاتهم وولاتهم وخمود نيران الفتن ما ظهر منها وما بطن وبنّية ان الله يرخص أسعارهم ويغزر أمطارهم ويرفع جميع البليات والإذيات من جهتنا خاصة ومن بلاد الإسلام عامة ويقرأ بعد الفاتحة الاخيرة آية الكرسي ثم يأتي بمائة وستة عشر من اسمه تعالى يا قوي وأربع مرات من سورة يس ثم يبتدئ في شرب القهوة"[٥].

وقد ذكر ذلك نيبور فقال:- " ولا يعتبر الشاذلي شفيع المخا وحسب، بل شفيع أصحاب المقاهي المسلمين من أتباع المذهب السني كلهم، ويقال انهم يقرؤون الفاتحة كل صباح على روحه، ولا يعني ذلك أنهم يتضرعون إليه، إنما يشكرون الله لأنه علّم الانسان استخدام القهوة عن طريق الشيخ الشاذلي ، ويرجون منه أن يرحم الشيخ المذكور وآله"[٦].

- القهوة في الكتابات اليمنية في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

---

١ - كيك ، المرجع السابق.

2 Ibid. Pp. 451. ، ARENDONK-

٣ - خنشت، يوسف موسى، طرائف الامس غرائب اليوم أو صور من حياة النبك وجبل القلمون في أواسط القرن التاسع عشر، مطبعة القديس بولس في حريصا، ١٩٣٦م، صـ ٢٩ – ٣٠.

٤ - محمد بن علي بن محمد السودي، أبو عبد الله الشهير بالهادي اليمني، متصوف وشاعر شهير، وتوفي بتعز ووفاته فيها ٩٣٢هـ/١٥٢٥م. وله ديوان شعر، ترجم له العيدروسي، النور السافر، صـ١٤٣.؛ الزركلي، المرجع السابق، ج٦،صـ٢٨٩ -٢٩٠.

٥ - العطاس، تاج الاعراس ، ج١، صـ ١٤٥ – ١٤٦.؛

٦- نيبور ، المصدر السابق، ج١، صـ ٣٤٨.

أكدت دراسة على " أن أول اشارة لاستعمال كلمة قهوة وردت في مخطوط موجود بالمكتبة القومية بباريس يرجع تاريخه إلى سنة١٤٥٠م / ٨٥٤ هـ والذي يقرر انها كانت موجودة باليمن"[١]، لكن هناك من قال أن القهوة بمفهومها الحالي وهو مشروب البن قد عرفت منذ القرن الخامس الهجري على يد أبي محمد عبدالله بن محمد الذهبي الأزدي ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣م والذي أورد في كتابه (الماء) ما يلي:- " البُنُّ بالضم: حب معروف، أصله من اليمن، تتخذ منه القهوة، وقد سألت شيخنا العلاّمة الآجلّ ابن سيناء عن ماهية القهوة وطبعها ومضارها ومنافعها.؟ فأجاب :- القهوة كغيرها من الأدوية، لها نفع في بعض الأحوال، وأما طبعها في الكيفيتين الفاعليتين أعني الحرارة والبرودة، فالظاهر أنها معتدلة وتميل إلى البرد قليلاً ولا يُبعد أن تكون مركبة القوى، وأن يكون بها جزء حار به يكون الهضم ونحوه من افعالها، فإن كثيراً من الأدوية كذلك، وأما في الكيفيتين المنفعلتين أعني الرطوبة واليبوسة فتجدها مائلة إلى اليبس لأنا نجدها تجفف الأبدان وتغير الامزجة، وأما القدر النافع منها فهو يختلف بحسب مزاج مستعملها، وأما كون الإكثار منها مضراً فكل كثرة عدو للطبيعة، ولا شك أن الإكثار منها مضر خصوصاً بذوي الأمزجة اليابسة، ولا يبعد تأثيرها في الباه قوة وضعفاً بحسب الأمزجة، والقهوة معينة على الهضم بعد الطعام نافعة بشرط أن لا تبلغ إلى حد ينفذ الغذاء على فجاجته، وأولى ما استعملت القهوة بعد أخذ الغذاء في حالة الإنهضام، واما على الجوع فمجففة ولذا تنفع أصحاب الأمزجة الباردة والرطبة، وتضر المهزولين ويابسي الأمزجة، واستعمالها فاترة أولى لأنها تكون ألذ طعماً وأقوى على النفوذ، و لا يبعد أن يضاف إليها أدوية مصلحة لمزاجها مقوّية لأفعالها، لكن تخرج عن كونها قهوة وتدخل في جملة الأدوية النافعة، والأولى أن يضاف إليها شيء من السكر لباردي المزاج، يعين ذلك على نفوذها "[٢]، وفي مادة (قهو) قال:- " القهوة: الخمر، سميت لأنها تقهي شاربها عن الطعام أي تذهب بشهوته، وتطلق الآن على ما يشرب من الحبّ المعروف بالبن ومن قشره"[٣].

لكن ابن سينا تـ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م ذكر القهوة في كتابه (القانون في الطب) فعدها من الاشربة العتيقة (الخمر) فقال :- "الْخمر هُوَ القهوة"[٤]، ثم في باب "فِي الأشربة العتيقة وَمَنَافع ذَلِك: أعنِي بِهَذَا الشَّرَاب القهوة هَذَا وإن كَانَ فِي ظَاهر الحسّ بسيطاً وَلَكنه فِي

١ - مونرو، المرجع السابق، صـ ١٢١.
٢ - الصحاري، ابو محمد عبدالله بن محمد الذهبي الازدي، كتاب الماء أول معجم طبي لغوي في التاريخ، تحقيق هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عمان، المكتبة الشرقية وكتبتها، الطبعة الاولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ج١، صـ ١٥٨.
٣ - الصحاري، المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٢٨.
٤ - ابن سيناء، أبي علي الحسين بن علي، القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج١، صـ٧١٩.

الْحَقِيقَة غلاق ذَلِك فَلهَذَا أوردناه فِي القراباذين"[1]، أما كتاب الماء للأزدي فتثار حوله شكوك كثيرة وخاصة ان محققه اعتمد على نسخة واحدة سقيمه في تحقيقه ولم يرد أسم الكتاب أصلاً في الكتابات العربية القديمة، وما يقال عن كتاب الماء للأزدي يقال عن كتاب قصص (ألف ليلة وليلة) التي وضعت في القرن الرابع الهجري وأورد الباحث أحمد مطلوب الكثير من إدخال الكلمات الحديثة والخاصة بالعهد العثماني في قصص الف ليلة وليلة، فقال " وفي الليالي عدة اشارات إلى القهوة (ولما أصبح الصبح صلى فرضه وشرب القهوة) ليلة ١٩١ وتنظر ليلة ٩٣٤ و٩٦٨، وكانوا يرتادون مكان شرب القهوة وهو المقهى"[2].

لاحظ الباحث أن المصادر اليمنية لم تذكر شجرة البن أو القهوة مطلقاً رغم أن التراث العلمي والفكري اليمني قد كتب عن كل ما يتعلق بالحياة وخاصة علم النبات والأشجار والفلاحة والأدوية المفردة والطب بل حتى (الاتيكيت) لكن لم ترد القهوة أو شجرة البن قبل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في هذا التراث اليمني مما يثبت أن شجرة البن ومشروب القهوة وجدا في هذا القرن فقط، وأبرز الكتابات اليمنية التي كتبت عن البن والقهوة في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي حسب ما توصل اليها الباحث هي ما يلي:-

١- مجربات العلامة أحمد بن أحمد بن عبداللطيف الشرجي المتوفي ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م، إذ ذكر أن للقهوة خاصية من يتعاطها وهي تمتلك سراً إلهياً في حساب الجمل.

٢- الموصل للأغراض في مداواة الأمراض للعلامة عبداللطيف بن موسى المشرع العجيلي تـ(٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م) إذ ذكر البن في "الفصل الخامس في الادوية المفردة التي سهل وجودها ويكثر استعمالها" فقال :- " البن حار يابس ... معين للسهر تطيب النهكة وتفوح ويدفع البواسير ويقطر في العين فيزيل الحمرة والبياض الرقيق في العين"[3]. .

٣- جلب الزبون إلى أكل البون للعلامة حمزة بن عبدالله بن محمد الناشري (٨٣٣ - ٩٢٦هـ / ١٤٣٠ – ١٥٢٠م) وهي قصيدة طويلة موجودة في مكتبة الأوقاف بالجامع الكبير بصنعاء (المكتبة الشرقية) برقم ١٢ مجاميع، وهي ناقصة فمجموع أبياتها خمسون بيتاً ومطلعها:-

أصرح بسم الله في البدء أولاً مع الحمد لله الذي وحده علا

وأعتمد الباحث ايضاً على نسخة خطية أخرى بحوزته عدد أبياتها مائة وتسعة وستون بيتاً وذكر فيها أكثر من سبعين خاصية للبن ومطلعها:-

أصرح باسم الله في النظم أولاً مع الحمدلله الذي خلق الملا[4]

وقسم منظومته إلى قسمين القسم الأول عدد فيه خواص البن ومنافعه والقسم الثاني ذكر معرفة أحكام البن الفقهية من حيث طهارته وصحة بيعه وقبض سلمه وبيع قشره ونفي

١- ابن سيناء، المصدر السابق، ج٣، صـ٤٧٥.

٢ - مطلوب، أحمد، عروبة ألف ليلة وليلة، مجلة المجمع العلمي ببغداد، الجزء ٣ – المجلد ٥٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، صـ ٤٩.

٣- المشرع، عبداللطيف بن موسى، الموصل للأغراض في مداواة الامراض، مخطوط بمكتبة جامعة الرياض – قسم المخطوطات، برقم ١٨٥٦، رقم الورقة ٨.

٤ - الناشري، جلب الزبون إلى أكل البون، مخطوطة لدى الباحث؛ مجهول، هذه فوايد عظيمة في خواص القات والبن، ورقة ٢٢٨.

الزكاة عنه، وذكر استخراج القهوة منه ووقف على الخلاف محلل ومحرم لشربه، وأورد تجربة زراعته في اليمن وخاصة في الجبال المطلة على تهامة فقال:

نعم أنبتوا في ثغور فافلحوا وجاء كبن الحبش بل كان أفضلا
ومنبته في بر زيلع داخل إلى بلد الأحبوش يزرع في الفلا

٤- رحلة الرحالة المغربي محمد بن أحمد العلوي في حجه من المغرب العربي إلى مكة ومنها إلى تريم بحضرموت في سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م، ويرد ذكر البن والقهوة وكيفية استيرادها من اليمن – المقصود به اليمن الأسفل الواقع تحت حكم الدولة الرسولية – وشيوع شرب القهوة في حضرموت والشحر[١].

- **انتشار زراعة البن في اليمن.**

انتشرت زراعة البن بشكل متسارع خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بعد اكتشاف القهوة مباشرة في اليمن، ويلاحظ محاولات استزراع البن في بداية أمره في تهامة وخاصة بزبيد وفشل ذلك لأسباب مناخية وبيئية خالصة، وفي ذلك يقول المؤرخ حمزة بن عبدالله الناشري في منظومته عن البن:-

كذا استنبتوه في زبيد فأنبت الغصون ولكن ثمار تعطلا
لأن زبيد بر التقى ثم حرّها شديد ولا ينموا الذي مستطيلا [٢]

ومن ثمّ تمّ استزراعه فيما يسمى في العصور الوسطى باليمن الاسفل وهي تلك المناطق كانت خاضعة للدولة الرسولية والطاهرية ثم المماليك الجراكسة والدولة العثمانية، ووردت - من خلال هذا البحث - بعضاً منها مثل العدين ووصاب وتعز وبعض المناطق في الجنوب اليمني، وذكر المرتضى الزبيدي " وأصل منشأها من قديم الزمان في ثنية وذوان بمخلاف ريمة"[٣]، وذكر اوليا جلبي ما يلي جهاننما:" شجرة القهوة تنبت باليمن في كورتين، منها فوق الجبال التي تطول زبيد في مقابلة بيت الفقيه[٤] في الخط المعروف بوصاب، والخط المعروف بنهارى، وهما قريبان حتى جيزان"[٥].

---

١ - بافضل ، محمد بن عوض بن محمد، صلة الاهل بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل، مكتبة تريم الحديثة – حضرموت، الطبعة الاولى، ١٤٢٠هـ، الرحلة ملحقة باخر الكتاب صـ ٣٢٦ – ٣٤٣.
٢ - الناشري، المصدر السابق. ؛ مجهول، هذه فوايد، ورقة ٢٢٨.
٣ - الزبيدي، المصدر السابق، ورقة ٢، وريمة من المحافظات اليمنية وتشتهر بالبن الريمي ومركز المحافظة الجبي وتقع غرب صنعاء.
٤ - بيت الفقيه مدينة تنسب الى الفقيه أحمد بن موسى بن علي بن عمر العجيل (٦٠٨-٦٩٠هـ) تقع جنوب شرق الحديدة ٦٧ كيلومتر.
٥ - جلبي، المصدر السابق، صـ٥٣٦.

يؤكد الباحث أن البن لم يعرف طريقه إلى اليمن الأعلى – وهو ما كان خاضعاً للأئمة – إلا بعد النصف الثاني في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، فالعلامة عبدالرحمن بن عبدالكريم بن زياد مفتي زبيد وضع (رساله في القات والكفتة والقهوة والبن) بناء على استفتاء ورده من صنعاء في سنة ٩٤٩هـ / ١٥٤٢م يسأل صاحبه عن حليّة زراعة البن ومشروب القهوة[١]، ثم هناك نص تاريخي يؤكد ما ذهب اليه الباحث، فقد ورد في (غاية الاماني في اخبار القطر اليماني) ضمن أحداث سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م ما يلي:-" وفي هذه السنة ظهرت شجرة القات وكثرت في اليمن – يقصد اليمن الاعلى – فرأى الامام شرف الدين تحريمها وأمر ولده المطهر أن يأمر الناس بقلعها....وفيها ايضاً ظهرت شجرة البُن ، فانتفع الناس بها جداً"[٢] .

في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أصبحت أغلب جبال اليمن مكسوة بالبن وهو ما اشارت اليه الرحلات الأوروبية السابقة، وعُدّ البن الفقيهي – نسبة إلى السوق العالمية للبن في مدينة بيت الفقيه – أجود أنواع البن على الاطلاق[٣] ، واستمرت اليمن مصدر البن الوحيد إلى مختتم القرن السابع عشر[٤]، وأصبح للتجارة اليمنية سوق جديدة فتحت لها الأبواب في أغلب اسواق العالم وهو سوق البن، بل أن كثيراً من اليمنيين عملوا وشاركوا في هذه التجارة بطريقة أو بأخرى من زراعة أو حصاد أو وسيط تجاري أو تاجر أو طبقة عامله تقتات منه، وحتى النخب الحاكمة الوطنية أو العثمانية أصبحت بوجه أو بأخر مساهمة في زراعته وتجارته، فأغلب قادة الحملات العثمانية على اليمن والولاة العثمانيين في العهد العثماني الأول لحكم اليمن (٩٤٤ – ١٠٤٥هـ / ١٥٣٨ – ١٦٣٥م) كانوا ممن تاجر بالقهوة وأمتلك مقاهي أو ما كان يسمى ببيوت القهوة وأوقف بعضها مثل الوزير لالا مصطفى باشا[٥] والوزير سنان باشا[٦] والوالي جعفر باشا[٧] ، بل أن المصادر

---

١ - ابن زياد، عبدالرحمن بن عبدالكريم، الفتاوى الكبرى لابن زياد، مركز المخطوطات بزبيد.

٢- ابن القاسم، يحيى بن الحسين، غاية الاماني في اخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، القسم الثاني، صـ ٦٨٩.

٣- راشد باشا، ميرالاي احمد، يمن وصنعا تاريخنك، طبعي بولمشدر- إستنبول، ١٢٩١، ج ٢، صـ ٣١٢ – ٣١٥. ؛ جلبي، المصدر السابق، صـ ٥٣٥.؛ دي لاروك، المصدر السابق، صـ٧٤.؛ نيبور، المصدر السابق، المصدر السابق، ج١، صـ٢٦٦.

٤ - زكي، المرجع السابق، صـ ٣١.

٥ - مردم بك، وقف على طبعهما خليل بن أحمد، كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ويليه كتاب وقف فاطمة خاتون، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.؛ مردم بك، تميم مأمون، الملك قانصوه الغوري الاشرف والوزير لالا مصطفى ذي السيف الاحنف، مكتبة تللو دمشق الطبعة الثانية ، ٢٠٠٨م،

٦ - انظر الى سيرته ووقفيته:- الارناؤوط، محمد، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، وقفية سنان باشا، دار الحصار للنشر والتوزيع – دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٧ - العرضي، أبو الوفاء بن عمر الحلبي، معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، حققه وشرحه محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر – دمشق، الطبعة الاولى ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، صـ ٢٦٠.

التركية العثمانية قالت بأن من أدخل زراعة البن إلى اليمن هو الوالي العثماني لليمن أزدمر باشا بحسب ما ذكر إدوارد جلازر[١]، ويعتقد الباحث أن السلطان العثماني مراد الرابع (١٠٣٢- ١٠٤٩هـ/ ١٦٢٢- ١٦٤٠م) حارب القهوة وشدّد في فرض العقوبة على متعاطيها وتحريمها ومنعها[٢] نتيجة لطرد قواته العثمانية من اليمن في سنة ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م، ووسيلة اتخذها كحصار اقتصادي على اليمن، سرعان ما فشل بسبب الإقبال العالمي على القهوة اليمنية.

لقد أشارت المصادر العثمانية إلى أن " أكبر ثروة في الولاية هي محصول قهوة اليمن المشهورة في اقطار الدنيا "[٣]، وعُدّت اليمن في القرنين العاشر والحادي عشر الهجري / السادس والسابع عشر الميلادي الدولة الوحيدة في العالم التي احتكرت تجارة البن إلى العالم وعاشت اليمن أزهى عصورها الحديثة في تلك الفترة' وتمثل ذلك في الاستقرار السياسي والذي كان عاملاً في الازدهار الاقتصادي والازدهار الفكري وازدهار الحياة العلمية[٤].

تتنوع أنواع عديدة للبن اليمني وتصنيفها، فهناك تصنيف تبعاً للمناطق التي تزرع بها كالبن العديني والبن الحرازي والبن الحيمي والبن المطري والبن اليافعي والبن الرحابي والبن الفضلي والبن الريمي، وهناك تصنيف على اساس الأسواق كالبن الفقيهي – نسبة إلى اشهر اسواق البن مدينة بيت الفقيه – والبن الصلبي – نسبة إلى سوق الصلبة في شمال تهامة اليمن، واخيراً هناك تصنيف على اساس اللون كالبن الاحمر والبن الاخضر[٥].

يلاحظ الباحث أن ظهور بيوت القهوة في اليمن أو ما سمي لاحقاً بالمقهي أو باللهجة اليمنية المقهاية تقل عن مثيلاتها من البلدان العربية، نتيجة لما يتمتع به الشعب اليمني من كرم الضيافة واعتباره المصدر الأساسي للبن والقهوة في العالم فقلّ ما تجد بيتاً لا يمتلك هذا المحصول، ولكن ظهرت المقاهي باليمن في بداية الامر بشكلها البدائي والمتواضع نسبياً مع مقاهي بلاد الشام أو مصر أو اسطنبول.

---

١ - جلازر، إدوارد، رحلاتي في شبه الجزيرة العربية، اليمن في كتابات الرحالة الاجانب، ترجمة أحمد قايد الصايدي، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية – دمشق، العدد ٣ ، أغسطس ١٩٩٩م، صـ ١٤.

٢ - شرف، عبدالرحمن، تاريخ دولة عثمانية، قربت مطبعة سي - استانبول ١٣١٨هـ، ج٢، صـ١٢٦.؛ عمر، المرجع السابق، صـ ٥٢.

٣ - يمن سالنامه ١٣١٣، ولايت مطبعة سنده طبه أولمنشدر، صـ ٤٠٢.

٤- الأمير، أمة الغفور عبدالرحمن علي، الاوضاع السياسية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ١٠٥٤ هـ - ١٠٩٩هـ / ١٦٤٤ – ١٦٨٨م ، مع تحقيق بهجة الزمن في تاريخ اليمن يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، مؤسسة الامام زيد بن علي الثقافية – صنعاء، الطبعة الاولى، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨م، ج١، صـ ٢٣.

٥ - المجاهد، المرجع السابق، صـ ٣٣٣- ٣٣٤.؛ الخطابي، المرجع السابق، صـ٣٧-٣٨.؛ السعدي، المرجع السابق، صـ١١٢.

انتشار القهوة والمقاهي في العالم

- **الحجاز .**

سرعان ما انتقلت القهوة إلى الحجاز فور وصولها اليمن، فقد نقل الجزيري عن فخر الدين أبي بكر بن أبي يزيد المكي في رسالته عن القهوة (إثارة النخوة بحل القهوة) بداية انتشار القهوة بمكة في الحجاز فقال ما يلي:- " وأما نحن ادركنا القشر بري مكة وغيرها من منذ عشرين سنة واكثر ولم تظهر القهوة منه إلا في اواخر القرن التاسع وإلى الان من القرن العاشر" [١]، و رأى ابن عبدالغفار المالكي أنه :- "في سنة أربع أو خمس من هذا القرن – ٩٠٤هـ - ٩٠٥هـ / ١٤٩٩- ١٥٠٠م -سمعنا في مصر أيضا أنها وصلت إلى مكّة وفشت فيها أيضا فشوّا كثيرا."[٢]، ثم تحدث عن شيوع القهوة في المدينة المنورة فقال:- " وسمعنا أيضا أنها فشت في المدينة ولكن دون فشوّها في مكّة، بحيث أنّ الناس يطبخونها في بيوتهم كثيراً ولكن ليس لها موضع تباع فيه" [٣].

لقد انتشرت القهوة بشكل واسع في المجتمع الحجازي وأصبحت المشروب اليومي للفئات الاجتماعية المختلفة، وإن كان الإقبال عليها أكثر من الفئات الاجتماعية الفقيرة والوسطى، وبرر الرحالة الحسين بن محمد الورثيلاني سبب ذلك بقوله:- " قال أخبرنا شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني أن شيخنا الإمام صفي الدين القشاشي كان يقول مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البن أي القهوة لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الأفاق، والإنسان لا بدّ له من طعام يقدمه لمن دخل عليه ولا قدرة لهم على تكلّف ذلك لكل أحد يدخل عليهم، وهذه القهوة خفيفة المئونة، والناس راضون بها غنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرؤوسهم، فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحد عليهم، فلا يبعد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأن اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلوب شرعا"[٤].

إذن وجدت القهوة طريقها للانتشار في الاصقاع البعيدة عبر الحج وما تمثله مكة والمدينة من مكانة مقدسة لدى المسلمين وانتشرت المقاهي في الحجاز وأصبحت سمّة رئيسية في المجتمع الحجازي، قال أوليا جلبي في (الرحلة الحجازية) وهو يتحدث عن مقاهي مكة:- " يوجد بها أربعون مقهى..وكل واحدة منها مشحونة بخلائق البشر، ففي كل واحدة ما لا يقل

---

١ - الجزيري، المصدر السابق، صـ ١٩٠ – ١٩١.
٢- المالكي ، المصدر السابق، صـ ٨١-٨٢.
٣- المالكي ، المصدر نفسه، صـ ٨٤.
٤ - الورثيلاني، سيدي الحسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج١، صـ ٣٢١.

عن ألف أو ألفين من الفلاحين، ولكن هذه المقاهي ليست أبنية مصنعة، بل هي مباني عادية، مبنية من الأخشاب كالأكواخ، ومفروشة بحصير من عسف النخل، وعدا هذه المقاهي العادية، فإن هناك سبعون مقهى أخرى أنيقة ومزدانة بالزخارف والنقوش، وهذه المقاهي الأخيرة معمورة، في بعضها بعض الرواة والقصاصين، وفي بعضها عدد من المداحين، والشعراء والمطربين، وفي البعض الاخر بعض من المقرئين والسُّمار، وفي البعض الاخر بعض من الغوازي السمر، البكر، المحففين، والبعض الاخر مكتظ بالجاريات الحبشيات، وفي مكة المكرمة المقاهي هذه هي مجمع العرفان والادب"[١].

- **مصر والمغرب العربي والسودان.**

انتشرت القهوة في مصر من قبل الطلاب والمتصوفة اليمنيين في الرواق اليماني أحد أروقة جامع الازهر الشريف وفي التكايا الصوفية، فقد تحدث المؤرخ ابن عبدالغفار المالكي - وهو مصري - عن وصول القهوة إلى مصر في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بين عامي ٩٠٨هـ - ٩٠٩هـ / ١٥٠٢ ــ ١٥٠٣م فقال " ثمّ في سنة ثمان أو تسع وصلت - القهوة - إلى مصر، وكان ظهورها في حارة الجامع المعمور بذكر الله، وكانت تشرب في نفس الجامع في رواق اليمن، وكان يشربها فيه اليمانيون ومن يسكن معهم في رواقهم من أهل الحرمين الشريفين، وكان المستعمل لها أولاً وبالذات منهم الفقراء - الصوفية - المشغولون بالرواتب من الأذكار والمديح على طريقتهم المشهورة، وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة يضعونها في ماحور كبير من الفخار الأحمر ويغترف منها النقيب بسكرّجة صغيرة، ويسقيهم الأيمن فالأيمن مع ذكرهم المعتاد عليها وهو غالباً :- لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وكان يشربها معهم موافقة لهم من يحضر الرواتب من العوام وغيرهم." [٢].

ذكر ابن عبدالغفار المالكي في موضع أخر أن القهوة انتشرت في القاهرة وبقية المدن المصرية واصبحت كمشروب شعبي يومي فقال:- "...كان يشربها معهم من أهل الجامع وغيرهم خلق لا يحصيهم إلا الله..."[٣]، هذا الإقبال كان في جانب آخر سمّة أساسية في حياة المصريين فرغم مقاومتها للقهوة إلا أنها لا تقارن بالمقاومة للقهوة في الحجاز أو بلاد الشام أو اسطنبول، بل يشبه الباحث ما حدّث للقهوة وانتشارها بسرعة في مصر والتقبل الشعبي من قبل كافة فئات المجتمع لها في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بما حدث للقهوة في بدء أمرها في اليمن وهو ما جعل ابن عبدالغفار المالكي يقول:- " لم يعرض ولم يتعرض أحد في هذه المدة مع طولها لشرابها ولا أنكر شربها لذاتها ولا لوصف

١ - جلبي، أوليا، الرحلة الحجازية، ترجمها عن التركية وقدم لها الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية ــ القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، صـ ٢٧١ ــ ٢٧٢.
٢ - المالكي، المصدر السابق، صـ ٨١ ــ ٨٢.
٣- المالكي، المصدر السابق، صـ ٨٣-٨٤.

خارج عنها من إدارة أو غيرها كما يشهد بذلك كله من كان في الجامع الأزهر إذ ذاك ووقف على هذه الأحوال" [١]، ومن مصر انتقلت القهوة إلى بلدان المغرب العربي والسودان.

قدم الرحالة التركي اوليا جلبي وصفاً بديعاً للمقاهي في رحلته إلى مصر، فعندما تحدث عن الطوائف الحرفية بمصر قال عن (طائفة بائعي القهوة):-" لهم ٦٣ مقهى في بولاق ومصر العتيقة ومصيف قايتباي والقاهرة، وهي مقاه واسعة تستوعب الواحدة منها ألفا من الرواد، ولها مقاصير وشادروانات وأحواض للماء، وكان يتردد عليها المغنيون والشباب الصباح وبلغاء الشعراء...وهي مقاه ذات أسبلة وفسقيات وأحواض، وفي كل منها مغن رخيم الصوت، وعازف بارع، ولا تخلو من الضوضاء والضجيج ليل نهار، ومما تمتاز به أنه إذا قدمها رحالة من الترك أو الفرس أو العرب حل ضيفاً في ركن من أركانها وهي ملتقي أهل العلم والعرفان "[٢].

- بلاد الشام.

بعد انتقال القهوة إلى الحجاز انتقلت عبر الصوفية والحجاج والتجار والرحالة إلى بلاد الشام، وقد ذكر محمد الارناؤوط أن المؤرخ الدمشقي ابن طولون تـ ٩٥٣هـ/١٥٤٥م أورد " أول معلومة عن شرب القهوة في دمشق بمناسبة زيارة قاضي مكة وشيخ الحرم ابن الضياء توفي ٩٤٢هـ / ١٥٣٤م لدمشق، وإقامته فيها فترة من الزمن"[٣]، ثم تابع الارناؤوط:-" والأهم من هذا حديث ابن طولون عن الشيخ علي بن محمد بن عراق نفسه الذي جاء دمشق أيضاً في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٩م... ويمدنا ابن طولون بمعطيات مهمة حديثة عن عالم آخر من الحجاز ألا وهو الشيخ علي بن محمد الشامي فقد كان هذا الشيخ من علماء الحجاز وذهب إلى بلاد الروم (الأناضول) ثم عاد أخيراً إلى دمشق سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، وهنا يذكر ابن طولون أنه قد أشهر شرب القهوة بدمشق فأقتدى به الناس وكثرت يومئذ حوانيتها، وكما يتضح من هذا النص فإن حوانيت القهوة كما سُميت المقاهي لأول مرة، قد انتشرت في دمشق منذ ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م"[٤].

١- الجزيري، المصدر السابق، صـ ١٩٢ -١٩٣.؛ المالكي، المصدر السابق.

٢ - جلبي، أوليا، الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة ، نقلها الى العربية حسين مجيب المصري وآخرون ، راجعها واكمل مواقفها ماجدة مخلوف، دار الآفاق العربية – القاهرة، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٦م، ج١، صـ ٤٦٦.

٣ - الارناؤوط، محمد م.، من التاريخ الثقافي للقهوة في الحجاز ومصر والشام في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مجلة دراسات تاريخية، السنة ٢١، العددان ٧١ – ٧٢، رمضان – ربيع الاول ١٤٢١هـ/تموز – كانون أول ٢٠٠٠م، صـ ١٣٧.

٤ - الارناؤوط، محمد م.، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، جداول للنشر والتوزيع – بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠١٢م، صـ ٣٨.

انتشرت المقاهي بكثرة وخاصة في عهد الولاة العثمانيين الذين امتلكوا المقاهي أو بيوت القهوة وأوقفوا بعضها في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وكانت هذه المقاهي تشابه مقاهي القاهرة من حيث مساحتها وأدواتها للتسلية والترفيه والألعاب والموسيقى والأدب وواصلت المقاهي تمددها إلى العراق والأناضول واسطنبول.

- العراق.

ظهرت القهوة في العراق في فترة مقاربة لظهورها في بلاد الشام، فقد انتقلت إليها من بلاد الشام والحجاز، وتحدث عنها الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف الذي وصل إلى العراق في ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م وهو وقت قريب من ظهور وانتشار القهوة في بلاد الشام والعراق، ففي رحلته إلى العراق تحدث عن القهوة والمقاهي وانتشارهما بالعراق رغم انه قد سبق وزار بلاد الشام لكنه لم يذكر القهوة في تلك البلاد، وهذا يدل أن القهوة قد اجتاحت العراق وأصبح مشروبها اليومي من دون اعتراض ومقاومة واجهة انتشار القهوة في هذه البلاد كما يذكر النص التاريخي التالي فقال راوولف:- " ومن بين الأشربة التي يتعاطونها في هذه البلاد، شراب حسن جداً، يسمونه قهوة أسود اللون كالجبر تماماً، وهو مفيد جداً للمرض ولاسيما أمراض المعدة، والقوم يتناولون هذا الشراب في باكر الصباح وفي أماكن مفتوحة أمام كل الناس دون أدنى خوف أو اعتبار، وهم يصبونه في أقداح صينية شفة واحدة بين آونة وأخرى، وتدار عليهم هذه الاقداح حين يجلسون وهم يضعون في هذا الماء ثمرة يدعونها البن، هي في حجمها وشكلها ولونها تشبه ثمرة التوت ولها قشرتان رقيقتان تحيطان بها، وقد أنبأوني عنها بأنهم يجلبونها من الهند،...وهذا الشراب كثير الشيوع جدّا لدى القوم ويوجد عدد كبير يتعاطون بيعه مثلما يبيع الأخرون التوت في الأسواق وهم يعدونه من المواد الغالية مثلما نعد نحن الخمر ..."[١].

- اسطنبول وبلدان البلقان.

أتفق الكُتّاب على أن القهوة انتشرت في عهد السلطان سليم الاول (٩١٨ – ٩٢٦هـ/ ١٥١٢ – ١٥٢٠م) في سنة ٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠م، فقد " راج في عهده شراب القهوة " [٢]، ثم " في سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م أخذ السلطان سليم مصر وحمل البن معه إلى القسطنطينية حيث لم يكن بها إذ ذاك محال عمومية ولم تحدث القهاوي هناك إلا في سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٣م[٣].

١ - راوولف، ليونهارت، رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، ترجمة سليم أحمد خالد، الدار العربية للموسوعات – بيروت، الطبعة الاولى ٢٠٠٨م – ١٤٢٨هـ، صـ ٧٩ – ٩٨.

٢ - بيهم، محمد جميل، أوليات سلاطين تركيا المدنيّة والاجتماعية والسياسية، مطبعة العرفان – صيدا، ١٣٥٠ هـ، صـ ١٨.

٣- القاسمي، المرجع السابق.

وجدت القهوة في اسطنبول ولكن بشكل بطئ ويرجع السبب إلى صدور الفرمانات السلطانية بمنعها بناء على فتاوى التحريم[١]، وكانت تتأرجح العقوبات ومدى التطبيق الفعلي لها وانتشار الفساد في هذه الدولة، لكنها في عهد السلطان مراد الرابع طبقت العقوبات بشكل صارم فقال برنارد لويس عن تلك المرحلة:- " وفي ١٦٦٣م حرّم مراد الرابع المعروف بصرامته كلا القهوة والدخان، وأعدم عدداً من الذين يشربون ويدخنون والدافع المعلن عنه لإلقاء هذا العقاب، كان حماية المدينة من الحرائق، ولعل دافعاً آخر كان حماية الحكومة من التعليقات النقدية"[٢]، وقدم المؤرخ الرسمي للدولة العثمانية بجوي ابراهيم أفندي نصاً متكاملاً لدخول القهوة والمقاهي إلى أسطنبول والخلاف الذي صاحب ظهورها، يقول هذا المؤرخ:- فـ" في سنة ٩٦٢ هجرية (١٥٥٤م) كانت لا توجد القهوة والمقاهي في العاصمة العلية القسطنطينية، وفي جميع بلاد الروم إيلي على الاطلاق حتى تاريخ اثنين وستين وتسعمائة، وفي بدايات السنة المذكورة أتى شخص يعرف باسم حكيم من حلب وشخص آخر يعرف باسم شمس من الشام(دمشق)، وفتح كل واحد منهما دكاناً كبيراً تحت القلعة وبدأوا في بيع القهوة، وراح يتجمع بعض الأحباء الأصفياء المبتلين بداء الكيف وخصوصاً بعض الظرفاء من طائفة القراء والكتاب، وأصبحوا يتجمعون في المكان تجمعات تتكون من عشرينات وثلاثينات، البعض يقرأ الكتب والمقالات الجميلة، والبعض يلعب الطاولة والشطرنج، والبعض يحضر الغزليات المكتوبة حديثاً حيث كانت تتم المناقشات حول أنواع المعارف، وكان هناك من يصرفون النقود الكثيرة، ويرتبون الضيافات حتى تصبح هذه الاماكن سبباً لتجميع الأحباب فيضفون على الاجتماع روح الصفاء بدفع ثمن القهوة أقجة[٣] أو أقجتين وليس أكثر من ذلك.

وأصبح الأمر بتلك الدرجة التي ملأ فيها المعزولون عن وظائفهم والمنتظرون فترة معلومة للحصول على وظائف جديدة؛ من القضاة والمدرسين من طائفة البطالة التي كانت بلا عمل أو كسب، ملأوا جميعاً المقاهي... وأصبح لا يوجد مكان في القهوة يمكن الجلوس فيه أو حتى الوقوف فيه.... وقد قال الأئمة والمؤذنون والصوفية : إن الناس صاروا مبتلين بالمقاهي؛ وأصبح لا يأتي شخص للصلاة في المساجد، أما العلماء فيقولون عن هذه الاماكن : إنها وكر مساوئ، والذهاب إلى الخمارة أولى من الذهاب إلى القهوة، وبصفة خاصة كان

---

١ - عمر، المرجع السابق، ٥٠ ــ ٥٢.

٢ - لويس، برنارد، استنبول وحضارة الخلافة الاسلامية، تعريب سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع – جدة، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، صـ ١٦٩.

٣ - اقجة عملة نقدية تعني الضارب أو الضاربة الى البياض واصلها مغولية وهي قطعة صغيرة من الفضة، ضربت لأول مرة في ٧٢٩هـ وكانت تستخدم في الاوساط الشعبية للدلالة على الدراهم أو النقود بشكل عام، ووزنها خمسة قراريط وثلاث حبات أي ربع مثقال وبحساب الجرامات اليوم أربعة غرامات و٦١٨ مليغراماً وتناقص حتى انتهى في ١٢٣٤هـ، راجع:- ١) العزاوي، عباس، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، طبع شركة التجارة والطباعة – بغداد، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، صـ ١٤٢ -١٤٢.؛ ٢) صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، صـ ٢٠ ــ ٢١.

الوعاظ يجتهدون كثيراً لمنعها، وأفتى المفتون أيضاً قائلين: بأن كل شيء يصل لمرتبة الفحم يعني يصبح أسود هو حرام صرف، وكانت تحدث التنبيهات المؤكدة في العصر المبارك للمرحوم والمغفور له السلطان مراد خان الثالث[١] رحمة الله عليه من أجل منع القهوة، ولكن بعض الأصدقاء أقاموا عند الأبواب الخلفية للشوارع المسدودة وخلف بعض الدكاكين وقالوا عليها: إنها قولتق قهوة سي أي قهوة الزاوية وعلى إثر مراجعتهم بعد ذلك إلى الـ(سوباشي) و(عسس باشي) حصلوا على الإذن بفتح هذه الأماكن ، ولم ينتهوا عن شربها..ولكن بعد مرور ذلك العصر انتشرت حتى أصبحت غير ممنوعة وبدأ الواعظون والمفتون يقولون: إن القهوة لم تصل إلى درجة الفحم، إن شربها جائز، ولم يبق رجل من العلماء والمشائخ والوزراء والكبراء دون أن يشرب القهوة، حتى وصل إلى درجة أن الوزراء العظام فتحوا المقاهي؛ لتكون مصدراً للدخل وأصبحوا يأخذون أجرة يومية عنها قدرها ذهبية أو ذهبيتان."[٢].

أورد أوليا جلبي نفس المحتوى السابق في جهاننما فقال:- "وكان دخولها في بلاد الروم خصوصاً القسطنطينية سنة تسعمائة واثنتين وستين هجرية، وفي هذا الوقت ظهرت أماكنها المعهودة لها، افتتح ذلك رجل من دمشق بنى قهوة فاجتمع فيها الناس حتى العلماء"[٣]، ومن اسطنبول انتقلت القهوة والمقاهي إلى الولايات التابعة لها وتجاوزت عدد المقاهي الالفين مقهى بإسطنبول وحدها[٤] ومنها انتقلت إلى دول البلقان والبوسنة والهرسك في اوروبا.

- **انتشار القهوة والمقاهي في اوروبا وامريكا.**

لم تعرف أوروبا القهوة إلا عن طريق الدولة العثمانية والرحالة الاوروبيين، وواجهت القهوة نفس ما واجهته في الشرق من محاربة السلطات الحاكمة لها وعلى رأسها ملوك اوروبا بل ومشابهة رجال الدين المسيحيين لرجال الإفتاء والعلماء المسلمين في تحريم وتجريم من يتعاطى القهوة حتى قال:- "البابا كلمنت الثامن (١٥٣٦ – ١٦٠٥م) بتحريم تناوله لعدم التشبه بالمسلمين الكفرة إلا أن البابا تراجع عن تحريمه وقام بتناول أول فنجان قهوة متأسفاً على ترك هكذا مشروب للمسلمين الكفرة "[٥]، وهكذا دخلت القهوة إلى اوروبا

١ - مراد الثالث ابن سليم الثاني بن سليمان القانوني حكم الدولة العثمانية من ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م حتى وفاته ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م.

٢ - بجوي، بجوي ابراهيم افندي، تاريخ بجوي ابراهيم افندي، ترجمة وتقديم ناصر عبد الرحيم حسين، المركز القومي للترجمة – القاهرة، الطبعة الاولى، ٢٠١٦م، ج١، صـ ٤٠٢ – ٤٠٤.؛ في الاصل العثماني ج١، صـ ٣٦٣-

٣ - جلبي، جهاننما، صـ ٥٣٥.؛ مبارك، علي باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٣٠٥هـ، ج٨، صـ٦.

٤ - عمر، المرجع السابق، صـ٥٣.

٥ - صبيحات، أحلام، تأثير المقاهي العربية على نشأة الصالونات الأدبية والتحريض على الثورة الفرنسية،

بما يمثلها من المقاهي من بعد شرقي، حتى أن كلمة القهوة وردت في أغلب اللغات الأوروبية بصورته العربية الثابتة.

انتشرت المقاهي في اوروبا، فنشأ أول مقهي في ايطاليا في عام ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م وفي اسبانيا عام١٠٨٥هـ/١٦٧٤م[١]، وفي بريطانيا انتشرت بواسطة تاجر رحالة فـ" في منتصف الجيل السادس عشر تجوّل تاجر انكليزي اسمه ادواردس في بلاد المشرق، وعاد إلى لندن في سنة ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م، وانشأ مشرباً – مقهى – للقهوة اطلق عليه اسم - coffee house في حي دير القديس ميخائيل... ولم تمض ثلاث سنوات على إنشاء قهوة المستر ادواردس حتى بلغ عدد مشارب القهوة في انكلترا ثلاثة آلاف"[٢]، وعرفت هولندا القهوة عن طريق التاجر بيتر فن دن بروكه في١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م والذي وصل مراراً إلى الجزيرة العربية وخاصة ميناء المخا[٣].

دخلت القهوة فرنسا في نفس الفترة ولدخول القهوة في فرنسا قصة أوردتها المصادر التركية العثمانية وكانت في زمن الملك لويس الرابع عشر وعلى يد السفير العثماني سليمان باشا[٤] وهذه القصة هي:- " ان السلطان محمد الرابع[٥] انفذ سفيراً من قبله سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا وعهد بهذه المهمة إلى مصطفى آغا – سليمان راجي باشا، فبعد أن القى عصا ترحاله في عاصمة الفرنسيين أحبّ أن يقيم في المدينة الأوربية حفلة على النمط الشرقي، ففرش محلاً في أحد نواديها في الشارع الذي يقطنه العثمانيون، وما كنت تجد في تلك الغرفة إلا الأثاث الشرقي من طنافس فارسية وأوسدة وطراحات وغير ذلك، فما أن طرق ذلك مسامع الاوربيين حتى دفعتهم الرغبة وأخذتهم الدهشة وشرعوا يتقاطرون إلى هناك افواجاً من جميع الصنوف والطبقات ويسرحون طائر بصرهم في ذلك المسرح، وزاد تعجبهم وعظم انذهالهم عندما شاهدوا عبيد السفير داخلين وعلى عاتق كل واحد منهم منشفة تطلق انواراً من حواشيها المطرزة بالخيوط الذهبية وبأيديهم صواني صغيرة وشرعوا يقدمون للحاضرين مشروباً أسود اللون مرّ المذاق، يتصاعد منه الدخان، فأخذ المدعوون يتهامسون ويتناشدون عما يكون هذا المشروب، فعرفوا أنها القهوة، وبعد مدة من الزمن أنشأ أحد المهاجريين الشرقيين في باريس في ربض

مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الاردنية، المجلد ٣٧، العدد الثالث، ٢٠١٠م، صـ٤٩٤.

١- عمر، المرجع السابق.

٢ - حبيب، توفيق افندي، مشارب القهوة ، مجلة الهلال، السنة ٣٠، الجزء ٥،جمادى الاخرة ١٣٤٠هـ/ فبراير ١٩٢٢م، صـ ٤٣٥.

٣ - بروار وكبلانيان، اليمن في اوائل القرن السابع عشر، مركز عبادي للدراسات والنشر – صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

٤ - عمر، المرجع السابق، صـ٥٣.

٥- السلطان محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول حكم الدولة العثمانية من 1058هـ/ 1648 م حتى خلعه 1099هـ / 1687 م

(القديس جرمان) قهوة ثم وسّع دائرة شغله فشاع مذ ذاك شرب القهوة في سائر الاقطار الاوربية"[١]، لكن باحثاً يرى أن " أول قهوة بفرنسا انشئت سنة ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٤م في ثغر مارسليا، ثم انشأ أرمني اسمه جريجوار قهوة في حي سان جرمان بمدينة باريس وتبعه ايطالي اسمه كوتللي فانشأ قهوة في شارع ده فوسيه"[٢].
أما تاريخ دخول القهوة والمقاهي إلى امريكا فكان في سنة ١١٢٩هـ/ ١٧١٧م[٣] ، ومنذ ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م حلت القهوة محل الشاهي كمشروب شعبي يومي[٤].

- **الخاتمة**

لقد وهب اليمن نعماً كثيرةً ومنها نعمة زراعة البن واكتشاف القهوة في وقت كانت فيه الأمة العربية والإسلامية تعاني من الغزو البرتغالي الصليبي للمنطقة والحصار على موانئها وما تبعه من انهيار في كافة مناحي الحياة وخاصة الانهيار الاقتصادي، ومن خلال هذا البحث قدم الباحث المعطيات التاريخية التي تتعلق بالقهوة وتطورها في اللغة العربية حتى استقرارها على المعنى المتعارف عليه اليوم، كما عرّف الباحث بموطن البن الاصلي، وعدد الاتجاهات التي تبنت نشأت القهوة واكتشافها، وأثبت أن مكتشفها من اليمن وهو الشيخ علي بن عمر القرشي الشاذلي خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ثم بيّن الباحث كيفية انتشار زراعة البن في اليمن وانتشار القهوة في الحجاز وبلاد الشام والعراق ومصر والمغرب العربي واسطنبول ودول البلقان والبوسنة والهرسك، ومن ثمّ انتقاله إلى اوروبا وامريكا.

المصادر والمراجع

- **المخطوطات.**

١- ابن دعسين، عبدالملك بن عبدالسلام بن عبدالحفيظ ، جواهر السلوك المتحلي بها جيد المملوك إلى ملك الملوك بشرح قصيدة ابن بنت الميلق، مخطوطة لدى الباحث.
٢- ابن زياد، عبدالرحمن بن عبدالكريم، الفتاوى الكبرى لابن زياد، مركز المخطوطات بزبيد.
٣- الاجهوري، علي بن محمد، مقدمة في فضل البن، مخطوطة في دار الكتب المصرية ضمن مجموع يحمل رقم ٧٣ مجاميع.

١- اورمان ومعادن وزراعت نظارتي، كتبخانه سي، قهوة اغاجي، جلد ٣، صـ٣.؛ الهلالي، عبدالرزاق، القهوة المشروب الذي تأرجح المنع والإباحة، مجلة العربي العدد ١٤٨، مارس ١٩٧١م، صـ ١٥٥،
٢- حبيب، المرجع السابق ، صـ ٤٣٦.
٣ - الهلالي، المرجع السابق، صـ ١٥٤.
٤ - ويلي، المرجع السابق، صـ ١٤.

٤- باسودان المقدادي، عبدالله بن أحمد، فيض الاسرار واقتباس الأنوار من معاني منظومة سيدنا الإمام الشيخ عمر بن عبدالرحمن البار، نسخة مصورة لدى الباحث.
٥- بحرق، محمد بن عمر، مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس، مخطوط لدى الباحث.
٦- الحداد، أحمد بن حسن بن عبدالله بن علوي، سفينة الارباح ونزهة الأرواح، مخطوط بمكتبة الاحقاف للمخطوطات في تريم – حضرموت، رقم المخطوط ٢٠٦٧.
٧- الحكيم، مدين بن عبدالرحمن الطبيب ، تلخيص عمدة الصفوة في حل القهوة، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، قسم المخطوطات، رقم المخطوط ١/١٢١٣.
٨- الزبيدي، أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني، تحفة اخوان الزمن في حكم قهوة اليمن، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود قسم المخطوطات برقم ٥٥٩٥.
٩- علوان الحموي، علي بن عطية بن الحسن ، السر المكنون في مدح البون، نسخة مخطوطة في دار لكتب المصرية برقم ٧٣٤ علوم طبيعية.
١٠- العيدروس، عبدالقادر بن شيخ، صفوة الصفوة في حكم القهوة الملقب بالسر المكنون المودع في قهوة البون، صورة مخطوط لدى الباحث.
١١- مجهول، كتاب طب، مخطوط في مكتبة المؤرخ محمد بن عبدالجليل الغزي بزبيد أمدّ الباحث بصورة مما يخص بحثه نجل صاحب المكتبة الباحث أحمد بن محمد الغزي.
١٢- مجهول، هذه فوايد عظيمة في خواص القات والبن عن اكابر الصوفية وغيرهم نفع الله بهم، مخطوط بدار المخطوطات في صنعاء برقم ٣٢٥٢ مجاميع.
١٣- المزني، سليمان بن يوسف بن عمر البسيوني، تحفة الاخوان في استعمال القهوة والدخان، مخطوطة لدى الباحث.
١٤- المشرع، عبداللطيف بن موسى، الموصل للأغراض في مداواة الامراض، مخطوط بمكتبة جامعة الرياض – قسم المخطوطات، برقم ١٨٥٦.
١٥- الناشري، حمزه بن عبدالله، جلب الزبون إلى أكل البون، مخطوطة لدى الباحث.

- المصادر والمراجع العربية.

١- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن ادريس الرازي ، تفسير القران العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين المعروف بتفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة – الرياض، الطبعة الاولى، ١٩٩٧م.
٢- ابن أبي سفيان، الوليد بن يزيد، ديوان الوليد بن يزيد، جمع وترتيب المستشرق الايطالي ف. جبربالى، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٧م.
٣- ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة،

٢٠٠٣م.
٤- ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، حققه وعلق عليه محمود الآرناؤوط، دار ابن كثير دمشق للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، الطبعة الاولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.
٥- ابن القاسم، يحيى بن الحسين، المستخرجات البينات على تحليل الأشياء المستعملات من القهوة والطباق والقات، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، منشورات المدينة - صنعاء، ط ١، ١٩٨٦م
٦- غاية الاماني في اخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة، ط الاولى، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
٧- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق محمد عبدالمعين خان، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
٨- ابن سيده، أبي الحسن علي بن اسماعيل، المخصص، مطبعة بولاق - القاهرة، ١٣١٦هـ.
٩- ابن سيناء، أبي علي الحسين بن علي، القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
١٠- ابن كثير، ابو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القران العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامه، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩م.
١١- ابن معصوم المدني، السيد علي صدر الدين، رحلة ابن معصوم المدني أو سلوة الغريب وأسوة الأريب، تحقيق شاكر هادي شكر، الدار العربية للموسوعات – بيروت، الطبعة الاولى ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م.
١٢- .....، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، مطبعة محمد أمين الخانجي المكتبي – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٣٣٤هـ.
١٣- ابو نواس، الحسن بن هاني الحكمي، ديوان أبو نواس الحسن بن هاني الحكمي، تحقيق إيفالد فاغنر و غريغور شولر، المعهد الالماني للأبحاث الشرقية في بيروت، مطبعة مؤسسة البيان – بيروت، الطبعة الثانية ، ٢٠٠١م.
١٤- الاخطل، غياث بن غوث، ديوان الاخطل، شرحه وصنف قوافيه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.
١٥- الارناؤوط، محمد م.، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، جداول للنشر والتوزيع – بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠١٢م.
١٦- معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، وقفية سنان باشا، دار الحصار للنشر والتوزيع – دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
١٧- الأمير، أمة الغفور عبدالرحمن علي، الاوضاع السياسية في النصف الثاني من

القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ١٠٥٤ هـ - ١٠٩٩هـ / ١٦٤٤ – ١٦٨٨م ، مع تحقيق بهجة الزمن في تاريخ اليمن يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، مؤسسة الامام زيد بن علي الثقافية – صنعاء، الطبعة الاولى، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨م.

١٨- الانصاري، حسان بن ثابت ، شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري، وضعه وضبط الديوان وصححه عبدالرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٧هـ، ١٩٢٩م.

١٩- الاهدل، بدر الدين أبي عبدالله الحسين بن عبدالرحمن بن محمد، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الارشاد – صنعاء، الطبعة الاولى، ٢٠١٢م.

٢٠- بافضل ، محمد بن عوض بن محمد، صلة الاهل بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل، مكتبة تريم الحديثة – حضرموت، الطبعة الاولى، ١٤٢٠هـ.

٢١- بامخرمه، أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دراسة وتحقيق محمد يسلم عبدالنور، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة – صنعاء، ٢٠٠٤م.

٢٢- بجوي، بجوي ابراهيم افندي، تاريخ بجوي ابراهيم افندي، ترجمة وتقديم ناصر عبد الرحيم حسين، المركز القومي للترجمة - القاهرة، ط الاولى، ٢٠١٦م.

٢٣- بروار وكبلانيان، اليمن في اوائل القرن السابع عشر، مركز عبادي للدراسات والنشر – صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

٢٤- البريهي، عبدالوهاب بن عبدالرحمن السكسكي، طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الارشاد – صنعاء، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ،١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٥- بيهم، محمد جميل، أوليات سلاطين تركيا المدنّية والاجتماعية والسياسية، مطبعة العرفان – صيدا، ١٣٥٠ هـ.

٢٦- التنوخي، ابي علي المحسن بن علي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي المحامي، دار صادر للطباعة والنشر– بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٩٥م.

٢٧- الثعلبي، أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري، الكشف والبيان عن تفسير القران، تحقيق ابي محمد علي بن عاشور، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط الاولى، ٢٠٠٢م.

٢٨- جاويش، سليمان خليل بطرس، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، المكتبة العمومية – بيروت، ١٨٨٧م.

٢٩- الجزيري، عبدالقادر بن محمد الانصاري، عمدة الصفوة في حل القهوة، ضمن كتاب الانيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور، دار الطباعة

الجمهورية في باريس ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م.
٣٠- جلازر، إدوارد، رحلاتي في شبه الجزيرة العربية، اليمن في كتابات الرحالة الاجانب، ترجمة أحمد قايد الصايدي، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية – دمشق، العدد ٣ ، أغسطس ١٩٩٩م.
٣١- جلبي، أوليا، الرحلة الحجازية، ترجمها عن التركية وقدم لها الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية – القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
٣٢- الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة ، نقلها إلى العربية حسين مجيب المصري وآخرون ، راجعها واكمل مواقفها ماجدة مخلوف، دار الآفاق العربية – القاهرة، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٦م.
٣٣- الحبشي، أبي بكر العطاس بن عبدالله بن علوي بن زين، تذكير الناس بما وجد من المسائل الفقهية وما تعلق بها في مجموع كلام سيدنا الحبيب الإمام العارف بالله والدال عليه جامع أسرار أسلافه الأئمة الأكياس شهاب الدين وبركة المسلمين العلم النبراس أحمد بن حسن بن عبدالله العطاس، مطبعة معهد حريضة – بوقور اندونيسيا ، ١٩٧٩م.
٣٤- الحلي، صفي الدين ابو المحاسن عبدالعزيز بن سرايا ابن ابي القاسم التنبسي، ديوان صفي الدين، مطبعة الآداب – ولاية بيروت، ١٣٠٧ هـ / ١٨٩٢م.
٣٥- الخالديين، أبي بكر وأبي عثمان سعيد ابني هاشم، الاشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، حقق وعلق عليه السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٦٦م.
٣٦- الخطابي، أروى أحمد أحمد عبدالله، تجارة البن اليمني (ق١١هـ - ١٣هـ/ ١٧م – ١٩م) دراسة تاريخية، المتحدة للطباعة – صنعاء، الطبعة الاولى، ٢٠١٣م.
٣٧- الخليلي، محمد بن محمد شرف الدين، فتاوى شيخ الإسلام والمسلمين العالم العامل الشيخ محمد الخليلي الشافعي، مطبعة محمد شاهين بالمحروسة القاهرة سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م.
٣٨- خنشت، يوسف موسى، طرائف الامس غرائب اليوم أو صور من حياة النبك وجبل القلمون في أواسط القرن التاسع عشر، مطبعة القديس بولس في حريصا، ١٩٣٦م.
٣٩- دي لاروك، جان، أول رحلة فرنسية إلى العربية السعيدة ١٧٠٨ – ١٧١٠م و١٧١١ – ١٧١٣م، ترجمة منير عربش، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة – صنعاء، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، ٢٠٠٤م.
٤٠- راوولف، ليونهارت، رحلة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، ترجمة سليم أحمد خالد، الدار العربية للموسوعات – بيروت، الطبعة الاولى ٢٠٠٨م – ١٤٢٨هـ.
٤١- الرشيدي، السيد أحمد، عمدة المحتاج في علمي الادوية والعلاج، دار الطباعة الخديوية ببولاق - القاهرة ،١٢٨٢هـ.

٤٢- السعدي، عباس فاضل، البن في اليمن دراسة جغرافية، مركز الدراسات والبحوث اليمني – صنعاء، الطبعة الاولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٤٣- السقاف، السيد علوي بن أحمد، رسالة في قمع الشهوة عن تناول التنباك والكفتة والقات والقهوة، ضمن كتاب مجموعة سبعة كتب مفيدة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر، ١٣٦٥هـ.
٤٤- الشجري، هبة الله بن علي ابو السعادات العلوي، مختارات شعراء العرب، تحقيق علي بن محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٢م.
٤٥- الصايدي ، أحمد قايد، المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن، دار الفكر المعاصر – بيروت، دار الفكر – دمشق، الطبعة الاولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٤٦- الصحاري، ابو محمد عبدالله بن محمد الذهبي الازدي، كتاب الماء أول معجم طبي لغوي في التاريخ، تحقيق هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عمان، المكتبة الشرقية وكتبتها، الطبعة الاولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
٤٧- الصولي، أبي بكر محمد بن يحيى، اشعار اولاد الخلفاء واخبارهم، ناشره ج . هيورث. دن، مطبعة الصاوي – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.
٤٨- الطائي، ابو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري، ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.
٤٩- العباسي، عبدالله بن محمد المعتز، ديوان اشعار الامير أبي العباس عبدالله بن محمد المعتزبالله الخليفة العباسي، دراسة وتحقيق محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م.
٥٠- العرضي، أبو الوفاء بن عمر الحلبي، معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، حققه محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر - دمشق، الطبعة الاولى ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٥١- العزاوي، عباس، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، طبع شركة التجارة والطباعة – بغداد، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.
٥٢- العطاس، علي بن حسين بن محمد بن جسين بن جعفر العطاس، تاج الاعراس على مناقب الحبيب القطب صالح بن عبدالله العطاس، مطبعة منارة قدس - اندونيسيا، ١٩٧٩م.
٥٣- العياشي، أبو سالم عبدالله بن محمد، الرحلة العياشية، حققها وقدم لها سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع – أبوظبي، الطبعة الاولى، ٢٠٠٦م.
٥٤- العيدروسي، محي الدين عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الاولى، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
٥٥- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، الكواكب السائرة بأعيان المائة التاسعة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الاولى، ١٤١٨هـ/

١٩٩٧م.
٥٦- القاسمي، جمال الدين، رسالة في الشاي والقهوة والدخان، طبع ببيروت ١٣٢٢ هـ، بدون معلومات نشر.
٥٧- لويس، برنارد، استنبول وحضارة الخلافة الاسلامية، تعريب سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع – جدة، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٥٨- المالكي، الشيخ شهاب الدين أحمد بن موسى بن عبد الغفار، رسالة القهوة، تحقيق إبراهيم محمد السعداوي، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، الطبعة الاولى، ٢٠١٠م.
٥٩- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، كتاب الحاوي الكبير، تحقيق محمد معوض وعادل احمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٦٠- مبارك، علي باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق - القاهرة، الطبعة الاولى، ١٣٠٥هـ.
٦١- المجاهد، عبدالله محمد، أسس زراعة وإنتاج المحاصيل الحقلية في الأراضي اليمنية، عالم الكتب – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٨٠م.
٦٢- المحبي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد ، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة،، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة، الطبعة الاولى، ٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
٦٣- مردم بك، تميم مأمون، الملك قانصوه الغوري الاشرف والوزير لالا مصطفى ذي السيف الاحنف، مكتبة تللو دمشق الطبعة الثانية ، ٢٠٠٨م.
٦٤- مردم بك، وقف على طبعهما خليل بن أحمد، كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا، ويليه كتاب وقف فاطمة خاتون، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.
٦٥- نيبور، كارستن، رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ترجمة عبير المنذر، مؤسسة الانتشار العربي – بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧م.
٦٦- الورثيلاني، سيدي الحسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة الاولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م..

- **المصادر والمراجع باللغة العثمانية.**

١- اورمان ومعادن وزراعت نظارتي، كتبخانه سي، قهوة اغاجي، جلد ٣.
٢- جلبي، كاتب، جهاننما ، دار الطباعة العامرة- قسطنطنية ، ١١٤٥ هـ - ١٧٣٢م.

٣- راشد باشا، ميرالاي احمد، يمن وصنعا تاريخنك، طبعي بولمشدر- إستنبول، ١٢٩١.
٤- شرف، عبدالرحمن، تاريخ دولة عثمانية، قربت مطبعة سي - استانبول ١٣١٨هـ.
٥- عمر، دوقتور يوزباشي بسيم، مكيفات ومسكرات دن آفيون، قهوة، جاي، اسرار، محمود بك مطبعة سي – استانبول، ١٣٠٥ هـ.
٦- يمن سالنامه ١٣١٣، ولايت مطبعة سنده طبه أولمنشدر.

- **القواميس والمعاجم والموسوعات.**

١- ابن عباد، الصاحب اسماعيل، المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الاولى ، ١٩٩٤م.
٢- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة الاولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٣- الازهري، ابي منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ومحمود فرج العقدة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب - القاهرة،١٩٦٤م.
٤- الرازي، زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الحنفي، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية – بيروت، ط٥، ١٩٩٩م.
٥- الزركلي، خير الدين، الاعلام قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة، مايو ١٩٨٠م.
٦- صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٧- الفراهيدي، ابو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وابراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال – القاهرة.

- **المجلات والدوريات**

١- الارناؤوط، محمد م.، من التاريخ الثقافي للقهوة في الحجاز ومصر والشام في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مجلة دراسات تاريخية، السنة ٢١، العددان ٧١ – ٧٢، رمضان – ربيع الاول ١٤٢١هـ/ تموز – كانون أول ٢٠٠٠م.
٢- البن، مجلة المقتطف، الجزء السابع، السنة الخامسة، كانون الاول سنة ١٨٨٠م.
٣- حبيب، توفيق افندي، مشارب القهوة، مجلة الهلال، السنة ٣٠، الجزء ٥،جمادى الاخرة ١٣٤٠هـ/ فبراير ١٩٢٢م.
٤- زكي، أحمد، القهوة، مجلة الرسالة، العدد السابع، السنة الاولى، السبت ٢٠ ذي

الحجة ١٣٥١هـ/ ١٥ ابريل ١٩٣٣م.
٥- صبيحات، أحلام، تأثير المقاهي العربية على نشأة الصالونات الأدبية والتحريض على الثورة الفرنسية، مجلة دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، الجامعة الاردنية، المجلد ٣٧، العدد الثالث، ٢٠١٠م.
٦- كيك، بطرس، شذرات في أصل القهوة، مجلة المشرق السنة السادسة ١٩٠٣، العدد ١٥.
٧- مطلوب، أحمد، عروبة ألف ليلة وليلة، مجلة المجمع العلمي ببغداد، الجزء ٣ – المجلد ٥٢، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
٨- مونرو، اليزابيت، تاريخ القهوة العربية، مجلة الفيصل، العدد الربع – السنة الاولى، شوال ١٣٩٧هـ - سبتمبر ١٩٧٧م.
٩- نور الدين، صالح، البن وزراعته، مجلة المقتطف، الجزء التاسع من السنة الرابعة عشرة، ١ حزيران (يونيو) ١٨٩٠م الموافق ١٣ شوال ١٣٠٧هـ.
١٠- الهلالي، عبدالرزاق، القهوة المشروب الذي تأرجح المنع والإباحة، مجلة العربي العدد ١٤٨، مارس ١٩٧١م.
١١- ويلي، كاثرين، القهوة مشروب عالمي، ترجمة عبدالباري نعمت، مجلة الثقافة، العدد ٦٠٤، الاثنين ٩ شوال سنة ١٣٦٩هـ / ٢٤ يوليو ١٩٥٠م.

- **الكتب الانجليزية.**

1 - ARENDONK, C. VAN, KAHWA , THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM, EDITED BY E. VAN DONZEL, B. LEWIS AND CH. PELLAT,1997, E. J. BRILL, LEIDEN.

2 – Bury. G. Wyman. ARABIA INFELX OR THE TURKS IN YANEN, MACMILLAN AND COM., LIMITED, LONDON. 1914.

3 - B.E.DAHLGREN, COFFEE , FIELD MUSEUM OF NATURAL HISTORY , CHICAGO , 1938.

4 - Coffee Extensive Information and Statistics. Government Printing Office. Washington, published by the international bureau of the American Republics, 1902.

5 - The nature and cultivation of coffee. New Work State college of Agriculture At Cornell University.1924.

مدى اكتساب الطالب المعلم في كليات التربية بجامعة الحديدة
لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه

د. عبده علي محمد الهتاري
أستاذ المناهج وطرق التدريس المساعد
بكلية التربية – جامعة الحديدة

ملخص البحث:

ـ هدف البحث إلى:

ـ معرفة مدى اكتساب الطالب المعلم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه.

ـ معرفة إذا ما كان هناك من فرق يعزى للكلية.

ـ تقديم رؤية لمسئولي إعداد برامج إعداد المعلم في كليات التربية عن واقع الطلبة المعلمين في تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه.

ـ تقديم عدد من التوصيات والمقترحات في مجال تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه بحسب ما ستسفر عنه نتائج البحث.

ـ وقد تحققت هذه الأهداف من خلال الإجراءات الآتية:

ـ تصميم أداة البحث المتمثلة في الاستبانة التي تكونت من ثلاثة محاور:

الأول: محور تخطيط الدرس.

الثاني: محور تنفيذ الدرس.

الثالث: محور تقويم الدرس.

تضمن كل محور عدة كفايات، وبعد ضبط الاستبانة، والتأكد من صدقها وثباتها تم تطبيقها على عينة البحث التي تكونت من (٢١٤) طالبا. من كلية التربية بالحديدة (١٣٧) طالبا، وكلية التربية والعلوم التطبيقية بريمة (٧٧) طالبا ـ وذلك في أقسام علوم القرآن واللغة العربية والإنجليزية بالكليتين.

ـ استخدم الباحث المنهج الوصفي، وفي تحليل البيانات برنامج(spss)

ـ اسفرت النتائج عن تدني اكتساب الطالب المعلم لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه، إذ كانت النتائج للمحاور على النحو الآتي:

ـ محور تخطيط الدرس حصلت العينة على (٥٧%).

ـ محور تنفيذ الدرس حصلت العينة على (٥٦%).

ـ محور تقويم الدرس حصلت العينة على (٥٣%). وبلغت النسبة العامة لضعف العينة في اكتساب كفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه (٥٥%).

ربما يعزى هذا الضعف إلى عدد من الأسباب، أهمها:

ـ ضعف الاهتمام بها من قبل أعضاء التدريس عند تدريسهم لمادة طرائق التدريس.

ـ قلة تدريب الطلاب على هذه الكفايات أثناء أدائهم لمقرري التربية العملية (١) و(٢).

ـ إسناد الإشراف على التربية العملية إلى غير المتخصصين تربويا.

ـ وفي ضوء تلك النتائج قدَّم الباحث عددا من التوصيات والمقترحات، أهمها:
ـ الاعتناء بإكساب الطالب المعلم مهارات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه.
ـ الاعتناء بالتربية العملية بشقيها داخل الكليات، أوفي التطبيق العملي في المدارس.
ـ إسناد الإشراف على الطلبة في التربية العملية إلى متخصصين في مجال التربية.
ـ إعداد بحوث مماثلة في هذا الموضوع، ولكن باستخدام أدوات في البحث جديدة.
والحمد لله رب العالمين.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وليُّ الصالحين، وأشهد أن محمّدا عبده ورسوله خيرُ معلم ومرشد وهاد إلى صراط مستقيم.

أما بعــد: يقوم المعلم بأدوار كثيرة في العمليّة التعليمية التربوية، فهو الذي ينهض بالتعليم إلى المكانة المرجوّة، أو يكون العامل الأهم في ضعف التعليم وتقهقره، وهو الذي يحبِّب المادة إلى نفس المتعلّم أو يكرّهُه فيها، وهو الذي يفيد الطلابَ المِراسة والدُّرْبة لما يتعلمونه في حياتهم العملية. وقد أكّد كثيرٌ من الباحثين دور المعلّم، وجاءت أقوالُهم متطابقة على أهميَّة دوره في العملية التعليمية، بل وافتقار كل الوسائل في العملية التعليمية إلى المعلّم. إذ يرى بعضهم" أنّ الدور الذي يقوم به المدرس في العمليَّة التعليميّة دورٌ هامٌ ورئيسٌ؛ حيث إنّ كلَّ العوامل الأخرى التي تؤثّر فيها مثل: المنـهج والكتب والإدارة المدرسيــة والإشراف الفني ـ رغم أهميتها ـ لا تحقق أهدافها إلا إذا وُجد المدرِّس القادر على الاستفادة منها على خير وجه". (نافع: ١٩٨٨م. صـ٣٩.)

بل إنه "مهما تطورت التقنيات، ومهما وُفرت للطالب من تسهيلات ومهما ساندت تحقيق أهداف العملية التعليمية فإن ذلك لا يقلّل من أهمية المعلّم في هذه العملية، بل إن مكانة المعلم وأهميته سوف تزداد كلما تطورت التقنية وانتشرت استخداماتها التربوية". (المنيع: ٢٠٠٩م. صـ١١٤.)

ولعل أبرز أدواره تظهر من خلال عمله التدريسي في تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه. هذا المثلث المترابط المتكامل هو محور عمله، وزُبدة جهده، ولكل عنصر من هذه العناصر أهميته الخاصة مع تعلقه وارتباطه بالعناصر الأخرى، تكاد تكون العلاقة بينها شبكية. فالتخطيط يُعَدُّمن أهم الأعمال التي ينبغي للإنسان أن يزاولها في حياته بعامة، وفي مهنته التي يمارسها بخاصة؛ وذلك لما للتخطيط من فوائد جمة، ونفع عظيم. والنجاح في التخطيط بوابة النجاح في التنفيذ، وأي إخفاق فيه فإنما يعني الإخفاق في الحياة برمتها. ومن المؤكد أن من لم يُجِد التخطيط لا يمكن أن يجيد التنفيذ؛ إذ التنفيذ مترتب على التخطيط. فالتخطيط مقدِّمة، والتنفيذ نتيجة. والنتائج دائما مبنية على المقدمات.

وقد أكد عدد من الباحثين أن من أهم صفات المعلم الناجح في المجال التربوي:
ـ التمكن من مهارات الإعداد سواء الذهني، أو النفسي، أو الكتابي، فالإعداد هنا يمثل الخطة التدريسية التي سيطبقها المعلم في ضوء فهمه لمادته، ومعرفته لإمكانيات المتعلمين، والوسائل والأدوات المتاحة.

ـ التمكن من مهارة إدارة الفصل، والتي لا ينظر إليها كوسيلة ضبط وإسكات للمتعلمين بقدر ماهي مهارة تحفيزهم وإشراكهم في عملية التعلم، بدلا من كونهم متلقين فقط، وهذا يتطلب فَهْمَ الفروق الفردية بينهم؛ مما يساعده على تنفيذ عملية التدريس بشكل أفضل.
ـ التمكن من مهارة التقويم، سواء أثناء عملية التدريس، أوفي فترات الاختبارات لقياس نواتج التعلم والتحصيل، وفق تقويم علمي ومقنن، ومبني على أسس تبين عوامل الصعوبة والتميز، وعوامل الضعف، عدا أنها مؤشر جيد بالنسبة للمعلم لقياس أدائه. (مَنِ المعلمُ الناجح؟ ١٤٣٣ه. صـ٤١.) وإذا كان التخطيط لازما لأي عمل يقوم به الإنسان، فإنه يصبح أكثر لزوما في عملية معقدة كالعملية التعليمية؛ لأن التخطيط يساعد المعلم على تنظيم جهوده، وجهود طلابه، وتنظيم الوقت واستثماره استثمارا مفيدا، ويضمن سير العمل في الصف في اتجاه تحقيق الأهداف المرجوة، واستخدام جميع الأساليب والإجراءات والأنشطة التي تساعد على إنجازها. (مرعي و الحيلة. ٢٠٠٧م. صـ٣١٥.)

أما التنفيذ فإنه الجانب المهم من أي عمل؛ إذ إنه ربما يتيسر للإنسان وضع خطة محكمة لشيء مّا لكنه عند التنفيذ لا يحسن القيام بما خطط له. ويُعَدُّ تنفيذ الدرس إنجاز المعلم أثناء تفاعله مع التلاميذ لما خطط له وهذا يستدعي إجادته لمجموعة كبيرة من الكفايات أو المهارات مثل: مهارات عرض الدرس، والأسئلة، وإثارة الدافعية لدى الطلاب، وتعزيز استجاباتهم ونحوها. (جابر وآخرين: ١٩٨٥م. صـ١٣.)

مشكلة البحث وأسئلته

إن كليات التربية تقوم بإعداد الطالب المعلم مهنيا في جوانب متعددة عبر مواد دراسية محددة، وتتبع هذا الإعداد مما ينبغي القيام به ـ لا سيما ـ وقد ذكرت بعض البحوثات التربوية أن من مقومات برامج إعداد المعلم:
ـ تشجيع طلاب الدراسات العليا في التخصصات التربوية لدراسة وبحث وتقصي الجوانب التربوية لإعداد المعلم قبل وفي أثناء الخدمة. (الشهراني. ذو القعدة ١٤٣٣ه. صـ٥٥.)

وتعد الكفايات التدريبية أحد الجوانب الرئيسية لتقويم الأداء المهني للمعلم، وعند توافرها وتمكن المعلم فيها نكون قد قومنا برامج إعداد المعلم بصورة غير مباشرة. (محافظة٢٠٠٩م) وكشفت نتائج هذه الدراسة: أن الكفايات الضرورية للمعلم هي: الإعداد النظري والعملي للمعلم وكذلك الالتزام بقواعد المهنة الأخلاقية. (محافظة٢٠٠٩م)

ولعل الجانب الذي ينبغي أن تركز عليه هو جانب امتلاك الطالب لكفايات تخطيط الدروس وتنفيذها وتقويمها؛ لما يترتب على ذلك من فوائد عديدة في أداء المعلم لرسالته، ولا ينبغي أن ننتظر تدريسا يحقق الأهداف التربوية المنشودة وتستخدم فيه طرائق التدريس المتنوعة، والوسائل التعليمية المناسبة، لا ننتظر ذلك من معلم لا يمتلك كفايات تخطيط الدروس وتنفيذه وتقويمه؛ إذ إنَّ فاقد الشيء لا يعطيه. وقد أدرك الباحث ضعف الطالب المعلم في اكتساب هذه الكفايات التدريسية من خلال خبرته في التدريس في كليات التربية بالحديدة وزبيد وريمة، ومن خلال إشرافه على مجموعات التربية العملية سواء منها داخل

الكلية أوفي المدارس الحكومية، ولكن لا يكفي هذا الشعور إزاء هذا الضعف مالم يتثبت ذلك من خلال دراسة علمية تكون نتائجها هي المعول عليها.

تحديد مشكلة البحث

ومن خلال ما سبق يمكن أن تتحدد مشكلة البحث في الأسئلة الآتية:

ـ ما مدى امتلاك الطالب المعلّم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس؟.

ـ ما مدى امتلاك الطالب المعلّم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تنفيذ الدرس؟.

ـ ما مدى امتلاك الطالب المعلّم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تقويم الدرس؟.

ـ هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية تعزى لمتغير الكلية؟.

أهداف البحث

يسعى البحث لتحقيق الأهداف التالية:

ـ معرفة مدى امتلاك الطالب المعلم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه.

ـ معرفة إذا ما كان هناك من فرق يعزى للكلية.

ـ تقديم رؤية لمسئولي إعداد برامج إعداد المعلم في كليات التربية عن واقع الطلبة المعلمين في تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه.

ـ تقديم عدد من التوصيات والمقترحات في مجال تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه بحسب ما ستسفر عنه نتائج البحث.

***أهمية البحث**

تكمن أهمية البحث في تناوله لهذا الموضوع المؤثر في العملية التربوية، والبوابة الحقيقية للنجاح في أداء المدرس، ويمكن ذكر بعض النقاط الدالة على أهمية البحث فيما يلي:

ـ تبيين واقع الطلبة المعلمين في كليات التربية بجامعة الحديدة في امتلاكهم لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه؛ مما سيستفيد منه الطالب المعلم، وعضو هيئة التدريس، والمسئول عن برامج إعداد المعلم على السواء.

ـ لفت أنظار المهتمين بالعملية التعليمية سواء داخل الجامعة أو خارجها إلى تخطيط الدروس وتنفيذها وتقويمها؛ لما له من تأثير كبير في أداء المعلم.

ـ ربما يكون له أثر على حسن اتجاه الطلبة المعلمين نحو تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه، والاهتمام بذلك الاهتمام المناسب اللائق بفائدته وأثره في العملية التعليمية والتربوية.

حدود البحث

اقتصر البحث على أداء طلبة المستوى الرابع تخصص علوم قرآن، ولغة عربية في تخطيط الدروس وتنفيذها وتقويمها للعام الدراسي ٢٠١٤:٢٠١٥م. في كليات التربية بالحديدة والتربية والعلوم التطبيقية بريمة.

منهج البحث: يناسب هذا البحث من المناهج استخدام المنهج الوصفي؛ لأنه هو النوع المناسب للبحث.

مجتمع البحث وعينته: تكون مجتمع البحث من طلاب كليات التربية بجامعة الحديدة قسم علوم القرآن، واللغة العربية والإنجليزية، وعينته طلاب المستوى الرابع من الأقسام المذكورة بكليتي التربية بالحديدة، وكلية التربية والعلوم التطبيقية بريمة. وكانت العينة على النحو الآتي:

ـ كلية التربية والعلوم التطبيقية بريمة: قسم علوم القرآن (٢٢) طالبا. قسم اللغة العربية (٢٥) طالبا. قسم اللغة الإنجليزية (٣٠) طالبا.

ـ كلية التربية بالحديدة: : قسم علوم القرآن (٢٥) طالبا. قسم اللغة العربية (٢١) طالبا قسم اللغة الإنجليزية(٩١) طالبا.

***مصطلحات البحث**

١ـ مدى: المدى: عُرِّف المدى بأنه" القدر الذي يُحدِّده الخبراء من المادة العلمية، متضمَّنا في منهج مَّا. " (اللقاني والجمل: ٢٠٠٣م. صـ٢٥٤.)

٢ـ الطالب المعلم: " هو ذلك الطالب الذي يلتحق بكليات التربية لمدة أربع سنوات؛ بهدف ممارسة مهنة التدريس بعد تخرجه منها، ويتم تدريبه على أيدي مجموعة من الأعضاء والمشرفين التربويين الذين تحددهم الكلية وتختارهم للقيام بالإشراف عليهم في التربية العمليَّة." (اللقاني، و الجمل: ٢٠٠٣م. صـ١٩٥.)

٣ـ كفايات: الكفايةُ هي: "السَّعَةُ....القابليّةُ....القدرةُ، وهي: أفضل مستوى يحتمل أن يصل إليه الفرد إذا حصل على أنْسب تدريب أو تعليم، وقد تسمى الاقتدار". (شحاتة والنجار: ٢٠٠٣م صـ٢٤٦.) أما اللقاني والجمل فقد جاء تعريفهما للكفاية بصورة مغايرة للتعريف السابق إذ قالا بأنَّ الكفاية هي التي:" تصف الحدّ الأدنى للأداء، وعند ما يصل أيُّ فرد إلى هذا الحد فإن هذا يعني أنّ الفرد وصل إلى حدٍ يساعده على أداء هذه الكفاية". (اللقاني، و الجمل: ٢٠٠٣م. صـ٢٣٠.) وتعرف أيضا بأنها: "مجموع الاتجاهات، وأشكال الفهم والمهارات التي من شأنها أن تُيسِّر للعملية التعليمية تحقيق أهدافها العقلية والوجدانية والنفس حركية". (طعيمة:. ١٩٩٩م. صـ٢٥.)

وعُرفت كذلك بأنها:" القدرة على تنفيذ النشاط التعليمي الذي يستند إلى مجموعة من الحقائق والمفاهيم والتعميمات والمبادئ وتتضح من خلال السلوك التعليمي الذي يصل إلى درجة المهارة". (يعقوب، و الشعوان ١٣. صـ١٧٩.)

أما كفاءة المعلّم المعرفيّة فهي:" مدى قدرة المعلّم على نقلـه للمحتوى والمـادة الدراسية التي يقوم بتدريسها؛ باعتباره ناقلا للمعرفة". (اللقاني، و الجمل: ٢٠٠٣م. صـ٢٣٠.) ويقصد بها الباحث النسبة أو القيمة أو المقدار الذي سيعطيه الطلبة المعلمون لكفاياتهم في تخطيط الدروس وتنفيذها بحيث لا تقل عن ٨٠%.

٤ـ تخطيط الدروس: يقصد بتخطيط الدروس: مجموعة العمليات المنظمة التي يقوم بها المعلم من حيث التعرف على خصائص المتعلمين، وتحديد احتياجاتهم النمائية، وقدراتهم،

وصياغة الأهداف التعليمية، وتحليل محتوى المادة الدراسية والخبرات التعلمية، وتنظيمها بما يتلاءم مع مدخلات التلاميذ؛ بهدف زيادة كفاءة التعلم عند المتعلمين. (الخوالدة وآخرين:. ٢٠٠٠م.) أو هو عملية تحضير ذهني وكتابي يضعه المعلم قبل الدرس بفترة كافية، ويشتمل على عناصر مختلفة لتحقيق أهداف محددة. (عقيلان: تخطيط وإعداد الدروس.) أو أنه: تصورٌ مسبقٌ؛ لتحقيق التوافق والانسجام بين مكوِّنات النظام في الموقف الصَّفِّي على نحوٍ يؤدي إلى تحقيق تعلُّمٍ مستمر. (الهتاري: ط١. ٢٠١٢م. صـ:٣١.) أو هو عملية تحضيرية منظمة ((ذهنية وكتابية)) تهدف إلى رسم الأسلوب أو طريقة العمل التي تؤدي إلى بلوغ الأهداف المنشودة بفاعلية وكفاءة مع الأخذ بعين الاعتبار العناصر المختلفة للموقف التعليمي من معلم وطالب وإمكانات ومواد تعليمية. (النفيعي. وآخر: صـ٧.)

٥ـ تنفيذ: النَّفاذُ : جوازُ الشيءِ عن الشيءِ والخُلوصُ منه .. وأنْفَذَ الأمْرَ : قَضاهُ.. . والنَّفَذُ بالتحريكِ : الإنْفاذُ . وأتَى بنَفَذٍ ما قالَ أي : بالمُخْرَجِ منه . والمُنْتَفَذُ : السَّعَةُ . (الفيروز أبادي: القاموس المحيط. باب النون فصل الذال.)

٦ـ التقويم: التقويم لغة: مصدر قوَّم الشيء جعل له قيمة. قال في المصباح المنير: وَقَوَّمْتُهُ تَقْوِيمًا فَتَقَوَّمَ بِمَعْنَى عَدَّلْتُهُ فَتَعَدَّلَ، وَقَوَّمْتُ الْمَتَاعَ جَعَلْتُ لَهُ قِيمَةً مَعْلُومَةً، وَأَهْلُ مَكَّةَ يَقُولُونَ اسْتَقَمْتُهُ بِمَعْنَى قَوَّمْتُهُ. (الفيومي: المصباح المنير.) وقال غيره: (تقوَّم) الشيء تعدَّل واستوى وتبيَّنت قيمته و (استقام) الشيء: اعتدل واستوى (مصطفى ـ وآخرين المعجم الوسيط.)

أما في الاصطلاح: فقد عُرف بتعريفات متعددة، ويمكن تصنيفها إلى نوعين:

أحدها تعريفات ضيقة: مثل التعريفات التالية:

ـ التقويم هو: وضع الدرجات التي تعبر عن تقييم عمل التلميذ بالنسبة لقدرته.

أو هو: ترتيب التلميذ بين زملائه في الفصل، أو المقارنة بين أدائه والمعايير القومية إنْ وُجدت. (هندام وآخر:. صـ٢٤٨.) أو هو: الامتحانات بصورتهـا التقليدية، تتمثـل في إعطاء درجات للطـلاب من خـلال الاختبارات، وتصدر أحكاما على الطلاب من خلالهـا؛ ليتم توزيعهم إلى شُعَب، أو نقلهم من صف إلى صف. (سرحان:. صـ١٢٢.)

النوع الآخر تعريفات واسعة: ومنها:

ـ التقويم عملية معقدة، تبدأ بصياغة الأهداف، وتحديد وسائل الحصول على شواهد وأدلة لتحقيق هذه الأهداف وعمليات التفسير اللازمة للتوصل إلى معنى الشاهد والدليل، وأحكام عن نواحي القوة والضعف عند التلاميذ، الأمر الذي يؤدي إلى اتخاذ قرارات تتصل بالتغيرات والتحسينات المطلوبة في المنهج وطرق التدريس. (هندام وآخر: صـ٢٤٨:٢٤٩.) أو هو: تحديد مدى ما بلغناه من نجاح في تحقيق الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها؛ ليكون عونا على تحديد المشكلات، وتشخيص الأوضاع، ومعرفة العقبات والمعوقات؛ بقصد تحسين العملية التعليمية، ورفع مستواها، ومساعدتها على تحقيق أهدافها. (سرحان: صـ١٢٥.)

خطوات البحث:

سار البحث وفق الخطوات الآتية:

- الاطلاع على الأدب التربوي والدراسات السابقة وذلك من أجل:
- تصميم أداة البحث.
- ضبط الأداة والتأكد من ثباتها.
- تحديد عينة البحث.
- تطبيق الأداة على العينة.
- تحليل البيانات والحصول على النتائج.
- التوصل إلى التوصيات والمقترحات في ضوء النتائج.

الدراسات السابقة والإطار النظري

لعله من المفيد أن نتناول هنا تخطيط الدرس، وتنفيذه، وتقويمه في محورين:

الأول : محور الدراسات السابقة. الثاني: محور الإطار النظري؛ وذلك نظرا لما لهذه الكفايات التدريسية من أهمية - لاسيما - وأن بعض المعلمين تغيب عنهم بعض المهارات اللازمة لهذه العناصر المهمة من دورهم المناط بهم، فقد لا يحسنون التخطيط للدرس، ولا يعطونه الأهمية اللائقة به، وقد يأخذ التنفيذ رتابة تؤدي إلى ملل الطلاب وعدم استفادتهم من الدرس، وبالتالي يكون التقويم بعيدا عن قياس تحقيق الأهداف التعليمية التي لم تكن الخطة لتحقيقها كافية، ولا التنفيذ مناسبا.

***أولا: محور الدراسات السابقة**

سيعرض الباحث عددا من الدراسات السابقة التي تناولت كفايات المعلم، سواء منها ما تناولت هذا الموضوع بصورة قريبة من عنوان هذا البحث، أو ما كان يشابهه على النحو الآتي:

١- درجة اكتساب طلبة دبلوم أساليب تدريس التربية الإسلامية لكفايات التعليمية الخاصة بفروع التربية الإسلامية.

د. ماجد زكي الجلاد. أ. معاذ خلف العمري.

- هدفت الدراسة إلى الكشف عن درجة اكتساب طلبة الدبلوم في تخصص أساليب التربية الإسلامية للكفايات التعليمية الخاصة بفروع التربية الإسلامية في ضوء متغيرات الحبس والجامعة والتقدير العام.
- وتكونت العينة من ١٩٩ طالبا وطالبة من طلبة الدبلوم في الجامعة الأردنية، وجامعة اليرموك، وجامعة مؤته.
- استخدم الباحثان استبانة لتحقيق أهدافهما وتأكدا من صدقها وثباتها.
- أسفرت نتائج البحث أن درجة اكتساب طلبة دبلوم أساليب تدريس التربية الإسلامية لكفايات التعليمية الخاصة بفروع التربية الإسلامية عالية.
- قدم الباحثان بعد ذلك عددا من التوصيات والمقترحات.

٢ـ ما مدى اتقان معلم المواد الاجتماعية بمدارس التعليم العام بدولة الكويت للكفايات التدريسية؟ دراسة استطلاعية لآراء الموجهين والمدرسين الأوائل. د. إبراهيم محمد كرم.

ـ هدفت الدراسة إلى معرفة مدى اتقان معلم المواد الاجتماعية بمدارس التعليم العام بدولة الكويت للكفايات التدريسية.

ـ وكان من أسئلة الدارسة: ما مدى اتقان معلم المواد الاجتماعية بمدارس التعليم العام بدولة الكويت للكفايات التدريسية؟

ـ وكانت عينة الدراسة من الموجهين والمدرسين الأوائل بلغت ١٢٤ موجها ومدرسا أول.

ـ استخدم الباحث استبانة لتحقيق أهدافه.

ـ واسفرت النتيجة عن اتقان معلمي المواد الاجتماعية لغالبية الكفايات التدريسية.

ـ قدم الباحث بعد ذلك عددا من التوصيات والمقترحات.

٣ـ تقويم الكفايات التدريسية لدى الهيئة التدريسية في كلية العلوم التربوية بجامعة مؤته من وجهة نظر طلبة الدارسات الاجتماعية. د. محمد إبراهيم الغزيوات.

ـ هدفت الدراسة إلى التعرف على بعض كفايات أعضاء هيئة التدريس في جامعة مؤته.

ـ وتكونت العينة من ٢١٦ طالبا وطالبة.

ـ استخدم الباحث أداء الاستبانة وكانت تحتوي على ثلاثة أقسام: كفاية التقويم، وكفاية التدريس، والكفاية الإنسانية.

ـ وتوصلت الدراسة إلى أن طلبة الدراسات الاجتماعية غير راضين عن استخدام أعضاء الهيئة التدريسية لطرق التقويم والتدريس التقليدية والتعامل غير الإنساني.

ـ قدم الباحث بعد ذلك عددا من التوصيات والمقترحات.

٤ـ تقويم أداء أعضاء هيئة التدريس في الجامعة من وجهة نظر الطلبة دارسة ميدانية في جامعة ديالي. د. حاتم جاسم عزيز.

ـ هدف البحث إلى بناء أداة لقويم أداء أعضاء هيئة التدريس في جامعة ديالي من وجهة نظر طلبة الدارسات العليا.

ـ ولتحقيق الهدف بنى الباحث أداته وكانت استبانة تكونت من خمسة مجالات، وتأكد من صدقها وثباتها.

ـ وأسفرت النتائج عن وجود ضعف واضح في أداء المتدربين من وجهة نظر الطلبة في جميع المجالات.

ـ قدم الباحث بعد ذلك عددا من التوصيات والمقترحات.

٥ـ الكفايات التعليمية الأساسية لدى معلمي ومعلمات التربية الرياضية للمرحلة الأساسية الأولى بمحافظة نابلس.

د. عماد صالح عبد الحق.

ـ هدفت الدارسة إلى التعرف على الكفايات التعليمية الأساسية لدى معلمي ومعلمات التربية الرياضية للمرحلة الأساسية الأولى بمحافظة نابلس، وتحديد الأهمية النسبية لكل كفاية من هذه الكفايات.

ـ وكانت عينة الدراسة عمدية شملت ٦٠ معلما ومعلمة، و٦٠ مديرا ومديرة.
ـ واسفرت النتائج عن امتلاك المعلمين في مجال التخطيط كبيرة، وفي مجال التنفيذ متوسطة وكذلك في مجال التقويم.
ـ قدم الباحث بعد ذلك عددا من التوصيات والمقترحات.

٦ـ مدى امتلاك مدرسي الدبلوم المتوسط في جامعة البلقاء التطبيقية لكفايات التعليمية التي يجب اتقانها. د. محمود العجلوني.

ـ هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على مدى امتلاك مدرسي الدبلوم المتوسط في جامعة البلقاء التطبيقية لكفايات التعليمية التي يجب اتقانها.
ـ ولتحقيق هذا الهدف صمم الباحث استبانة تكونت فقراتها من (٣٧) فقرة.
ـ وكانت عينة بحثه (١٦٠) معلما ومعلمة.
ـ وأسفرت النتائج عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين حملة الدكتوراه والماجستير والبكالوريوس لصالح حملة الدكتوراه.
ـ قدم الباحث بعد ذلك عددا من التوصيات والمقترحات.

٧ـ أولويات الكفايات التدريسية والاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الإعدادية في التعليم العام بدولة قطر من وجهة نظر المعلمين والموجهين. د. أمينة عباس كمال. د. عبد العزيز الحر.

ـ هدف هذا البحث إلى التعرف على أولويات الكفايات التدريسية والاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الإعدادية في التعليم العام بدولة قطر طبقا لأهميتها من وجهة نظر المعلمين والموجهين.
ـ تكونت عينة البحث من (٤٩٣) معلما وموجها من جميع التخصصات.
ـ واستخدم الباحثان استبانة تكونت من تسعة مجالات رئيسية من مجالات الكفايات التدريسية والاحتياجات التدريبية وتم التأكد من صدق وثبات الاستبانة.
ـ وأظهرت النتائج أن لدى العينة إدراكا بأهمية الكفايات التدريسية والاحتياجات التدريبية بغض النظر عن مستوى تأهليهم ونوعه. وأظهرت الحاجة إلى تدريب الفئات على جميع مجالات الكفايات.
ـ قدم الباحث بعد ذلك عددا من التوصيات والمقترحات.

٨ـ الكفايات التعليمية الأدائية الأساسية لدى معلمي المرحلة الأساسية الأولى اللازمة لتدريس التربية الرياضية. محمد خميس حسين أبو غرة.

ـ هدفت الدراسة إلى تحديد الكفايات التعليمية الأدائية الأساسية لدى معلمي المرحلة الأساسية الأولى اللازمة لتدريس التربية الرياضية في هذه المرحلة، والكشف عن مدى توافرها لديهم من وجهة نظرهم ووجهة نظر مديري المدارس.
ـ تكونت عينة الدراسة من (٢٤٣) معلما ومعلمة و(٢٦) مديرا ومديرة.
ـ استخدمت الدراسة استبانة تكونت من ثلاثة مجالات وهي: كفايات التخطيط للدرس، وكفايات تنفيذ التدريس، وكفايات التقويم. وتم التأكد من صدقها وثباتها.

ـ أسفرت النتائج عن: امتلاك العينة للكفايات الأدائية بدرجة كبيرة من وجهة نظرهم، وبدرجة متوسطة من وجهة نظر مدراء المدراس.
ـ قدم الباحث بعد ذلك عددا من التوصيات والمقترحات.

***التعقيب على الدراسات السابقة**

من خلال الاطلاع على الدراسات السابقة يمكن أخذ بعض النقاط فيما يلي:
ـ تناولت الدراسات السابقة تمكن المعلم من الكفايات اللازمة في أداء عمله المهني.
ـ ركزت بعض الدراسات السابقة على كفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه؛ وهو ما تناولـه هذا البحث.
ـ توصلت نتائج كثير من الدراسات إلى تفاوت امتلاك المعلمين للكفايات اللازمة لأداء مهنتهم التعليمية.
ـ أوصت كثير من الدراسات السابقة بتناول هذا الموضوع في بحوث جديدة.
ـ جاء هذا البحث من خلال إحساس الباحث بأهمية الموضوع ـ لاسيما ـ في اليمن؛ لقلة بحثه، أو لعدمه.

***ثانيا: محور الإطار النظري**

سيتناول الإطار النظري مجالات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه على النحو الآتي:

أولا: مجال تخطيط الدرس

***مفهوم تخطيط الدروس**

يقصد بتخطيط الدروس اصطلاحا: عملية تحضير ذهني وكتابي يضعه المعلم قبل الدرس بفترة كافية، ويشتمل على عناصر مختلفة لتحقيق أهداف محددة. (عقيلان: تخطيط وإعداد الدروس.)

إعداد الدرس تصورٌ مسبق لتحقيق التوافق والانسجام بين مكوِّنات النظام في الموقف الصَّفِّي على نحوٍ يؤدي إلى تحقيق تعلُّمٍ مستمر. أو هو عملية تحضيرية منظمة ((ذهنية وكتابية)) تهدف إلى رسم الأسلوب أو طريقة العمل التي تؤدي إلى بلوغ الأهداف المنشودة بفاعلية وكفاءة مع الأخذ بعين الاعتبار العناصر المختلفة للموقف التعليمي من معلم وطالب وإمكانات ومواد تعليمية. (النفيعي. وآخر:. صـ٧.)

***أهمية التخطيط**

إن تخطيط الدرس له أهمية كبيرة في العملية التربوية التعليمية؛ لأنه يعمل على:
ـ تحديد الأهداف التعليمية الخاصة والعامة والتي نرغب في تحقيقها.
ـ إعداد الاستراتيجية التعليمية المناسبة بجميع جوانبها لتحقيق الأهداف المنشودة.
ـ تجهيز الوسائل والمواد التعليمية المناسبة والمتاحة.
ـ اختيار وتصميم أساليب التقويم المناسبة.
ـ تحديد الزمن المناسب وكيفية الاستفادة منه على الوجه الأكمل.
ـ تحديد خبرات الطلاب السابقة ومستوى نموهم العقلي.

ـ تحديد مواطن القوة والضعف في المنهج الدراسي.
ـ يُشعر المعلم بأهمية ما يقوم به من عمل داخل الصف.
ـ يُجنّب المعلم الكثير من المواقف الطارئة والمحرجة، ويساعده على مواجهة المواقف التعليمية بثقة وروح معنوية عالية.
ـ يُبعد المعلم عن الارتجالية والعشوائية، ويحوّل عمل المعلم إلى نسق من الخطوات المنظمة والمترابطة والمصممة؛ لتحقيق أهداف جزئية ضمن إطار أشمل لأهداف التعليم.
ـ يساعد المعلم على النمو المهني والمعرفي بصفة دورية مستمرة، وإلغاء فكرة أن عملية التدريس ما هي إلاّ عملية نقل معلومات من المعلم إلى الطلاب. (النفيعي. وآخر:. صـ٩.)
ويذكر آخر أهمية التخطيط للدرس فيقول:
ـ يجعل عملية التدريس متقنة الأدوار وفق خطوات محددة منظمة، ومترابطة الأجزاء، وخالية من الارتجالية والعشوائية
محققة للأهداف الجزئية.
ـ يجنب المعلم الكثير من المواقف الطارئة المحرجة.
ـ يسهم في نمو خبرات المعلم المعرفية أو المهارية.
ـ يساعد على رسم وتحديد أفضل الإجراءات المناسبة لتنفيذ الدروس وتقويمها.
ـ يعين على الاستفادة من زمن الدرس بالصورة المثلى.
ـ يسهم في التعرف على مفردات المقررات الدراسية، وتحديد جوانب القوة والضعف فيها، وتقديم المقترحات لتحسينها.
ـ يعين المعلم على التعرف على الأهداف العامة والخاصة وكيفية تحقيقها.
ـ يساعد المعلم على اختيار وسيلة التعليم المناسبة وإعدادها.(عقيلان: تخطيط وإعداد الدروس.)
ويمكن أن يستدل على أهمية تخطيط الدروس أيضا بأنه يجعل المعلّم:
١ـ يراجع مادته ويتثبَّت منها، ويعود إلى المراجع اللازمة.
٢ـ يختار المادة لمناسبة لقدرات التلاميذ وميولهم.
٣ـ يرتب المادة ترتيبا منطقيا يسهِّل على الطلاب التعلُّم.
٤ـ يحدد الطرائق المناسبة والوسائل، ويعدَّ العدَّة لذلك.
٥ـ يربط بين أجزاء المادة ببعضها أو بغيرها.
٦ـ يستثمر الوقت والجهد له ولطلابه. (إبراهيم: دون تاريخ. صـ٣٨:٣٩.)

هذه الفوائدُ وغيرُها كثيرةٌ تدل على أهمية تخطيط الدرس. وليس غريبا أن يُسأل أحدُ المربين لماذا تعد دروسك كل يوم قبل أن تقوم بتعليمها؟ فأجاب قائلا: إني أود أن لا يشرب تلامذتي إلا من منبع جديد، وماء عذب، لا من ماء راكد. (عبد الباسط: ٢٠٠٧م.)

***أنواع التخطيط**

يذكر التربويون بأن للتخطيط نوعين هما:

التخطيط بعيد المدى: وهو التخطيط الذي يتم لمدة طويلة كعام دراسي. (عقيلان: تخطيط وإعداد الدروس.)

أو هو التخطيط الذي يتم لمدة طويلة ويشمل التخطيط لعام دراسي كامل أو فصل دراسي. ويتضمن ما يسمي بتوزيع المقرر وأهداف التدريس لكل وحدة دراسية، والزمن اللازم لتدريسها، والمواد والوسائل التعليمية المناسبة وطريقة التقويم والخبرات المطلوبة. ((دليل عمل للمعلم يحدد معالم الطريق الذي سوف يسلكه على مدى العام الدراسي)). (النفيعي. وآخر:. صـ١٢.)

والآخر قصير المدى: وهو التخطيط لفترة قصيرة، كالتخطيط الأسبوعي أو اليومي.(عقيلان: تخطيط وإعداد الدروس.)

أو هو التخطيط الذي يتم لفترة وجيزة ويشمل التخطيط الأسبوعي أو التخطيط اليومي الذي يتم من أجل درس واحد أو درسين ويتصف بالتفصيل وتوضيح الإجراءات التي سيتبعها المعلّم.(النفيعي. وآخر:. صـ١٢.) ومن البديهي القول بأنَّ المعلم لا بد وأن يكون ملما بوضع الخطة طويلة وقصيرة المدى على حد سواء.

***مكونات خطة الدرس**

تشتمل خطة الدرس على عناصر متعددة منها:

١ـ موضوع الدرس، ومن أهم ضوابطه أن يكون:

ـ جزءاً من المقرر المدرسي، وملائماً للزمن المخصص للحصة.

ـ حلقة في سلسلة موضوعات تم تخطيطها بطريقة تتابعية.

٢ـ أهداف الدرس، ومن أهم ضوابطها أن تكون:

ـ مرتبطة بالأهداف العامة للتربية وللمرحلة وللمادة.

ـ اشتمالها على المجالات الرئيسة للأهداف، وهي: (المجال المعرفي المجال الانفعالي المجال النفس حركي).

ـ أن تصاغ عبارات الأهداف صياغة سلوكية صحيحة (أن + فعل إجرائي + الطالب + وصف الخبرة التعليمية المراد إتقانها من قبل الطالب). مثال: أن يُعرب الطالب (أعجبني محمد خلقه) إعراباً تاماً.

٣ـ المدخل للدرس (التمهيد)، ومن أهم ضوابطه.

ـ أن يكون مشوقاً ومتنوعاً، تتضح من خلاله أهداف الدرس بصورة جلية.

ـ أن يربط بين الدرس القائم والسابق.

٤ـ محتوى الدرس (ما سيدرسه المعلم)، ومن ضوابطه:

ـ أن يسهم في تحقيق أهداف الدرس. ـ أن يشمل الموضوع بصورة متوازنة بما يتلاءم مع زمن الحصة.

٥ـ النشاطات، (أساليب المعلم في التدريس، ونشاطات الطالب للتعلم) ومن ضوابطها:

ـ أن تكون متنوعة، فلا تقتصر على طريقة أو أسلوب دون آخر.

ـ أن تتسم الطرق بالناحية الاستقصائية وحل المشكلات.

ـ أن تراعي الفروق الفردية للطلاب، وذات مستويات مختلفة.
ـ أن تكون مرتبطة بموضوع وأهداف الدرس.
٦ـ الوسائل والأدوات التعليمية، ومن ضوابطها:
ـ أن تكون ملائمة لموضوع الدرس، ولمستوى الطلاب.
ـ أن تسهم في تحقيق أهداف الدرس، وتوضيح المحتوى بفاعلية.
ـ أن تكون متنوعة ومبتكرة، وتشجع الطلاب على استخدامها.
٧ـ الكتاب المدرسي والمواد المرجعية، ومن ضوابطها أن يستخدم الكتاب:
ـ لتنمية القدرة على النقاش في حجرة الصف.
ـ لأداء الواجبات الصفية.
ـ في طرق حل المشكلات، كالتوصل لحل سؤال هام.
٨ـ التقويم: ومن أهم ضوابط عملية التقويم:
ـ أن يكون التقويم مرتبطاً بأهداف الدرس.
ـ أن تكون وسائل التقويم متنوعة (شفهي، تحريري، موضوعي، مقالي).
ـ أن يتم التقويم من خلال أسئلة رئيسة.
ـ الواجب المنزلي كجزء من التقويم: وهو تكليف من المعلم للطالب بغرض تثبيت الخبرة في ذهنه، وربطه بالمادة الدراسية لوقت أطول، ومن أهم ضوابطه:
ـ أن يسهم الواجب في تحقيق أهداف الدرس.
ـ أن يكون متنوعاً في موضوعاته واضحاً ومحدداً في أذهان الطلاب.
ـ أن يساعد الطالب على التعلم بفاعلية ويحفزهم على الاطلاع الخارجي. (عقيلان: تخطيط وإعداد الدروس. بتصرف.)

العوامل المؤثرة في الخطة

ويؤثر في خطة الدرس عدد من العوامل أهمها:
ـ محتوى المادة العلمية للدرس وطريقة عرضها في الكتاب المدرسي.
ـ أهداف الدرس المطلوب تحقيقها.
ـ توفر الإمكانيات المناسبة في المدرسة بجميع أنواعها.
ـ خصائص النمو العقلي للطلاب، وطبيعة المنطقة والبيئة المحيطة بالمدرسة.
ـ مستوي الطلاب المعرفي. ـ تعاون الإدارة المدرسية وتفاعلها مع المعلم.
ـ تعاون المشرف التربوي مع المعلم وتزويده بكل ما هو جديد.
ـ اطّلاع المعلم على المراجع العلمية والتربوية و النفسية.
ـ الوقت المخصص لتدريس المادة، ومدى التلاؤم مع كثافة المقرر.
ـ عدد الحصص المكلف بها المعلم.
ـ المسؤوليات الإضافية التي يكلّف بها المعلم.
ـ وقت الحصص لتدريس المادة ((الجدول الدراسي)).
ـ أعداد الطلاب في الفصل الواحد ومساحة الغرف. (النفيعي. وآخر: صـ١٤.)

مواصفات الخطة التدريسية الجيدة

من أهم مواصفات الخطة التدريسية الجيدة:

ـ أن تكون أهدافها واضحة ومحددة وقابلة للتنفيذ، وتتلاءم مع مستوى النمو العقلي والمعرفي للطلاب، ويمكن قياسها وتقويمها.

ـ أن تكون أهدافها متناسبة ومتوافقة مع أهداف سياسة التعليم في البلد.

ـ أن تكون مرنة وقابلة للتعديل، ومتعددة البدائل لمراعاة الظروف الطارئة.

ـ أن تكون مراعية للفروق الفردية بين الطلاب.

ـ تحتوي على الأنشطة الإضافية للطلاب المتفوقين، وأخرى للطلاب ضعيفي التحصيل.

ـ أن تكون متنوعة الأساليب، وتساعد الطلاب التعود على التفكير والإبداع والمساهمة الجادة في العملية التعليمية.

ـ تهتم بالكتاب المدرسي كمصدر رئيسي، وكذلك بالمراجع العلمية والتربوية والنفسية.

ـ تشمل جميع أجزاء المقرر وفق الزمن المحدد والأهمية النسبية للمواضيع.

ـ أن تتسم بالتسلسل المنطقي وترابط الأفكار.

ـ تحدد الخبرات السابقة للطلاب، والمقدمة المناسبة التي تدعو للإثارة والتشويق.

ـ أن تحدد المواد والوسائل التعليمية المناسبة.

ـ أن تحدد طريقة التقويم المناسبة.

ـ تحدد الموقع الذي سيتم فيه التدريس.

ـ تحدد دور المعلم ودور الطالب.

ـ تحدد الزمن الفعلي لكل جزء من الموضوع بشكل تقريبي.

ـ تحتوي على مكان مخصص لرصد ملحوظات التنفيذ. (النفيعي. وآخر:. صـ١٦.)

مراحل إعداد الخطة

ولإعداد خطة الدروس مراحل، وهي:

أـ مرحلة الإعداد الذهني للمادة: وذلك بالاطلاع على موضوع الدرس في الكتاب المقرر، والرجوع إلى المصادر والمراجع؛ لتكوين فكرةٍ متكاملةٍ عن الموضوع وتحديد الأهداف من المادة والموضوع، وترتيب العناصر، ومراعاة الزمن.

ب ـ التفكير في الطرق المناسبة والوسائل المعينة.

ج ـ تدوين الخطة: وهي تتكون من:

١ـ البيانات اللازمة للدرس.

٢ـ الأهداف السلوكية الخاصة بمستوياتها. وسيأتي ذكرها بالتفصيل.

٣ـ ذكر الوسيلة إن وجدت. ٤ـ التمهيد أو المقدِّمة.

٥ـ العرض: ويذكر فيه النصوص، والشواهد، والتلخيص، وتحديد الواجب المنزلي. (الهتاري: ط١. ٢٠١٢م. صـ٣١:٣٢.)

ثانيا: مجال تنفيذ الدرس

لتنفيذ الدرس أهمية بالغة في نجاح العملية التعلمية، وهذا يؤكد أن المعلم لا بد وأن يكتسب عددا من المهارات اللازمة لتنفيذه، ومن أبرزها:

ـ التهيئة للدرس: فحسن استخدام المعلم للتمهيد للدرس، وإثارة الدافعية لدى المتعلم أمر بالغ الأهمية في نجاح العملية التعليمية والتربوية.

ـ القدرة على استخدام الوسائل التعليمية: إذ إن الوسائل التعليمية لها دور كبير في تسهيل عملية التعلم، وفي إطالة مدة التأثير؛ ومن هنا كان على المعلم أن يجيد استخدام عدد من الوسائل التعليمية؛ ليحقق أهداف التعليم.

ـ إشراك الطلاب في المناقشة واستنتاج الأفكار المتعلقة بالدرس:

ـ التركيز على تحقيق الأهداف السلوكية للدرس: إذ قد يقبل المدرس على جزئيات في الدرس، ويهمل الأهداف السلوكية المطلوبة، وهذه مهارة لا يمكن ممارستها إلا بإعطائها اهتماما مناسبا، وعناية خاصة.

وهناك عدة مهارات ينبغي للمعلم الاتصاف بها في تنفيذه للدرس، ومن أهمها:

ـ مراعاة الفروق الفردية للطلاب.

ـ القدرة على صياغة الأسئلة وتوجيهها.

ـ القدرة على ضبط الصف وحسن إدارته.

ـ القدرة على استخدام عدد من طرائق التدريس.

ـ حسن الإلقاء وسلامة التعبير.

ـ حسن استخدام الكتاب المدرسي.

ـ حسن إنهاء الدرس.

هذه المهارات وغيرها مهارات لازمة للمدرس ينبغي أن تراعى في إعداد المعلم؛ حتى يكتسبها، ويتصف بها.

ثالثا: مجال تقويم الدرس

ولأن التقويم مجال مهم من مجالات أدوار المعلم، فإنه يحسن أن نسلط الضوء على هذا العنصر ولو بصورة مختصرة وذلك في النقاط التالية:

١ـ مفهومه: التقويم في اللّغة قوّم الشيء يعني وزنه وقدّره وأعطاه ثمنًا معيّناً، وتعني الكلمة كذلك صوبّه وعدّله ووجّهه نحو الصواب. وفي الاصطلاح: هو تحديد قيمة الأشياء، وهو الحكم على مدى نجاح الأعمال والمشروعات.

أمّا التقويم في التربية الحديثة فيعني العمليّة الّتي تستهدف الوقوف على مدى تحقيق الأهداف التربويّة ومدى فاعليّة البرنامج التربويّ بأكمله من تخطيط وتنفيذ وأساليب ووسائل تعليميّة.

وهذا يعني أن علينا:

ـ تحديد مستوى الطّلاب لدراسة معيّنة .

ـ تحديد الاستعداد أو المعلومات السابقة وتشخيص الضعف أو صعوبات التعلّم.

ـ تقويم فاعليّة التدريس، من خلال:
أ ـ مقارنة النتائج التي حصلت عليها مجموعة من الطلاب بنتائج مجموعة أخرى.
ب ـ نقل الطلاب من مستوى تعليميّ إلى مستوى تعليميّ آخر.
ـ الفرق بين القياس والتقييم والتقويم:
يذكر بعض التربويين فرقا بين القياس والتقويم والتقييم، وخلاصة ذلك أن:
القياس :وصف كمّيّ لظاهرة أو جوانب متعدّدة. ويعبّر عن ذلك عددياً.
أما التقييم : فهو إصدار حكم على قيمة الأشياء أو الأفكار أو الجوانب أو الاستجابات لتقدير مدى كفاية هذه الأشياء ودّقتها وفاعليّتها، على أن يتمّ هذا الحكم في ضوء مستوى أو محكّ أو معيار معيّن. ويتمّ تقييم التلميذ في ضوء المستويات المحدّدة من قبل مثل: ضعيف، مقبول، جيّد، جيّد جدّاً، ممتاز.
أما التقويم : فهو التعديل والإصلاح بعد التشخيص؛ لذا فالتقويم هو الأعمّ والأشمل من بين المصطلحات الثلاثة.

٢ـ أهمية التقويم: للتقويم أهمية كبيرة في العملية التعلمية، ومما يدل على ذلك: أنه هو الذي به سيعرف المرءُ مدى تحقق الأهداف من عدمه، وبه سيحكم على فاعلية الوسائل التعليمية، وطرائق التدريس المستخدمة، وغير ذلك من الفوائد للتقويم.

وقد لخص بعض وظائفه الدمرداش سرحان فذكر بأنه:

١ـ حافز على الدراسة والعمل.
٢ـ وسيلة للتشخيص والعلاج والوقاية.
٣ـ يساعد على وضوح تحقق الأهداف.
٤ـ يساعد المعلم في التعرف على التلاميذ وحسن توجيههم.
٥ـ يؤدي إلى تطوير المناهج وتحديثها.
٦ـ له وظائف إدارية مهمة: كقبول الطلاب، وترقيتهم من صف لآخر.
٧ـ يساعد على توعية الناس بأهمية التربية، والمشاركة في حل مشكلاتها.
٨ـ يساعد في الارتفاع بمستوى مهنة التعليم، وذلك من خلال اختيار العناصر الكفؤة والمحبة للتعليم، والتخلص ممن يسيء إليها. (سرحان: ١٩٨٨م. صـ١١٧:١٢١).

٣ـ أهداف تقويم المعلّم للمتعلّمين:

يُعد تقويم المعلّم لمتعلّميه من أهمّ ميادين التقويم التربويّ إن لم يكن أهمّها جميعاً ويمكن تلخيص الأهداف التي يحاول المعلّم تحقيقها من تقويمه للمتعلّمين في النواحي الآتية :
أ ـ الحكم على قيمة الأهداف التعليميّة التي تتبنّاها المدرسة والتأكّد من مراعاتها لخصائص وطبيعة الفرد المتعلّم ولفلسفة وحاجات المجتمع وطبيعة المادّة الدراسيّة. كما يساعد التقويم على وضوح هذه الأهداف ودقّتها وترتيبها حسب الأولويّة.
ب ـ اكتشاف نواحي الضعف والقوّة وتصحيح المسار الذي تسير فيه العمليّة التعليميّة، وهذا يؤكّد الوظيفة التشخيصيّة العلاجيّة معًا للتقويم التربويّ.
ج ـ مساعدة المعلّم على معرفة تلاميذه فرداً فرداً والوقوف على قدراتهم ومشكلاتهم، وبهذا

يتحقّق مبدأ الفروق الفرديّة.
د ـ إعطاء المتعلّمين قدرًا من التعزيز والإثابة بقصد زيادة الدافعيّة لديهم لمزيد من التعلّم والاكتشاف.
ه ـ مساعدة المعلّمين على إدراك مدى فاعليّتهم في التدريس وفي مساعدة المتعلّمين على تحقيق أهدافهم. وهذا التقويم الذاتيّ من شأنه أن يدفع بالمعلّم إلى تطوير أساليبه وتحسين طرقه وبالتالي رفع مستوى أدائه.

٤ـ معايير التقويم الناجح:

يجب أن تتوفّر في عمليّات التقويم ليكون ناجحاً ومحققاً للغرض منه، جملة أمور :
ـ الصدق :والمقصود به هو أنّ الأداة تقيس ما صمّمت له، فإذا صمّمنا اختباراً يقوّم قدرة المتعلّم في القراءة فيجب أن يقيس فعلًا قدرة المتعلّم على المهارات القرائية.
ـ الثبات :والمقصود به أنّه إذا ما أعيد إعطاء الاختبار لمجموعة متكافئة من المتعلّمين فإنّه يعطي نفس النتائج تقريبا.
ـ الموضوعيّة :وتعني عدم تأثّر نتائج الاختبار بالعوامل الشخصيّة للمقوّم واحتكامه إلى معايير واضحة ومحدّدة في تحليل وتفسير نتائج الاختبار وأداء التقويم.

٥ـ مستويات التقويم:

يمكن تصنيف تقويم أداء المتعلّمين تبعاً للمستويات التالية:
التقويم المبدئيّ التصنيفيّ وهو تحديد أداء المتعلّم في بداية التدريس ويكون قبل التدريس للوحدة الدراسيّة، ويهدف إلى معرفة مستوى المتعلّمين من معلومات ومهارات واتّجاهات وقيم. وأدواته :الاختبارات، الملاحظات، التقارير الذاتيّة.
التقويم البنائيّ. وهو متابعة تقدّم تعلّم المتعلّمين أثناء الدرس، ويهدف إلى تقديم المعالجة والإصلاح المبكر، وإمداد المعلّم بالمعلومات حول فاعليّة الطرق والأنشطة والوسائل المستخدمة. وأدواته :الأسئلة الصفّيّة أثناء عمليّة التدريس، الاختبارات القصيرة، الأسئلة، الملاحظات، المناقشات الجماعيّة.
التقويم التشخيصيّ :وهو تشخيص صعوبات التعلّم أثناء التدريس والّتي أظهرها التقويم البنائيّ السابق، ثم تشخيص المشكلات الجسديّة من سمعيّة وبصريّة وعقليّة، أو الاجتماعيّة مثل الانطواء، أو الانفعاليّة مثل الأمزجة. وأدواته: الملاحظات المباشرة وغير المباشرة، الاختبارات التشخيصيّة لهذا الغرض.
التقويم النهائيّ :وهو غالباً ما يتمّ في نهاية التدريس أو الفصل الدراسيّ أو العام الدراسيّ لتحديد إلى أيّ حدّ تمّ تحقيق الأهداف التعليميّة المحدّدة، من خلال عمليّة القياس أو الملاحظات، وبالتالي تصنيف مستويات المتعلّمين النهائيّة وكذلك الحكم على فاعليّة عمليّة التدريس. وأدواته :الملاحظات، اختبارات المعلّمين، مقاييس وقوائم التقدير للأداء العمليّ، الاختبارات الشفويّة، الأبحاث، التقارير.

إجراءات البحث:

تمت إجراءات البحث وفق الخطوات الآتية:

أولا: تحديد مجتمع البحث وعينته

تكون مجتمع البحث من طلاب كليات التربية بجامعة الحديدة قسم علوم القرآن، واللغة العربية والإنجليزية، وعينته طلاب المستوى الرابع من الأقسام المذكورة بكليتي التربية بالحديدة، وكلية التربية والعلوم التطبيقية بريمة. وكانت العينة على النحو الآتي:

ـ كلية التربية والعلوم التطبيقية بريمة: قسم علوم القرآن (٢٢) طالبا. قسم اللغة العربية (٢٥) طالبا. قسم اللغة الإنجليزية (٣٠) طالبا.

ـ كلية التربية بالحديدة: : قسم علوم القرآن (٢٥) طالبا. قسم اللغة العربية (٢١) طالبا قسم اللغة الإنجليزية(٩١) طالبا.

ثانيا: أداة البحث:

فضل الباحث استخدام أداة الاستبانة؛ لما لها من مزايا عديدة، وقد ضمَّت الاستبانة تساؤلات البحث التي سبق ذكرها في مقدمة البحث. اشتملت الاستبانة على تساؤلات عدَّة لتحقيق الوصول إلى الإجابة عن أسئلة البحث، حوت الكفايات اللازمة للطالب المعلم بكليات التربية بالحديدة المتمثلة في المجالات التالية:

١ـ كفاية تخطيط الدرس. ٢ـ كفاية تنفيذ الدرس. ٣ـ كفاية تقويم الدرس.

وإعداد أداة البحث مرَّ بمراحل وهي:

١ـ التهيئة للإعداد. ٢ـ مرحلة الإعداد الأوَّلي للأداة: وفي هذه المرحلة قام الباحث بعدد من الخطوات ومن أبرزها:

أ ـ تحديد مجالات الأداة المختصة بهذا البحث.

ب ـ صياغة الفقرات الخاصة بكل مجال، توزعت في صورتها الأولية على النحو المذكور في : (ملحق رقم (١) الاستبانة في صورتها الأولية)

ج ـ اقتراح بدائل الإجابة: اختار الباحث أنموذج (دائما، غالبا، نادرا، لا شيء) .

٣ ـ مرحلة اختبار صدق الأداة: قام الباحث بتوزيع عدد من الأداة بصورتها الأولية على عدد من أعضاء هيئة التدريس واستفاد من آرائهم في:

ـ صحة كل عبارة من حيثُ التركيب اللُّغوي وسلامة الصياغة.

ـ مدى انتماء كل فقرة إلى المجال الذي وُضعت فيه.

ـ إبداء ما يراه المحكَّم من إضافة فقرات، أو حذفٍ لفقرات موجودة، أو ما يراه مناسبا في صياغة الاستبانة وإخراجها بالصورة المناسبة.

٤ـ تصميم الأداة بصورتها النهائية: وبعد اطِّلاع الباحث على آراء وملاحظات المحكَّمين، قام الباحث بتعديل الاستبانة وفقا لتلك الآراء، وتمَّت التعديلات على النحو الآتي:

ـ إضافة بعض المعايير الجديدة التي ذكرها بعض المحكمين.

ـ تفصيل بعض المعايير.

وبعد إجراء هذه التعديلات أصبحت الأداة كما هي في (ملحق رقم (٢) الاستبانة في صورتها النهائية)

٥ـ ثبات الأداة: للتأكد من ثبات الأداة فقد قام الباحث بتوزيع عدد من الاستبانة على مجموعة استطلاعية من خارج عينة الدراسة، ثم استُخدم معادلة ألفا كرو نباخ؛ للتبيُّن من ثباتها، ومن خلال النتائج للمجموعة الاستطلاعية وضُح ثبات الأداة؛ حيث كانت النتيجة للأداة بمجملها (٠,٧٤٤) وهي نسبة تُظهر ثبات الأداة، تم بعد ذلك إنزالها إلى عينة البحث.

ثالثا: المعالجات الإحصائية:

استخدم الباحث ضمن البرنامج الإحصائي (spss) أساليب إحصائية متعددة بحسب الحاجة لذلك.

رابعا: تحليل البيانات ومناقشتها: سوف يتم عرض نتائج الاستبانة في جداول لكفايات تخطيط الدروس، وتنفيذها، وتقويمها، ونناقشها على النحو الآتي:

١ـ مجال كفاية تخطيط الدرس:

جدول رقم (١) يوضح مدى ممارسة الطالب المعلم بكليات التربية لكفايات تخطيط الدرس

م	معايير المجال الأول	رقمه بالاستمارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية
1	بيانات الحصة الأساسية.	1	2.65	0.74	66
2	تمهيد مفيد للدرس.	5	2.59	0.77	65
3	أهداف سلوكية معرفية.	2	2.57	0.76	64
4	خلاصة مفيدة للدرس.	10	2.31	0.88	58
5	أهداف سلوكية مهارية.	4	2.29	0.89	57
6	خطة زمنية لمراحل الدرس.	12	2.28	0.87	57
7	تقويم مناسب يقيس تحقق الأهداف.	11	2.26	0.94	57
8	طرائق تدريس متنوعة.	7	2.22	0.85	56
9	عرض معارف كافية لتحقيق الأهداف.	6	2.2	2.27	55
10	أنشطة وتطبيقات مفيدة للدرس.	9	2.12	1.00	53
11	أهداف سلوكية وجدانية.	3	2.10	0.93	53
12	وسائل تعليمية تحقق أهداف الدرس.	8	2.01	0.93	50
13	مصادر ومراجع مادة الدرس.	13	1.81	1.02	45
	المتوسط العام للمتوسط الحسابي		**2.26**		**0.57**

يظهر من الجدول السابق أن فقرة (بيانات الحصة الأساسية) قد احتلت المرتبة الأولى، وأن فقرة (ذكر المصادر والمراجع) قد جاءت في المرتبة الأخيرة، وبالنظر إلى نسبة ممارسة الطلاب المعلمين عينة البحث لكفايات تخطيط الدرس ندرك أن ممارساتهم لهذه المهارات متدن جدا، وهذا يعني أن اكتسابهم لهذه المهارات خلال إعدادهم في كليات التربية لم يكن بالقدر المطلوب؛ إذ جاءت النسبة العامة (٥٧%) كما هو موضح بالجدول (١). وبهذا نكون قد أجبنا عن السؤال الأول من أسئلة البحث، وهو ـ ما مدى امتلاك الطالب المعلّم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس؟.

٢ـ مجال كفاية تنفيذ الدرس:

جدول رقم (٢) يوضح مدى ممارسة الطالب المعلم بكليات التربية لكفايات تنفيذ الدرس

م	معايير المجال الثاني	رقمه بالاستمارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية
1	معاملة الطلاب معاملة حسنة.	22	2.65	0.75	66
2	إدارة الفصل بحزم.	23	2.63	0.63	66
3	إثارة انتباه الطلاب واهتمامهم بموضوع الدرس.	14	2.61	0.73	65
4	السير في الدرس وفق خطوات متسلسلة يحقق أهداف التعلم.	16	2.49	0.72	.62
5	استخدام الأسئلة وتنويعها.	20	2.41	0.82	60
6	المحافظة على تسلسل المادة وترابطها.	17	2.37	0.86	59
7	استثمار السبورة بشكل فعال.	18	2.35	0.79	59
8	ربط الدرس الجديد بما قبله.	15	2.32	0.77	58
9	تقديم ملخص للدرس.	24	2.23	0.89	56
10	السير في الدرس وفق خطوات متسلسلة يحقق أهداف التعلم.	19	2.12	0.75	53
11	التركيز على الجوانب العملية في الدرس.	25	2.05	0.76	51
12	إرشاد الطلاب إلى المصادر والمراجع للدرس.	26	1.58	1.09	40
13	استخدام المواد والأجهزة التعليمية.	21	1.4	0.89	35
	المتوسط العام للمتوسط الحسابي		**2.25**		**0.56**

يظهر من الجدول السابق أن فقرة (معاملة الطلاب معاملة حسنة) قد احتلت المرتبة الأولى، وأن فقرة (استخدام المواد والأجهزة التعليمية) قد جاءت في المرتبة الأخيرة،

وبالنظر إلى نسبة ممارسة الطلاب المعلمين عينة البحث لكفايات تنفيذ الدرس ندرك أن ممارساتهم لهذه المهارات متدن جدا، وهذا يعني أن اكتسابهم لهذه المهارات خلال إعدادهم في كليات التربية لم يكن بالقدر المطلوب؛ إذ جاءت النسبة العامة (٥٦%) كما هو موضح بالجدول (٢).

وبهذا نكون قد أجبنا عن السؤال الثاني من أسئلة البحث، وهو ـ ما مدى امتلاك الطالب المعلّم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تنفيذ الدرس؟.

٣ـ مجال كفاية تقويم الدرس:

جدول رقم (٣) يوضح مدى ممارسة الطالب المعلم بكليات التربية لكفايات تقويم الدرس

م	معايير المجال الثالث	رقمه بالاستمارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النسبة المئوية	
1	اختبارات مقالية وموضوعية	29	2.26	0.92	0.57	
2	استخدم لتقويم الدرس: ـ الأسئلة الشفوية. ـ أسئلة مقالية قصيرة يجاب عنها تحريريا. ـ أسئلة موضوعية يجاب عنها تحريريا.	30	2.21	1.00	0.55	
3	الاختبارات الشفوية عند الحاجة إليها.	28	2.12	0.84	0.53	
4	التكاليف المنزلية.	31	2.07	1.06	0.52	
5	أساليب التقويم القبلي والتكويني والبعدي.	27	1.87	1.01	0.47	
	المتوسط العام للمتوسط الحسابي		**2.11**		**0.53**	

يظهر من الجدول السابق أن فقرة (اختبارات مقالية وموضوعية) قد احتلت المرتبة الأولى، وأن فقرة (أساليب التقويم القبلي والتكويني والبعدي) قد جاءت في المرتبة الأخيرة، وبالنظر إلى نسبة ممارسة الطلاب المعلمين عينة البحث لكفايات تقويم الدرس ندرك أن ممارساتهم لهذه المهارات متدن جدا، وهذا يعني أن اكتسابهم لهذه المهارات خلال إعدادهم في كليات التربية لم يكن بالقدر المطلوب؛ إذ جاءت النسبة العامة للمجال (٥٣%) كما هو موضح بالجدول (٣). وإذا نظرنا إلى النسبة العامة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه فقد بلغت النسبة العامة (٥٥%).

وبهذا نكون قد أجبنا عن السؤال الثالث من أسئلة البحث، وهو ـ ما مدى امتلاك الطالب المعلّم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تقويم الدرس؟. ونكون قد حققنا الهدف الأول

من أهداف البحث وهو معرفة: مدى امتلاك الطالب المعلم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه.
وللإجابة عن السؤال الرابع الذي ينص على ـ هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية تعزى لمتغير الكلية؟. فقد استخدم الباحث الاختبار التالي:
جدول رقم (٤) نتائج اختبار (ت) لقياس الفروق بين المتوسطات الحسابية لمدى امتلاك الطالب المعلم للكفايات التدريسية في كليات التربية بجامعة الحديدة تعزى لمتغير الكلية

وبالنظر إلى الجدول السابق ندرك أنه لا يوجد فروق ذات دلالة إحصائية لمتغير الكلية إلا في مجال تخطيط الدرس لصالح الطلبة في كلية التربية والعلوم التطبيقية بريمة، ولعل هذا يعود إلى أن بعض طلابها يمارسون مهنة التدريس في الميدان. وبهذا نكون قد أجبنا عن السؤال الرابع الذي ينص على : هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية تعزى لمتغير الكلية؟. وحققنا الهدف الثالث وهو ـ معرفة إذا ما كان هناك من فرق يعزى للتخصص، أو للكلية.

٤ـ نتائج البحث

أظهرت نتائج البحث أن كفايات الطالب المعلم بكليات التربية ـ جامعة الحديدة ـ متدنية جدا، كما اتضح في الجداول السابقة، وكان الباحث يرى أن تكون النسبة الأدنى لامتلاك الطالب المعلم لمهارات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه (٨٠%) وذلك لأن هذه المهارات هي صلب عمل الطالب المعلم في المستقبل.

ولقد كان من أهدف البحث: معرفة مدى امتلاك الطالب المعلم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه. وكانت أسئلته تنص على هذا، وجاءت النتيجة تعطي نسبا معينة لكل مجال من مجالات كفايات الطالب المعلم في تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه، كما هو موضح في الجداول رقم (٣،٢،١) فمجال تخطيط الدرس حصل على (٥٧%). ومجال تنفيذ الدرس حصل على (٥٦%). ومجال تقويم الدرس على (٥٣%). وإذا نظرنا إلى النسبة العامة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه فقد بلغت النسبة العامة (٥٥%).
وهذه نسب تعطي مؤشرا سلبيا على مستقبل أداء الطالب المعلم في مهنته.

ولعل هذا التدني ناتج عن جملة من الأسباب أهمها:

ـ ضعف الاهتمام بها من قبل أعضاء التدريس عند تدريسهم لمادة طرائق التدريس.
ـ قلة تدريب الطلاب على هذه الكفايات أثناء أدائهم لمقرري التربية العملية (١) و(٢).
ـ إسناد الإشراف على التربية العملية إلى غير المتخصصين تربويا.
ـ ضعف إبراز هذه الكفايات بمختلف الوسائل المؤدية إلى جعلها من المعلومات بالضرورة تربويا.

المجال	الكلية	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (ت)	درجة الحرية	مستوى الدلالة	ملاحظات
تخطيط الدرس	التربية – الحديدة	137	28.496	6.231	2.932	203	.004	**دالة**
	التربية – ريمة	68	31.294	6.824				
تنفيذ الدرس	التربية - الحديدة	137	28.788	5.294	-1.665	203	.097	**غير دالة**
	التربية – ريمة	68	30.014	4.223				
تقويم الدرس	التربية - الحديدة	137	10.445	2.572	-.571	203	.568	**غير دالة**
	التربية – ريمة	68	10.662	2.519				

٥ـ التوصيات والمقترحات

وإن كان للباحث أن يوصي ببعض الوصايا، ويقترح بعض المقترحات، فإن أهمها:

ـ الاعتناء بإكساب الطالب المعلم مهارات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه؛ إذ أشارت نتائج البحث إلى التدني الكبير في اكتساب هذه المهارات.

ـ الاعتناء بالتربية العملية بشقيها داخل الكليات، أوفي التطبيق العملي في المدارس.

ـ إسناد الإشراف على الطلبة في التربية العملية إلى متخصصين في مجال التربية.

ـ نشر هذه الكفايات في كليات التربية ووضعها في وسائل توضيحية؛ حتى تكون معلومة عند جميع الطلاب.

ـ إعطاء هذه الكفايات قدرها من الاهتمام من أعضاء هيئة التدريس وعمادات الكليات.

ـ إيلاء كليات التربية لهذا الأمر الاهتمام المناسب الذي من شأنه أن يغير من هذه النتيجة إلى المستوى المناسب.

ـ إعطاء أولوية من قيادة الجامعة لكليات التربية ـ لاسيما برنامج التربية العملية ـ ورعايتها ماديا ومعنويا.

ـ إعداد بحوث مماثلة في هذا الموضوع، ولكن باستخدام أدوات في البحث جديدة.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة بالمصادر والمراجع

إبراهيم محمد كرم. ما مدى اتقان معلم المواد الاجتماعية بمدارس التعليم العام بدولة الكويت للكفايات التدريسية؟ دراسة استطلاعية لآراء الموجهين والمدرسين الأوائل. مجلة العلوم التربوية والنفسية، مجلة علمية متخصصة محكمة فصلية تعنى بنشر الأبحاث والدراسات التربوية والنفسية، المجلد الثالث، العدد الرابع، ص١١٦، شوال ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م، تصدر عن كلية التربية جامعة البحرين.

- إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار: المعجم الوسيط.

- أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير.

- أحمد حسين اللقاني، وعلي أحمد الجمل: معجم المصطلحات التربوية المعرّفة في المناهج وطرق التدريس. عالم الكتب. ط٣. ٢٠٠٣م.

- الدمرداش عبد المجيد سرحان: المناهج المعاصرة. دار النهضة العربية. ١٩٨٨م. صـ١١٧:١٢١.

- أمينة عباس كمال. د. عبد العزيز الحر - أولويات الكفايات التدريسية والاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الإعدادية في التعليم العام بدولة قطر من وجهة نظر المعلمين والموجهين. مجلة كلية التربية/ جامعة الإمارات العربية المتحدة. السنة الثامنة عشر. العدد(٢٠) ٢٠٠٣م.

- توفيق أحمد مرعي ومحمد محمود الحيلة: طرائق التدريس العامة. دار المسيرة. عمان الأردن. ط٣. ٢٠٠٧م.

- جابر عبد الحميد جابر وآخرين: مهارات التدريس. دار النهضة العربية - القاهرة. ط١. ١٩٨٥م.

- حاتم جاسم عزيز: تقويم أداء أعضاء هيئة التدريس في الجامعة من وجهة نظر الطلبة دارسة ميدانية في جامعة ديالي.

كلية التربية الأساسية، جامعة ديالي. مجلة الفتح، العدد ٥٠، ٢٠١٢م.

- حسن بن أحمد فرح عقيلان: تخطيط وإعداد الدروس.

- حسن شحاتة وزينب النجار: معجم المصطلحات التربوية والنفسية. الدار المصرية اللبنانية. ط١.٢٠٠٣م.

- حسين محمد احمد عبد الباسط: محاضرات في طرق تدريس الدراسات الاجتماعية. ٢٠٠٧م.

- رشدي أحمد طعيمة: المعلم كفاياته، إعداده، تدريبه. القاهرة. دار الفكر العربي. ط١. ١٩٩٩م.

- سامح محافظة. معلم المستقبل: خصائصه مهاراته، كفاياته. بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الثاني ٢٠٠٩م

- سعيد نافع: خصائص المعلم الناجح. موضوعات تربوية لطلاب الجامعة الملزمين بالتدريس بعد التخرج. جامعة صنعاء. كلية التربية. ١٩٨٨م.

ـ عامر بن عبدالله الشهراني. مجلة المعرفة. العدد(٢١١). ذو القعدة ١٤٣٣ه. صـ٥٥.
ـ عبد العليم إبراهيم: الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية. دار المعارف. ط١٣. دون تاريخ.
ـ عبده علي محمد الهتاري: طرائق تدريس القرآن الكريم وعلومه ومواد التربية الإسلامية وفنون اللغة العربية. ط١. ٢٠١٢م.
ـ عماد صالح عبد الحق. الكفايات التعليمية الأساسية لدى معلمي ومعلمات التربية الرياضية للمرحلة الأساسية الأولى بمحافظة نابلس. مجلة العلوم التربوية، المجلد الخامس، العدد الرابع، ذو القعدة، ١٤٢٥هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٤م.
ـ ماجد زكي الجلاد. . معاذ خلف العمري ـ درجة اكتساب طلبة دبلوم أساليب تدريس التربية الإسلامية لكفايات التعليمية الخاصة بفروع التربية الإسلامية. مجلة العلوم التربوية والنفسية، مجلة علمية متخصصة محكمة فصلية تعنى بنشر الأبحاث والدراسات التربوية والنفسية، المجلد السادس، العدد الثالث، شعبان ١٤٢٦هـ ـ سبتمبر ٢٠٠٥م، تصدر عن كلية التربية جامعة البحرين.
ـ محمد إبراهيم الغزيوات: تقويم الكفايات التدريسية لدى الهيئة التدريسية في كلية العلوم التربوية بجامعة مؤته من وجهة نظر طلبة الدارسات الاجتماعية. كلية التربية، جامعة الإمارات العربية المتحدة. مجلة كلية التربية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، السنة العشرون، العدد ٢٢، ٢٠٠٥م.
محمد خميس حسين أبو غرة. الكفايات التعليمية الأدائية الأساسية لدى معلمي المرحلة الأساسية الأولى اللازمة لتدريس التربية الرياضية. مجلة جامعة النجاح للأبحاث العلوم الإنسانية، المجلد ١٧، (٢) ٢٠٠٣م.
ـ محمد بن عامر النفيعي. وآخر: الإدارة العامة للتربية والتعليم بمحافظة الطائف.
ـ محمد بن عبد الله المنيع: مستوى الطلبة في مدارس مشروع "تطوير" أقل من مستوى الطلبة في بعض المدارس الأخرى. المعرفة ـ مرجع سابق. العدد(١٧٥) أكتوبر ٢٠٠٩م.
ـ محمد محمود الخوالدة وآخرين: طرق التدريس العامة. ط١. ٢٠٠٠م.
ـ محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط. باب النون فصل الذال.
ـ محمود العجلوني. مدى امتلاك مدرسي الدبلوم المتوسط في جامعة البلقاء التطبيقية لكفايات التعليمية التي يجب اتقانها.
المجلد السادس، العدد الرابع، ذو القعدة ١٤٢٦هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٥م.
ـ من المعلم الناجح؟. مجلة المعرفة. العدد(٢١١). ذو القعدة ١٤٣٣ه. صـ٤١.
ـ نشوان يعقوب، وعبد الرحمن الشعوان: نقلا عن د/عبد الله قاسم عبد الله: الكفايات التدريسية للمعلمين في المدارس الثانوية في مدينة عدن من وجهة نظر المعلمين أنفسهم. بحث منشور في مجلة البحوث والدراسات التربوية. اليمن. العدد(٢٢) السنة ١٣. صـ١٧٩.
ـ يحي هندام وآخر: المناهج: أسسها، تخطيطها، تقويمها. مرجع سابق.

الملاحق
ملحق رقم (١) الاستبانة في صورتها الأولية
بســـــم الله الرحمن الرحيم

الأخ الكريم الدكتور/ **المحترم**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعـــد: الموضوع: استبانة عن: **(مدى اكتساب الطالب المعلم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه)**

بخصوص الموضوع أعلاه، يقدم الباحث إليكم استبانة تتضمن (١٠) كفايات لتخطيط لدرس، و(٩) كفايات لتنفيذه و(٤) كفايات لتقويمه. مع العلم أن خيارات الإجابة ستكون (دائما، غالبا، نادرا، لا شيء)

والمطلوب منكم الاطلاع على الاستبانة، وإبداء رأيكم فيها من حيث مناسبة المعيار للمجال، وحسن الصياغة وإضافة ما ترونه مناسبا، وحذف ما ترون حذفه. مع العلم أن رأيكم سيكون له أكبر الأثر في إعداد هذه الاستبانة.

شاكرا لكم حسن تعاونكم في إنجاح البحوث التربوية التي تستهدف النهوض ببرامجنا التعليمية والتربوية.

وتقبلوا خالص التحية والتقدير.

الباحث: د/عبده علي محمد الهتاري

أولا: مجال تخطيط الدرس

م	العبارة: يتضمن تخطيطي للدرس على:	دائما	غالبا	نادرا	لا شيء	ملحوظات
١	بيانات الحصة الأساسية.					
٢	أهداف سلوكية معرفية ووجدانية ومهارية.					
٣	تمهيد مفيد للدرس.					
٤	عرض معارف كافية لتحقيق الأهداف.					
٥	طرائق تدريس متنوعة.					
٦	وسائل تعليمية تحقق أهداف الدرس.					
٧	أنشطة وتطبيقات مفيدة للدرس.					
٨	خلاصة مفيدة للدرس.					
٩	تقويم مناسب يقيس تحقق الأهداف.					
١٠	خطة زمنية لمراحل الدرس.					

ثانيا: مجال تنفيذ الدرس

م	العبارة: يتضمن تنفيذي للدرس على:	دائما	غالبا	نادرا	لا شيء	ملحوظات
١١	إثارة انتباه الطلاب واهتمامهم بموضوع الدرس.					
١٢	ربط الدرس الجديد بما قبله.					
١٣	المحافظة على تسلسل المادة وترابطها.					
١٤	استثمار السبورة بشكل فعال.					
١٥	استخدام الوسائل والطرائق الملائمة لموضوع الدرس.					
١٦	استخدام المواد والأجهزة التعليمية.					
١٧	معاملة الطلاب معاملة حسنة.					
١٨	إدارة الفصل بحزم.					
١٩	إرشاد الطلاب إلى المصادر والمراجع للدرس.					

ثالثا: مجال تقويم الدرس

م	العبارة: يتضمن تقويمي للدرس على:	دائما	غالبا	نادرا	لا شيء	ملحوظات
٢٠	أساليب التقويم القبلي والتكويني والبعدي.					
٢١	الاختبارات الشفوية عند الحاجة إليها.					
٢٢	استخدم لتقويم الدرس أسئلة متنوعة.					
٢٣	التكاليف المنزلية.					

ملحق رقم (٢) الاستبانة في صورتها النهائية

بســـم الله الرحمن الرحيم

أخي الطالب أختي الطالبة/ المحترمون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعــد: الموضوع: استبانة عن: **(مدى اكتساب الطالب المعلم في كليات التربية بجامعة الحديدة لكفايات تخطيط الدرس وتنفيذه وتقويمه)**

بخصوص الموضوع أعلاه، يقدم الباحث إليكم استبانة تتضمن (١٣) كفاية لتخطيط الدرس، و(١٣) كفاية لتنفيذه و(٥) كفايات لتقويمه.

والمطلوب منكم الاطلاع على الاستبانة، والإجابة عنها بوضع(Y) في أحد خيارات الإجابة أمام كل معيار في كل مجال، مع العلم أن إجابتكم سيكون لها أكبر الأثر في نتائج هذا البحث.

وتكرموا بذكر: اسمكم الكريم أوالنوع.....الكلية.....القسم.....

شاكرا لكم حسن تعاونكم في إنجاح البحوث التربوية التي تستهدف النهوض ببرامجنا التعليمية والتربوية. وتقبلوا خالص التحية والتقدير.

الباحث: د/عبده علي محمد الهتاري

أولا: مجال تخطيط الدرس

م	العبارة: يتضمن تخطيطي للدرس على:	دائما	غالبا	نادرا	لا شيء	ملحوظات
١	بيانات الحصة الأساسية.					
٢	أهداف سلوكية معرفية.					
٣	أهداف سلوكية وجدانية.					
٤	أهداف سلوكية مهارية.					
٥	تمهيد مفيد للدرس.					
٦	عرض معارف كافية لتحقيق الأهداف.					
٧	طرائق تدريس متنوعة.					
٨	وسائل تعليمية تحقق أهداف الدرس.					
٩	أنشطة وتطبيقات مفيدة للدرس.					
١٠	خلاصة مفيدة للدرس.					
١١	تقويم مناسب يقيس تحقق الأهداف.					
١٢	خطة زمنية لمراحل الدرس.					
١٣	مصادر ومراجع مادة الدرس.					

ثانيا: مجال تنفيذ الدرس

م	العبارة: يتضمن تنفيذي للدرس على:	دائما	غالبا	نادرا	لا شيء	ملحوظات
١٤	إثارة انتباه الطلاب واهتمامهم بموضوع الدرس.					
١٥	ربط الدرس الجديد بما قبله.					
١٦	السير في الدرس وفق خطوات متسلسلة يحقق أهداف التعلم.					
١٧	المحافظة على تسلسل المادة وترابطها.					
١٨	استثمار السبورة بشكل فعال.					
١٩	استخدام الوسائل والطرائق الملائمة لموضوع الدرس.					
٢٠	استخدام الأسئلة وتنويعها.					
٢١	استخدام المواد والأجهزة التعليمية.					
٢٢	معاملة الطلاب معاملة حسنة.					
٢٣	إدارة الفصل بحزم.					
٢٤	تقديم ملخص للدرس.					
25	التركيز على الجوانب العملية في الدرس.					
٢٦	إرشاد الطلاب إلى المصادر والمراجع للدرس.					

ثالثا: مجال تقويم الدرس

م	العبارة: يتضمن تقويمي للدرس على:	دائما	غالبا	نادرا	لا شيء	ملحوظات
٢٧	أساليب التقويم القبلي والتكويني والبعدي.					
٢٨	الاختبارات الشفوية عند الحاجة إليها.					
٢٩	اختبارات مقالية وموضوعية					
٣٠	استخدم لتقويم الدرس: ـ الأسئلة الشفوية. ـ أسئلة مقالية قصيرة يجاب عنها تحريريا. ـ أسئلة موضوعية يجاب عنها تحريريا.					
٣١	التكاليف المنزلية.					

براعة الاستهلال في القرآن الكريم

د. علي مناور ردة الجهني

مقدمة :

الحمد لله الذي جعل معجزات هذه الأمة عقلية ؛ لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم، وفضلهم على من تقدمهم، إذ معجزاتهم حسية لبلادتهم، وقلة بصيرتهم، نحمده سبحانه على قوله لرسوله: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)[1] ، وخصه بالإعانة على التبليغ فلم يقدر أحد منهم، على معارضته بعد تحديهم، وكانوا أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء، وأمهلهم طول السنين فعجزوا. وقالوا: (لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم)[2] . فأخبر تعالى أن الكتاب آية من آياته قائم مقام معجزات غيره من الأنبياء لفنائها بفنائهم. وكانوا أحرص الناس على إطفاء نوره، وإخفاء، أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها تقوية لحججهم، بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: ساحر، وتارة قالوا: أساطير الأولين.

كل ذلك من تحيرهم، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم، وحرمهم، واستباحة أموالهم، فنصب لهم الحرب ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بأن ياتوا بسورة واحدة وآيات يسيرة، إذ هي أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل نفوسهم وخروجهم من أوطانهم، مع أنهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من حال الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا.

فقال لهم: هاتوها مفتريات لتبكيتهم، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولا طبع منه أو تكلفه، ولو تكلفة لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيره ويحميه، نصرة لدينهم، بل أظهر الله دينه، وخرق العادة في أسلوب كلامه وبلاغته وحلاوته، حتى التذوا بسماعه ألذ من أهل اللهو في لهوهم، وأبقى ذلك فيه إلى صفحات الدهر ليراها ذوو البصائر، كما قال - صلى الله عليه وسلم -: " ما من الأنبياء نبيء إلا أعطي من الآيات، ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ". فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم الذي أدى الأمانة، ونصح أمته إلى رشدهم وهدايتهم، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ورضي الله تعالى عن أصحابه وأتباعه الذين نصروه بأنفسهم وأموالهم.[3]

مما تميز به الأسلوب القرآني ما يسمى (براعة الاستهلال)، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتلكم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله ، والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن! فإنها مشتملة على جميع مقاصده، لأنه افتتح بها فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن.ولعل هذا النوع من أساليب القرآن الكريم لم يجد من عناية المؤلفين ما

---

[1] النحل ٤٤

[2] العنكبوت (٥٠،٥١)

[3] من مقدمة السيوطي في كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن (١ / ٣)

يبرزه وإن كانت هناك بعض الجهود من العلماء إلا أنها لا تف بالمقصود فحاولت من خلال هذا البحث أن أبرز هذا الجانب وأذكر جملة من الأمثلة التي توضحه وعلى الله قصد السبيل وعليه التكلان.

وقد افتقرت الدراسة على سورة الفاتحة وما يليها من السور حتى سورة هود. وذلك بسبب أن البحث في جميع سور القرآن سيؤدي إلى تطويل البحث.

التعريفات

أولا : البراعة لغة ، من برع: برع يبرع برعا، وهو يتبرع من قبل نفسه بالعطاء، إذا لم يطلب عوضا. قالت الخنساء :

جلد جميل أريب بارع ورع ... مأوى الأرامل والأيتام والجار[٤].

وقال الأزدي في جمهرة اللغة : برع الرجل براعة إذا تم في جمال أو علم فهو بارع والمرأة بارعة والاسم البراعة. ويقال: هذا أبرع من هذا أي أتم وأحسن وكل شيء تناهى في جمال ونضارة وغيرها من محاسن الأمور فقد برع[٥].

وقال ابن سيده : برع يبرع بروعا وبراعة، وبرع فهو بارع: تم في كل فضيلة وجمال. وقد توصف به المرأة.

وتبرع بالعطاء: أعطى من غير سؤال. وسعد البارع: نجم من المنازل[٦].

ثانياً : الاستهلال لغة:

(هـ ل ل) : (أهلوا الهلال واستهلوه) رفعوا أصواتهم عند رؤيته ثم قيل أهل الهلال واستهل مبنيا للمفعول فيهما إذا أبصر (واستهلال الصبي) أن يرفع صوته بالبكاء عند ولادته ومنه الحديث «إذا استهل الصبي ورث» وقول من قال هو أن يقع حيا ويقال (الإهلال) رفع الصوت بقول لا إله إلا الله ومنه قوله تعالى {وما أهل به لغير الله} [٧] (وأهل) المحرم بالحج رفع صوته بالتلبية [٨].

وقال أبو العباس :

---

[٤] العين (٢ / ١٣٥) المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ،الناشر: دار ومكتبة الهلال

[٥] جمهرة اللغة (١ / ٣١٦) المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) المحقق: رمزي منير بعلبكي ، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ،الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م

[٦] المحكم والمحيط الأعظم (٢ / ١٤٤) المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]
المحقق: عبد الحميد هنداوي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

[٧] البقرة ١٧٣

[٨] المغرب في ترتيب المعرب (١ / ٥٠٦)المؤلف: ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِىّ (المتوفى: ٦١٠هـ) ، الناشر: دار الكتاب العربي ، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ

واستهل استهلالا بالبناء فيهما للفاعل وأهل الهلال بالبناء للمفعول وللفاعل أيضا ومنهم من يمنعه واستهل بالبناء للمفعول ومنهم من يجيز بناءه للفاعل وهل من باب ضرب لغة أيضا إذا ظهر وأهللنا الهلال واستهللناه رفعنا الصوت برؤيته. وأهل الرجل رفع صوته بذكر الله تعالى عند نعمة أو رؤية شيء يعجبه[٩].

التعريف الاصطلاحي ل/ براعة الاستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله.

بمعنى أن يكون هناك مناسبة بين أول الكلام والحال المتكلم فيه وتكون هنا إشارة إلى ما سيق الكلام لأجله.

أو بمعنى آخر أن يذكر في مقدمة الكلام ما يشير إلى مضمون الكلام الآتي.فإذ قال الخطيب مثلا :الحمد لله الذي جعل الجنة دار المتقين فهم الحاضرون أن الحديث سيدور حول الجنة.

قاعدة في فهم براعة الاستهلال وتناسب الآيات والسورفي القرآن.

يقول البقاعي رحمه الله:

لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة والله الهادي.[١٠].

من براعة الاستهلال في الشعر العربي

قال أبو تمام يهنئ المعتصم بالله بفتح عمورية، وكان أهل التنجيم زعموا أنها لا تفتح في ذلك الوقت:

السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب

وقول أبي محمد الخازن يهنئ ابن عباد بمولود لبنته:

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعد ... وكوكب المجد في أفق العلا صعدا

وقول الآخر:

---

[٩] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢ / ٦٣٩)، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) ، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

[١٠] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١ / ١٨)، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) ، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

أبشر فقد جاء ما تريد ... أباد أعداءك المبيد

وكقول أبي الفرج الساوي[١١] يرثي بعض الملوك من آل بويه -أظنه فخر الدولة:
هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من بطشي وفتكي

وكذا قول أبي الطيب يرثي أم سيف الدولة:
نعد المشرفية والعوالي ... وتقتلنا المنون بلا قتال
وترتبط السوابق مقربات ... فما ينجين من خبب الليالي[١٢]

ومن براعة الاستهلال في شعر العرب أيضاً

قول المتنبّي في التهنئة بزوال المرض:
المجد عوفي مذ عوفيت والكرم ... وزال عنك إلى أعدائك الألم
وقول مهيار[١٣] المشعر بالإعتذار:
أما وهواها عذرة وتنصّلا ... لقد نقل الواشي إليها فأمحلا
وقول الباخرزي[١٤] المشعر بالتهنئة في النصر على الأعداء:

---

[١١] أبو الفرج الساوي ، أشهر كتاب الصاحب بحسن الخط مع أخذه من البلاغة بأوفر الحظ وكان الصاحب يقول خط أبي الفرج يبهر الطرف ويفوت الوصف ويجمع صحة الأقسام ويزيد في نخوة الأقلام ، وأما شعره فمن أمثل شعر الكتاب كقوله في مرثية فخر الدولة
(هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من بطشي وفتكي)
(فلا يغرركم حسن ابتسامي ... فقولي مضحك والفعل مبكي)
(بفخر الدولة اعتبروا فإني ... أخذت الملك منه بسيف هلك) يتمة الدهر في محاسن أهل العصر
المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) ،المحقق: د. مفيد محمد قمحية
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م

[١٢] بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (٤ / ٧٠٨)، المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ) الناشر: مكتبة الآداب ، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

[١٣] أبو الحسن مهيار بن مروزيه الكاتب الفارسي الديلمي الشاعر المشهور؛ كان مجوسياً فأسلم، ويقال إن سلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي - المقدم ذكره - وهو شيخه، وعليه تخرج في نظم الشعر، وقد وازن كثيراً من قصائده. وذكر شيخنا ابن الأثير الدزري في تاريخه (٢) أنه أسلم في سنة أربع وتسعين وثلثمائة، فقال له أبو القاسم ابن برهان: يا مهيار قد انتقلت بأسوبك في النار من زاوية إلى زاوية، فقال: وكيف ذاك قال: كنت مجوسياً فصرت تسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعرك. وفيات الأعيان (٥ / ٣٥٩) المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ) ، المحقق: إحسان عباس ،الناشر: دار صادر – بيروت.و تاريخ بغداد
المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) ، المحقق:الدكتور بشار عواد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م

[١٤] أبو منصور الباخرزي اسمه محمد بن إبراهيم من أهل خراسان. نزل بغداد وكان يتشيع وعمي في آخر عمره وكان يهاجي مثقالاً الواسطي. والباخرزي هو القائل: صبت عليّ مصائب لو أنها ... صبتْ على الأيام صرن لياليا.

وفت السعود بوعدها المضمون ... وتباشرت بالطائر الميمون
وعلا لواء المسلمين وشافهوا ... تحقيق آمال لهم وظنون

وقول أبي الطيب المتنبي في الإعتذار والتهنئة:
لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم تسعد الحال[١٥]

براعة الاستهلال في سور القرآن

أولا سورة الفاتحة

تمهيد

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله:

هذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب ، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال[١٦].

براعة الاستهلال في سورة الفاتحة

١- الغرض الذي سبقت له الفاتحة وهو إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفا الكمال ، وهذا جاء مصرحا به في قوله تعالى (الحمد لله).
٢- اختصاصه بملك الدنيا والآخرة وقد أشار إليه قوله تعالى : (مالك يوم الدين).
٣- استحقاق الله تبارك وتعالى بالعبادة والاستعانة ، كما قال : (إياك نعبد وإياك نستعين) .
٤- استحقاق الله عز وجل بالسؤال والتزام صراط الفائزين والإنقاذ من طريق الهالكين مختصا بذلك كله كما قال الله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .
٥- مراقبة العباد لربهم، لإفراده بالعبادة، فهو مقصود الفاتحة بالذات وغيره وسائل إليه، فإنه لا بد في ذلك من إثبات إحاطته تعالى بكل شيء ولن يثبت حتى يعلم أنه المختص بأنه الخالق الملك المالك، لأن المقصود منه إرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الشرائع، والمقصود من نصب الشرائع جمع الخلق على الحق والمقصود من جمعهم

معجم الشعراء (١ / ٤٤٨) المؤلف : للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (المتوفى : ٣٨٤ هـ) ،بتصحيح وتعليق : الأستاذ الدكتور ف . كرنكو
الناشر : مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة : الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

[١٥] العقد المفصل في قبيلة المجد المؤثل ،المؤلف: حيدر بن سليمان بن داود الحلي الحسيني (المتوفى: ١٣٠٤هـ)

[١٦] التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»(١ / ١٣٥)
المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)
الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

تعريفهم بالملك وبما يرضيه، وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول، ولن يكون ذلك إلا بما ذكر علما وعملا، ولما كان المقصود من جمعهم على الله تعالى معرفته لأجل عباداته وكان التزام اسمه تعالى في كل حركة وسكون قائدا إلى مراقبته وداعيا إلى مخافته واعتقاد أن مصادر الأمور وموارادها منه وإليه شرعت التسمية أول كل شيء فصدرت بها الفاتحة[١٧].

ثانياً / سورة البقرة

تمهيد

مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال ، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مجاراها الإيمان بالغيب فلذلك سميت بها السورة وكانت بذلك أحق من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنها في نوع البشر ومما تقدمها في قصة بني إسرائيل من الأحياء بعد الإماتة بالصعق وكذلك ما شاكلها، لأن الأحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر بمباشرة من كان من آحاد الناس فهي أدل على القدرة الإلهية[١٨].فكان براعة الاستهلال في سورة البقرة في آياتها الأولى من خلال ما يلي

١- الحروف المقطعة (ألم) وما تشير إليه من البلاغة والإعجاز.
٢- الإشارة إلى القرآن الكريم باسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد (ذلك) رغم الحديث عن الكتاب القريب إشارة لمكانته العظيمة في نفوس المتبعين له سواء كانوا مخلوقين أثناء الخطاب أم لم يخلقوا بعد.
٣- التحدي القائم في قوله تعالى (لا ريب فيه) الذي يتضمنه هذا الكتاب العظيم في كل آية من آياته .
٤- الهداية التي تضمنها القرآن الكريم لمن أتبعه كما قال عز وجل : (هدى للمتقين).
٥- الدعوة للتعرف على أصول الدين الإسلامي من خلال ذكر صفات المتقين كما قال تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون).
٦- الثمرة العظيمة التي كفلها القرآن الكريم من خلال الإشارة لمئالهم كما قال تعالى : (أولائك على هدى من ربهم وأولائك هم المتقون).
٧- التشويق الذي تضمنه هذا الأسلوب لجذب النفوس وتعليق القلوب بما سيأتي من التفصيل لما أجمل.

---

[١٧] انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١ / ٢٠) المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ، (المتوفى: ٨٨٥هـ) ، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
(١٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١ / ٥٥)

ثالثاً/ سورة آل عمران

سورة مدنية كلها وهي مائتا آية باتفاق[١٩]، تضمنت الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ، كشف الشبهات وردت عليها ، وناظرت أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

براعة الاستهلال في هذه السورة العظيمة تركزت فيما يلي:

١- الحروف المقطعة (ألم) وما تشير إليه من البلاغة والإعجاز.
٢- إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات[٢٠]في إشارة للحديث عن التوحيد الذي كان محور حديث هذه السورة.
٣- ما تضمنه القرآن الكريم من المخرج من الشبهة والضلالة[٢١]، كما قال تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات...).
٤- الإخبار عما قبله خبر صدق دال على إعجازه، أو يخبر بصدق الأنبياء فيما أتوا به [٢٢] . كما قال تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل).
٥- سعة علم الله تعالى واطلاعه على كل شيء كما قال تعالى : (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض....)
٦- الإشارة إلى أن اتباع الإسلام هدى وتركه زيغ وضلال كما قال تعالى: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.....)

رابعاً / سورة النساء

تمهيد

وهي مائة وستة وسبعون آية مكية[٢٣] ،وهذه السورة تمثل جانبا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة

---

[١٩] تفسير مقاتل بن سليمان (١ / ٢٦٢) المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ) ، المحقق: عبد الله محمود شحاته ،الناشر: دار إحياء التراث – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ

[٢٠] انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٣٧٠) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ، المحقق: سامي بن محمد سلامة ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ،الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

[٢١] انظر تفسير التستري (١ / ٤٦) المؤلف: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (المتوفى: ٢٨٣هـ) ، جمعها: أبو بكر محمد البلدي ، المحقق: محمد باسل عيون السود ، الناشر: منشورات محمد علي بيضون / ، دارالكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ

[٢٢] انظر تفسير العز بن عبد السلام (٢٥١/١) المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ) ، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي ، الناشر: دار ابن حزم – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

هذا المجتمع. وتعرض نموذجا من فعل القرآن في المجتمع الجديد، الذي انبثق أصلا من خلال نصوصه، والذي نشأ ابتداء من خلال المنهج الرباني. وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج في تعامله مع الكائن الإنساني كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الرباني.. تفاعله معه وهو يقود خطاه في المرتقى الصاعد، من السفح الهابط، إلى القمة السامقة [٢٤].

براعة الاستهلال في سورة النساء

١- مخاطبة الخلق جميعاً مسلمهم وكافرهم لفتاً لأنظار السامعين.قال تعالى: (يا أيها الناس) .
٢- الدعوة للتقوى والتذكير بأصل الخلق ومنشئه قال تعالى: (اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة).
٣- التذكير باستشعار المراقبة الإلهية قال تعالى : (إن الله كان عليكم رقيباً).
٤- الحث على إعطاء الناس حقوقهم ابتداءً من اليتامى ومرورا بالنساء الذين كانت تضيع حقوقهم في الجاهلية لضعفهم وقلة حيلتهم فلا يعطى الصغير الذي لا يحمل السلاح ولا تورث المرأة بل تورث.
٥- تحديد شكل العلاقة بين الرجل والمرأة سواء كانت علاقة اجتماعية أسرية أو كانت علاقة مالية قال تعالى : (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى .....) .
٦- الأموال في الإسلام وكيفية المحافظة عليها قال تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم.....) .
٧- المحافظة على الحقوق وأدائها لأهلها.قال تعالى : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح....)

خامساً سورة المائدة

تمهيد

مدنية وآياتها عشرون ومائة[٢٥]. نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لينشىء به أمة وليقيم به دولة ولينظم به مجتمعا وليربي به ضمائر وأخلاقا وعقولا وليحدد به روابط ذلك المجتمع فيما بينه وروابط تلك الدولة مع سائر الدول وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم.. وليربط ذلك كله برباط قوي واحد، يجمع متفرقه، ويؤلف أجزاءه، ويشدها كلها إلى مصدر واحد، وإلى سلطان واحد، وإلى جهة واحدة.. وذلك هو

---

[٢٣] انظر بحر العلوم (١ / ٢٧٨) المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)

[٢٤] انظر (في ظلال القرآن) (١ / ٥٥٥) المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة ، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ.

[٢٥] انظر التفسير الوسيط للواحدي (٢ / ١٤٧)، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود،وآخرون ، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي ،الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

الدين، كما هو في حقيقته عند الله وكما عرفه المسلمون. أيام أن كانوا «مسلمين»[٢٦] ! ومن ثم نجد في هذه السورة- كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها- موضوعات شتى الرابط بينها جميعا هو هذا الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه: إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد.. الأصل فيه إفراد الله- سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان وتلقي منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك..

وكذلك نجد بناء التصور الاعتقادي وتوضيحه وتخليصه من أساطير الوثنية، وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم.. إلى جانب تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها، وطبيعة طريقها وما في هذا الطريق من مزالق وأشواك، وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا الدين.. إلى جانب أحكام الشعائر التعبدية التي تطهر روح الفرد المسلم وروح الجماعة المسلمة وتربطها بربها. إلى جانب التشريعات الاجتماعية التي تنظم روابط مجتمعها والتشريعات الدولية التي تنظم علاقاتها بغيرها.. إلى جانب التشريعات التي تحلل وتحرم ألوانا من المآكل والمشارب والمناكح أو ألوانا من الأعمال والمسالك.. كل ذلك حزمة واحدة في السورة الواحدة يمثل معنى «الدين» كما أراده الله وكما فهمه المسلمون[٢٧].

<u>براعة الاستهلال في سورة المائدة</u>

١- الأمر بالوفاء بالعقود.قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود). وفيه إشارة لتضمن هذه السورة جملة منها كما قال تعالى : (كونوا قوامين لله)، وقال تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل)، وقال تعالى : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم).

٢- الإشارة للحديث عن أحكام بهيمة الأنعام عند العرب دل عليه قوله تعالى : (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم).وسيأتي تفصيل ذلك في ثنايا السورة.ومنه قوله تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ...).

٣- الإشارة للحديث عن أحكام الصيد دل عليه قوله تعالى : (غير محلي الصيد وأنتم حرم) ، كما جاء مصرحا به عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ....)[٢٨].

٤- تعظيم شعائر الله سواء كان المقصود ما يشعر من الهدي أو المناسك[٢٩] ، ولقد جاء الحديث مفصلا عن ذلك في ثنايا هذه السورة.ومنه قوله تعالى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد...)[٣٠].

---

[٢٦] هذا الموضع من كلام سيد قطب رحمه الله فيه غمز للمجتمع الإسلامي بتخليه عن إسلامه . والأمر ليس كذلك فلا تزال الأمة الإسلامية على إسلامها وإن لم تعد كالأوائل لكن لا يسلب عنها مسمى الإيمان.

[٢٧] في ظلال القرآن (٢ / ٨٢٥)

[٢٨] آية ٩٥ المائدة

٥- الأمر بالوقوف عند حدود الله في التعامل مع المخالفين سواء كانوا من أهل الخداع،كما هو حال شريح بن ضبيعة[٣١] ، أو من أراد الطواف حول البيت من العرب عام الفتح[٣٢] .وقد فصلت هذه السورة هذه الأحكام كلها وكل ذلك من براعة الاستهلال الذي تميز بها النظم القرآني.

٦- التعاون على البر والتقوى ، ونبذ الإثم والعدوان، كما قال تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)[٣٣]، ولقد جاء الحديث في سورة المائدة عن هذا الموضوع في أكثر من موضع ومنها قوله تعالى : (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا علهم الباب...)[٣٤].

سادساً / سورة الأنعام

تمهيد

سورة الأنعام مكيّة وآياتها خمس وستون ومائة ، هذه السورة مكية.. من القرآن المكي.. القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ثلاثة عشر عاما كاملة، يحدثه فيها عن قضية واحدة. قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر. ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى! لقد كان يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية، في هذا الدين الجديد، «قضية العقيدة» ممثلة في قاعدتها الرئيسية.. الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة.

لقد كان يخاطب بهذه القضية «الإنسان» . الإنسان بما أنه إنسان.. وفي هذا المجال يستوي الإنسان العربي في ذلك الزمان والإنسان العربي في كل زمان. كما يستوي الإنسان العربي وكل إنسان. في ذلك الزمان وفي كل زمان! إنها قضية «الإنسان» التي لا تتغير، لأنها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره. قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء.وهي قضية لا تتغير، لأنها

---

[٢٩] انظرتفسير القرطبي (٦ / ٣٧) المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ) ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

[٣٠] آية ٩٧ المائدة

[٣١] جاء إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد، اعرض علي دينك. فعرض عليه وأخبره بما له وبما عليه، فقال له شريح: إن في دينك هذا غلظا، فأرجع إلى قومي فأعرض عليهم ما قلت فإن قبلوه كنت معهم، وإن لم يقبلوه كنت معهم. فخرج من عند النبي- صلى الله عليه وسلم-. فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: لقد دخل بقلب كافر وخرج بوجه غادر وما أرى الرجل بمسلم. ثم مر على سرح المدينة فاستاقها فطلبوه فسبقهم إلى المدينة وأنشأ يقول:
قد لفها الليل بسواق حطم ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم خدلج الساق ولا رعش القدم. تفسير مقاتل بن سليمان (١ / ٤٥٠)

[٣٢] انظر زاد المسير في علم التفسير (١ / ٥٠٧) المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) ، المحقق: عبد الرزاق المهدي ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ

[٣٣] آية ٢ المائدة

[٣٤] آية ٢٣ المائدة

قضية الوجود والإنسان! لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله وكان يقول له:

من هو؟ ومن أين جاء وكيف جاء ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك؟ .. وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه، والذي يحس أن وراءه غيبا يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟ .. وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضا، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد.

وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود «الإنسان». وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده، على توالي الأزمان.

وهكذا انقضت ثلاثة عشر عاما كاملة في تقرير هذه القضية الكبرى. القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان إلا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات[٣٥].

براعة الاستهلال في سورة الأنعام

١- الاستفتاح بالحمد لله رب العالمين المستحق لذلك لما أسدل به من النعم على عباده ومنها خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور.وسيأتي في ثنيا السورة الحديث عن نعم الله على عباده.

٢- توبيخ الذين كفروا على عدلهم ربهم وخالقهم بالأصنام التي لا تضر ولا تنفع.كما قال تعالى : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون).

٣- التذكير بأصل خلق الإنسان كما قال عز وجل : (هو الذي خلقكم من طين) للربط بين هذا الخلق وعظيم نعم الله.

٤- التأكيد على قضية الإلوهية في السموات وفي الأرض وعلمه المحيط بكل شيء ، كما قال تعالى: (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون).وهي من روائع الاستهلال لما سيأتي بعدها من قضايا تتشوف النفوس لسماعها.

٥- التأكيد على الإعراض الذي اتخذه الكفار طريقاً لهم ومسلكا عند كل آية من آيات الله، كما قال تعالى : (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) .

٦- الإشارة لذكر بعض أحوال الأمم السابقة التي أنعم الله عليها فكفرت بأنعم الله وما حل بهم من العذاب والنكال واستبدالهم بقوم آخرين، كما قال تعالى: (ألم يروا كم أهلكنا

[٣٥] انظر في ظلال القرآن (٢ / ١٠٠٤)

قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم...).

سابعاً/ سورة الأعراف

تمهيد

سورة مكية ، آياتها ست ومائتان.موضوعها مثل موضوع السورة التي قبلها وهي سورة الأنعام فكلا السورتين تعالج قضية واحدة هي قضية العقيدة ، إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة[٣٦].

براعة الاستهلال في سورة الأعراف

١- الحروف المقطعة وما فيها من براعة الاستهلال وإقامة التحدي على العرب أهل اللغة والبيان ، وفيها إشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف ومع ذلك لا يمكن أن يأتوا بمثله.ولا بسورة من مثله.

٢- تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بسبب ما يتعرض له من التكذيب والإعراض من المشركين ، والإشارة لما سيأتي من الآيات العظيمة في هذه السورة وأن فيها إنذار للمشركين وذكرى للمؤمنين ، كما قال تعالى : (كتب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين)[٣٧].

٣- الحث على أتباع ما سيأتي من الآيات عامة وفي هذه السورة العظيمة خاصة وفيه تشويق للسامع لانتظار ما سينزل.كما قال تعالى : (اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء....)[٣٨].

٤- التهويل العظيم لأحوال أهل القرى التي ستذكر في هذه السورة ليتشوف السامع للتفاصيل ويتهيأ قلبه لإدراكها والاطلاع عليها ، قال تعالى : (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون)[٣٩].

٥- تبصير النبي صلى الله عليه وسلم بحجج المشركين حينما يقع عليهم العذاب ، كما قال تعالى : (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين)[٤٠].

---

[٣٦] انظر في ظلال القرآن (٣ / ١٢٤٣)
[٣٧] آية ٢ سورة الأعراف
[٣٨] آية ٣ سورة الأعراف
[٣٩] آية ٤ سورة الأعراف
[٤٠] آية ٥ سورة الأعراف

ثامناً/ سورة الأنفال

تمهيد

مدنية وهي خمس وسبعون آية قيل: إلا سبع آيات من قوله: «وإذ يمكر بك الذين كفروا» إلى آخر سبع آيات فإنها نزلت بمكة والأصح أنها نزلت بالمدينة، وإن كانت الواقعة بمكة[٤١].أما سبب نزولها فما رواه سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم "بدر" قتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص فأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "اذهب فاطرحه في القبض"، قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قريبا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "فخذ سيفك"[٤٢].

براعة الاستهلال في سورة الأنفال

١- الجواب الفصل عن السؤال الجزل الذي أحدث الخلاف بين المسلمين حول الأنفال. عن سعد بن أبي وقاص، قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: " اذهب فاطرحه في القبض " قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي، وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اذهب فخذ سيفك "[٤٣].

٢- ذكر صفات أهل الإيمان الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا يعيرونها اهتماما قال الله تعالى عن تلك الصفات : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون)[٤٤].

٣- الرزق الكريم من عند الله تعالى وليس بجهد الإنسان ولا بكسب يده كما ظن بعض المسلمين يوم بدر، قال تعالى : (أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)[٤٥]

---

[٤١] تفسير البغوي - (٣ / ٣٢٣) المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ) المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع
الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

[٤٢] أسباب النزول (١ / ٢٣)، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي،النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ،المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان ،الناشر: دار الإصلاح – الدمام ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
، الصحيح المسند من أسباب النزول (١ / ٩٦) المؤلف:مقبل بن هادي الوادعي (المتوفى: ١٤٢٢هـ) ، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، الطبعة: الرابعة ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

[٤٣] مسند أحمد (٣ / ١٢٩)، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) ، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ،الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م. قال شعيب الأرنؤوط رحمه الله عن هذا الحديث : حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن فيه انقطاعا، محمد بن عبيد الله الثقفي لم يدرك سعدا.

[٤٤] آية ٢،٣من سورة الأنفال.

٤- الإشارة إلى معركة بدر والتنبيه على ما سيأتي من التفاصيل حولها وتشويق السامع لمتابعة ذلك ، كما قال تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون...)[٤٦].

٥- إنجاز الله تعالى وعده للمؤمنين على خلاف ما كانوا يرجون وكانت الخيرة في ذلك ، واختصار الأحداث من قبل ومن بعد في كلمات وجيزة وهذا من براعة الاستهلال التي تميز بها النظم القرآني، قال تعالى: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم...)[٤٧].

تاسعا / سورة التوبة

تمهيد

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية ، قال ابن عباس: كلها مدنية وقال مقاتل: كلها مدنية إلا قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم...)[٤٨].

براعة الاستهلال في سورة التوبة

١- من براعة الاستهلال في سورة التوبة أنها لم تبدأ بالبسملة وذلك لما قال ابن عباس: سألت عليا رضي الله عنه: لم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم بينهما؟ قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان. ويروى أن سفيان بن عيينة ذكر هذا المعنى، وأكده بقوله تعالى: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا)[٤٩].

٢- التهديد والوعيد للمشركين بعد مضي أربعة أشهر وأن الهزيمة والخزي هو مصيرهم ، وفي ذلك من براعة الاستهلال ما يدعو السامع لهذه الآيات إلى التطلع لما تتضمنه الآيات القادمة لبيان هذا المصير.

٣- الالتفات[٥٠] المهيب الذي تضمنه الخطاب الخاص لأهل مكة محددا بزمان ومكان معين كما قال تعالى : (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله...)[٥١].

---

[٤٥] آية ٤ من سورة الأنفال

[٤٦] الآيات من ٥-٨ من سورة الأنفال.

[٤٧] آية ٧ من سورة الأنفال

[٤٨] بحر العلوم (٢ / ٣٧)، والآية ١٢٨من سورة التوبة

[٤٩] مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٥ / ٥٢٢) المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.والآية ٩٤ من سورة النساء.

[٥٠] وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار. الانتصار للقرآن للباقلاني (٢ / ٧٩٢)، المؤلف: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (المتوفى: ٤٠٣هـ) ، تحقيق: د. محمد عصام القضاة ، الناشر: دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت ، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

٤- الدلالة التي يشير إليها الاستثناء الذي خص الله به أهل صلح الحديبية على قول وعلى القول الآخر جذيمة بكر من كنانة[٥٢].

٥- الإشارة لتوافد جماعة من المشركين الذين انقضى عهدهم على النبي صلى الله عليه وسلم وكيفية التعامل معهم ، كما قال تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك....)، ومن هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدا أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحدا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم[٥٣].

عاشرا / سورة يونس

تمهيد

قال الشيخ شحاته : مقصود سورة يونس إثبات النبوة، وبيان فساد اعتقاد الكفار فى حق النبي- صلى الله عليه وسلم- والقرآن، وذكر جزائهم على ذلك فى الدار الآخرة، وتقدير منازل الشمس والقمر لمصالح الخلق وذم القانعين بالدنيا الفانية عن النعيم الباقي، ومدح أهل الإيمان فى طلب الجنان، واستعجال الكفار بالعذاب، وامتحان الحق- تعالى- خلقه باستخلافهم فى الأرض وذكر عدم تعقل الكفار كلام الله، ونسبته إلى الافتراء والاختلاف والإشارة إلى بطلان الأصنام وعبادها، وبيان المنة على العباد بالنجاة من الهلاك فى البر والبحر وتمثيل الدنيا بنزول المطر، وظهور ألوان النبات والأزهار ودعوة الخلق إلى دار السلام، وبيان ذل الكفار فى القيامة ومشاهدة الخلق فى العقبى ما قدموه من طاعة ومعصية وبيان أن الحق واحد، وما سواه باطل وإثبات البعث والقيامة بالبرهان والحجة الواضحة، وبيان فائدة نزول القرآن والأمر بإظهار السرور والفرح بالصلاة والقرآن، وتمييز أهل الولاية من أهل الجناية، وتسلية النبي- صلى الله عليه وسلم- بذكر شيء من قصة موسى، وواقعة بني إسرائيل مع قوم فرعون، وذكر طمس أموال القبطيين، ونجاة الإسرائيليين من

---

[٥١] تفسير مقاتل بن سليمان (٢ / ١٥٦) المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ) المحقق: عبد الله محمود شحاته ، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ. والآية من سورة التوبة.

[٥٢] انظر جامع البيان للطبري (١١ / ٣٥٠) المؤلف محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة ، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م ، وتفسير ابن أبي حاتم (٦ / ١٧٥٠) ، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ) ، المحقق: أسعد محمد الطيب ، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ

[٥٣] تفسير ابن كثير ت سلامة (٤ / ١١٣) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

البحر، وهلاك أعدائهم من الفرعونيين، ونجاة قوم يونس بإخلاص الإيمان في وقت اليأس، وتأكيد نبوة النبي- صلى الله عليه وسلم- وأمره بالصبر على جفاء المشركين وأذاهم فى قوله: حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.... وكل آية على الميم قبل الميم ياء. ومجموع فواصلها (مين) .

وسميت سورة يونس لما في آخرها من ذكر كشف العذاب عن قوم يونس ببركة الإيمان عند اليأس فى قوله فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس الآية ٩٨ يونس[٥٤].

براعة الاستهلال في سورة يونس

١- الحروف المقطعة في مبدأ السورة وما فيه من التحدي لأهل البلاغة أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهي سر من أسرار القرآن كما سبق ذكره.

٢- الإشارة بـ " تلك" بدلا من اسم الإشارة " هذه" ليعم بذلك الآيات التالية في سورة يونس وما سبقها من السور وما يلحق بها من السور ، وكلها آيات محكمة معجزة ، كما قال تعالى : (تلك آيات الكتاب الحكيم). واستعمال هذا الإشارة في مثل هذا السياق سائق في لغة العرب كما ذكره الطبري رحمه الله[٥٥].

٣- بيان فساد اعتقاد الكفار في النبي صلى الله عليه وسلم من خلال الاستفهام في قوله تعالى: (أكان للناس عجبا ، أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) عذاب الله - عز وجل في - الدنيا والآخرة ؛ إن لم يؤمنوا ؛ وفيه جواب من الله - عز وجل - لقول المشركين حين قالوا: (إن هذا لشيء عجاب) [٥٦].

٤- التأكيد على قضية العقيدة ، كما قال تعالى : (أن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ...)[٥٧] ،وفيه إشارة لما سيأتي من الآيات التي تؤكد هذه القضية الكبرى التي نزلت هذه السورة لمعالجتها.

٥- قوله تعالى : (إليه مرجعكم جميعا) حال أي لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه ، وجاء التوكيد عليه بالمصدر في قوله تعالى: (وَعَدَ الله) ، وعقب على التوكيد

---

[٥٤] تفسير مقاتل بن سليمان (٢ / ٢٢٣) .

[٥٥] انظر جامع البيان للطبري (١ / ٢٢٦).

[٥٦] انظرتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢ / ٢٤٣) المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ) ، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز
الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، والآية ٨ من سورة " ص".

[٥٧] الآية ٣ من سورة يونس

بتوكيد مصدري آخر في قوله تعالى : " حقاً " ، وفي هذا من براعة الاستهلال ما تنخلع القلوب لسماعه[٥٨].

٦- من براعة الاستهلال في هذه السورة الاستدلال بالآيات الكونية المرئية على الحقائق الغيبية ، كما قال تعالى : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً....)[٥٩].

الحادي عشر / سورة هود

تمهيد

هود عليه السلام هو أول رسول إلى قوم عاد، وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام وقد ذكر باسمه خمس مرات في هذه السورة التي سميت باسمه.

وسورة هود من السور المكية، وآياتها ثلاث وعشرون ومائة آية ، شأنها كشأن السور المكية الأخرى: تقرير أصول الدين، وإقامة الأدلة عليها ورد الشبه التي كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها، والحديث عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب[٦٠]. عن ابن عباس، قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت، قال: " شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت"[٦١].

براعة الاستهلال في سورة هود

١- بدأت السورة بالحروف المقطعة "آلم" وفيها من التحدي لأهل البلاغة ما أعجزهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهي سر الله تعالى في كتابه العزيز.

٢- جاء السياق القرآني باسم الإشارة " تلك" بدلا من اسم الإشارة " هذه" ليشمل بذلك الآيات التالية في سورة هود وما سبقها من السور وما يلحق بها من السور ، وكلها آيات

---

[٥٨] مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢ / ٧) ، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)
حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي ، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو ، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

[٥٩] الآية ٤ من سورة يونس

[٦٠] الموسوعة القرآنية خصائص السور (٤ / ٥٥) المؤلف: جعفر شرف الدين ، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجري ، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٠ هـ

[٦١] سنن الترمذي ت شاكر (٥ / ٤٠٢) المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) ، تحقيق وتعليق: ، أحمد محمد شاكر وآخرون ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.والحديث صححه الألباني . انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته (١ / ٦٩٢)، صحيح الجامع الصغير وزياداته ، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم ، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) ، الناشر: المكتب الإسلامي.

مبينة مفصلة لا لبس فيها ولا غموض كما قال تعالى " (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)[٦٢].

٣- الدعوة للتوحيد كما قال تعالى : (ألا تعبدوا إلا الله غنني لكم منه بشير ونذير)[٦٣] وهي من أعظم براعة الاستهلال التي جاء بها القرآن الكريم ومن حققها فقد فاز فوزاً عظيما.كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه " ...ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة "[٦٤].

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات فقد جاء هذا البحث جديداً في طرحه وأسلوبه ،وبيّنتُ من خلاله جملة لا بأس لها حول براعة الاستهلال في السور التي تمت دراستها من أول الفاتحة إلى نهاية سورة هود. وكان من ثمرة هذا البحث أن المطلع عليه يستطيع الحكم على أي سورة من سور القرآن سواء التي شملتها الدراسة أو غيرها يستطيع الحكم على موضوع السورة وما سوف تتكلم عنه هذه السورة اعتمادا على براعة الاستهلال الذي تضمنته .

[٦٢] آية رقم ١ من سورة هود
[٦٣] الآية ٢ من سورة هود
[٦٤] صحيح مسلم (٤ / ٢٠٦٨)، واسمه الكامل :المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

المراجع

١- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي
٢- العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ،الناشر: دار ومكتبة الهلال
٣- جمهرة اللغة ،المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي،المحقق: رمزي منير بعلبكي ، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ،الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م
٤- المحكم والمحيط الأعظم ، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي المحقق: عبد الحميد هنداوي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م
٥- المغرب في ترتيب المعرب ،المؤلف: ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِىّ (المتوفى: ٦١٠هـ) ، الناشر: دار الكتاب العربي ، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ
٦- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس ، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.
٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٨- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ،المحقق: د. مفيد محمد قمحية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م
٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، المؤلف: عبد المتعال الصعيدي ، الناشر: مكتبة الآداب ، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م
١٠- وفيات الأعيان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي ،المحقق: إحسان عباس ،الناشر: دار صادر – بيروت.
١١- تاريخ بغداد، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي ، المحقق:الدكتور بشار عواد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م
١٢- معجم الشعراء ، المؤلف : الإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ،بتصحيح وتعليق : الأستاذ الدكتور ف . كرنكو،الناشر : مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة : الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م
١٣- العقد المفصل في قبيلة المجد المؤثل ،المؤلف: حيدر بن سليمان بن داود الحلي الحسيني
١٤- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

١٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
١٦- تفسير مقاتل بن سليمان، المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى ، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ
١٧- تفسير ابن كثير ، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ، المحقق: سامي بن محمد سلامة ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ،الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م
١٨- تفسير التستري ، المؤلف: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري ، جمعها: أبو بكر محمد البلدي ، المحقق: محمد باسل عيون السود ، الناشر: منشورات محمد علي بيضون / ، دارالكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣هـ
١٩- تفسير العز بن عبد السلام، المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء ، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي ، الناشر: دار ابن حزم – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م
٢٠- بحر العلوم ، المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي
٢١- في ظلال القرآن ،المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة ، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ.
٢٢- التفسير الوسيط للواحدي ، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود،وآخرون ، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي ،الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
٢٣- تفسير القرطبي ،المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
٢٤- زاد المسير في علم التفسير ، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، المحقق: عبد الرزاق المهدي ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
٢٥- تفسير البغوي ، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
٢٦- أسباب النزول، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي،النيسابوري، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان ،الناشر: دار الإصلاح – الدمام ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

٢٧- الصحيح المسند من أسباب النزول ، المؤلف:مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، الطبعة: الرابعة ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.
٢٨- مسند أحمد، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ،الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٢٩- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
٣٠- الانتصار للقرآن للباقلاني ، المؤلف: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، تحقيق: د. محمد عصام القضاة ، الناشر: دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت ، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
٣١- جامع البيان للطبري ، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري ، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة ، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٣٢- تفسير ابن أبي حاتم ، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم ، المحقق: أسعد محمد الطيب ، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ
٣٣- تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي ، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز،الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، والآية ٨ من سورة " ص".
٣٤- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي،حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي ، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو ، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
٣٥- الموسوعة القرآنية خصائص السور، المؤلف: جعفر شرف الدين ، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجري ، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٠ هـ
٣٦- سنن الترمذي ت شاكر ، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى ، تحقيق وتعليق: ، أحمد محمد شاكر وآخرون ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
٣٧- صحيح الجامع الصغير وزيادته ، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي.

٣٨- صحيح مسلم ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي.

The Portrayal of Female Characters in Dickens' Novels *Oliver Twist* and *Great Expectations*

Dr. Iman Ahmed Ali Aldukhina
Assistant Professor of English Literature
Head of English Department
Faculty of Education
Hajjah University
Republic of Yemen

Abstract

This paper investigates Charles Dickens' presentation of women and the effect of his perception of women on shaping female characters in his novels *Oliver Twist* and *Great Expectations*. These two novels are selected carefully because they contain a number of odd women and cruel mothers. The first novel to be discussed, one of Dickens' earliest works, is *Oliver Twist*, published between February 1837 and April 1839. The various mother figures for Oliver will be analyzed. The second novel to be investigated is *Great Expectations* which was published between December 1860 and August 1861 and is one of Dickens' last novels. This paper sheds the light on his personal life and his experiences as a child that had a great impact on his view of women. The cruel mother who was happy for sending him to work when he was twelve years old created cruel characters in his novels. The image of caring mothers is almost absent in most of his works. Also, the relationship with his wife was one of the factors for creating such odd characters.

On the other hand, the Victorian perception of women has affected greatly on his writing about women. He was sympathetic with the women who were enforced to be prostitutes. As for normal women, very few characters can be found in his novels. Thus, the current study is an attempt to find out the reasons for such dark representation of female characters.

The Portrayal of Female Characters in Dickens' Novels
Oliver Twist* and *Great Expectations

1. Introduction:

Dickens had many different personal experiences that affected greatly on his writings. His view and representation of women is a reflection of his own personal life. First, his relationship with his mother when he was a child created cruel and careless female characters in his novels. As a young man, in the early 1830s, he loved Maria Beadnell, whose rejection may have provided Dickens with material for Pip's hopeless adoration of Estella. In 1836, Dickens married Catherine Hogarth, with whom he would go on to have ten children. By the time he wrote *Great Expectations*, he had been separated from her for almost two years and was conducting a mostly-secret affair with Ellen Ternan, a young actress. Moreover, women in Victorian Age suffered a lot from many social abuses so Dickens set out to attack some specific abuses existing towards women during that era.

The purpose of this study is to critically analyze Charles Dickens' representation of female characters in *Oliver Twist* and *Great Expectations*. It aims at showing that Charles Dickens is a realist writer whose characters have been created with devotion to the realist and naturalist mode of writing. This paper is an attempt to examine the representation of female characters in *Oliver Twist* and *Great Expectations*, their social status, and show that they all still adhere to Victorian ideals of womanhood. It is during the period of intense public debate about the condition of women particularly, about marriage and about prison reform, that Charles Dickens wrote and published *Great Expectations*. The work was serialized in *All The Year Round* from December 1860 to June 1861.

The feminist study of Dickens' female characters determines that Dickens as a male writer, was sympathetic with the plight of Victorian women. His representation of the female characters is a portrayal of the Victorian ideologies and perceptions towards women. Dickens explores the miserable conditions of the Victorian women and also subtly criticizes the treatment of women by the patriarchal society.[1] The role of actual female figures in Dickens' personal life is also examined in order to find out the

motives and justifications behind his creation of such characters. As for his female characters are concerned, Gissing remarks:

> If George Eliot was of opinion that Shakespeare shows himself unjust to women, and on that account could not wholly revere him, we need not be surprised that average members of her sex should see in Dickens something like a personal enemy, a confirmed libeler of all who speak the feminine tongue.[2]

Michael Slater[3] also finds in his critical analysis of the female characters in Dickens' early fiction that "Dickens sees women only as they have been typecast by men as angelic ministers of grace and inspiration, as tormenting charmers, as threatners of male liberty, as trying partners, as gloriously absurd in their distinct femaleness, or as singularly capable of dog-like devotion to men as they love even when they meet with nothing but cruelty and brutality in return".

In the nineteenth century, women lived in an age characterized by gender inequality and discrimination. They enjoyed a few of legal and social rights and they were expected to remain obedient to their fathers or husbands. They were still dominated in many ways. Dickens touches on the issue of gender roles that affected Victorian England at large and on the suffering of poor women during that era. George Letissier writes:

> From many regards, Dickens is the emblematic figure of Victorian fiction, if not of the Victorian era. As one might expect, many Post-Victorian novelists write after, or against him.[4]

The nineteenth century novel represents many Victorian conditions in the stories of its characters. It seeks to engage with the contemporary circumstances, and debate about social representation of women dealing with controversies about the nature and the role of women. This paper intends to focus on the fictional representations of the conditions of women, which were as inspiration for several Victorian writers. So, realism is a narrative

technique in Victorian literature attempts to describe life without idealization of romantic subjects. The conditions of women were one of the major concerns of Charles Dickens' novels .He presents women influenced by the Victorian ideology surrounding the role of women in society. He depicts the fallen women, the women who were forced to bear exploitation and oppression and their quest for survival in an industrialized society. The female characters in Charles Dickens' novels are often represented as black or white characters, either proper or improper, there is no way in between, no 'grey zone'. Karen Elizabeth Tatum comments on this by saying:

> Dickens' works portray an inability to balance the attraction/repulsion aspects of abjection. Indicative of Victorian culture itself, which Dickens imbibes in his novels, women are portrayed as either Angels or Demons, Sinners or Saints, Virgins or Whores. [5]

2. Dickens' Personal Relationship with women:

Charles Dickens was born on 7 February 1812 in Portsmouth, England, the second son of eight children. Dickens' father was a well-paid clerk, but he was often in debt due to his extreme congeniality and hospitality. He was imprisoned in Marshalsea because of debt, but twelve years old Charles was sent to work at a blacking factory in Hungerford Market, London. After his father's release from debtors' prison, his mother forced him to remain working at the factory, a fact which emotionally scarred him for the rest of his life and had a great effect on his writings. He becomes a realist novelist who tries to reflect the suffering of the people, especially children who are orphans in most of his novels. These experiences led Dickens to base his novels on the social conditions and situations around him. All these experiences were reflected in his writings.

His marriage was not a happy one. From at least the early 1850s, he spoke of a lack of warmth between himself and his wife Catherine Hogarth, whom he had married in 1836. His sister-in-law, Georgina Hogarth, seems to have taken on the duties of housekeeper and hostess after the American tour of 1842. In 1857, the couple moved to separate bedrooms, the door between them being boarded up, and in 1858 they formally split, with all the children,

except the eldest boy Charley, staying with their father. Dickens had a difficult relationship with his wife Catherine. Although she came fairly close to the 'angel of the house' model by being a good housewife and giving him ten children, he was tired of her after 25 years of marriage, and eventually divorced her. The situation was complicated by rumors of his affair with the young actress, Ellen Ternan (1839–1914), which continued until his death. Dickens had met Ternan at Manchester in August 1857, when she acted in a production of *The Frozen Deep*, the play Dickens helped Wilkie Collins write. This situation must have been painful enough for all those involved, but on 7 June 1858 Dickens took the extraordinary step of publishing a personal statement in *The Times*, reprinted in *Household Words* on 12 June, denying rumors about the involvement of other women.

Regarding his relationship with his mother, Tatum argues that the relationship with his own mother was rather thorny:

> Although it was Dickens' father that put the family in the poor house, Dickens never forgave his mother for putting him to work in a blacking factory when he was 12 years old. Once he achieved literary fame, he continued to complain about his mother's embarrassing behavior in not dressing according to the standards of his success and the money he gave her, as well as in constantly asking him for money.[6]

For his sister, the relationship with her was somewhat complicated; although he loved her, he was also envious of her because she got the education that was denied to him. Kluger explains the reason for the difficult sibling relationship:

> His parents had enough money to pay for schooling, but not for both him and his older sister, Frances. They made what was, in the nineteenth century, the uncommon choice of educating the girl in the family, sending her to the Royal School of Music. Charles went to work in a bootblacking factory.[7]

As a result of all these negative experiences with women, Dickens developed what is called by Tatum[8] 'a flawed psyche', which may explain his tendency to use the virgin/whore dichotomy in his novels. In *Charles Dickens and the Image of Women* (1993), David Holbrook[9] relies on psychoanalytic mothering theory to trace patterns in Dickens' relations to women and their effect on his characterizations. Holbrook[10] argues that Dickens' frustrations with his mother for wanting to send him back to the blacking factory when he was a child probably disturbed him as deeply as it did because it emphasized "earlier weaknesses in the relationship". He attributes Dickens' hostilities toward women in his fiction to Freudian "primal fantasies," and he argues that Dickens acted out this fantasy in his dramatic readings of the murder of Nancy in *Oliver Twist*.[11]

3. Odd women in *Oliver Twist*:

3.1.Fallen women and Prostitutes in *Oliver Twist*:

The term fallen woman in Victorian culture applied "to a range of feminine identities: prostitutes, unmarried women who engaged in sexual relations with men, victims of seduction, adulteresses, as well as variously delinquent lower-class women".[12] Society viewed these women as fallen and as morally and socially corrupt, but they were, in fact, victims of male domination and seduction. They are both described as victims of cruel society and subjects of exploitation. Dickens in his novels tries to show the humanity and the goodness in these characters. In the Preface to *Oliver Twist*, Dickens writes that "It is useless to discuss whether the conduct and character of the girl seems natural or unnatural, probable or improbable, right or wrong. It is true".[13]

Altick attests that "Dickens and other writers of his time associated prostitution with the mechanization of modern life, portraying prostitutes as human commodities consumed and then thrown away like refuse".[14]

Poverty obviously forces young girls into prostitution as thought by Dickens through the character of Nancy. Dickens became actively involved with the reformation of prostitutes as noted through the funding of Urania Cottage, a home for fallen women (Rogers). Moreover, he wrote a letter for distribution among women in police custody and he appealed them to change

their ways and advised them to go to a lady in town, probably Angela Burdett – Coutts to be accommodated: "There is a lady in this town who from the windows of her house has seen such as you. . . She has resolved to open at her own expense a place of refuge near London for a small number of females, who without such help are lost forever, and to make a home for them".[15]

3.2.Nancy and Agnes in *Oliver Twist* as prostitutes:

Oliver Twist (1838) is Charles Dickens' second novel that contains a number of odd women. Nancy is one of the central characters in *Oliver Twist*. She belongs to the lowest class of London's underworld. In his preface to the third edition, Dickens writes that he purposely placed her among "the most criminal and degraded of London's population".[16] Clearly Dickens sympathizes with Nancy in *Oliver Twist*, and although she is depicted as a prostitute, Dickens shows the readers that she is one of the victims in this cruel society. Furthermore, Nancy is portrayed not only as a fallen woman and prostitute, but also as a thief, living amongst thieves. Nancy insistently tells Fagin, "I thieved for you when I was a child not half as old as this (pointing to Oliver). I have been in the same trade, and in the same service, for twelve years" (*Oliver Twist*: 133). Thievery, prostitution, abuse and misuse are all Nancy has known since she was a child.

Nancy is represented in the novel as a woman who has a moral conscience, courage, kindness and fear. She suffers from inner conflict between the goodness and the evil and between natural humanity and acquired criminality. At first, she agrees to bring Oliver back to Fagin and Bill Sikes. After that, she tries to protect him from their violence and harsh treatment. She thinks that it is enough for him to be changed from an innocent child into a criminal. Nancy does not want Oliver to suffer like her. Her trembling hand and deadly white face reveal her fear from Sikes and her compassion for Oliver. As Slater notes, Nancy's inner conflict and various emotional mood are dramatized by her sudden pity for Oliver and outbursts against Fagin.[17] The character of Nancy in *Oliver Twist* is very significant since it represents the first concerns of Dickens of fallen women. The novel is filled with disagreeable women. Already at the beginning of the novel, his own mother is represented as a guilty woman. Oliver's mother "Agnes" was seduced as a young adult by a friend of her father. She was brought up with Victorian

morals and like most girls of her age, she remained very naive and sexually ignorant. As a result, she got pregnant without being married and died giving birth to Oliver. Tatum[18] argues that she died because she, as an unmarried woman, was a threat to society: "By having this child out of wedlock, Agnes threatens the social order, and because she threatens the social order, she is abjected from the novel". Dickens' sympathy for prostitutes and fallen women had been clearly established earlier with his vivid presentation of Nancy in *Oliver Twist*.[19] He was well aware that these women were victims of society, poverty and men, and he criticized the cruelty of the Victorian society and peoples view of fallen women. Dickens was well aware that prostitution was a social issue. He had great sympathy for fallen and poor women and saw them as victims of society. Nancy is aware that she stands outside the patriarchal borders (Victorian qualities and domestic ideologies) as we can see when she talks to Rose in a distanced way:

> Oh, lady, lady! ´she said, clasping her hands passionately before her face, ´if there was more like you, there would be fewer like me, -there would –there would!´ `Sit down´, said Rose, earnestly. `If you are in poverty of affliction I shall be truly glad to relieve you if I can, - I shall indeed. Sit down´ `Let me stand, lady, ´ said the girl still weeping, `and do not speak to me so kindly till you know me better. It is growing late. Is that door shut? (*Oliver Twist*:64)

Nancy calls Rose lady, which indicates that she has much respect for her. Nancy thinks the world would be a better place if there were only women like Rose. She feels like she does not belong to the era or even the world.

3.3.Cruel women in *Oliver Twist*:

3.3.1. Mrs. Mann

After the death of Oliver's mother, he is taken to a baby-farm, supervised by Mrs Mann. She is the first mother figure that Oliver encounters in his life. Unfortunately for him, she is not much of a mother at all. Instead of properly raising the orphans under her care, she prefers to largely keep the weekly wages she receives for them; causing the orphans to be malnourished and poorly dressed, as can be seen in the following excerpt:

> Upon this the parish authorities magnanimously and humanely resolved, that Oliver should be "farmed," or, in other words, that he should be dispatched to a branch-workhouse some three miles off, where twenty or thirty other juvenile offenders against the poor-laws, rolled about the floor all day, without the inconvenience of too much food or too much clothing, under the parental superintendence of an elderly female, who received the culprits at and for the consideration of seven pence-halfpenny per small head per week. Seven pence-halfpenny's worth per week is a good round diet for a child; a great deal may be got for seven pence-halfpenny, quite enough to overload its stomach, and make it uncomfortable(*Oliver Twist*: 5-6).

Mrs. Mann uses the weekly wage she receives for the orphans to her own benefit instead of properly feeding or clothing the children.

> The elderly female was a woman of wisdom and experience; she knew what was good for children; and she had a very accurate perception of what was good for herself. So, she appropriated the greater part of the weekly stipend to her own use, and consigned the

> rising parochial generation to even a shorter allowance than was originally provided for them (*Oliver Twist*: 5-6).

In these first years of his life, Oliver is confronted with only negative mother-figures. Michael Slater states:

> There are fully developed, sympathetic sisters and daughters in Dickens' novels, but not many good, biological mothers live far past childbirth. If they do, either they are, consequently, not good mothers or they are old, widowed, and grandmotherly, like Mrs. Maylie or Mrs. Bedwin.[20]

Tatum[21] agrees with Slater by saying that "The bad mother figures in the novel, like Mrs. Corney, the matron of the workhouse, Mrs. Mann, the matron of the baby farm, and Mrs. Sowerberry, the undertaker's wife, are odiously present. Their overbearing presence, resulting from the fact that they survive long after childbirth, is depicted as precisely what makes them bad mothers." There is, consequently a clear female opposition in the novel; either the women are reasonably young, do not fulfill the biological mother role but take on the care of infants (like Mrs. Mann or Mrs. Sowerberry), or they are able to be affectionate towards the child but are represented as aged.

3.3.2. Mrs. Sowerberry in *Oliver Twist*:

Mrs. Sowerberry is to become the second mother-figure in his life. She is described in the novel as "a short, thin, squeezed-up woman; with vixenish countenance" (*Oliver Twist*: 26).

Already on the night of Oliver's arrival, the motherly commitment of Mrs. Sowerberry is displayed. To still Oliver's hunger, she feeds him "the dainty viands that the dog had neglected" (*Oliver Twist*: 29). The relationship between Oliver and Mrs. Sowerberry becomes worse due to bad attitude of Mr. Sowerberry towards Oliver. Together with Charlotte the maid and Noah the apprentice, Mrs. Sowerberry forms an alliance against poor Oliver: "Charlotte treated him ill, because Noah did; and Mrs. Sowerberry was his decided enemy, because Mr. Sowerberry was disposed to be his friend" (*Oliver Twist*: 37). In addition, Mrs. Sowerberry seems to be the dominant person in the Sowerberry household, as can be seen in the excerpt beneath:

> Mr. and Mrs. Sowerberry were taking their supper in the little back parlor, when Mr. Sowerberry, after several deferential glances at his wife, said, "My dear-" He was going to say more; but, Mrs. Sowerberry looking up, with a peculiarly unpropitious aspect, he stopped short. "Well," said Mrs. Sowerberry, sharply. "Nothing, my dear, nothing," said Mr. Sowerberry. "Ugh, you brute!" said Mrs. Sowerberry. "Not at all, my dear," said Mr. Sowerberry humbly. "I thought you didn't want to hear, my dear. I was only going to say-" "Oh, don't tell me what you were going to say," interposed Mrs. Sowerberry. "I am nobody; don't consult me, pray. I don't want to intrude upon your secrets." As Mrs. Sowerberry said this, she gave an hysterical laugh, which threatened violent consequences(*Oliver Twist*: 30).

Mrs. Sowerberry has the habit of weakening the personality of her husband and she controls him. In a patriarchal society like the Victorian, this would probably have evoked disgust in many readers. Not only is she completely neglecting Oliver's needs, she is also threatening society by being more dominant than her husband. She is truly a grotesque wife and mother. Mr. Sowerberry does not dare to speak anything in front of her without taking her permission:

> This is a very common and much-approved matrimonial course of treatment, which is often very effective. It at once reduced Mr. Sowerberry to begging, as a special favor, to be allowed to say what Mrs. Sowerberry was most curious to hear. After a short altercation of less than three quarters of an hour's duration, the permission was most graciously conceded (*Oliver Twist*: 30).

When Oliver has a dispute with the charity boy Noah Claypole; Mrs. Sowerberry, perhaps seeing the opportunity to finally put Oliver in his place, interferes. Instead of investigating the cause of the fight, she immediately takes Noah's side and convinces her husband to punish Oliver severely. Mr. Sowerberry does not intend to punish the boy, but after hearing his wife's lamentation, he is morally obliged to do it, otherwise he would be considered as being a cruel husband to Mrs. Sowerberry, as is demonstrated in the following excerpt:

> Mrs. Sowerberry burst into a flood of tears. This flood of tears left Mr. Sowerberry no alternative. If he had hesitated for one instant to punish Oliver most severely, it must be quite clear to every experienced reader that he would have been, according to all precedents in disputes of matrimony established, a brute, an unnatural husband, an insulting creature, a base imitation of a man, and various other agreeable characters too numerous for recital within the limits of this chapter….The flood of tears,

> however, left him no resource; so he at once gave him a drubbing, which satisfied even Mrs. Sowerberry herself, and rendered Mr. Bumble's subsequent application of the parochial cane, rather unnecessary (*Oliver Twist*: 44).

Oliver is maltreated by this cruel woman who has no mercy at all for the little child. Tatum[22] says "it would seem that in *Oliver Twist*, the only ''good'' mothers are dead mothers."

4. Cruel and Odd women in *Great Expectations* :

4.1.Miss Havisham:

Great Expectations is filled with many female characters who are presented differently by Charles Dickens. Throughout the novel, Pip is confronted with several women of different qualities. The most important female character in this novel is Miss Havisham. She is introduced in the novel "as an immensely rich and grim lady who lived in a large and dismal house barricaded against robbers, and who led a life of seclusion." (*Great Expectations*: 89). In his first encounter with Miss Havisham, he describes her as the "strangest lady I have ever seen, or shall ever see" (*Great Expectations*: 99). Paul Davis[23] describes her as "the bizarre recluse who lives in a ruined mansion dressed in the tattered bridal gown that she has worn since she was left standing at the altar many years before". Miss Havisham remains in a constant state of melancholia, which was caused by her unsuccessful relationship of love with the unsuitable man. Unable to cope with her failure to satisfy society's expectations of single women, Miss Havisham turns into a corpse-like, self-loathing demon - an abject entity whose sole purpose is to use Estella to achieve her vengeful ambitions and implicitly succeed in avenging herself against men. Miss Havisham has often been described by critics as one instance of an irrational and vindictive female figure embodying the mythic horrors of countless cruel mothers, stepmothers, and witch-like figures. Comparing her to other Dickensian women who are perverted by passion, Micheal Slater asserts that "Miss Havisham is the most compelling and the most haunting". [24]

The cause of Miss Havisham's misery lies in her being betrayed by her lover Compeyson on her wedding day. The man fooled her with false promises of love, took precious gifts from her, promised to marry her but on the wedding day did not turn up and thus left her with a broken heart. As a result, she regards all men as being enemies to her so she decided to take revenge from them by employing Estella to break their hearts. Pip strongly reproaches Miss Havisham for keeping him in the dark and playing with his emotions. Miss Havisham tells Pip about her past and tells him "what real love is. It is blind devotion, unquestioning self-humiliation, utter submission, trust and belief against yourself and against the whole world, giving up your whole heart and soul to the smiter - as I did!" (*Great Expectations:*425-26). When Pip expresses his intense love for Estella in front of Miss Havisham, she expresses her deep remorse by stating "What have I done! What have I done!" (*Great Expectations:*709). She confesses before Pip that when Estella came to her as a child, she wanted to save her from misery, nothing else. But then,

> . . . as she grew, and promised to be very beautiful, I gradually did worse, and with my praises, and with my jewels, and with my teachings, and with this figure of myself always before her a warning to back and point my lessons, I stole her heart away and put ice in its place. (*Great Expectations:*711)

Thus, Miss Havisham realized her wrong-doings, but by that time it was too late. Estella really became a hard-hearted woman who cannot feel any love or affection even for her true lover Pip and makes her life worse than hell by marrying a heartless brute Bentley Drummle. H.P. Sucksmith refers to "the extremely powerful effect and vision which the figure of Miss Havisham contributes to *Great Expectations*".[25] Miss Havisham's love story and its disastrous results are presented to us via Mr Pocket, Herbert, and Pip. Herbert tells Pip her history as follows:

> The marriage day was fixed, the wedding dresses were bought, the wedding tour was planned out, the wedding guests were invited. The day came, but not the bridegroom. He

> wrote a letter—Which she received, I struck in, 'when she was dressing for her marriage? At twenty minutes to nine?'
> 'At the hour and minute,' said Herbert, nodding, at which she afterwards stopped all the clocks. What was in it, further than that it most heartlessly broke the marriage off, I can't tell you, because I don't know. When she recovered from a bad illness that she had, she laid the whole place waste, as you have seen it, and she has never since looked upon the light of day. (*Great Expectations:*160)

Abandonment by Compeyson is a sudden blow to Miss Havisham. She has to suffer from violent shock and permanent agony together. Dickens emphasizes the threatening effect of emotional troubles on mental illness by adding Pip's nightmare after rescuing Miss Havisham from the fire. Pip is, for a while, haunted by his fearful memory of the fire and of Miss Havisham in anguish. Dickens focuses more on Pip's emotional shock than on physical injury caused by the burns: "This pain of the mind was much harder to strive against than any bodily pain I suffered" (*Great Expectations*: 360).

Miss Havisham is described as: "she had the appearance of having dropped body and soul, within and without, under the weight of a crushing blow" (*Great Expectations*: 52).

Pip's reproach of Miss Havisham echoes a general treatment of mental illness: "in seclusion, she had secluded herself from a thousand natural and healing influences" (*Great Expectations*:355). However, she is prohibited from these treatments because she is socially unwanted. As Michel Foucault discusses, "detention or reclusion is a form of punishment. Thanks to her wealth, Miss Havisham is saved from enforced incarceration in a lunatic asylum. But, she is compelled to confine herself apart from society by a social imperative because she fails to accomplish women's normative social roles: marriage and mothering."[26] Pip is shocked when he sees the old lady in her old yellowish bride dress. He also notices that her watch and the clock in the room 'had stopped at twenty minutes to nine' (Great Expectation: 57). Seeing the strange old lady with an awkward appearance who had never left the room since her

dramatic misfortune, who wanted diversion, and who had sick fancies to have someone play around her is an abnormal thing which Pip tries to understand.

> Before she spoke again, she turned her eyes from me, and looked at the dress she wore, and at the dressing-table, and finally at herself in the looking-glass. 'So new to him,' she muttered, 'so old to me; so strange to him, so familiar to me; so melancholy to both of us! Call Estella.' (*Great Expectations*: 58)

Dickens highlights two important facts about human psychology and human nature using Miss Havisham's unfortunate love affair. The first fact is that people sometimes blame others for any personal bad treatment or a mistake. Secondly, when people find themselves in a bad or terrible situation, they look around to see whether they are suffering alone or not. Seeing other fallen people suffer like them gives them satisfaction. To be clearer, Miss Havisham wants to see a broken-hearted gentleman who has been abandoned by his female lover that is the reverse of her situation. She wants to take revenge from all men by using Estella. Pip becomes the candidate for the 'broken-hearted' gentleman. Miss Havisham's devilish plan starts to work and Pip begins to think differently. Eventually, he starts to feel ashamed of his home, of his coarseness and commonness.

4.2.Mrs Joe Gargery:

The other female character who is cruel and odd in the novel *Great Expectations* is Mrs. Joe Gargery. She is the first female character to be introduced in *Great Expectations*. She is Pip's elder sister and wife of blacksmith Joe Gargery. Mrs. Gargery is twenty years older than Pip and has earned quite a "reputation with herself and the neighbours because she had brought him up 'by hand.' (*Great Expectations*: 11). Mrs Joe's given name is never revealed in the text, significantly she takes the patronymic, Mrs Joe, rather than any female name, because Mrs. Joe is a violent woman, possessing violence that is usually attached to male than female. The writer wants to convey that this woman does not have the normal qualities of women. Pip describes his feelings of fear because of her in the following passage:

> Having at that time to find out for myself what the expression meant, and knowing her to have a hard and heavy hand, and to be much in the habit of laying it upon her husband as well as upon me, I supposed that Joe Gargery and I were both brought up by hand. (*Great Expectations*: 11)

Pip's description of the physical features of his sister is quite interesting. According to him, she was not a good-looking woman and that "she must have made Joe Gargery marry her by hand" (*Great Expectations*: 11). About her manners, Pip states that "she never was polite, unless there was company" (*Great Expectations*: 21). Mrs. Joe Gargery has a strange way of cleaning the house. Pip thinks that she has an exquisite art of making her cleanliness more uncomfortable and unacceptable than dirt itself (*Great Expectations*: 37). Although Mrs. Joe Gargery does not show her love and affection for her husband, she is full of jealousy when she comes to know that Miss Havisham wishes to see her husband Joe Gargery to discuss some serious issues related to Pip. If jealousy is a sign of love, Mrs. Joe Gargery does really love her husband as is evidenced in her extreme anger on this occasion:

> When I got home at night, and delivered this message for Joe, my sister 'went on the Rampage,' in a more alarming degree than at any previous period. . . . she threw a candlestick at Joe, burst into a loud sobbing, got out the dustpan . . . and began cleaning up to a terrible extent. Not satisfied with a dry cleaning, she took to a pail and scrubbing-brush, and cleaned us out of house and home, so that we stood shivering in the backyard (*Great Expectations:*173).

Joe professes his feelings for Mrs. Joe to Pip: "Whatever family opinions, or whatever the world's opinions, on that subject may be, Pip, your sister is . . . a fine figure of a woman!" (*Great Expectations:* 82). When Pip asks why he does not rise against Mrs Joe, the blacksmith explains:

> This I want to say very serious to you, old chap - I see so much in my poor mother, of a woman drudging and slaving and breaking her honest heart and never getting no peace in her mortal days, that I'm dead afraid of going wrong in the way of not doing what's right by a woman, and I'd fur rather of the two go wrong the t'other way, and be a little ill-convinced myself. I wish it was only me that got put out, Pip; I wish there weren't no Tickler for you, old chap; I wish I could take it all on myself (*Great Expectations:*80).

She is an aggressive woman contrast to the ideal gentle, obedient, kind and caring woman that should characterize Victorian woman. Mrs Joe is the first of the violent women in *Great Expectations* to be punished, violently. She has created a terrible scene of screaming abuse at Orlick in the smithy, and the narrator, recalling this scene, adds:

> I must remark of my sister, what is equally true of all the violent women I have ever seen, that passion was no excuse for her, because it is undeniable that instead of lapsing into passion, she consciously and deliberately took extraordinary pains to force herself into it, and became blindly furious by regular stages (*Great Expectations*: 142).

This statement by Pip confirms that he has had many encounters with violent women. Mrs. Joe has been brutally attacked:

> ….lying without sense or movement on the bare boards where she had been knocked down by a tremendous blow on the back of the head, dealt by some unknown hand when her' face was turned towards the fire - destined never to

> be on the Rampage again. (*Great Expectations*:147)

When Mrs Joe dies, her final words are 'Joe', and 'Pardon' and 'Pip' (*Great Expectations*:302). Thus the violent woman seeks forgiveness from her victims. Mrs Joe has refused the domestic ideal: she is not the angel in the house but a devil.

4.3. Estella:

Estella is Miss Havisham's adopted daughter, at whose hands Pip experiences emotional violence for the first time, Estella's contempt for his coarse hands and thick boots being, Pip recalls, 'so strong that it became infectious' (*Great Expectations*: 90). Before he leaves Satis House after his first visit, Estella brings Pip food and drink:

> She put the mug down on the stones of the yard, and gave me the bread and meat without looking at me, as insolently as if I were a dog in disgrace. I was so humiliated, hurt, spurned, offended, angry, sorry - I cannot hit upon the right name for the smart - God knows what its name was - that tears started to my eyes. (*Great Expectations*: 92)

Brought up by Miss Havisham in the dark house is so suggestive of a punitive asylum, Estella's mental soundness is misused. Miss Havisham later confesses to Pip: "I stole her heart away and put ice in its place" (*Great Expectations*: 356). Miss Havisham originally intends that Estella should not suffer the misery which arises from susceptibility. Yet, as Estella becomes handsome, Miss Havisham thinks of taking revenge on society which excludes her, using Estella as an instrument. In terms of the physiological explanation of the human mind, Miss Havisham hardens Estella's heart. Estella grows to be icy and heartless, unlike Miss Havisham whose susceptible heart is her ruin. Estella says to Pip, "I have a heart to be stabbed in or shot in…if it ceased to beat I should cease to be. But you know what I mean. I have no softness there, no sympathy – sentiment - nonsense" (*Great*

Expectations: 211). As a result of the dehumanization by Miss Havisham, Estella views her heart merely as the organ of circulating blood. Her defiance of Miss Havisham is characteristic of a heartless woman. Miss Havisham, in a rage, curses her ward: "You stock and stone!…You cold, cold heart!" (*Great Expectations*:271). On the other hand, Estella, in the quarrel, composedly points out her guardian's illogic: "When have you found me giving admission here [the heart]…to anything that you excluded? Be just to me" (*Great Expectations*: 272). Pip has great love to Estella. He says: 'I loved her against reason, against promise, against peace, against hope, against happiness, against all discouragement that could be' (*Great Expectations*:253-4). Miss Havisham's plan is to make Pip smitten by Estella's beauty and to desperately beg her to marry him. Estella, on the other hand, is a fake. She is born in the lowest layer of the low class, yet she is educated by Miss Havisham to become a lady and behave as if she were born in the upper class. Therefore, Estella's poor, criminal origin (her mother was a murderess) is revealed in the scene in which she gets pleasure in 'animal aggression'. Gilmour pinpoints this fact and uses the Pip-Herbert fight scene in order to show her real face:

> The brief scene enacts the supreme paradox of Pip's life: Estella can only respond to him when he exhibits those qualities of physical force and animal aggression which, in order to win her, he is at pains to civilize out of himself. It [her kiss] is her one spontaneous gesture to Pip and he misreads it, feeling only guilt and remorse at this exercise of his blacksmith's arm.[27]

Estella remains a 'star' to Pip, a star he cannot reach at all in the original version and ending of the novel. In the second version – as the happy ending was a public requirement – they meet at Satis House again and, as they leave "the ruined place," Pip says that he sees "no shadow of another parting from her." (*Great Expectations*: 478) implying that they may get together and live happily ever after. In this respect, Philip V. Allingham claims that:

> The futile love affair with Estella – bright, and distant, and cold as the stars for which he has named her – reflects young Dickens' own

> hopeless infatuation with a banker's daughter, Maria Beadnell. Significantly, in the original ending Dickens did not reward Pip for his struggles by arranging the traditional happy ending for the lovers.[28]

5. Normal and kind-hearted women in Dickens' Novels:

5.1.Rose in *Oliver Twist*

In *Oliver Twist*, Dickens represented most female characters as either cruel or being exploited by the society, but there are few characters who are represented as pure and perfect. In this novel, Rose is the ideal lady in the novel. Dickens describes her as an angel, a woman with good moral values and standards. She is clearly a symbol of the Victorian ideals. Rose is young, pure and beautiful, with good moral standards. Her angelic qualities seem to correspond to the Victorian ideals of women. She is described as "gold with its unique qualities"(*Oliver Twist*:63). Rose is surrounded by good people, especially compared to the other women in the novel. She is surrounded by people that keep her in the "proper domestic sphere" (*Oliver Twist*:64).

> She exemplifies all the attributes of the "mould": she is young, beautiful, frail, mild, gentle, pure, ethereal, intelligent, sweet, pleasant, charming, coy and blessed. She even possesses the right physiognomy ("intelligence…stamped on her noble head"), and she is performing domestic tasks, adorning both table and self for the gratification of others. The "blessed" spirits give her approval. Even Nancy calls her the angel lady. (*Oliver Twist*:64)

Rose Maylie is an admirable Dickensian woman who represents the ideal woman of the Victorian era, innocent, sexless and pure. She becomes an orphan when her father dies, but is adopted by Mrs. Maylie. Mrs Maylie nurtures her and gives her an identity. She spreads happiness and goodness with her angelic character. The author introduces her by saying that:

> Rose Maylie was in the lovely bloom and spring-time of womanhood; at that age when, if

> ever angels be for God's good purposes enthroned in mortal forms, they may be without impiety supposed to abide in such as hers. She was not past seventeen. Cast in so slight and exquisite a mould, so mild and gentle, so pure and beautiful, that earth seemed not her element, nor its rough creatures her fit companions. (*Oliver Twist*: 235)

The environment is important for the creation of a good woman in *Oliver Twist*. Rose was rescued as an orphaned child and raised by Mrs. Maylie. The following extract shows the effect of the environment in creating a good female personality:

> Thank Heaven upon your knees, dear lady,' cried [Nancy], 'that you [Rose] had friends to care for and keep you in your childhood, and that you were never in the midst of cold and hunger, and riot and drunkenness, and—something worse than all—as I have been from my cradle; I may use the word, for the alley and the gutter were mine, as they will be my deathbed. (*Oliver Twist*: 334)

Rose represents a model of a perfect woman. She is nice, kind, and compassionate. She takes care about her husband and home. She is like an angel and brings enjoyment of life to all the people around her. She believes, as Oliver, that the surrounding world is good even though she experienced terrible childhood. Because Rose knows what it is like to be rescued from an unhappy childhood, she urgently wants to rescue Oliver. In that way, she represents all the good instincts of Victorian society. Rose suggests for Nancy that she can rescue herself, change her life and be a good person ,but Nancy rejects it for love of Sikes. In the novel, Rose is the model of female virtue who becomes one of the few memorable normal female characters in Dickens' novels. Seventeen years old at the time of the novel's events, she is set up as a dramatic foil to Nancy, who is around the same age and sees her own degradation in contrast to Rose.[29] Rose rejects Harry's love and proposal

because she belongs to a lower social rank and would bring him only ridicule and problems. Towards the end of the novel, Rose becomes seriously ill and is apparently on the point of death. Harry hastens to her side and declares his love for her. She recovers and the couple are married.

5.2. Biddy in *Great Expectations*:

Biddy is a female character who is introduced by the narrator Pip as the grand-daughter of Mr. Wopsle's great-aunt. She was also an orphan like Pip and was also brought up "by hand". Biddy is one of the most agreeable characters created by Dickens. According to Pip, she "managed her whole domestic life, and wonderfully too" (*Great Expectations*: 124). Moreover, Biddy is intelligent:

> For, I called to mind now, that she was equally accomplished in the terms of our trade, and the names of our different sorts of work, and our various tools. In short, whatever I knew, Biddy knew. Theoretically, she was already as good a blacksmith as I, or better. (*Great Expectations*:124).

Biddy, Pip's first teacher, is the example of Dickens' ideal women in *Great Expectations*. Throughout the novel, Biddy appears as the moral and virtuous country girl. She is a simple and kindhearted country girl who first befriends Pip when they attend school together. After Mrs. Joe is attacked and becomes invalid, Biddy moves into Pip's home to care for her. Throughout most of the novel, Biddy is a contrasting figure to Estella. Her plainness, frankness, and kindness are completely opposed to Estella's cold beauty, dishonesty, and cruelty.

Pip is amazed at Biddy's perfection and domestic skill, coupled with the knowledge she possesses. It is a surprise to him because he does not expect a woman to be as intelligent as Biddy is. Although she is intelligent, she is passive and does not threaten male personality or dominance which is highlighted in her repeated statement: "You know best, Pip" (*Great Expectations*:125). Like the typical nineteenth century virtuous women, Biddy is rewarded with marriage at the end of the novel. Although Biddy is portrayed as an insignificant character in the novel, she actually fulfils the

Victorian perception of true womanhood despite the class to which she belongs. According to Dickens, Biddy is the perfect "angel in the house" because of her domestic skills and her ability to perform the masculine trade in which Pip and Joe are involved. Though Biddy does not study as much as Pip does, she is clever. Pip confesses this fact openly:

> Biddy, said I, how do you manage it? Either I am very stupid or you are very clever. How do you manage to learn everything that I learn, and always to keep up with me? when I come in from the forge of a night any one can see me turning to at it. But you never turn at it, Biddy. (*Great Expectations*, 117)

Biddy has taught Joe how to read and write. After Joe leaves, Pip decides to rush home after him and marry Biddy, but when he arrives there he discovers that she and Joe have already married.

The ideal Victorian woman is more attached to the home and was the embodiment of everything domestic and feminine. She subordinated her own desires to those of her husband and children, while acting as the moral guide for her family. In *Great Expectations*, Biddy fits the ideal woman and is rewarded with a good husband and happy ending

6. <u>Conclusion</u>:

This paper is an attempt to investigate the portrayal of women in two novels by Dickens, namely *Oliver Twist* and *Great Expectations*. These two novels were selected carefully as the first was written in the beginning of Dickens' literary life, while the second was written at the end of his literary life. So, the researcher tried to find out the development and the difference in representing the women in two different novels written in two different periods of the writer's life.

It is a fact that a literary text represents the age in which it was written and the personal life of its writer. It is obvious that Dickens' relationships with his mother and his wife affected greatly on the representation of female characters in his novels. Dickens represented the women in two different ways. The first pattern of women represented in these two novels is the pattern of female unfaithfulness in grotesque mothers and mother-figures who

are punished for their sins. Odd and cruel female characters are more common in his fiction than pure female characters. On one hand, grotesque representation of the women in his novels is like an appeal to society to solve the problems facing poor women and develop their crucial conditions. He wants from the society to reform prostitutes and "fallen women" by providing them with opportunities for a better life . Unlike other people, Dickens recognizes the factors that lead women into prostitution, which are poverty and negligence from family and society. Dickens' artistic creation of characters who represented reality, indicates his social concern and the desire to speak for women, who were among the underprivileged members of society. He used literary art as a means to expose some social ills which subjugated some women to severe injuries and even premature death. His works are instrumental in implementing social reforms.

On the other hand, Dickens experienced some bitter experiences as a child in his life, because of the cruelty of his mother and that created so many cruel female characters in his novels. This paper has shown that Charles Dickens' life experiences played a major role in shaping his female characters.

The second pattern is the pattern of young, delicate females who reflect his own ideal female as well as the ideal females who conform to conventional Victorian culture. In *Oliver Twist*, Rose reflects Dickens' expectations of the female character in Victorian times. She has the dutiful and devoted characteristics of the angel in the house, while also exhibiting good housekeeping skills. This is the young woman whom Dickens had wished his own wife to be like.

In *Great Expectations*, Biddy fits the ideal mold and is rewarded with a good husband and happy ending, but the women who do not conform to social norms are punished. Mrs. Joe's pride, cruelty and tough behavior ends with a decisive blow. Estella's cold heart is punished in her marriage to a snobbish man. Miss Havisham is particularly a strange character. She cannot live a normal life. She is deceived by her finance who does not appear in the wedding. As a result, she decides to take revenge from all men by employing the beauty of Estella. Estella is used as an instrumentof revenge to be used against all men. Miss Havisham wants Estella to break the hearts of men. Driven mad and vengeful by heartbreak, she also neglects her feminine and domestic duties—failing to wash, brush her hair, change her clothes or clean her house. Miss Havisham's rage and ruthlessness are finally exorcized by

fire. In the end, she repents after realizing the terrible injury she has done to Estella and Pip. Theses Female characters show that Dickens was unsympathetic to women who socially rebel. Peter Schecher in his essay Gender and Class in Dickens suggests that "it was the author's own marital disaster that inspired his current impatience with women who were aggressive or non-conformist. His separation from Catherine Hogarth in 1858 was particularly nasty and could have affected his perspective" .[30] In these two novels, various women were depicted to show Dickens' different views towards women. Regarding prostitutes, he feels sympathetic with them because they are innocent victims of society. Nancy and Agnes are examples of fallen women in *Oliver Twist*.

In brief, Dickens' childhood experiences and unsuccessful marriage shaped cruel and odd female characters in his novels. In *Oliver Twist*, we find cruel mothers and mothers-like as Mrs. Mann and Mrs. Sowerberry. In *Great Expectations*, we find a cruel sister Mrs. Joe, Miss Havisham and Estella who are all representatives of odd women.

For ideal female characters, they are found rarely in these two novels: Rose who plays a major role in *Oliver Twist* and Biddy who appears at the end of the novel *Great Expectations*. Cruel and odd female characters are more dominant than good characters. In *Oliver Twist*, the writer shapes a variety of female characters: the prostitute, cruel and odd characters and very few good characters. For *Great Expectations*, he shapes the image of cruel and odd characters and we find only one good female character ,Biddy, who does not play a major role in this novel. *Great Expectations* was written at the end of Dickens life so his failure in marriage and love is reflected in shaping his female characters in his novel.

Endnotes:

1. Kailash &Sudha, Charles Dickens' Fiction: Depiction of the condition of Children and Women During Victorian Period. *International Journal of Research in Economics & Social Sciences*, Ijress Volume 2, Issue 7 (July 2012) ISSN: 2249-7382, P.43. http://www.euroasiapub.org .
2. George Gissing, *Charles Dickens: A Critical Study.*1898. E-book. Web. 20 March 2012, P.43.
3. Michael Slater, *Dickens and Women*. London: Stanford UP, 1983, P.240.
4. George Letissier, "Dickens and Post-Victorian Fiction", *Refracting the Canon in Contemporary British Literature and Film.* Ed. S. Onega and C. Gutleben. Postmodern Studies 35, Amsterdam: Rodopi, 2004, P 113.
5. Elizabeth Tatum, *Something Covered with an Old Blanket: Nancy and Other Dead Mothers in Oliver Twist, The American Journal of Psychoanalysis*, Vol. 65, 2005, P.242.
6. Ibid., P.244.
7. J. Kluger, *The Sibling Effect: What the Bonds Among Brothers and Sisters Reveal About Us*, New York: Riverhead Books, 2011, P.97.
8. Elizabeth Tatum, *Something Covered with an Old Blanket: Nancy and Other Dead Mothers in Oliver Twist, The American Journal of Psychoanalysis*, Vol. 65, 2005, P. 244.
9. David Holbrook, *Charles Dickens and the Image of Women* ,1993, P. 187.
10. Ibid., PP. 28-9.
11. Ibid., P. 166.

12. Amanda Anderson, *Tainted Souls and Painted Faces: The Rhetoric of Fallenness in Victorian Culture*, Ithaca: Cornell UP, 1993.
13. Elizabeth Tatum, *Something Covered with an Old Blanket: Nancy and Other Dead Mothers in Oliver Twist*, 2005, The American Journal of Psychoanalysis, Vol. 65, No. 3, P. 36.
14. Richard Altick, *Victorian People and Ideas: A Companion for the Modern Reader of Victorian Literatu re.* London: Norton and Company, 1974, P. 25.
15. Charles Dickens, "An Appeal to Fallen Women." *Academic Society.* 12 January 2008, Appendix 4. http://www.soc.nii.ac.jp/dickens.etexts/dickens/others/sonota/fallen.
16. Charles Dickens, "Author's Introduction to the Third Edition (1841)." *Oliver Twist.* Ed. Philip Home. London: Penguin Books, 2002, PP. 456-460.
17. Michael Slater, *Dickens and Women*. London: Dent, 1983, P.221.
18. Elizabeth Tatum, *Something Covered with an Old Blanket: Nancy and Other Dead Mothers in Oliver Twist,* 2005, The American Journal of Psychoanalysis, Vol. 65, No. 3, P. 43.
19. Catherine Waters, " reforming culture". *Palgrave Advance in Dickens' Novels* . Ed by John Bowen and Robert L. Patten. Palgrave Macmillan Houndmills: New York, 2006, P.170.
20. Michael Slater, *Dickens and Women*, London: Dent, 1983, P. 312.
21. Elizabeth Tatum, *Something Covered with an Old Blanket: Nancy and Other Dead Mothers in Oliver Twist*, 2005, *The American Journal of Psychoanalysis*, Vol. 65, No. 3, P. 243.
22. Ibid.,243.
23. Paul Davis, *A Critical Companion to Charles Dickens,* New York: Facts On File, 1999, P.134.

24. Michael Slater, *Dickens and Women*, London: J.M.Dent &Co. ,1983, P.291.
25. Sucksmith, *The Narrative Art of Charles Dickens: The Rhetoric of Sympathy and Irony in His Novels*, Oxford: Clarendon Press,1970, P.186.
26. Michel Foucault, *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*, trans. Alan Sheridan (1977; Harmondsworth: Penguin, 1991, P. 115.
27. Robin Gilmour, *The Idea of the Gentleman in the Victorian Novel*, London: Allen & Unwin, 1981, P. 139 .
28. Philip V. Allingham, *An Introduction to Charles Dickens's Great Expectation* , Faculty of Education, Lakehead University, Ontario, P.6. http://www.victorianweb.org/authors/dickens/ge/pva10.html
29. Bromburg & Morris, *Charles Dickens's Oliver Twist, Barron's Educational Series*, 1 Jan 1985, P.15.
30. Peter Schechner, Gender and Class in Dickens: Making Connections. http://www.yingyudaxue.com/book/criticism-gender-and-class-in-dickens-makingconnections-by-peter-schechner

Bibliography

- Allingham, Philip V. *An Introduction to Charles Dickens's Great Expectation.* Faculty of Education, Lakehead University, Ontario. http://www.victorianweb.org/authors/dickens/ge/pva10.html.
- Anderson, Amanda. *Tainted Souls and Painted Faces: The Rhetoric of Fallenness in Victorian Culture.* Ithaca: Cornell UP, 1993.
- Davis, Paul. *A Critical Companion to Charles Dickens.* New York: Facts On File, 1999.

- Dickens, Charles. "An Appeal to Fallen Women." *Academic Society.* 12 January 2008. http://www.soc.nii.ac.jp/dickens.etexts/dickens/others/sonota/fallen.pdf
- ----------. "Author's Introduction to the Third Edition (1841)" *Oliver Twist.* Ed. Philip Home. London: Penguin Books, 2002.
- ----------. *Great Expectations.* London: Collier – MacMillan Ltd, 1962.
- ----------. *Oliver Twist.* London: Penguin, 1992.
- Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*, trans. Alan Sheridan 1977; Harmondsworth: Penguin, 1991.
- Gilmour, Robin. *The Idea of the Gentleman in the Victorian Novel*. London: Allen & Unwin, 1981.
- Gissing, George. *Charles Dickens: A Critical Study.* 1898. E-book. Web. 20 March 2012.
- Gorham, Deborah. "The 'Maiden Tribute of Modern Babylon' Re-Examined: Child Prostitution and the Idea of Childhood in Late Victorian England." *Victorian Studies*, Vol. 21:3, 1978.
- Holbrook, David. *Charles Dickens and the Image of Woman*. New York: New York University Press, 1993.
- Kailash &Sudha. Charles Dickens' Fiction: Depiction of the condition of Children and Women During Victorian Period. *International Journal of Research in Economics & Social Sciences*. Ijress Volume 2, Issue 7, July 2012. ISSN: 2249-7382. http://www.euroasiapub.org.

- Kluger, J.*The Sibling Effect: What the Bonds Among Brothers and Sisters Reveal About Us*. New York: Riverhead Books, 2011.
- Schechner, Peter. Gender and Class in Dickens: Making Connections. http://www.yingyudaxue.com/book/criticism-gender-and-class-in-dickens-makingconnections-by-peter-schechner
- Slater, Michael. *Dickens and Women*. London: Stanford UP, 1983.
- Sucksmith, H. P. *The Narrative Art of Charles Dickens: The Rhetoric of Sympathy and Irony in His Novels*. Oxford: Clarendon Press, 1970.
- Tatum Karen Elizabeth, Something Covered with an Old Blanket: Nancy and Other Dead Mothers in *Oliver Twist*, *The American Journal of Psychoanalysis*, Vol. 65, No. 3, 2005.

- Waters, Catherine. " reforming culture". *Palgrave Advance in Dickens' Novels* . Ed by John Bowen and Robert L. Patten. Palgrave Macmillan Houndmills: New York, 2006.

Non-destructive Micro-charatrazition of Gamma Irradiation Effects on Borosilicate Glass $BaO\text{-}2B_2O_3\text{-}3SiO_2$ by Acoustic Signature

By

Dr. Ibrahim Hamid Qassem AL-Suraihy

Department of Physics, Faculty of Education, AL-Mahweet,

Sana'a University.

Abstract

In this paper, we investigate gamma-radiated effects on the elastic acoustic parameters(reflection coefficients R(θ), acoustic signatures V(z), critical angles of wave excitation, spatial periods, velocities) of barium lead borosilicate with the different gamma-radiated dose rate of 0 , 3, 6, 9, and 12 . The radiation effects on structural and elastic properties were evaluated by measuring the ultrasonic velocities. It was found that, as Gama radiation dose rate increases, longitudinal velocities vary from 4172 to 4344 m/s whereas Rayleigh velocities vary from 2991 to 3084 m/s. Hence, we first deduce the values of propagating surface acoustic wave velocities, and in the second step we find the values of bulk and surface velocities before radiated and after Gamma-radiated glass samples. The effect of Gamma irradiation dose range from 0 Gy to12 Gy effects on the acoustic signature, V(z) amplitudes and periods and reflection coefficients R(θ) critical angles of wave excitation of these glasses is also reported. The calculated reflectance functions that experience several features near critical angles at which longitudinal, shear and Rayleigh modes are existed depend on Gamma radiation dose. It has been observed that, irradiation of the glasses with the Gamma rays increases the BO_3 groups and the non bridging oxygen which make the network loose.

1 INTRODUCTION

Borate glasses are very interesting amorphous materials considering their specific structure and physical properties. In recent years, research has paying attention on the development of new types and scientifically important materials as Borosilicate glasses that motivate forming system and often used as a dielectric insulating and good chemical resistance material [1]. Organic materials as well as some glassy ones, especially polymers, have been increasingly interesting for different purposes such as thick films technology ink constituents. Therefore, the scientific information of the glass structure before and after irradiation is a requirement for understanding the structural progress of nuclear glasses under continuing irradiation during storage of radioactive wastes or isotopes sources, radiation shielding, radiation detection by using glass dosimeter, etc.[2]. Studies on irradiated glasses have been previously published on simple glass systems such as silicate glasses [3]or on multi-component glasses such as borosilicate glasses[4-6].Several earlier work

known that lead borate glass is interest because of the occurrence of the boron anomaly foremost to rich in glass chemistry [7]. Therefore, the structure and the classification of the main structural groups of borosilicate glass has been widely studied by using a number of techniques, as this system has a extensive diversity of technological applications such as; optical lenses, nuclear waste materials, shielding materials and use in the electronics industry [8, 9]. The potentials and inter-atomic forces in the lattice structure are the important parameter related to properties of glass. Thus, changes in the lattice, due to doping and/or radiation can be directly affected [10-14].

In the other hand, the ultrasonic non-destructive pulse-echo technique plays a important role n understanding the structural properties of glass network and evaluating the acoustical parameters, such as longitudinal, shear and Rayleigh ultrasonic wave velocities, elastic moduli [15-18]. These parameters give information about the microstructure as well as the behavior of the network formers and change in the glass [19-21].

Gamma irradiation causes changes in the physical properties of materials. Where, Gamma irradiations scattering and absorption generally related to the density and atomic number of material sample. Conversely, in composite materials, the important is knowledge of the mass attenuation coefficients, as well as the relation to density and effective atomic number, is of prime [22]. Conventional influence due to Gamma irradiation in glass producing defects where can be Clearfield by UV-visible spectroscopic work [22, 23]. Electronic processes change is the principal effect of ionizing radiation. Particularly, these effects take place because electrons are excited to leave their normal positions and move through the glass set of connections. Ultrasonic velocities were measured as a function of composition, from which elastic resistances of the network former and the modifier are obtained on the basis of the theory of elastic internal energy [24].

2 MATERIALS AND COMPUTING PROCEDURE

2.1 MATERIALS

A series of barium lead borosilicate glass samples were choosing consistent with the formula, xBaO-(50-x)PbO– 20B2O3 – 30SiO2 (x = 2 mol. %). The starting materials used in the experimental study were reagent grade BaO, PbO,

B2O3 and SiO2. It was mixed together and calculated to give a sample of 50g. The homogeneity of the mixture of chemicals was achieved by repeated grinding using agate mortar. The powder mixture was then put in appropriate clay crucibles and heated in melting furnace at 1250 °C for 4 h. These melts were cast in a stainless steel mold and annealed at 450 °C for 2 h and allowed to cool to room temperature [24].

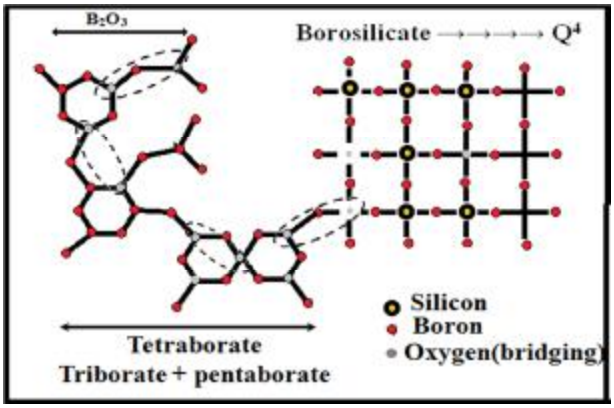

Fig. 1. showed combination of triboratepentaborate units. Filled circles and open circles represent boron and oxygen atoms, respectively. Dashed lines in the structures denote connections to the network, and charges are shown for the non- bridging oxygen (NBO) in the metaborate groups [24].

2.2 GAMMA IRRADIATION

The glass samples were radiated by exposure machine (THERATRON 780C) using 60Co c-ray source at a dose rate of 174.70 cGy min and field size of 30×30 cm^2 at 80 cm from the source at room temperature. The different doses of irradiation were achieved by exposing the sample to the source of different periods. The used Gamma-ray dose rates are 3, 6, 9 and 12 Gy, respectively [24]. It was shown in table 1. that the densities of the glass samples increase with increasing the irradiated by Gamma radiation rates.

Table 1

Experimental data [24] of longitudinal and shear Velocities in BaO-PbO–20B2O3–30SiO2 Doses of Irradiation.

Dose (Gray)	ρ (kg/m3)	V_L (m/s)	V_S (m/s)
0	4212	4200	2186
3	4222	4234	2219
6	4231	4273	2258
9	4241	4318	2303
12	4253	4372	2357

2.3 NONDESTRUCTIVE TESTING AND CALCULATING PROCEDURE

The calculation method, illustrated in detail somewhere else [17-23], which is consists of a number of steps:

1. calculating the reflection coefficient, R(θ) from equation (1) [14]:

$$R(\theta) = \frac{Z_L \cos^2 2\theta_S + Z_S \sin^2 2\theta_S - Z_{L1q}}{Z_L \cos^2 2\theta_S + Z_S \sin^2 2\theta_S + Z_{L1q}} \quad (1)$$

where Z_L liquid longitudinal impedance, Z_S liquid transversal impedance,ρ_{Liq}coupling liquid density and $V_{Liq}$the propagating wave velocity in the liquid which can be calculated from Eq.2.

$$Z_{L1q} = \frac{\rho_{L1q} V_{L1q}}{\cos\theta_i}, Z_L = \frac{\rho V_L}{\cos\theta_l}, Z_S = \frac{\rho V_S}{\cos\theta_s}$$

2. Calculating the acoustic signature V(z) curves of the full specimen-lens system from the angular spectrum model [18] given by the Eq. 3 :

$$V(Z) = \int_0^{2\pi} P(\theta)^2 R(\theta) e^{i2kz\cos\theta} \sin\theta \cos\theta \, d\theta \quad (3)$$

where $P^2(\theta)$is the pupil function, θ is the half-opening angle of the lens, z is the defocusing distance and is the wave number in the coupling liquid, j = √-1.

3. deducing acoustic signature V(z) of the sample by subtracting the response of the lens Vl(z) from V(z),
4. applying fast Fourier transform, FFT, a spectral technique to the obtained signal V(z), in order to determine spatial periods Δz, deducing the phase velocity of the corresponding mode from the following relation (4) [18]:

$$V_R = \frac{V_{Liq}}{\sqrt{1 - \left[\frac{V_{Liq}}{2f\Delta z}\right]^2}} \qquad (4)$$

where f is the operating frequency.

2.4 SIMULATION CONDITIONS

Theoretical simulations were carried out in the case of a scanning acoustic microscope in the reflection mode under normal operating conditions: an operating frequency of 140 MHz, a half opening angle of 50° and using the water as the coupling liquid whose density, ρ = 1000 kg/m3 and longitudinal velocity VL = 1500 m/s.

TABLE 2

calculated z_l liquid longitudinal impedance, z_s liquid transverse impedance of barium lead borosilicate glass BaO-PbO–$20B_2O_3$–$30SiO_2$

Reflection mode	θ_L		θ_S	
Dose (Gray)	Z_{Liq}(MKSA)	Z_m(MKSA)	Z_{Liq}(MKSA)	Z_m(MKSA)
0	1.60672	53.5606	2.018	11.963
3	1.60458	39.1565	2.0021	11.990

6	1.60246	39.6686	1.9750	12.278
9	1.60037	23.5326	1.9411	12.787
12	1.59728	42.7682	1.9161	13.009

3 RESULTS AND DISCUSSION

3.1 GAMMA-IRRADIATION EFFECTS ON R (Θ)

It is informative to follow the modify of the reflection coefficient R(θ) over the whole range of incidence angles for the case of a water-barium lead borosilicate glass interface with several irradiation doses of 0, 3, 6, 9 and 12 Gray shown in Fig. 2 . It should be noted that, R(θ) is a complex function that admits an amplitude (modulus) |R(θ)| and phase from Eq. 1. For waves incident on the structure we individually calculate it. At normal incidence, the reflection coefficient value lies between 0 and 1 depending on the acoustic mismatch between the two media. Only the longitudinal wave transmitted and there is no mode conversion, i.e., no shear wave transmitted at normal incidence. As θ increases, longitudinal and shear waves are excited in the solid. R(θ) stays more or less constant until the longitudinal critical angle, at which point it rises sharply to spike at $|R(\theta)| \equiv 1$. At this angle, the longitudinal wave propagates along the surface so no energy propagated into the solid. The shear wave amplitude goes to zero at this angle and there is total reflection as shown in Fig. 2a. As θ further increases, we get at a second critical angle θ_s for shear waves, which now spread along the surface From θ_s out to 90° there is total reflection of the incident wave, $|R(\theta)| \equiv 1$.

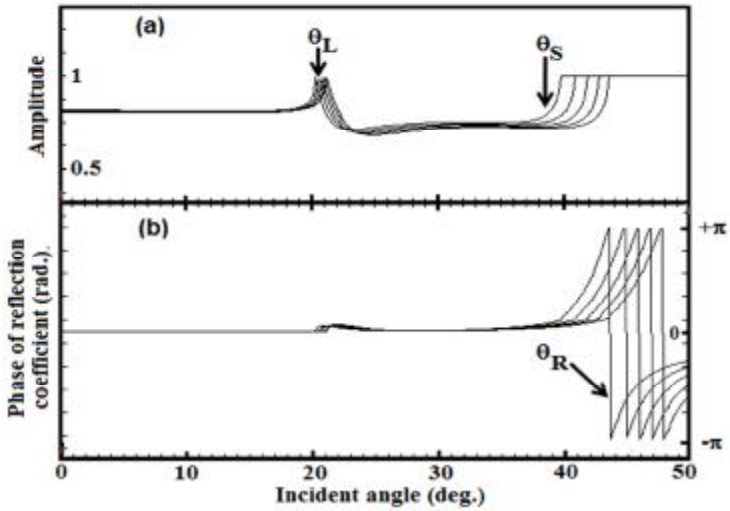

Fig .2.illustrates typical results of the amplitude (Fig. 2a) and the phase (Fig. 2b) as a function of incidence angle.

It is clear that, as the angle of incidence increases we observe important changes in both amplitude and phase. It can readily be deduced that shear modes are excited at θ_S ~ 42°, 41.5°, 40.6°, 39.4° and 38.5° for Gamma irradiated dose rate of 0 , 3, 6, 9, and 12 respectively. In phase, the most important variation, with $\Delta\varphi = 2\pi$, occurs at the critical angle, θ_R, at which Rayleigh modes are excited. Thus, one can simply determine that θ_R ~ 47.5°, 46.7°, 45.7°, 44.6° and 43.4° for Gama irradiated dose rate of 0 , 3, 6, 9, and 12 respectively. Moreover, it can be seen visibly longitudinal modes θ_L variation from 21° to 20.1°. It should be noted that the onset of the 2π phase change corresponds to the shear critical angle θ_S, (as indicated by the arrow in Fig. 2b). The slight shift between
θ_S and θ_R is due to the fact that the Rayleigh velocity varies slightly from 87 to 95 % of the shear velocity [14]. The degree fluctuations in phase and amplitude in R (θ) in the different Gama irradiated dose rate of each critical angle are indicative of the generation efficiency of different modes.

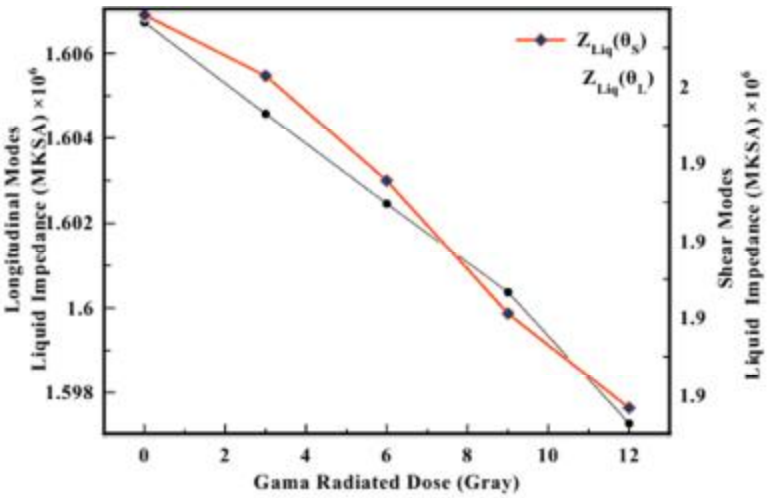

Fig 3 variations of longitudinal and shear liquid impedance with gamma irradiated dose rate.

3.2 GAMMA-IRRADIATION EFFECTS ON ACOUSTIC SIGNATURE V(Z)

Acoustic signatures, or V(z), can be either measured experimentally or determined theoretically. In the present investigation, we considered the latter case via the application of Eq. 5 deduced by the angular spectrum model [18]. In Fig. 4, we illustrate the calculated acoustic signatures for a 50° lens opening angle, a frequency of 140 MHz and water coupling. It can be seen that there are strong oscillations, where a series of periodic maxima and minima occurs, characterized by a period Δ(z). This region is characteristic of the sample's acoustic properties. The patterns vary with the material doping, as do the depths of the minima and the relative magnitude of the maxima which on Ag doping as well.

Acoustic materials signatures, V(z), are the most important parameter that can be experimentally measured by a scanning acoustic microscope. Using equation (1) and previously determined the curves of (Fig. 2a and Fig. 2b), we deduced the acoustic signatures that are illustrated in Fig.4.It can clearly be seen that all the curves exhibit a series of regular periodical oscillations due to constructive and destructive interference between different propagating modes in different Gama irradiated dose rate. However, a close look show that as the Gama irradiated dose rate increases we notice a change in V(z) amplitudes as well as in periods. Moreover, The difference between two

successive minima (or maxima) is known as the spatial period, Δz, related to the velocity of the propagating mode byEq. 4. Thus, it is obvious that the spatial period Δz decreases gradually from Gama irradiated dose 47.5 to 43.4 and the amplitude of V(z) output increases. The deduced values reported in Table 3.

Table 3. Calculated of elastic parameters of Barium Lead Borosilicate Glass BaO-PbO–20B2O3–30SiO_2

Mode				Rayleigh			Longitudinal		
Dose (Gray)				θ_R (deg.)	Δz (μm)	V_R (m/s)	θ_L (deg.)	Δz (μm)	V_L (m/s)
0				47.5	39.7	2991	21	80.1	4172
3				46.7	40.8	3029	20.8	81.0	4195
6	45.7	41.1	3039	20.6	82.6		4236		
9	44.6	41.8	3063	20.4	85.0		4295		
12	43.4	42.4	3084	20.1	87.1		4344		

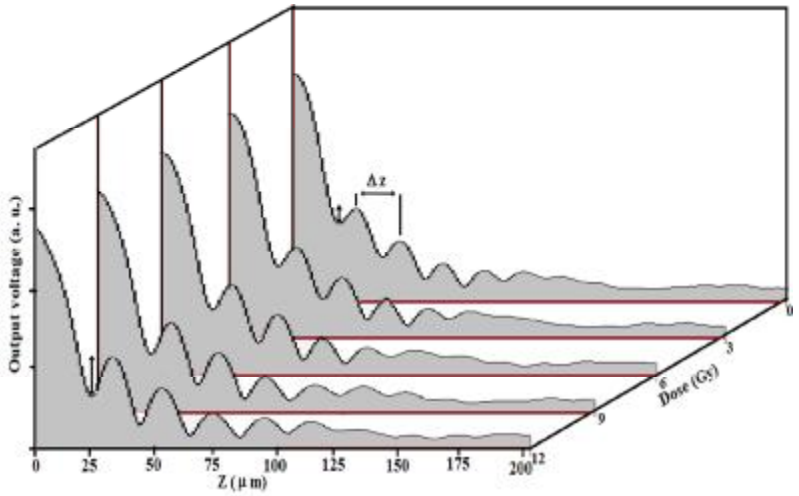

Fig. 4V(z) Acoustic materials signatures of BaO-PbO–20B2O3–30SiO2 at different dose

3.3 GAMMA-IRRADIATION EFFECTS ON WAVE VELOCITIES.

To analyze and quantify acoustic signature of Fig. 4, we first subtract the effect of the acoustic lens signal from these curves to obtain the real material signatures. The variations in Δz is better put into evidence by the spectral treatment of V(z) periodic signals Fig. 4and Fig.5 via fast Fourier transform analysis. Representative obtained results displayed in Fig. 6. Similar behaviors were obtained as those of Rayleigh modes for different Gama irradiated dose and its related attenuation of the propagation mode for different parameters: changes of spatial periods, longitudinal critical angles, changes in positions of FFT principal rays, variations in peak heights and variations in the values of longitudinal velocities Fig. 6. All these was observations reported.

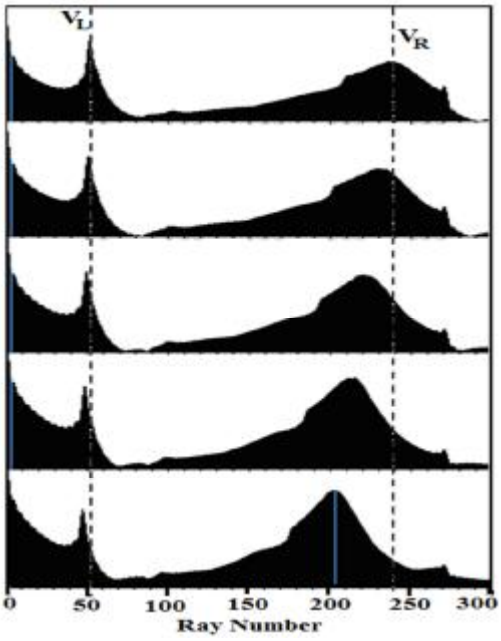

Fig. 5 FFT spectra of BaO-PbO–20B2O3–30SiO2 at different gamma irradiated dose rate

gamma irradiated dose rate

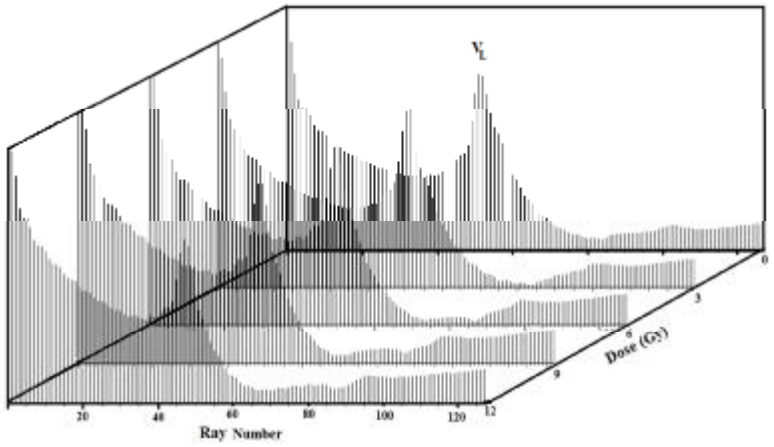

Fig. 6 longitudinal velocities from FFT spectra of BaO-PbO–20B2O3–30SiO2 at different

4 CONCLUSIONS

in conclusion, irradiation affected the structure of the glass samples by damaging and/or breaking of bonds, leading to the increased formation of bao-pbo. the results of elastic properties of the glass samples indicated bond distortion by gamma irradiation. it was found that, as Gama radiation dose rate increases, longitudinal velocities vary from 4172 to 4344 m/s whereas Rayleigh velocities vary from 2991 to 3084 m/s. The increase of the ultrasonic velocity Vl and Vs with increasing BaO content, is attributed to the increase in connectivity of the network structure. The values of the theoretical bond compression model were calculated for asseveration of the obtained results. The agreement between the theoretically calculated and experimental elastic moduli is excellent for the studied sample.

5 REFERENCE

[1] F.H. ElBatal, M.S. Selim, S.Y. Marzouk, M.A. Azooz, "UV–vis absorption of the transition metal-doped SiO 2–B 2O 3–Na 2O glasses", Phys. B vol. 398, pp. 126–134, 2007.

[2] Neuville, D.R., Cormier, L., Boizot, B., Flank, Anne-Marie, 2003. Structure of β-irradiated glasses studied by X-ray absorption and Raman

spectroscopies. J. Non-Cryst. Solids 323, 207–213.

[3] Devine, R.A.B., 1994. Macroscopic and microscopic effects of radiation in amorphous SiO2. Nucl. Instrum. Methods B 91, 378–390.

[4] Kaur, R., Singh, S., Pandey, O.P., 2013. Influence of CdO and gamma irradiation onthe infrared absorption spectra of borosilicate glass. J. Mol. Struct. 1049,409–413.

[5] Abdelghany, A.M., ElBatal, F.H., ElBatal, H.A., EzzElDin, F.M., 2014. Optical and FTIRstructural studies of CoO-doped sodium borate, sodium silicate and sodiumphosphate glasses and effects of gamma irradiation-a comparative study. J. Mol.Struct. 1074, 503–510.

[6] AbdelAziz, T.D., EzzElDin, F.M., ElBatal, H.A., Abdelghany, A.M., 2014. Optical and FTInfrared spectral studies of vanadium ions in cadmium borate glass and effectsof gamma irradiation. Spectrochim. ActaA 131, 497–501.

[7] N.A. Abd El-Malak, "Ultrasonic studies on irradiated sodium borate glasses",. Mater. Chem. Phys. vol. 73, pp. 156–161, 2002.

[8] E. I. Kamitsos, M. A. Karakassides and G. D. Chryssikos,"Vibrational Sp Raman and Mid-Infrared Investigation of the Network Structure," *Journal of Physical Chemistry*, Vol. 91, No. 5, pp. 1073-1079,1987.

[9] E. I. Kamitsos, "Infrared Studies of Borate Glasses," Journal of Physical Chemistry of Glasses, Vol. 4 , pp. 79-87,2003.

[10] C.Gautam, A. K. Yadav, V. K. Mishra, K. Vikram," Synthesis, IR and Raman Spectroscopic Studies of (Ba,Sr)TiO3 Borosilicate Glasses with Addition of La2O3" Open Journal of Inorganic Non-metallic Materials, , Vol. 2, pp. 47-54, 2012.

[11] A. Hesham, M. Samier,"Ultrasonic velocity and elastic moduli of heavy metal tellurite glasses". Mater. Chem. Phys. vol.80, pp.517–523, 2003..

[12] A. Chahine, M. Et-tabirou, J.L. Pascal, "FTIR and Raman spectra of

theNa2O–CuO–Bi2O3–P2O5 glasses", Mater. Lett. vol. 58, pp.2776–2780, 2004.

[13] R. El-Mallawany,A. Abousehly, A. A. El-Rahamani, E. Yonsef,."Radiation effect on the ultrasonic attenuation and internal friction of tellurite glasses". Mater. Chem. Phys. vol.52, pp.161–165, 1998.

[14] R. El-Mallawany, N. El-Khoshkhany,H. Afifi,"Ultrasonic studies of $(TeO_2)50–(V2O5)50x(TiO_2)x$ glasses. Mater. Chem. Phys. vol.95,pp. 321–327, 2006.

[15] M. S. Gaafar, S. Y. Marzonk, "Mechanical and structural studies on sodium borosilicate glasses doped with Er $2O_3$ using ultrasonic velocity and FTIR spectroscopy",Physica B vol.388, pp.294–302, 2007.

[16] F. M. EzzEldin, N. A. El-Alaily, H. A. Elbatal,"Density and refractive index of some c-irradiated alkali silicate glasses. J. Radio-AnaI",Nucl. Chem. vol. 63 (2), pp.267–275, 1992.

[17] Z. Yu, "Scanning acoustic microscopy and its applications to material characterization", Rev Mod Phys. Vol. 67, pp. 863–891, 1995.

[18] E. Schreiber, H.G.K. Sundar, K.J. Rao, J. Chem. Soc., Faraday Trans. 180 ,1984 , pp. 3491.

[19] Briggs A 1992 "Acoustic Microscopy" (Oxford: Clarendon Press).

[20] I. Al-Suraihy, A. Doghmane, Z. Hadjoub,"Damage and Fracture Mechanics", edited by Boukharoubaet. al. Springer science, pp. 415, 2009.

[21] A. Doghmane, I. Al-Suraihy, I. Hadjoub, Z. Hadjoub, Materials Science and Engineering vol. 28, pp. 012037, 2012.

[22] I. Al-Suraihy, A. Doghmane, Z. Hadjoub, "Ultrasonic Characterization of Co-Additives Effects on Elastic Moduli and Acoustic Properties of Li1-xCoxFe2O4",Advanced Materials Research, vol. 811, pp 77-82,2013

[23] A. Doghmane, z. Hadjoub, "Theoretical and experimental investigation of acoustic signatures of materials using scanning microscopes with

variable lens illumination". J Phys DApplPhys vol. 30, pp. 2777–2782, 1997.

[24] R. Laopaiboon, C. Bootjomchai, M. Chanphet, J. Laopaiboon,"Elastic properties investigation of gamma-radiated barium lead borosilicate glass using ultrasonic technique", Annals of Nuclear Energy vol. 38, 2333–2337, 2011.

[25] N. Singh, K. J. Singh, K. Singh, H. Singh, "Comparative study of lead borate and bismuth lead borate glass system as gamma-radiation shielding materials", Nucl. Instrum. Methods B vol.225, pp.305–309, 2004.

[26] R. Laopaiboon, C. Bootjomchai, M. Chanphet, J. Laopaiboon,"Elastic properties investigation of gamma-radiated barium lead borosilicate glass using ultrasonic technique", Annals of Nuclear Energy vol. 38, 2333–2337, 2011.

[27] Lell E, Kreidl N J &Hensler J R, pp 1-93 in Progress in Ceramic Science, Vol 4, Ed J D Burke, (Perganon Press, Oxford), 1966.

[28] E. J.Friebele, D. L.Griscom, in Treatise on Materials Science & Technology, Vol 17, Ed R H Doremus, M.Tomozawa, (Academic Press, New York) pp 257-351, 1979.

[29] J. Newman, Electrochemical Systems, 2nd ed., Prentice-Hall, Englewood Cliffs, NJ, 1991.

[30] A.R. Hillman, in: R.G. Linford (Ed.), Electrochemical Science and Technology of Polymers, vol. 1, Elsevier, Amsterdam, 1987, Ch. 5.

[31] B. Miller, Proc. 6th Australian Electrochem. Conf., Geelong, Vic., 19-24 Feb., 1984; J. Electroanal. Chem., 168 (1984) 91.